القول المفيد

على

كتاب التوحيد

شرح فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

اعتنى به جمعًا وترتيبًا وتصويبًا، وعزا آياته
وخرّج أحاديثه، ووضع فهارسه، وأشرف على طبعه

د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل   د. خالد بن علي بن محمد المشيقح

الجزء الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

لقد أذنت للشيخين الفاضلين (سليمان بن عبد الله أبا الخيل وخالد بن علي المشيقح) أن يقوما بتصحيح مؤلفنا المسمى (القول المفيد على كتاب التوحيد) وهو مجموع من شرحنا كتاب التوحيد للطلبة وأن يخرجا أحاديث الشرح والأصل ويرقما ما فيهما من الآيات ويحذفا ما فيه من تكرار أونحوه مما وقع أثناء الشرح وأن يتوليا طبعه ونشره مع الحرص التام على تصحيح الطبع وأن لا يحتفظا بحقوق الطبع ممن أراد طبعه وتوزيعه مجانا. وأسأل الله تعالى أن يثيبهما على ذلك ويتقبل منا جميعا وينفع به كل نفع بأم صلة إنه قريب مجيب. كتبه محمد الصالح العثيمين في ٢٢/٧/١٤١٤هـ

محمد العثيمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العَالمين قَيوم السَّموات والأرضين، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شَريكَ له إله الأولين والآخِرين، وأشهدُ أن محمَّداً عبدُه ورَسولُه المبعوث بتوحيدِ ربِّ العَالَمين صلَّى الله عَليه وعَلى آله وأَصحَابه، ومن تَبِعهم بإحسَانٍ، وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعـدُ : فإن كتابَ التَّوحيدِ للإمام الدَّاعيةِ الشيخِ مُحمَّد بن عبْد الوهَّاب ت(١٢٠٦هـ) رحمه الله، وأجْزَل له الأجْرَ والثَّوابَ، وضَّحَ فيه التوحيدَ الّذي أوْجَبه الله عَلى عِبادِه، وخلقَهم لأجْله، ولأجْله أرسَلَ رسُلَه وأنْزَل كتبَه، وذكرَ فيه مَا يُنافي أصلَه من الشِّرك الأكبر، أو كمَالَـه الواجب من الشِّرك الأصغرِ والبِدَع فصار بَديعاً لم يُسبَقْ إليه، عَلَماً للموحِّدين، وحُجَّةً على الوثنِيِّين والخُـرَافيِّين، وعَمَّ النفعُ به، فاشتَغلَ به العلماءُ بالشَّرح والتَّدْريس، فتَصدَّى لشرحه جماعةٌ من العلماءِ الجهابذةِ النُّبلاءِ، وأوَّلُ من تَصدَّى لشرْحه وأجادَ حفيدُه: الشيخُ سليمانُ بن الشَّيخِ عبدِ الله في كِتَابـه تيسيرِ العزيزِ الحميد، والشيخُ عبدُ الرحمنِ بنُ حسن في كتابه فتح المجِيد، وللشيخ حمد بن عتيق حاشِيةٌ عليه مُفيدةٌ، وكذلك حاشية الشيخ عبدالله أبـا بطين، وحاشيةُ الشيخ عبد الرحمَن بن قَاسِم، وحاشية الشَّيخ عبد الرحمنَ السعدي، وغيرها، وللشيخ عبد الله الدويش شَرحُ مسائِلِ كتابِ التوحيد.

وقد شَرح شيخُنا محمَّدُ بنُ صَالح العثيمين حفظه الله (كتاب التوحيد) ضِمْن دروسِه التي يُلقِيها على طَلبتِه في المسجدِ الجامعِ الكبيرِ بمدينة عُنيْزة عمَّرها الله بطاعته.

ولِمَا تضمَّنه شَرحُ الشيخِ ـ حفظه الله ـ من الفَوائِد، وتَوضِيحِ المعاني، وشَرْحِ الألفاظِ، والتَّقْسيماتِ البديعة كانت الرغبة الملحَّة من كَثيرٍ من طلبَةِ العِلْم في اسْتنسَاخ هذا الشَّرح من الأشرطة، ليتَسنَّى طبعُه، وبعد نسخِه من الأشرطة قُرِيء على الشيخِ ـ حفظه الله ـ فاستكمَلَ ما كان في المذكِّرات من نقص، وقد وفَّقنا الله للعنايَةِ بهذا الشَّرحِ وإخراجِه مطبوعاً! ليعُمَّ النفعُ به، وتكمُل الفائدةُ، ويسهل الرجوعُ إلى مسائله، وقد كان عملنا كما يلي:

١ ـ جَمع الكتابِ وترتيبه، وبَذْل الجهدِ في إخراجِه منقَّحاً وسَليماً.

٢ ـ إضَافة مَتْنِ كتابِ التَّوحِيدِ أعْلَى الصَّفحة.

٣ ـ عزْو الآيَات القُرآنية.

٤ ـ تَخْريج الأحَاديثِ والآثار، وإن كان الحديثُ في الصحيحين أو أحَدِهما اكتُفِيَ بالعزوِ إليهما، وقد استَفَدْنا من كتابِ النهجِ السَّديدِ كثيراً.

٥ ـ وضْع فهرْسٍ لمسائِلِ الكتابِ ومَبَاحِثِه.

٦ ـ وضْع فَهارِسَ للآيات والأحاديث الواردة في الكتاب.

وبعد، فإن كان عمَلُنا صواباً فمِنَ الله وله الحَمْدُ والشُّكرُ، وإن كان غيرَ ذلك فمِنَّا، ولا نُنكِره، غير أنَّنا لَمْ نَتعمَّده، ونسألهُ سبحانه العفوَ والمغفرةَ، والمنصِفُ من اغْتَفر قليلَ خطأِ المرءِ في كثيرِ صوابه.

ونشكر كُلَّ من رأى تقْصِيراً في إخراجِ هذا الشَّرح فساعَدَنا على استدراكه، نسأل الله أن ينفع به كما نفع بأصله إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

كتب ذلك كل من

سليمان بن عبد الله أبا الخيل

وخالد بن على المشيقح

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين، وعليه أتوكل

تعريف التوحيد:

في اللغة: مشتق من وحّد الشيء إذا جعله واحدًا، فهو مصدر وحّد يوحد، أي جعل الشيء واحدًا.

وفي الشرع: إفراد الله سبحانه بما يختص به من الربوبية، والألوهية والأسماء والصفات.

أقسامه:

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١ - توحيد الربوبية.

٢ - توحيد الألوهية.

٣ - توحيد الأسماء والصفات.

القسم الأول: توحيد الربوبية:

هو إفراد الله عز وجل بالخلق، والملك، والتدبير.

فإفراده بالخلق: أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله.

قال تعالى: ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾(١). فهذه الجملة تفيد

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

الحصر لتقديم الخبر، إذ أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر[1].

وقال تعالى: ﴿**هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض**﴾[2]. فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله.

أما ما ورد من إثبات خالق غير الله كقوله تعالى: ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾. وكقوله، ﷺ، يقال لهم ـ أي للمصورين ـ: «**أحيوا ما خلقتم**»[3].

فهذا ليس خلقًا حقيقة، وليس إيجادًا بعد عدم، بل هو تحويل

---

(١) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١/٩٢: «وأما النوع الثاني فالشرك في الربوبية فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر، المعطي المانع، النافع الضار، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي، أو المانع، أو الضار، أو النافع، أو المعز، أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته.

ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر إلى المعطي الأول فيشكره على ما أولاه من النعم، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه لقوله عليه السلام: «**من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه**...» فالله سبحانه هو المعطي على الحقيقة فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها وساقها إلى من يشاء من عباده.... ومما يقوي هذا المعنى قوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك....» فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله، ولا يضر غيره، وكذا جميع ما ذكرنا في مقتضى الربوبية.

فمن سلك هذا المسلك استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم... وتجرد التوحيد في قلبه فقوي إيمانه، وانشرح صدره، وتنور قلبه... ولهذا قال الفضيل بن عياض: «من عرف الناس استراح» يريد ـ والله أعلم ـ أنهم لا ينفعون ولا يضرون».

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٣) من حديث ابن عمر أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب اللباس/ باب عذاب المصورين يوم القيامة ١٠/٢٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/١٦٧٠.

للشيء من حال إلى حال، وأيضًا ليس شاملاً، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه، ومحصور بدائرة ضيقة، فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

وأما إفراد الله بالملك:

فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم كما قال تعالى: ﴿**ولله ملك السموات والأرض**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**قل من بيده ملكوت كل شيء**﴾[2].

وأما ما ورد من إثبات المُلْكِية لغير الله كقوله تعالى: ﴿**إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين**﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**أو ما ملكتم مفاتحه**﴾[4]. فهو مُلْك محدود لا يشمل إلا شيئًا يسيرًا من هذه المخلوقات، فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يَمْلِك ما تحت يد غيره، وكذا هو مُلك قاصر من حيث الوصف، فالإنسان لا يَمْلِك ما عنده تمام المُلك، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أُذن له فيه شرعًا.

فمثلاً: لو أراد أن يحرق ماله، أو يعذب حيوانه، قلنا: لا يجوز. أمّا الله سبحانه فهو يَملك ذلك كله مُلكًا عَامًّا شاملاً.

وأما إفراد الله بالتدبير:

فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مُدَبر إلا الله وحده.

وأما تدبير الإنسان فمحصور بما تحت يده، ومحصور بما أذن له فيه شرعًا.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٦.

(٤) سورة النور، الآية: ٦١.

وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بُعِثَ فيهم الرسول، ﷺ، بل كانوا مقرين به قال تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم**﴾[1].

فهم يُقِرُّون بأن الله هو الذي يدبر الأمر، وهو الذي بيده ملكوت السموات والأرض.

ولم ينكره أحدٌ معلوم من بني آدم، فلم يقل أحد من المخلوقين: إن للعالَم خالِقَيْنِ متساويين.

فلم يجحد أحد توحيد الربوبية لا على سبيل التعطيل، ولا على سبيل التشريك، إلا ما حصل من فرعون فإنه أنكره على سبيل التعطيل مكابرة، فإنه عطل الله من ربوبيته وأنكر وجوده قال تعالى حكاية عنه: ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى**﴾[2]. ﴿**ما علمت لكم من إلـٰه غيري**﴾[3].

وهذا مكابرة منه لأنه يعلم أن الرب غيره كما قال الله تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا**﴾[4]. وقال تعالى حكاية عن موسى وهو يناظره: ﴿**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض**﴾[5]. فهو في نفسه مُقِرٌّ بأن الرب هو الله عز وجل.

وأنكر توحيد الربوبية على سبيل التشريك المجوس حيث قالوا: إن للعالَم خَالِقَينِ هما الظلمة، والنور، ومع ذلك لم يجعلوا هذين الخالقين متساويين.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٩.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٤.
(٣) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ١٠٢.

فهم يقـولـون: إن النـور خير من الظلمة، لأنه يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر، والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر.

وأيضًا: فإن الظلمة عدم لا يضيء، والنور وجود يضيء، فهو أكمل في ذاته.

ويقولون أيضًا بفرق ثالث وهو: أن النور قديم على اصطلاح الفلاسفة واختلفوا في الظلمة هل هي قديمة، أو محدثة؟ على قولين.

دلالة العقل على أن الخالق للعالم واحد:

قال الله تعالى: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلـه إذًا لذهب كل إلـه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض**﴾[1].

إذ لو أثبتنا للعالم خالقين لكان كل خالق يريد أن ينفرد بما خلق ويستقل به كعادة الملوك، إذ لا يرضى أن يشاركه أحد.

وإذا استقل به فإنه يريد أيضًا أمرًا آخر، وهو أن يكون السلطان له لا يشاركه فيه أحد.

وحينئذٍ إذا أراد السلطان، فإما أن يعجز كل واحد منهما عن الآخر، أو يسيطر أحدهما على الآخر، فإن عجز أحدهما عن الآخر ثبتت الربوبية للقادر، وإن عجز كل منهما عن الآخر زالت الربوبية منهما جميعًا، لأن العاجز لا يصلح أن يكون ربًا.

القسم الثاني: توحيد الألوهية:

ويقال له: توحيد العبادة باعتبارَين، فباعتبار إضافته إلى الله يسمى: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى توحيد العِبَادة.

وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة.

---

(١) سورة المؤمنون، الأية: ٩١.

فالمستحق للعبادة هو الله تعالى. قال تعالى: ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل**﴾(١).

والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد فهي بمعنى التذلل لله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه محبة وتعظيمًا.

الثاني: المتعبد به فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة.

مثال ذلك: الصلاة ففعلها عبادة، وهو التعبد.

ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبد به.

فإفراد الله بهذا التوحيد: أن تكون عبدًا لله وحده تفرده بالتذلل محبة وتعظيمًا.

قال تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾(٣) فَوَصْفُه سبحانه بأنه رب العالَمين كالتعليل لثبوت الألوهية له، فهو الإله؛ لأنه رب العالَمين، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم**﴾(٤). فالمنفرد بالخلق هو المستحقّ للعبادة.

إذ من السفه أن تَجعل المخلوق الحادث الآيل للفناء إلـهًا تعبده فهو في الحقيقة لن ينفعك لا بإيجاد ولا بإعداد، ولا بإمداد، فمن السَّفه

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١.

أن تأتي إلى قبر إنسان صار رميمًا تدعوه، وتعبده، وهو بحاجة إلى دعائك، وأنت لست بحاجة إلى أن تدعوه. فهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فكيف يملكه لغيره؟!!

ولو كان أرفع البشر عند الله مرتبة، وهو النبي ﷺ. قال الله تعالى: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾[1].

وهذا القسم كَفَرَ به، وجَحَدَه عامَّةُ الخَلْق، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب قال الله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلـه إلا أنا فاعبدون**﴾[2].

ومع هذا فأتْباعُ الرسل قلة قال عليه الصلاة والسلام: «**فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»[3].

تنبيه:

من العجب أن أكثر المُصَنِّفين في علم التوحيد من المتأخرين يُركزون على توحيد الربوبية، وكأنما يخاطبون أقوامًا ينكرون وجود الرب ـ وإن كان يوجد من ينكر الرب ـ لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة.

ولهذا ينبغي أن يُركز على هذا النوع من التوحيد حتى نخرج هؤلاء المسلمين الذين يقولون: بأنهم مسلمون، وهم مشركون، ولا يعلمون.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٣) من حديث ابن عباس أخرجه البخاري ـ كتاب الطب/ باب من اكتوى أو كوى غيره ١٠/١٥٥، ومسلم كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ١/١٩٩.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

وهو إفراد الله عز وجل بِمَا لَهُ من الأسماء والصفات.

وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثبات، وذلك بأن نثبت لله عز وجل جميع أسمائه وصفاته.

الثاني: نفي المماثلة وذلك بأن لا نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾(١).

فدلّت هذه الآية على أن جميع صفاته لا يماثله فيها أحد من المخلوقين فهي وإن اشتركت في أصل المعنى، لكن تختلف في حقيقة الحال. فمن لم يثبت ما أثبته الله لنفسه فهو معطل، وتعطيله هذا يشبه تعطيل فرعون، ومن أثبتها مع التشبيه صار مشابهًا للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ومن أثبتها بدون مماثلة صار من الموحدين.

وهذا القسم من التوحيد هو الذي ضلّت فيه بعض الأمة الإسلامية وانقسموا فيه إلى فرق كثيرة، فمنهم من سلك مسلك التعطيل فعطّل ونفى الصفات زاعمًا أنه مُنزِّه لله، وقد ضل؛ لأن المنزّه حقيقة هو الذي ينفي عنه صفات النَّقص والعيب، وينزه كلامه من أن يكون تعمية وتضليلاً، فإذا قال: بأن الله ليس له سمع، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة لم ينزه الله، بل وصَمَه بأعيب العيوب، ووصم كلامه بالتعمية والتضليل؛ لأن الله يكرر ذلك في كلامه، ويثبته ﴿**سميع بصير**﴾ ﴿**عزيز حكيم**﴾ ﴿**غفور رحيم**﴾. فإذا أثبته في

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

كلامه، وهو خال منه كان في غاية التعمية والتضليل، والقدح في كلام الله عز وجـل، ومنهم من سلك مسلك التمثيل زاعـمًا بأنه محقق لما وصف الله به نفسه، وقد ضلوا لأنهم لم يقدروا الله حق قدره إذ وصموه بالعيب والنقص، لأنهم جعلوا الكامل من كل وجه كالناقص من كل وجه.

وإذا كان تفضيل الكامل على الناقص يحط من قدره، فكيف بتمثيل الكـامل بالناقص؟! وهذا أعظم ما يكون جناية على الله عز وجل، وإن كان المعطلون أعظم جرمًا لكن الكل لم يقدر الله حق قدره.

فالواجب: أن نؤمن بما وصف الله وسمّى به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله، ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وغيره من أهل العلم.

فالتحريف في النصوص، والتعطيل في المعتقد، والتكييف في الصفة، والتمثيل في الصفة، إلا أنه أخص من التكييف.

فيجب أن تبرأ عقيدتنا من هذه الأمور الأربعة.

ونعني بالتحريف هنا: التأويل الذي سلكه المحرّفون لنصوص الصفات، لأنهم سمّوا أنفسهم أهل التأويل، لأجل تلطيف المسلك الذي سلكوه؛ لأن النفوس تنفر من كلمة تحريف، لكن هذا من باب زخرفة القول وتزيينه للناس، حتى لا ينفروا منه.

وحقيقة تأويلهم: التحريف، وهو صرف اللفظ عن ظاهره،

فنقول: هذا الصرف إن دل عليه دليل صحيح فليس تأويلاً بالمعنى الذي تريدون لكنه تفسير.

وإن لم يدل عليه دليل فهو تحريف، وتغيير للكَلِم عن مواضعه فهؤلاء الذين ضلوا بهذه الطريقة، فصاروا يثبتون الصفات لكن بتحريف قد ضلوا، وصاروا في مقابلة أهل السنة والجماعة.

وعليه لا يمكن أن يوصفوا بأهل السنة والجماعة؛ لأن الإضافة تقتضي النِّسْبَة، فأهل السنة منتسبون للسنة؛ لأنهم متمسكون بها، وهؤلاء ليسوا متمسكين بالسنة فيما ذهبوا إليه من التحريف.

وأيضًا الجماعة في الأصل: الاجتماع، وهم غير مجتمعين في آرائهم ففي كتبهم التداخل، والتناقض، والاضطراب حتى إن بعضهم يضلل بعضًا، ويتناقض هو بنفسه.

وقد نقل شارح الطحاوية عن الغزالي، وهو ممن بلغ ذِرْوَةَ علم الكلام كلامًا إذا قرأه الإنسان تبين له ما عليه أهل الكلام من الخطأ والزَّلل، والخطل، وأنهم ليسوا على بيّنة من أمرهم[1].

وقال الرازي وهو من رؤسائهم:

نهاية إقدام العقول عِقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما

---

(١) شرح الطحاوية ١/٢٤٥، وانظر أيضاً: درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٢، والإحياء ١/٩٤-٩٧.

رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القـرآن، أقرأ في الإثبات ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[1]. ﴿**إليه يصعـد الكلم الـطيب**﴾[2]. يعني فأثبت، واقـرأ في النفي: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[3]. ﴿**ولا يحيــطون به علمًا**﴾[4] يعني فأنفي المماثلة، وأنفي الإحاطة به علمًا، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[5].

فتجدهم حيارى مضطربين ليسوا على يقين من أمرهم[6]، وتجد من هداه الله الصراط المستقيم مطمئنًا منشرح الصدر، هادىء البال، يقـرأ في كتـاب الله، وفي سنة رسوله، ﷺ، ما أثبته الله لنفسه من الأسماء، والصفات، فيُثْبِتُ إذ لا أحد أعلم من الله بالله، ولا أصدق خبرًا من خبر الله، ولا أَصـح بيانًـا من بيان الله كما قال الله تعالى:

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/١٥٩، ١٦٠، والفتاوى ٤/٧١، وشرح الطحاوية ١/٢٤٤، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/٨٢.

(٦) وقال أبو المعالي الجويني: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به» وقال عند موته: «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الـذي نهوني عنـه والآن إن لم يتـداركني ربي برحمتـه فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمتي، أو قال على عقيدة عجائز نيسابور». انظر: شرح الطحاوية ١/٢٤٥، وتلبيس إبليس ص(٩٠)، وصون المنطق ص(١٨٣)، وفتح الباري ١٣/٣٥٠.

﴿**يريد الله ليبين لكم**﴾[1] . ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا**﴾[2] . ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء**﴾[3] .

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن الله يبين للخَلْق غاية البيان الطريق التي توصلهم إليه، وأعظم ما يحتاج الخَلْق إلى بيانه ما يتعلق بأسماء الله وصفاته حتى يعبدوا الله على بصيرة؛ لأن عبادة من لم نعلم صفاته، أو من ليس له صفة أمر لا يتحقق أبدًا، فلابد أن تعلم من صفات المعبود ما تجعلك تلتجيء إليه، وتعبده حقًّا.

ولا يتجاوز الإنسان حدَّه إلى التكييف؛ لأنه إذا كان عاجزًا عن تصوّر نفسه التي بين جنبيه فمن باب أولى أن يكون عاجزًا عن تصور حقائق ما وصف الله به نفسه، ولهذا يجب على الإنسان أن يمنع نفسه عن السؤال بـ (لِمَ) و(كيف) فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته.

وكذا يمنع نفسه من التفكير بالكيفية.

وهذا الطريق إذا سلكه الإنسان استراح كثيرًا، وهذه حال السلف رحمهم الله، ولهذا لما جاء رجل إلى مالك بن أنس رحمه الله قال: يا أبا عبدالله ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ كيف استوى؟ أطرق برأسه وقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا».

أما في عصرنا الحاضر فنجد من يقول: إن الله ينزل إلى السماء

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٩.

الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة، فيلزم من هذا أن يكون كل الليل في السماء الدنيا؛ لأن الليل يمشي على جميع الأرض فالثلث ينتقل من هذا المكان إلى المكان الآخر، وهذا لم يقله الصحابة رضوان الله عليهم، ولو كان هذا يرد على قلب المؤمن لبينه الله ورسوله ﷺ، إما ابتداء، أو يقيض من يسأل عنه فيجاب كما سأل الصحابة رسول الله، ﷺ، أين كان الله قبل أن يخلق السموات والأرض فأجابهم[1].

فهذا السؤال العظيم يدل على أن كلَّ ما يحتاج إليه الناس فإن الله يبينه.

والجواب عن الإشْكَال في حديث النزول[2]: أن يقال: ما دام ثلث الليل الأخير في هذه الجهة باقيًا، فالنزول فيها مُحَقّق، وفي غيرها نحن لا ندركه، والله عز وجل ليس كمثله شيء. لكن ظاهر الحديث أن وقت النزول ينتهي بطلوع الفجر.

وعلينا أن نستسلم، وأن نقول سمعنا، وأطعنا، واتبعنا، وآمنا فهذه وظيفتنا.

---

(١) من حديث عمران بن حصين، رضي الله عنهما، وفيه: «جئنا نسألك عن هذا الأمر قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء» رواه البخاري، كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق﴾ ١/ ٤١٨.

ومن حديث أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله! أين ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء». رواه الترمذي، التفسير رقم (٣١٠٨) وقال: حسن، وابن ماجه في المقدمة رقم (١٣)، وأحمد في المسند ٤/ ١١، ١٢.

(٢) من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد/ باب الدعاء والصلاة آخر الليل. رقم ١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤، ومسلم كتاب صلاة المسافرين/ باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل ١/ ٥٢١.



قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

كتاب التوحيد

وقول الله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاَّ ليعْبُدُونِ﴾[1]. الآية.

سبق تعريف التوحيد[2].

لم يأت المؤلف رحمه الله بخطبة ومقدمة للكتاب، واكتفى بالترجمة؛ لأنَّك بمجرد أن تقرأ عنوان الكتاب تعرف أن موضوعه هو التوحيد.

قوله: ﴿ما﴾ نافية.

قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ استثناء مُفرَّغ من أعمِّ الأحوال، أي: ما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة.

واللام في قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ للتعليل، وهذا التعليل لبيان الحكمة من الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول، إذ لو كان كذلك لَلَزِمَ أن يكون الخلق كلّهم عبادًا لله يتعبدون له وليس الأمر كذلك.

فهذه العلّة غائيَّة، وليست مُوجبة.

فالعلّة الغائيَّة لبيان الغاية والمقصود من هذا الفعل، أنَّها قد تقع، وقد لا تقع.

مثل: بريتُ القلم لأكتبَ به،فقد تَكتُبْ، وقد لا تَكْتُبْ.

والعلّة الموجبة معناها: أنَّ المعلول مبنيٌّ عليها، فلابدَّ أن تقع، وتكون سابقة للمعلول، وملازمة له.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦. (٢) ص (٥).

. . . .

مثل: انْكَسَرَ الزُجاج لشدَّة الحَرِّ.

قوله: ﴿خلقت﴾ أي: أوجدت، وهذا الإيجاد مسبوق بتقدير، وأصل الخلق التقدير.

قال الشاعر:

ولأنــت تفــري ما خلقــت　　　وبعض القـوم يخلق ثم لا يفـري

قوله: ﴿الجن﴾ هم عالمٌ غيبيٌّ مخفيٌّ عنَّا، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون، وهما يدلَّان على الخَفاء والاسْتِتار.

ومنه: الجَنَّة، والجِنَّة، والجُنَّة.

قوله: ﴿الإنس﴾ سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم لا يعيشون بدون إيناس، فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرَّك بعضهم إلى بعض.

قوله: ﴿إلاّ ليعبدونِ﴾ فُسِّر: إلا ليوحِّدون، وهذا حق، وفُسِّرَ: بمعنى يتذلَّلون لي بالطاعة فعلاً للمأمور، وتركًا للمحظور، ومن طاعته أن يُوحَّد سبحانه وتعالى، فهذه هي الحكمة من خلق الجنِّ، والإنس.

ولهذا أعطى الله البشر عقولاً، وأرسل إليهم رُسلاً، وأنزلَ عليهم كُتبًا، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خَلْق البهائم، لضاعت الحكمة من إرسال الرُّسل، وإنزال الكُتب؛ لأنَّه في النهايةَ يكون كشجرة نبتت، ونمت، وتحطَّمت.

ولهذا قال تعالى: **﴿إنَّ الذي فرض عليك القرآن لرآدُّكَ إلى معاد﴾**[1] فلابدَّ أن يردّك إلى معادٍ تُجازى على عملك إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر.

وليست الحكمة من خلقهم نَفْعُ الله، ولهذا قال تعالى: **﴿ما أُريد منهم**

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٥.

وقـولـه تعـالى: ﴿ولقد بَعَثْنا في كلِّ أُمَّةٍ رسولاً أنِ اعبُدُوا الله واجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1].

من رزق وما أُريد أن يُطعمون﴾[2].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضًا حسنًا فيُضاعفه له﴾[3].

فهـذا ليس إقراضًا لله سبحانه، بل هو غنيٌّ عنه، لكنَّه سبحانه شبَّه معاملة عبده له بالقرض؛ لأنَّه لابدَّ من وفائه، فكأنَّه التزامٌ من الله سبحانه أن يُوفِّي العامل أجر عمله كما يُوفِّي المقترض من أقرضه.

قوله: ﴿ولقد﴾ اللام موطئة لقسم مقدَّر.

وقد: للتحقيق.

وعليه فالجملة مؤكَّدة بالقسم المقدَّر، واللام، وقد.

قوله: ﴿بعثنا﴾ أي أخرجنا، وأرسلنا في كل أمة.

والأمة هنا: الطائفة من النَّاس.

وتطلق الأمة في القرآن على أربعة معانٍ:

أ ـ الطائفة: كما في هذه الآية.

ب ـ الإمام: ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ إبراهيم كان أمَّة قانتًا لله﴾[4].

جـ ـ المِلَّة: ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّا وجدنا آباءنا على أمة﴾[5].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

. . . .

د ـ الزَّمن: ومنه قوله تعالى: ﴿ادّكر بعد أُمَّة﴾[1].

فكل أمة بُعِثَ فيها رسولٌ من عهد نوح إلى عهد نبينا محمد ﷺ.

والحكمة من إرسال الرسل:

أ ـ إقامة الحُجَّة: قال تعالى: ﴿**رُسلاً مبشِّرين ومنذرين لئلّا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُّسل**﴾[2].

ب ـ الرحمة: لقوله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين**﴾[3].

ولأنَّ الإنسان لا يعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلّا عن طريق الرُّسل.

قوله: ﴿**أن اعبدوا الله**﴾.

أن: قيل: تفسيريَّة، وهي التي سبقت بما يدلّ على القول دون حروفه كقوله تعالى: ﴿**فأوحينا إليه أن اصنع الفُلك**﴾[4] والوحي فيه معنى القول دون حروفه، والبعث متضمِّنٌ معنى الوحي؛ لأنَّ كلَّ رسول مُوحى إليه.

وقيل: إنَّها مصدريَّة على تقدير الباء، أي: بأن اعبدوا والراجح: الأول لعدمِ التقدير.

قوله: ﴿**أن اعبدوا الله**﴾.

أي: تذلَّلوا له بالعبادة.

وسبق تعريف العبادة[5].

قوله: ﴿**واجتنبوا الطاغوت**﴾.

---

(١) سورة يوسف آية (٤٥).

(٢) سورة النساء آية (١٦٥).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

(٥) ص (٩، ١٠).

. . . .

أي: ابتعدوا عنه بأن تكونوا في جانب، وهو في جانب، والطَّاغوت: مشتقٌ من الطغيان، وهو صفة مشبَّهة، والطغيان: مجاوزة الحدّ كما في قوله تعالى: ﴿**إنَّا لمَّا طغا الماء حملناكم في الجارية**﴾[1] أي: تجاوز حدَّه.

وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله بأنَّه: ما تجاوز به العبد حدَّه من متبوع، أو معبود، أو مُطاع.

ومراده من كان راضيًا بذلك، أو يُقال: هو طاغوت باعتبار عابده، وتابعه، ومُطيعه، لأنَّه تجاوز به حدّه حيث نزَّله فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادته لهذا المعبود، واتّباعه لمتبوعه، وطاعته لمطاعه طغيانًا لمجاوزته الحدَّ بذلك.

فالمتبوع مثل: الكهَّان، والسَّحرة، وعُلماء السوء.

والمعبود مثل: الأصنام.

والمُطاع مثل: الأمراء الخارجين عن طاعة الله، فإذا اتَّخذهم الإنسان أربابًا يُحلُّ ما حرَّم الله من أجل تحليلهم له، ويُحرِّم ما أحلَّ الله من أجل تحريمهم له فهؤلاء طواغيت، والفاعل تابع للطاغوت. قال تعالى: ﴿**ألم ترَ إلى الذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب يُؤمنون بالجِبت والطاغوت**﴾[2].

ولم يقل: إنَّهم طواغيت.

ودلالة الآية على التوحيد: أنَّ الأصنام من الطواغيت التي تُعبد من دون الله.

---

(1) سورة الحاقة، الآية: ١٢.

(2) سورة النساء، الآية: ٥١.

. . . .

والتوحيد لا يتم إلا بركنين هما:

١ ـ الإثبات.

٢ ـ النفي.

إذ النَّفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع المشاركة.

مثال ذلك: زيدٌ قائم، يدلُّ على ثبوت القيام لزيد، لكن لا يدلُّ على انفراده به.

ولم يقم أحد، هذا تعطيل محض.

ولم يقم إلَّا زيد، هذا توحيد له بالقيام؛ لأنَّه اشتمل على إثبات ونفي.

قوله: الآية.

أي: إلى آخر الآية، وتُقرأ بالنَّصب إمَّا على أنَّها مفعول به لفعل محذوف تقديره اكمل الآية.

أو أنها منصوبة بنزع الخافض أي: إلى آخر الآية.

قوله: ﴿**فمنهم من هدى**﴾ أي: من الأمة، وقال: ﴿**منهم**﴾ مع أن الأمة مفرد، لأنها مفرد لفظًا، جمع معنى.

والمراد بالهداية: هداية التوفيق، إذ أن هداية الدلالة ثبتت بإرسال الرُّسل.

فمعنى «هدى الله»: وفّقه الله.

وجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنَّها دالَّة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أُرسلوا به لقوله تعالى: ﴿**أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾.

وقوله: ﴿وقَضَى ربُّكَ أن لا تعبُدوا إلّا إيَّاهُ وبالوالِدَيْنِ إحْسانًا﴾[1]. الآية.

قوله: ﴿**وقضى**﴾ قضاء الله ـ عز وجل ـ ينقسم إلى قسمين:

١ ـ قضاء شرعي.

٢ ـ قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه وعدمه، ولا يكون إلّا فيما يحبه الله.

مثال ذلك: هذه الآية: ﴿**وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه**﴾[2] فتكون قضى: بمعنى: شرع، أو بمعنى: وصَّى، وما أشبههما.

والقضاء الكوني: لابدَّ من وقوعه، ويكون فيما أحبَّه الله، وفيما لا يحبه.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرَّتين ولتعلُنَّ علوًّا كبيراً**﴾[3].

فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله لا يُشرع الفساد في الأرض، ولا يُحبُّه.

قوله: ﴿**أن لا تعبدوا**﴾.

﴿**أن**﴾ هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مُفرَّغ؛ لأن الفعل لم يأخذ مفعوله، فمفعوله ما بعد إلا.

قوله: ﴿**إلّا إيَّاه**﴾ ضمير نصب منفصل واجب الانفصال، لأنَّ المتَّصل لا يقع بعد إلّا قال ابن مالك:

وذو اتصال منه مالا يبتدا ... ولا يلي إلا اختيارًا أبدا[4]

---

(١) (٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤.

(٤) ألفية ابن مالك ص(١٢).

إشكال وجوابه:

إذا قيل: ثبت أن الله قضى كونًا ما لا يحبه، فكيف يقضي الله ما لا يحبه؟

والجواب: أن المحبوب قسمان:

١ ـ محبوب لذاته.

٢ ـ محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهًا لذاته، ولكن يُحبُّ لما فيه من الحكمة والمصلحة، فيكون حينئذٍ محبوبًا من وجه؛ مكروهًا من وجه آخر.

مثال ذلك: الفساد في الأرض من بني إسرائيل في حدّ ذاته مكروه إلى الله؛ لأنَّ الله لا يُحب الفساد، ولا المُفسدين، ولكن للحكمة التي يتضمنها يكون محبوبًا إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ من وجه آخر.

ومن ذلك القحط، والجدب، والمرض، والفقر؛ لأنَّ الله لا يُحب أن يؤذي عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليُسر. لكن يُقدره للحِكم المُترتِّبة عليه، فيكون محبوبًا إلى الله من وجه، مكروهًا من وجه آخر.

قال الله تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلَّهم يرجِعُون**﴾[1].

فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوبًا من وجه مكروهًا من وجه آخر؟

فيقال: هذا الإنسان المريض يعطى جُرعة من الدواء مُرَّة كريهة الرائحة واللون، فيشربها، هو يَكرهها لما فيها من المرارة، واللون، والرائحة، ويحبها لما فيها من الشِّفاء، وكذا الطبيب يكوي المريض بالحديدة المُحمَّاة على النار، ويتألم

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

منها فهذا الألم مكروه له من وجه محبوب له من وجه آخر.

فإن قيل: لماذا لم يكن قوله: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه**﴾ من باب القضاء القدري؟

أُجيب: بأنه لا يمكن إذ لو كانت قضاءً قدريًّا لعَبَدَ الناس ربهم كلهم، لكنه قضاء شرعي قد يقع، وقد لا يقع.

والخطاب في الآية للنبي، ﷺ، لكن قال: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إيَّاه**﴾ ولم يقل: «أن لا تعبد» ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء**﴾[1] فالخطاب الأول للرسول، ﷺ، والثاني عام فما الفائدة من تغيير الأسلوب؟

أُجيب: أن الفائدة من ذلك:

١ ـ التنبيه، إذ تنبيه المخاطب أمر مطلوب للمتكلِّم.

٢ ـ أنَّ النبي، ﷺ، زعيم أمته، والخطاب الموجَّه إليه موجه لجميع الأمَّة.

٣ ـ الإشارة إلى أن ما خُوطب به الرسول، ﷺ، فهو له ولأمته، إلا ما دلَّ الدليل على أنه مختص به.

٤ ـ في هذه الآية خاصية الإشارة إلى أن النبي، ﷺ، مربوب لا ربّ، عابد لا معبود، فهو داخل في قوله: ﴿**تعبدوا**﴾ وكفى به شرفًا أن يكون عبدًا لله ـ عز وجل ـ ولهذا يصفه الله تعالى بالعبودية في أعلى مقاماته، فقال في مقام التحدي والدفاع عنه: ﴿**وإن كنتم في ريب ممَّا نزَّلنا على عبدنا**﴾[2]. وقال في

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

. . . .

مقام إثبات نبوَّته ورسالته إلى الخلق: ﴿**تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده**﴾[1].

وقال في مقام الإسراء والمعراج: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده**﴾[2]. ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾[3].

أقسام العبودية:

تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ عامة، وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق قال تعالى: ﴿**إنْ كلُّ من في السموات والأرض إلاّ آت الرحمن عبدًا**﴾[4] ويدخل في ذلك الكفار.

٢ ـ عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة العامة قال تعالى. ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا**﴾[5] وهذه تعمُّ كل من تعبَّد لله بشرعه.

٣ ـ خاصّة الخاصَّة، وهي عبودية الرُّسل عليهم الصلاة والسلام قال، تعالى عن نوح: ﴿**إنَّه كان عبدًا شكورًا**﴾[6] وقال عن محمد: ﴿**وإن كنتم في ريب ممَّا نزَّلنا على عبدنا**﴾[7] وقال في آخرين من الرُّسل: ﴿**واذكر عبادنا**

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٣) سورة النجم، الآية: ١٠.

(٤) سورة مريم، الآية: ٩٣.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٣.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾[1].

فهذه العبودية المضافة إلى الرسل خاصة الخاصة، لأنه لا يباري أحد هؤلاء الرسل في العبودية.

قوله: **﴿وبالوالدين إحسانًا﴾**.

أي: قضى ربك أن نحسن بالوالدين إحسانًا.

والوالدان: يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلّما قربا منك كانا أولى بالإحسان، والإحسان بَذْلُ المعروف، وفي قوله: **﴿وبالوالدين إحسانًا﴾** بعد قوله: **﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾** دليل على أنَّ حق الوالدين بعد حق الله ـ عزّ وجلّ ـ.

فإن قيل: فأين حقّ الرسول ﷺ؟

أجيب: بأن حق الله متضمِّنٌ لحق الرسول ﷺ، لأنَّ الله لا يُعبد إلاّ بما شَرع الرسول ﷺ.

وقوله: **﴿إمَّا يبلغنَّ عندك الكبر أحدهما، أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ﴾** أي: كفّ الأذى عنهما، ففي قوله: **﴿إحسانًا﴾** بذل المعروف، وفي قوله: **﴿فلا تقل لهما أفٍّ﴾** كف الأذى، ومعنى «أف» أتضجر، لأنك إذا قلته فقد يتأذّيان بذلك. وفي الآية إشارة إلى أنهما إذا بلغا الكبر صارا عبئًا على وَلَدهما، فلا يتضجّر من الحال، ولا ينهرهما في المقال إذا أساءا في الفعل أو القول.

قوله: **﴿وقل لهما قولاً كريمًا﴾** أي: ليِّنًا حسنًا بهدوء، وطمأنينة كقولك: أعظم الله أجرك، أبشري يا أمي، أبشر يا أبي، وما أشبه ذلك. فالقول الكريم يكون في صيغته، وأدائه، والخطاب به، فلا يكون مزعجًا كرفع الصوت مثلاً، بل يتضمَّن الدعاء، والإيناس لهما.

(١) سورة ص، الآية: ٤٦.

وقوله: ﴿واعبُدوا الله ولا تُشْركوا بهِ شيئًا﴾[1]. الآية.

قولـه: ﴿واخفض لهما جناح الذلِّ من الرحمة﴾ أي: تذلَّل لهما، وإنَّما قال: ﴿جناح الذل﴾ لأن الإنسان بطبيعته عنده كبرياء فهذا الجناح الذي يطير به إلى أعلى يخفضه لوالديه.

و﴿من﴾ في قولـه: ﴿من الـرحمة﴾ للتعليل أي: لرحمتهما؛ لأنَّهما بلغا الكبر، وصارا عالة عليك، ويتعبانك فارحمهما.

وقوله: ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾.

أي: توجَّـه إلى الله بالـدعـاء لهما بالرحمة. والكاف هنا للتعليل، وما مصدرية أي: لتربيتهما إيَّايَ صغيراً.

وذكر حال الصغر؛ لأنَّ الإنسان في حال الصِّغر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولكنَّ الأم والأب يتعبـان في الاكتساب له، وتربيته تربية بدنيَّة، ودينيَّة، وخلقيَّة.

الشاهد من هذه الآية: قوله تعالى: ﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾ فهذا هو التوحيد.

قوله: ﴿واعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا﴾,

﴿ولا تشركوا﴾ في مقابل «لا إلـه» لأنها نفي.

وقوله: ﴿واعبدوا﴾ في مقابل «إلا الله».

وقـوله: ﴿شيئًا﴾ نكرة في سياق النهي، فتعمّ كل شيء: لا نبيًّا، ولا ملكًا، ولا وليًّا، بل ولا أمرًا من أمور الدنيا، فلا تجعل الدنيا شريكًا مع الله، والإنسان إذا كان همّه الدنيا كان عابدًا لها كما قال ﷺ: «تَعِسَ عبد الدينار

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

وقـوله: ﴿قُلْ تعَالَوْا أَتْلُ ما حرّمَ ربُّكم عليكم ألاّ تُشْرِكُوا به شيئًا﴾[1]. الآيات.

تَعِسَ عبد الدرهم، تَعِسَ عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة»[2].

قوله: ﴿وبالوالدين إحسانًا﴾ يقال فيها ما قيل في الآية السابقة[3].

قوله: ﴿وبذي القربى واليتامى والمساكين﴾ أي: إحسانًا.

واليتامى: جَمْعُ يَتيم، وهو الذي مات أبوه، ولم يَبلُغْ.

والمساكين: هم الذين عدِموا المال فأسكنهم الفقر.

وابن السَّبيل: هو المُسافر انقطعت به النفقة.

قوله: ﴿والجار ذي القربى، والجار الجُنب﴾.

الجار: الملاصق للبيت، أو من حوله، وذي القُربى: أي: القريب. والجار الجنب: أي: الجار البعيد.

قولـه: ﴿والصاحب بالجنب﴾ قيل: إنه الزوجة، وقيل: صاحبك في السَّفر؛ لأنه يكون إلى جنبك، ولكل منهما حق.

قولـه: ﴿ومـا ملكت أيـمانكم﴾ هذا يشمـل الإحسـان إلى الأرقَّـاء، والبهائم، لأنَّ الجميع ملك لليمين.

قوله: ﴿إنَّ الله لا يحب من كان مختالاً فخورًا﴾.

المختال: في هيئته.

والفخور: في قوله، والله لا يحب هذا، ولا هذا.

قوله: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم﴾.

الخطاب للنبي ﷺ.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب الحراسة في الغزو ٢/٣٢٧. (٣) انظر ص(٢٩).

. . . .

وقوله: ﴿تعالوا﴾ أي: أقْبِلُوا، وهَلِمُّوا، وأصله من العلوّ كأن المنادي يناديك أن تعلو إلى مكانه، فيقولَ: تعال: أي: ارتفع إلي.

وقوله: ﴿أتل﴾ بالجزم جوابًا للأمر في قوله: ﴿تعالوا﴾.

وقـولـه: ﴿ما حرَّم ربكم عليكم﴾ «ما» اسم موصول مفعول لأتلُ. والعائد محذوف، والتقدير: ما حرَّمه ربكم عليكم.

وقال: ﴿ربكم﴾ ولم يقل: ما حرم الله ؛ لأن الرّبّ هنا أنسب حيث أن الربّ له مطلق التصرُّف في المربوب.

قوله: ﴿ألاّ تشركوا﴾.

أن: تفسيرية، تفسر «أتل» أي: أتلوا عليكم ألاّ تشركوا به شيئًا وليست مصدرية، وقد قيل به، وعلى هذا القول تكون «لا» زائدة ولكن القول الأول أصح أي: أتل عليكم عدم الإشراك؛ لأنَّ الله لم يحرِّم علينا أن لا نشرك به، بل حرَّم علينـا أن نشرك به، وممَّـا يؤيِّد أن «أنّ» تفسـيرية أن «لا» هنا ناهية لتتناسب الجُمَل، فتكون كلّها طلبية.

قوله: ﴿وبالوالدين إحسانًا﴾ أي: وأتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

فإن قيل: كيف يصدق على نفي الشرك أنه حرام؟ وعلى الإحسان أنه حرام؟

أُجيب: أن المعنى حرام تجنبه أي: يحرم عليكم أن تجتنبوا انتفاء الشرك به، وأن تجتنبـوا الإحسـان إلى الوالدين، وإذا حُرِّم ذلك صار ضده واجبًا، فيجب حينئذٍ التوحيد، والإحسان إلى الوالدين.

قوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾.

. . . .

بعد أن ذكر حق الأصول ذكر حقّ الفُروع.

والأولاد في اللغة العربية: يشمل الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظِّ الأنثيين**﴾[1].

قوله: ﴿**من إملاق**﴾.

الإملاق: الفقر، و﴿**من**﴾ للسببية، والتعليل أي: بسبب الإملاق.

قوله: ﴿**نحن نرزقكم وإيَّاهم**﴾.

أي: إذا أبقيتموهم، فإنَّ الرِّزق لن يضيق عليكم بإبقائهم؛ لأنَّ الذي يقوم بالرِّزق هو الله.

وبدأ هنا برزق الآباء، وفي سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد والحكمة في ذلك: أنه قال: هنا ﴿**من إملاق**﴾ فالإملاق حاصل فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿**خشية إملاق**﴾[2] فهما غنيان فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

قوله: ﴿**ولا تقربوا الفواحش**﴾.

لم يقل: لا تأتوا؛ لأنَّ النَّهي عن القرب أبلغ من النَّهي عن الإتيان؛ لأنَّ النَّهي عن القرب نهي عنها، وعمَّا يكون ذريعة إليها، ولذلك حرَّم على الرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية، وأن يخلو بها، وأن تسافر المرأة بلا محرم؛ لأنَّ ذلك يقرِّب من الفواحش.

قوله: ﴿**ما ظهر منها وما بطن**﴾.

قيل: ما ظهر فحشه، وما خفي؛ لأنَّ الفواحش منها شيء مستفحَشٌ في نفوس جميع الناس، وفيها شيء فيه خفاء.

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

. . . .

وقيل: ما أظهرتموه، وما أسررتموه، فالإظهار: فعل الزِّنا ـ والعياذُ بالله ـ مجاهرة، والإبطان فعله سرًّا.

وقيل: ما عَظُمَ فُحْشُهُ، وما كان دون ذلك، لأنَّ الفواحش ليست على حدٍّ سواء، ولهذا جاء في الحديث: «**ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر**»[1] وهذا يدلّ على أنَّ الكبائر فيها أكبر، وفيها ما دونَ ذلك.

قوله: ﴿**ولا تقتلوا النَّفس التي حرَّم الله إلاّ بالحقّ**﴾.

النَّفس التي حرَّم الله: هي النَّفس المعصومة، وهي نفس المسلم والذميّ، والمُعاهد، والمُستأمَن.

والحق: ما أثبته الشرع.

والباطل: ما نفاه الشرع.

فمن الحق الذي أثبته الشرع في قتل النفس المعصومة أن يزني المُحْصَن فيُرجم حتَّى يموت، أو يقتل مكافئه، أو يخرج على الجماعة، أو يَقطع الطريق فإنَّه يقتل، قال ﷺ: «**لا يحلُّ دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النّفس بالنفس، والثَّيِّب الزاني، والتارك لدينه المُفارق للجماعة**»[2].

وقال هنا: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلاّ بالحقّ**﴾ وقال قبلها: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم**﴾ فيكون النَّهي عن قتل الأولاد مرَّتين، مرَّة بذكر الخصوص، ومرَّة بذكر العموم.

---

(١) من حديث أبي بكرة، أخرجه البخاري، كتاب الشهادات/ باب ما قيل في شهادة الزور ٢/٢٥١، ومسلم كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر ١/٩١.

(٢) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب الديات/ باب إذا قتل بحجر أو بعصا ٤/٢٦٨، ومسلم، كتاب القسامة/ باب ما يباح به دم المسلم ٣/١٣٠٢.

قوله: ﴿ذلكم وصَّاكم به﴾.

المشار إليه ما سبق، والوصية بالشيء هي العهد به على وجه الاهتمام ولهذا يُقال: وصَّيته على فلان: أي: عهدت به إليه ليهتمَّ به.

قوله: ﴿تعقلون﴾.

العقل هنا: حُسن التصرف، وأما في قوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾[1] فمعناه: تَفهمون.

وفي هذا دليل على أنَّ هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان فهو عاقلٌ رَشيدٌ وإذا خالفها فهو سفيهٌ ليس بعاقل.

قوله: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن﴾.

أي: فأمَّا بالتي هي أحسن فاقربوه.

وقوله: ﴿ولا تقربوا﴾ هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخِصلة التي هي أحسن، ولم يقل سبحانه إلاّ بالحسن، فلا نقربه بأي تصرُّف إلاّ بما نرى أنه أحسن، فإذا لاحَ للوليِّ تصرّفان أحدهما أكثر ربحًا فالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكثر ربحًا لأنَّه أحسن.

والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوي، والحسن الديني، فإذا لاحَ تصرفان أحدهما أكثر ربحًا وفيه ربًا، والآخر أقل ربحًا وهو أسلم من الرِّبا، فنقدِّم الأخير، لأنَّ الحسن الشرعي مقدَّم على الحسن الدنيوي المادي.

قوله: ﴿حتى يبلغ أشدَّه﴾.

أي: إذا بلغ أشده فإننا ندفعه إليه بعد أن نختبره، وننظر في حُسْنِ تصرفه، ولا يجوز لنا أن نُبقيه عندنا.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣.

. . . .

ومعنى أشده: قوَّته العقلية، والبدنية، والخطاب هنا لأولياء اليتامى، أو للحاكم على قول بعض أهل العلم.

قوله: ﴿وأوفوا الكيل والميزان﴾.

أي: أوفُوا الكيْل إذا كِلتم فيما يُكال من الأطعمة، والحبوب.

وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يُوزن كاللحوم مثلاً.

والأمر بالإيفاء شاملٌ لجميع ما تتعامل به مع غيرك، فيجب عليك أن توفي بالكيل والوزن.

قوله: ﴿بالقسط﴾.

أي: بالعدل، ولما كان قوله: ﴿بالقسط﴾ قد يشقُّ بعض الأحيان؛ لأنَّ الإنسان قد يفوته أن يوفي الكيل، أو الوزن أحيانًا أعقب ذلك بقوله: ﴿لا نكلِّف نفسًا إلاّ وسعها﴾ أي: طاقتها، فإذا بذل جهده، وطاقته، وحصل النقص، فلا يعدّ مخالفاً؛ لأنَّ ما خرج عن الطاقة معفوٌّ عنه فيه، وكما أنَّ هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوُسْع، فإنَّها تفيد التغليظ من وجه، وهو أنَّ على المرء أن يبذل وُسعه في الإيفاء بالقِسط.

قوله: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾.

معناه: أي قول تقوله، فإنَّه يجب عليك أن تعدل فيه سواء كان ذلك لنفسك على غيرك، أو لغيرك على نفسك، أو لغيرك على غيرك، أو لتحكم بين اثنين، فالواجب العدل، إذ العدل في اللغة الاستقامة، وضدّه الجَور، والمَيْل، فلا تَملْ يمينًا، ولا شِمالاً، ولم يقل هنا: ﴿لا نكلف نفسًا إلا وسعها﴾ لأنَّ القول لا يشق.

قوله: ﴿ولو كان ذا قربى﴾.

أي: المَقُول له ذا قرابة، أي: صاحب قرابة، فلا تحابيه لقرابته فتميل

معه على غيره من جعل أمرك إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ الذي خلقك، وأمرك بهذا، وإليه سة ـألك ـ عزّ وجلّ ـ ماذا فعلت في هذه الأمانة.

وقد أقسم أشرف الخلق، وسيد ولد آدم، وأعدل البشر محمد ﷺ، وقال: «**وأيم الله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[1].

قوله: ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾.

قدَّم المتعلق للاهتمام به.

﴿**وعهد الله**﴾ ما عهد به إلى عباده، وهي عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره كما قال عز وجل: ﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضًا حسنًا**﴾[2].

هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقوله تعالى: ﴿**لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾[3] هذا من جانب الله ـ عز وجل ـ فعهد الله الذي عهد به إلينا: أن نعبده وحده لا شريك له ونقوم بأمره، ويجب علينا الوفاء به.

قوله: ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون**﴾.

هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق عز وجل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن**﴾.

---

(١) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب الأنبياء/ باب حدثنا أبو اليمان ٢/٤٦٦، ومسلم كتاب الحدود/ باب قطع السارق الشريف ٣/١٣١٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢.

. . . .

الثانية: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾.

الثالثة: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾.

الرابعة: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾.

والآية الأولى فيها خمس وصايا صار الجميع تسع وصايا. ثم قال عز وجل: ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه﴾.

هذه هي الوصية العاشرة فقوله: ﴿وأن هذا صراطي﴾ يحتمل أن المشار إليه ما سبق؛ لأنك لو تأمَّلته وجدته محيطًا بالشرع كله إمّا نصًّا، وإمّا إيماء، ويحتمل أنَّ المراد به ما علم من دين الله أي: هذا الذي جاءكم به الرسول ﷺ هو صراطي أي الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى.

والصراط يضاف إلى الله عز وجل، ويضاف إلى سالكه، ففي قوله تعالى: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾[1] هنا أضيف إلى سالكه، وفي قوله تعالى: ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾[2] هنا أضيف إلى الله عز وجل فإضافته إلى الله عز وجل لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذي وضعه لعباده جلّ وعلا وإضافته إلى سالكه لأنهم هُم الذين سلكوه.

قوله: ﴿مستقيمًا﴾.

هذه حال من «صراط» أي: حال كونه مستقيمًا لا اعوجاج فيه فاتَّبعوه.

قوله: ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله﴾.

السبل: أي: الطرق الملتوية.

وتفرَّق: فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية، لكن حذفت منه تاء المضارعة، وأصلها «تتفرق».

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٧.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٣.

قال ابنُ مسعودٍ: «من أرادَ أن يَنْظُرَ إلى وصِيَّة محمد ﷺ التي عليها خَاتَمُهُ فلْيقْرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تعالوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ ربُّكم عليكم ألَّا تشركوا به شيئًا﴾. إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هذا صِراطي مُسْتَقِيمًا﴾[1].
الآية.

أي: أنَّكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله، وتشتَّت بكم وبعدت، وهذا صحيح.

وهنا قال: ﴿السبل﴾ وفي الطريق التي أضافها الله إلى نفسه قال: ﴿سبيله﴾ سبيل واحد، لأنَّ سبيل الله عز وجل واحد، وأما ما عداه فسبل متعددة، ولهذا قال النبي ﷺ: «وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النَّار إلا واحدة»[2]. فالسبيل المُنجي واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يرد على هذا قوله تعالى: ﴿يهدي به الله من اتَّبَع رضوانه سبل السَّلام﴾[3].
لأنَّ «سُبُل» في الآية الكريمة، وإن كانت مجموعة لكن أضيفت إلى السلام فكانت منجية، ويكون المراد بها شرائع الإسلام.

وقوله: ﴿ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون﴾.

أي: ذلك المذكور وصَّاكم لتنالوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به، ورسوله ﷺ. الحديث قال ابن مسعود: «من أراد...»

قوله: «وصية محمد».

الوصية بمعنى: العهد، ولا يكون العهد وصية إلا إذا كان في أمر هام.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن ٨/ ٢٣٠، وقال: «حديث حسن غريب»، والطبراني في الكبير (١٠٠٦٠) بلفظ: «من سره أن يقرأ صحيفة محمد، ﷺ...» إلخ.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٣٣٢، وأبوداود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وابن أبي عاصم (٦٦)، وابن حبان (٣٩٩١) عن أبي هريرة وصححه الترمذي والحاكم.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٦.

. . . .

وقوله: «**محمد صلى الله عليه وسلم**» أي: رسول الله ﷺ، وهذا التعبير من ابن مسعود يدل على جواز مثله، مثل: قال محمد رسول الله ﷺ، ووصية محمد ﷺ، ولا ينافي قوله تعالى: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا**﴾[1] لأنَّ دعاء الرسول هنا أي: مناداته، فلا تقولوا عند المناداة: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، أمّا الخبر فهو أوسع من باب الطلب ولهذا يجوز أن نقول: أنا تابعٌ لمحمد ﷺ، أو اللهم صلِّ على محمد وما أشبه ذلك.

قوله: «**التي عليها خاتمه**» الخاتم: بمعنى التوقيع.

وقوله: «**وصية محمد صلى الله عليه وسلم**» ليست وصية مكتوبة مختومًا عليها، لأنَّ النبي، ﷺ، لم يوصِ بشيء، ويدل لذلك: أنَّ أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب هل عهد إليكم النبي، ﷺ، بشيء؟ فقال: لا. والذي فلق الحبّةَ وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر[2].

فلا يُظنّ أن النبي، ﷺ، أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كلّه فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول الله ﷺ، وأبقاها لأمته.

وهي آيات عظيمة إذا تدبرها الإنسان وعمل بها حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة العقل والتّذكّر والتّقوى.

وقوله: «**فليقرأ قوله تعالى**» إلخ الآيات سبق الكلام عليها.

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات/ باب العاقلة ٤/ ٢٧٤.

وعن مُعَاذِ بن جبلٍ (رضي الله عنه) قال: «كنتُ رِدِيفَ النبيِّ ﷺ على حمارٍ، فقال لي: «يامُعاذُ، أتدري ما حقُّ الله على العبادِ، وما حقُّ العبادِ على الله؟ قُلتُ: الله ورسولُه أعلمُ؛ قال: حقُّ الله على العبادِ أن يَعبدوهُ ولا يُشركوا به شيئًا.

قوله: «**رديف**» بمعنى رادف أي: راكب خلفه فهو فعيل بمعنى فاعل مثل: رحيم بمعنى راحم، وسميع بمعنى سامع.

قوله: «**على حمار**» أي: أهلي؛ لأنَّ الوحشيّ لا يُركب.

قوله: «**أتدري**» أي: أتعلم.

قوله: «**ما حق الله على العباد**»؟ أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به، وألقاه على معاذ بصيغة السؤال ليكون أشد حضورًا لقلبه حتى يفهم ما يقوله ﷺ.

قوله: «**وما حق العباد على الله؟**» أي: ما يجب أن يُعاملهم به، والعباد لم يوجبوا شيئًا بل الله أوجبه على نفسه فضلاً منه على عباده قال تعالى: ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة أنَّه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم**﴾[1].

فأوجب سبحانه على نفسه أن يرحم من عمل سوءًا بجهالة أي: بسفه وعدم حُسن تصرّف ثم تاب من بعد ذلك وأصلح.

ومعنى كتب: أي: أوجب.

قوله: «**قلت الله ورسوله أعلم**».

الله: مبتدأ، والرسول: معطوف عليه، وأعلم: خبر المبتدأ. وأفرد الخبر

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

وحق العبادِ على الله أن لا يُعذِّبَ من لا يُشركُ به شيئًا»، قلت: يارسول الله، أفلا أُبشِّرُ الناس؟ قال: **لا تُبشِّرْهُم فيَتَّكلوا» أخرجاهُ في الصحيحين**[1].

هنا لأنه على تقدير: «مِنْ» واسم التفضيل إذا كان على تقدير: «مِنْ» فإن الأشهر فيه الإفراد والتذكير.

والمعنى: أعلم من غيرهما، وأعلم مني أيضًا.

قوله: «**يعبدوه**» أي: يتذلّلوا له بالطاعة.

قوله: «**ولا يشركوا به شيئًا**» أي: في عبادته، وما يختص به. وشيئًا نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء لا رسولاً ولا مَلَكًا ولا وليًّا ولا غيرهم.

وقوله: «**وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**» وهذا الحق تفضل الله به على عباده، ولم يوجبه عليه أحد، ولا تظن أن قوله: «**من لا يُشرك به شيئًا**» أنَّه مجرَّد عن العبادة، لأنَّ التقدير: من يعبده ولا يشرك به شيئًا، ولم يذكر قوله: «**من يعبده**» لأنَّه مفهوم من قوله: «**وحق العباد**» ومن كان وصفه العبودية فلا بدَّ أن يكون عابدًا.

ومن لم يعبد الله ولم يُشرك به شيئًا هل يعذَّب؟

الجواب: نعم يعذَّب لأنَّ الكلام فيه حذف، وتقديره: من يعبده ولا يُشرك به شيئًا ويدلّ لهذا أمران:

الأول: قوله: «**حق العباد**» ومن كان وصفه العبودية فلابدَّ أن يكون عابدًا.

الثاني: أنَّ هذا مقابل لما تقدَّم: «**أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئًا**» فعلم

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس/ باب إرداف الرجل خلف الرجل ٤/ ٨٤، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١/ ٥٨.

. . . .

أن المُراد بقوله: «**لا يشركوا به شيئًا**» أي: في العبادة.

قولـه: «**أفلا أُبَشِّر الناس**» أي: أأَسْكُت فلا أُبَشِّر الناس؟ ومثل هذا التركيب: الهمزة ثم حرف العطف ثم الجملة لعلماء النحو فيه قولان:

الأول: أنَّ بين الهمـزة وحرف العطف محذوفًا يقدر بما يناسب المقام، وتقديره هنا: أأسكت فلا أبشر الناس؟

الثاني: أنَّ همزة الاستفهام متقدمة وحقها أن تكون بعد حرفِ العطف وعليه فليس هناك شيء محذوف، بل هناك ترتيب وتقديره: فألا أُبشِّرِ؟ فالجملة معطوفة على ما سبق، ومحل الفاء سابق على الهمزة، فالأصل فألا أبشر الناس؟ لكن لما كان مثل هذا التركيب ركيكًا، وهمزة الاستفهام لها الصدارة قُدِّمت على حرف العـطف، ومثـل ذلـك قولـه تعـالى: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**أفلا تبصرون**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾[3].

والبشارة هي: الإخبار بما يَسُرُّ.

وقد تستعمل في الإخبار بما يضرُّ ومنه قوله تعالى: ﴿**فبشِّرهم بعذاب أليم**﴾[4].

قوله: «**لا تبشرهم**» أي: لا تخبرهم، ولا: ناهية.

ومعنى الحديث أن الله لا يعذب من لا يُشرِكُ به شيئًا. وأن المعاصي

---

(١) سورة الغاشية، الآية: ١٧.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الانشقاق، الآية: ٢٤.

فيه مسائل: الأولى: الحكمةُ من خلق الجن والإنس. **الثانية**: أنَّ العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه.

تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى، ﷺ، عن إخبارهم لئلّا يعتمدوا على هذه البشرى، وهم لا يفهمون معناها؛ لأنَّ تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي؛ لأنَّ المعاصي صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشِّرك قال تعالى: **﴿أفرأيت من اتَّخذ إلـهه هواه﴾**[1].

ومناسبة الحديث للترجمة: هو فضيلة التوحيد، وأنَّه مانع من عذاب الله.

المسائل:

الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس:

أخذها رحمه الله من قوله تعالى: **﴿وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون﴾**[2]، فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعوا بالمآكل والمشارب والمناكح.

الثانية: أنَّ العبادة هي التوحيد:

أي: أنَّ العبادة مبنية على التوحيد فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة، لا سيما وأن بعض السَّلف فسَّروا قوله تعالى: **﴿إلا ليعبدون﴾** إلا ليوحدون.

وهذا مطابق تمامًا لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هي التوحيد، فكل عبادة لا تبنى على التوحيد فهي باطلة، قال ﷺ: قال الله

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله ففيه معنى قوله ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾[1]. **الرابعة**: الحكمةُ في إرسالِ الرسلِ. **الخامسة**: أنَّ الرسالة عمت كلَّ أمة.

تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[2].

وقوله: «**لأن الخصومة فيه**» أي: التوحيد بين الرسول ﷺ وقريش، فقريش يعبدون الله يطوفون له، ويصلون، ولكن على غير الإخلاص، والوجه الشرعي، فهي كالعدم لعدم الإتيان بالتوحيد قال تعالى: ﴿**وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله**﴾[3].

وقوله في الثالثة: ففيه معنى قوله: ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾.

ووجهه: أنَّ معنى قوله: ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ لستم عابدين عبادتي لأنَّ عبادتكُم مبنية على الشرك فليست بعبادة لله تعالى.

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل:

أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[4].

فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت.

الخامسة: أنَّ الرِّسالة عمَّت كل أمة:

---

(١) سورة الكافرون، الآية: ٣.

(٢) من حديث أبي هريرة رواه مسلم، كتاب الزهد/ باب من أشرك في عمله غير الله ٤/٢٢٨٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ٣٦.

السادسة: أنَّ دين الأنبياء واحد. **السابعة**: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصُل إلا بالكفر بالطاغوت. ففيه معنى قوله تعالى: ﴿**فمن يكفر بالطاغوت**﴾.[1] الآية.

أخذها من قوله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً**﴾[2].

السادسة: أنَّ دين الأنبياء واحد:

أخذها من قوله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾. ومثله قوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلـه إلا أنا فاعبدون**﴾[3].

وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا**﴾[4]، لأنَّ الشرعة العملية تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل الدين فواحد قال تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾[5].

السابعة: المسألة الكبيرة أنَّ عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت:

ودليله قولـه تعالى: ﴿**واجتنبوا الطاغوت**﴾ فمن عبدالله ولم يكفر بالطاغوت فليس بمـوحّـد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة؛ لأنَّ كثيراً من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١٣.

الثامنة: أنَّ الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله.

تنبيـه:

لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئًا من ذلك لأنَّ هذه وغيرها لها أسباب، ولها موانع، فلا نقول لمن أكل الرِّبا ملعون؛ لأنَّه قد يوجد مانع يمنع من حلول اللعنة عليه كالجهل مثلاً أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركًا فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم وكذا نقول: من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ولكن لا نحكم بهذا لشخص معين.

إذ إن الحكم المُعلَّق بالأوصـاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصًا يتبرَّز في الطريق فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلاّ إذا أريد باللعن في قوله: «**اتقوا الملاعن**»[1] أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلاً بالأدب فهذا شيء آخر.

فدعـاء القبر شرك لكن لا يمكن أن نقول لشخص هذا مشرك حتى يعرف قيام الحجة عليه، أو نقول هذا مُشرك باعتبار ظاهر حاله.

الثامنة: أنَّ الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله:

فكل ما عُبدَ من دون الله فهو طاغوت، وقد عرَّفه ابن القيم: بأنَّه كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مُطاع.

فالمعبود كالصَّنم، والمتبوع كالعالِم، والمُطاع كالأمير.

---

(١) من حديث معاذ رواه أبو داود كتاب الطهارة/ باب المواضع التي نهى النبي، ﷺ، عن البول فيهـا ١/٢٩، وابن ماجـه، كتـاب الطهارة/ باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق ١/١١٩، والحـاكم ١/١٦٧، وقـال: «صحيح» ووافقـه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى ١/٩٧.

التاسعة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف.

وفيها عشر مسائل. أولها: النهي عن الشرك. العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء. وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها الله بقوله: ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾[1]. وختمها بقوله: ﴿**ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً**﴾[2]. ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿**ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة**﴾[3].

التاسعة: عِظَم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام:

المحكمات: أي: التي ليس فيها نسخ.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء:

وهي قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾[4] وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها بقوله تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلـهًا آخر فتقعُدَ مذمومًا مخذولاً**﴾.

وختمها بقوله تعالى: ﴿**ولا تجعلْ مع الله إلـهًا آخر فَتُلْقَى في جهنَّم ملومًا مدحوراً**﴾.

وقد نبهنا الله سبحانه على عِظَم شأن هذه المسائل بقوله تعالى: ﴿**ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة**﴾.

فبدأها الله بالنَّهي عن الشرك بقوله تعالى: ﴿**لا تجعلْ مع الله إلـهًا آخرَ فتقعد مذمومًا مخذولاً**﴾. والقاعدُ ليس قائمًا لأنه لا خيرَ لمن أشرك بالله، مذمومًا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة بدأها الله تعالى بقوله: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا**﴾.[1] **الثانية عشرة**: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

عند الله وعند أوليائه، مخذولاً لا ينتصر في الدنيا ولا في الآخرة.

وختمها بقوله: ﴿**ولا تجعلْ مع الله إلـهًا آخرَ فَتُلْقَى في جهنَّم ملومًا مدحورًا**﴾[2] فهذه عقوبته عندما يُلقَى في النَّار كلٌّ يلومه ويَدْحَرُه فيندَحر والعياذ بالله.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تُسمَّى آيةَ الحقوق العشرة بدأها بقوله تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا**﴾ فأحقّ الحقوق حق الله، ولا تنفع الحقوق إلا به، فبُدِئَتْ هذه الحقوق به، ولهذا لما سأل النبي ﷺ، حكيمُ بنُ حزام عمَّن كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له من أجر؟

فقال النبي ﷺ: «**أسلمتَ على ما أسلفت من الخير**»[3] فدلّ على أنَّه إذا لم يسلم لم يكن له أجر، فصارت الحقوق كلُّها لا تنفع إلا بتحقيق حق الله.

الثانية عشرة: التنبيهُ على وصية رسول الله، ﷺ، عند موته: وذلك من حديث ابن مسعود رضي الله عنه[4] ولكنَّ النبي، ﷺ، لم يوصِ بها حقيقةً بل أشار إلى أننا إذا تمسكنا بكتاب الله فلنْ نضلَّ بعده،ومن أعظم ما جاء به كتابُ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.

(٣) من حديث حكيم بن حزام، رواه البخاري، كتاب الزكاة/ باب من تصدق في الشرك ثم أسلم ١/٤٤٣، ومسلم كتاب الإيمان/ باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده ١/١١٣.

(٤) سبق تخريجه ص(٣٨).

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدَّوا حقـه.
الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.
السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

الله قوله تعالى: **﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم﴾**[1].

الثالثة عشرة: معرفةُ حق الله علينا:

وذلك بأن نعبدَه ولا نُشركَ به شيئًا.

الرابعة عشرة: معرفةُ حق العباد عليه إذا أدَّوا حقَّه:

وذلـك بأن لايعذِّبَ من لا يشركُ به شيئًا، أمّا من أشرك فإنَّه حقيقٌ أن يُعذَّب.

الخامسة عشرة: أنَّ هذه المسألة لا يعرفها أكثرُ الصحابة:

وذلك أن معاذًا أخبر بها خروجًا عن إثم الكِتْمان عند موته بعد أن مات كثيرٌ من الصحابة.

السادسة عشرة: جوازُ كِتمان العلم للمصلحة:

إذ إنَّ كتمانَ العلم على سبيل الإطلاق لا يجوزُ لأنه ليس بمصلحةٍ ولهذا أخـبر النبي، ﷺ، معـاذًا ولم يكتم ذلك مطلقًا، وأما كِتمان العلم في بعض الأحوال، أو عن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق فجائزٌ للمصلحة كما كتم النبي، ﷺ، ذلك عن بقية الصحابة خَشية أن يتَّكِلُوا عليه، وقال لمعاذٍ: **«لا تُبشِّرهم فيتكلوا»**[2].

ونظير هذا الحديث قوله، ﷺ، لأبي هريرة: **«بَشِّر الناس أن من قال: لا إلـه إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنَّة»**[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٢) سبق تخريجه ص (٤٢).

(٣) من حديث أبي هريرة رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١/ ٥٩.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره. **الثامنة عشرة**: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

بل قد تقتضي المصلحةُ تركَ العمل وإن كان فيه مصلحة لرجحان مصلحة الترك، كما همَّ النبي، ﷺ، أن يهدمَ الكعبة ويبنيها على قواعد إبراهيم، ولكن ترك ذلك خَشية افتتان الناس؛ لأنهم حديثو عهد بكفرٍ[1].

السابعة عشرة: استحبابُ بشارة المسلم بما يَسرُّه:

لقوله: «**أفلا أبشِّر الناس**»؟ وهذه من أحسن الفوائد.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله:

وذلك لقوله: «**لا تبشِّرهم فيتَّكلوا**» لأنَّ الاتِّكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي: الأمن من مكر الله.

وكذا القنوطُ من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة ويسبب اليأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحمدُ: «ينبغي أن يكونَ سائرًا إلى الله بين الخوف والرجاء فأيُّهما غلبَ هلك صاحبه». فإذا غلب الرَّجاءُ أدَّى ذلك إلى الأمن من مكر الله، وإذا غلب الخوفُ أدَّى ذلك إلى القنوط من رحمة الله.

وقال بعضُ العلماء: إن كان مريضًا غلب جانب الرَّجاء، وإن كان صحيحًا غلب جانب الخوف.

وقال بعض العلماء: إذا نَظَرَ إلى رحمة الله وفضله غلب جانب الرَّجاء وإذا نظر إلى فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ودليلُه قولُه تعالى: ﴿**والذين يؤتون ما آتوا وقلوبُهم وجلة**﴾[2] أي:

---

(١) من حديث عائشة رواه البخاري، كتاب الحج / باب فضل مكة ١/٤٨٧، ومسلم كتاب الحج / باب نقض الكعبة ٢/٩٦٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

. . . .

خائفـة أن لا يكونَ تقبّل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد. وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسُنَ الظنّ بالله، ويغلب جانب الخوف إذا همَّ بالمعصية لِئلاّ ينتهكَ حُرماتِ الله.

وفي قوله: «**أفلا أبشِّر الناس**»؟[1] دليلٌ على أن البشارة محبوبة فيما يَسُرُّ من أمر الدين والدنيا، ولذلك بَشَّرَتْ الملائكة إبراهيمَ. قال تعالى: ﴿**وبَشَّروه بغلامٍ عليم**﴾[2] وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشَّر النبي، ﷺ، أهله بابنه إبراهيم فقال: «**ولد لي الليلة ولد سميتُه باسم أبي إبراهيم**»[3]، فيُؤخَذ منه أنَّه ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول، أو بالفعل ليحصلَ له بذلك خيرٌ كثيرٌ وراحةٌ وطُمأنينةُ قلبٍ، وانشراحُ صدر.

وعليه فلا يدخل السوء على المسلم، قال ﷺ: «**لا يحدثني أحدٌ عن أحد بشيء فإنِّي أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصَّدر**»[4] وهذا الحديث فيه ضعفٌ لكن معناه صحيح.

لأنَّه إذا ذُكِرَ عندك رجلٌ بسوءٍ فسيكونُ في قلبك عليه شيءٌ ولو أحسن

---

(١) سبق تخريجه ص (٤٢).

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٨.

(٣) من حديث أنس رضي الله عنه رواه مسلم، كتاب الفضائل/ باب رحمته ﷺ، الصبيان والعيال ٤/١٨٠٧.

(٤) من حديث ابن مسعود رواه أبو داود، كتاب الأدب/ باب في رفع الحديث من المجلس ٥/١٨٣، وسكت عنه، والترمذي، المناقب/ باب في فضل أزواج النبي، ﷺ، رقم ٣٨٩٣ وقال: «غريب من هذا الوجه» وأحمد في المسند ١/٣٩٥.

وفي إسناده عندهم الوليد بن هشام أو ابن أبي هشام الكوفي مستور كما في تقريب التهذيب ٢/٣٣٦.

وزيد بن زائدة قال ابن حجر في التقريب ١/٢٧٤: «مقبول»، وباقي رجاله ثقات.

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.
العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

معاملتك، لكن إذا كنتَ تعامله وأنت لا تعلمُ عن سيئاته، ولا محذورَ في أنْ تتعامل معه، كان هذا طيِّبًا، وربما يَقْبَلُ منك النصيحة أكثر، والنُّفوسُ يَنْفِرُ بعضُها من بعضٍ قبل الأجسام وهذه مسائلُ دقيقةٌ تظهرُ للعاقل بالتَّأمُّل.

التاسعة عشرة: قولُ المسؤول عمَّا لا يعلم، الله ورسولُه أعلمُ:

وذلك لإقرار النبي، ﷺ، معاذًا لَمّا قالها، ولم ينكر النبي، ﷺ، على معاذٍ حيث عطف رسول الله، ﷺ، على الله بالواو، وأنكر على من قال: «ما شاء الله وشئت» وقال: «**أجعلتني لله ندًّا بل ما شاء الله وحده**»[1].

فيُقال: إنَّ الرسول، ﷺ، عنده علمٌ من العلوم الشرعية فلم ينكر الرسول، ﷺ، على معاذ.

بخلاف العلوم الكونية القَدرية فالرسول، ﷺ، ليس عنده عِلم منها، فلو قيل: هل يَحْرُمُ صومُ العيدين؟

جاز أن نقول: الله ورسوله أعلم، ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائلُ ذهبوا إلى رسول الله، ﷺ، فيبيِّنها لهم. ولو قيل: هل يُتَوَقَّع نزول مطر في هذا الشهر؟ لم يجز أن نقول الله ورسوله أعلم؛ لأنَّه من العلوم الكونية.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض:

وذلك أن النبي، ﷺ، خصَّ هذا العلمَ بمعاذٍ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

---

(١) من حديث ابن عباس رواه أحمد كما في المسند ١/٢١٤، وابن ماجه كتاب الكفارات باب/ النهي أن يُقال: ما شاء الله وشئت ١/٦٨٤، وقال البوصيري في الزوائد: «وفي إسناده الأجلح بن عبدالله مختلف فيه، ضعفه الإمام أحمد، وأبو حاتم، والنسائي، وأبو داود، وابن سعد، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان، والعجلي، وباقي الإسناد ثقات» ورواه أيضًا الطبراني في الكبير (١٣٠٠٥) والبيهقي في السنن ٣/٢١٧.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه. الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة. الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة. الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

فيجوز أنْ نُخَصِّص بعض الناس بالعلم دون بعضٍ حيث إنَّ بعض الناس لو أخبرته بشيء من العلم افْتَتَنَ، قال ابن مسعود: «إنَّك لن تحدث قومًا بحديث لا تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنة»[1]، وقال علي: «حدِّثوا الناس بما يعرفون»[2].

فَيُحَدَّثُ كلّ أحدٍ حسبَ مقدرتِه وفهْمِهِ وعقله.

الحادية والعشرون: تواضعه، ﷺ، لركوب الحمار مع الإرداف عليه:

النبي، ﷺ، أشرفُ الخلق جاهًا، ومع ذلك هو أشدّ الناسِ تواضعًا حيث ركب الحمارَ وأَرْدف عليه وهذا في غاية التواضع إذ إنَّ عادة الكُبَراء عدمُ الإرداف، وركب، ﷺ، الحمار، ولو شاء لركب ما أراد، ولا منقصة في ذلك، إذ إنَّ مَنْ تواضعَ لله عز وجل رفعه.

الثانية والعشرون: جوازُ الإرداف على الدابة:

وذلك أن النبي، ﷺ، أردف معاذًا، لكنْ يُشْتَرَطُ للإرداف أن تكون الدابةُ قادرةً عليه، فإن لم تكن قادرة لم يَجُزْ ذلك.

الثالثة والعشرون: عِظَمُ شأن هذه المسألة:

حيث أخبر النبي، ﷺ، معاذًا، وجعلها من الأمور التي يبشر بها.

الرابعة والعشرون: فضيلةُ معاذ:

وذلك أن النبي، ﷺ، خَصَّه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار.

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه ١/١١.

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم/ باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه ١/٦٢.

بـــاب
فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

سبق أن ذَكَرَ المؤلفُ كتابَ التوحيد أي: وجوب التوحيد، وأنه لا بدَّ منه، وأن معنى قوله تعالى: ﴿**وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون**﴾[1] أن العبادة لا تصحُّ إلا بالتوحيد.

وهنا ذكر المؤلف فضلَ التوحيد، ولا يلزم مِنْ ثبوتِ الفضل للشيء أن يكون غيرَ واجب بل الفضل من نتائجه وآثاره.

ومن ذلك صلاةُ الجماعة ثبت فضلُها بقوله ﷺ: «**صلاةُ الجماعة أفضلُ من صلاة الفذِّ بسبعٍ وعشرين درجة**». متفق عليه[2].

ولا يلزم من ثبـوت الفضل فيها أن تكون غيرَ واجبة، إذ إنَّ التَّوحيد أوجبُ الواجبات، ولا تُقْبَل الأعمالُ إلا به، ولا يَتَقرَّب العبدُ إلى ربِّه إلا به، ومع ذلك ففيه فضل.

قولـه: «**وما يُكَفِّر من الذنوب**» معطوفٌ على «**فضل**» فيكون المعنى: باب فضـل التـوحيد، وبـاب ما يكفـر من الـذنـوب، وليست معطوفة على التوحيد، وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفر من الذنوب؛ لأن من آثار فضل التوحيد تكفيرَ الذنوب.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) من حديث ابن عمر، رواه البخاري في كتاب الأذان / باب فضل صلاة الجماعة ١/٢١٦، ومسلم، كتاب المساجد / باب فضل صلاة الجماعة ١/٤٥٠.

وقـــولِ الله تعــالى: ﴿الــذين آمنــوا ولم يَلبِسُــوا إيَــمانَهُمْ بِظلْمٍ﴾.[1]. الآية.

من فوائد التوحيد:

١ ـ أنَّه أكبرُ دعامة للرغبة في الطاعة، لأن المُوحِّد يعمل لله سبحانه وتعـالى، وعليه فهـو يعمل سرًّا وعلانية، أما غيرُ الموحد كالمرائي مثلاً، فإنه يتصــدَّق ويُصـلي، ويذكر الله إذا كان عنده مَنْ يراه فقط، ولهذا قال بعض السلف: «إني لأودّ أن أتقرَّبَ إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو».

٢ ـ أن الموحدين لهم الأمنُ وهم مهتدون كما قال تعالى: **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾**.[2]

قوله: **﴿لم يلبسوا﴾** أي: يَخلطوا.

قوله: **﴿بظلمٍ﴾** الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشِّرك، ولما نزلت هذه الآية شقَّ ذلك على الصحابة، وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفْسَه؟ فقال النبي، ﷺ: «**ليس الأمرُ كما تظنون إنَّما المراد به الشرك، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح ـ يعني لقمان ـ: ﴿إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيم﴾**»؟[3].

والظلم أنواع:

١ ـ أظلم الظلم، وهو الشِّرك في حقّ الله.

٢ ـ ظلم الإنسان نفسه، فلا يعطيها حقها مثل: أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣ ـ ظلم الإنســان غيره مثل: أن يتعدَّى على شخص بالضرب، أو القتل أو أخذ مال، وما أشبه ذلك.

---

(١)و(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٣) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب/ قول الله تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ ٢/ ٤٨٤.

وإذا انتفى الظلمُ حصل الأمن لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب:

أنه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصيةٌ، فالأمنُ أمنٌ مطلق أي: كامل، وإذا كان الإيمانُ مطلقَ إيمانٍ ـ غير كامل ـ فله مطلق الأمن أي: أمن ناقص.

مثال ذلك: مرتكبُ الكبيرة:

آمنٌ من الخلود في النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة قال الله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[1].

أمّا من وافى الله سبحانه محققًا للتوحيد، فإنَّه آمنٌ أمنًا مطلقًا، آمنٌ من الخلود في النار، وآمنٌ من العذاب، لأن هذا أقصى ما عنده من الإيمان.

وهذه الآية قالها الله تعالى حكمًا بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿**وكيف أخاف ما أشركتم**﴾. إلى قوله: ﴿**وهم مهتدون**﴾[2] على أنه قد يقول قائلٌ: إنها من كلام إبراهيم ليبين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**﴾[3]

قوله: ﴿**الأمن**﴾ أل فيها للجنس، ولهذا فَسَّرْنا الأمنَ إمّا أنَّه أمنٌ مطلق، وإمّا أنَّه مطلقُ أمن حسب الظلم الذي تلبس به.

قوله: ﴿**وهم مهتدون**﴾ أي: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل، فالاهتداء بالعلم: هداية الإرشاد.

والاهتداء بالعمل: هداية توفيق.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٨١، ٨٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٣.

عن عُبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهدَ أن لا إلـه إلا الله وحدهُ لا شريكَ له وأنَّ محمدًا عبده ورسولُه، وأن عيسى عبـدُ الله ورسوله وكلمتهُ ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه، والجَنَّةَ حقٌّ، والنَّارَ حقٌّ، أدخله الله الجنّة على ماكان من العمل**». أخْرجاهُ[1].

ومهتدون في الآخرة إلى الجنة قال الله تعالى: ﴿**أُحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم**﴾[2].

هذه هداية الآخـرة وهي للذين ظلمـوا إلى صراط الجحيم، فيكـون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿**أولئك لهم الأمن**﴾ أن الأمن في الآخرة، والهداية في الدنيا، والصواب: أنها عامّةٌ بالنسبة للأمن والهداية في الدنيا والآخرة.

مناسبة الآية للترجمة:

أن الله أثبتَ الأمنَ لمن لم يشركْ، والذي لم يشركْ يكون موحِّدًا، فدلَّ على أن مِنْ فضائل التوحيد استقرار الأمن.

قوله: «**من شهد أن لا إلـه إلا الله**».

الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق قال تعالى: ﴿**إلا من شهد بالحق**

---

(1) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ ٢/٤٨٦، ومسلم كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١/٥٧.

(2) سورة الصافات، الآية: ٢٢.

. . . .

وهم يعلمون﴾[1] وهذا العلم قد يكون مُكْتَسَبًا، وقد يكون غريزيًا.

والعلم بلا إلـه إلا الله غريزيٌّ قال ﷺ: «كلّ مولودٍ يُولد على الفطرة»[2].

وقد يكون مُكتَسبًا، وذلك بتدبُّر آيات الله، والتَّفكُّر فيها.

ولابدّ أن يوجدَ العلم بلا إلـه إلا الله ثم الشهادة بها، وقد يوجد العلم وتنتفي الشهادة مثل ما وجد عند قريش فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق، ولكنهم لا يوحِّدون الله بالعبادة.

قوله: ﴿أنْ﴾ مخففة من الثقيلة، والنُّطق بأن مُشَدَّدة خطأ، لأنَّ المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخفَّفة يمكن حذفه.

قولـه: ﴿لا إلـه﴾ أي: مألـوه، وليس بمعنى آلـه، والمألوه هو المعبود محبة وتعظيمًا، تحبه وتعظِّمه لما تعلم من صفاته العظيمة، وأفعاله الجليلة.

قوله: ﴿إلا الله﴾ أي: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكي عن قريش قولُهم: ﴿أجعل الآلهة إلـهًا واحدًا إنّ هذا لشيءٌ عُجاب﴾[3].

أما قوله تعالى: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾[4] فهذا التألُّه باطل، لأنَّه بغير حق فهو منفيٌّ شرعًا. وإذا انتفى وقوعًا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٢) من حديث أبي هريرة، رواه البخـاري في كتاب الجنائز، باب / إذا أسلم الصبي فمات ١/٤١٦، ومسلم، كتاب القدر / باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٤/٢٠٤٧.

(٣) سورة ص، الآية: ٥.

(٤) سورة هود، الآية: ١٠١.

فلا قرار ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرةٍ خبيثة اجتثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾[1].

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ وبين قوله تعالى حكاية عن قريش: ﴿أجعل الآلهة إلـهًا واحدًا﴾ وبين قوله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها﴾ فهذه الآلهة مجرَّد أسماء لا معاني لها، ولا حقيقة، إذ هي باطلة شرعًا لا تستحق أن تُسمَّى آلهة، لأنَّها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق.

التوحيد عند المتكلمين:

يقولون: إنَّ معنى إلـه: آله، والآله القادر على الاختراع، فيكون معنى لا إلـه إلا الله: أي: لا قادر على الاختراع إلّا الله.

والتوحيد عندهم: أن توحد الله فتقول: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له، ولا يقولون هو واحد في عبادته، ولو كان هذا معنى لا إلـه إلا الله لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته ولآمنت به وصدَّقت، لأنَّ قريشًا تقول: لا خالق إلا الله، ولا خالق أبلغ من كلمة لا قادر، لأنَّ القادر قد يفعل، وقد لا يفعل، أمَّا الخالق فقد فعل، وحقَّق بقدرة منه، فصار توحيد المشركين خيرًا من توحيد هؤلاء المتكلِّمين والمنتسبين للإسلام، فالتوحيد الذي جاءت به الرُّسل في قوله تعالى: ﴿مالكم من إلـه غيره﴾[2] أي: من إلـه حقيقي يستحق أن يُعبد وهو الله.

ومن المُؤسف أنَّـه يوجد كثير من الكُتَّاب الآن الذين يكتبون في هذه

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

الأبـواب تجدهم عنـدمـا يتكلّمـون على التوحيد لا يقرِّرون أكثر من توحيد الـرُّبـوبية، وهذا غلط، ونقص عظيم، ويجب أن نغرسَ في قلوب المسلمين توحيد الألوهيَّة أكثر من توحيد الرُّبوبيَّة، لأنَّ توحيد الربوبيَّة لم يُنكره أحد إنكارًا حقيقيًّا، فكوننا لا نقرر إلّا هذا الأمر الفطري المعلوم بالعقل، ونسكت عن الأمر الذي في الحقيقة يغلب الهوى فيه نقص عظيم، فعبادة غير الله هي التي يسيطر هوى الإنسـان على نفسـه حتى يصرفـه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء، ويعبد هواه حتى جعل النبي ﷺ الذي همّه الدرهم والدينار جعله عابدًا[1]، وقال الله عز وجل: ﴿**أفرأيت من اتَّخذ إلـهه هواه**﴾[2].

فالمعاصي من حيث المعنى العام، أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك.

وأما بالمعنى الأخص فتنقسم إلى أنواع:

١ ـ شرك أكبر.

٢ ـ شرك أصغر.

٣ ـ معصية كبيرة.

٤ ـ معصية صغيرة.

وهذه المعاصي منها ما يَتعلَّق بحقِّ الله، ومنها ما يتعلَّق بحقِّ الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق.

وتحقيق لا إلـه إلا الله أمر في غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: «كل معصية فهي نوع من الشِّرك».

---

(١) سبق تخريجه ص (٣١).

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

. . . .

وقال بعض السَّلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص». ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن فلا يُجاهد نفسه على الإخلاص، ولهذا قِيلَ لابن عباس: «إنَّ اليهود يقولون نحن لا نوسوسُ في الصلاة، قال: فما يصنع الشيطان بقلبٍ خَربٍ». فالشيطان لا يأتي ليخرِّب المهدوم، ولكن يأتي ليخرِّب المعمور، ولهذا لَمَا شُكي للنبي، ﷺ، أن الرجل يجد في نفسه ما يستعظم أن يتكلَّم به قال: «**وجدتم ذلك؟**» قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[1] أي أنَّ ذاك هو العلامة البيِّنة على أنَّ إيمانكم صريح، لأنَّه نفر منه، وورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح.

قوله: «**من شهد أن لا إله إلا الله**» من: شرطية، وجواب الشرط: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

والشهادة هي: الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، وإلاّ فهي كذب، ولهذا لما قال المنافقون للرسول، ﷺ، ﴿**نشهد إنَّك لرسول الله**﴾[2] وهذه جملة مؤكَّدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام، كذبهم الله بقوله: ﴿**والله يعلم إنَّك لرسوله، والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون**﴾[3] فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان، لأنَّه خال من الاعتقاد بالقلب، وخال من التَّصديق بالعمل، فلم ينفع، فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان وتصديقٍ بالعمل.

وقوله: «**لا إله إلا الله**» أي: لا معبود على وجه يستحق أن يُعبد إلاّ الله،

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب الوسوسة في الإيمان ١/ ١١٩.
(٢)(٣) سورة المنافقون، الآية: ١.

. . . .

وهـذه الأصنـام التي تُعبد لا تستحق العبادة؛ لأنَّه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قوله: «**وحده لا شريك له**» وحده: للإثبات.

لا شريك له: للنفي في كل ما يختصّ به من الـرُّبـوبيَّة، والألـوهيَّة، والأسماء والصفات.

ولهـذا كان النبي، ﷺ، وغيره من المؤمنين يلجأون إلى الله تعالى عند الشدائد، فقد جاء أعرابي إلى النبي، ﷺ، وعنده أصحابه، وقد علَّق سيفه على شجرة فاخترطه الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟ قال: **يمنعني الله**»[1] ولم يقل أصحابي، وهذا هو تحقيق توحيد الرُّبوبية، لأنَّ الله هو الذي يملك النَّفع والضُّـرَّ، والخلق، والتدبير، والتَّصرف في المُلك إذ لا شريك له فيما يختصّ به من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختصّ به حتى نسلم من شُبُهات كثيرة منها شبهات النافين للصِّفات، لأنَّ النَّافين للصفات زعموا أنَّ إثبات الصفات إشراك بالله عز وجل حيث قالوا يلزم من ذلك التَّمثيل، لكننا نقول: الصِّفات للخالق تختصُّ به، والصفات للمخلوق تختص به.

قوله: «**وأنَّ محمدًا عبده ورسوله**».

محمد: هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي خاتم النبيين.

وقوله: «عبده» أي: ليس شريكًا مع الله.

---

(١) من حديث جابر رواه البخاري كتاب الجهاد/ باب من علق سيفه بالشجر ٢/٣٣٥ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين/ باب صلاة الخوف ١/٥٧٦.

. . . .

وقوله: «ورسوله» أي: ليس كاذبًا على الله.

فالرسول، ﷺ، عبدٌ مربوب، جميع خصائص البشريَّة تلحقه ما عدا شيء واحد، وهو ما يعود بأسافل الأخلاق، فهو ممنوع منه، قال تعالى: **﴿قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله﴾**(١) وقال تعالى: **﴿قل إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا﴾**(٢) وقال تعالى: **﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه مُلتحدًا﴾**(٣).

فهو بشرٌ مثلنا إلا أنه يُوحى إليه قال تعالى: **﴿قل إنَّما أنا بشر مثلكم يُوحى إليَّ أنَّما إلـٰهكم إلـٰه واحد﴾**(٤).

ومن قال: إنَّ الرسول، ﷺ، ليس له ظل، أو أن نوره يطفىء ظله إذا مشي في الشمس فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «كنت أمدّ رجلي بين يديه وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح». فلو كان النبي ﷺ له نور لم تعتذر رضي الله عنها ولكنه الغلو الذي أفسد الدين والدنيا والعياذ بالله.

ومن الغلوّ قول البوصيري في البردة المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن يوم المعاد آخذاً بيدي ... فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك لله شيئًا ما دامت الدنيا والآخرة من الرسول ﷺ.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) سورة الجن، الآية: ٢١.

(٣) سورة الجن، الآية: ٢٢.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٦.

. . . .

ونشهد أن من يقول هذا ما شهد أنَّ محمدًا عبدالله بل شهد أن محمدًا فوق الله! كيف يصل بهم الغلوّ إلى هذا الحد؟!! وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا: إنَّ المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة. وقال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح**»[1].

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: «**من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وأنا مع عبدي إذا ذكرني**»[2] والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا ليلة المولد إذا تلى التالي «**المُخرّف**» كلمة المصطفى قاموا جميعًا قيام رجل واحد. يقولون: لأنَّ الرسول، ﷺ، حضر مجلسنا بنفسه فقمنا إجلالاً له، والصحابة رضي الله عنهم أشدّ إجلالاً منهم ومنًّا ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول، ﷺ، وهو حيٌّ يُكلمهم لا يقومون، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا أو جاءهم شبح إن كانوا يشاهدون شيئًا، فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد؟ فهؤلاء ما شهدوا أن محمدًا عبدالله ورسوله، وهؤلاء المخرّفون مساكين إن نظرنا إليهم بعين القدر فنرقّ لهم ونسأل الله لهم السلامة، وإن نظرنا إليهم بعين الشرع فإننا يجب أن ننابذهم حتى يعودوا إلى الصراط المستقيم، والرسول، ﷺ، أشدُّ الناس عبودية لله أخشاهم لله وأتقاهم لله قام يصلي حتى تورَّمت قدماه وقيل له في ذلك فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[3]. وقد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر هذا

(١) من حديث عمر رواه البخاري، كتاب الأنبياء/ باب قول الله: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ ٢/٤٨٧.

(٢) من حديث أبي هريرة رواه البخاري، كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ ٤/٢٨٤، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء/ باب الحث على ذكر الله تعالى ٤/٢٠٦١.

(٣) من حديث عائشة رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب تفسير سورة الفتح ٣/٢٩٣، ومسلم كتاب صفات المنافقين/ باب إكثار الأعمال ٤/٢١٧٢.

تحقيق العبادة العظيمة.

أمـا الرسالة: فهو رسول أرسله الله عز وجل بأعظم شريعة إلى جميع الخلق فبلَّغها غاية البلاغ مع أنه أوذي وقوتل، حتى إنَّهم جاءوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوها على ظهره، كل ذلك كراهية له ولما جاء به، ومع ذلك صبر، يلقون الأذى والأنتان والأقذار على عتبة بابه لكن هذا للنبي الكريم امتحان من الله عز وجل لأجل أن يتبين فضله، لا يقول شيئًا، يخرج ويقول: «**أي جوار هذا يا بني عبد مناف من قبل قريش**». فصبر، ﷺ، وهذا امتحـان من الله عز وجل ليتبين عظم صبره، حتى فتح الله عليه، وأنذر أمَّ القرى ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانة وأقواهم على الاتباع الصحابة رضي الله عنهم، وأدّوها إلى الأمة نقيَّة سليمة، ولله الحمد.

ونحبُّ الرسول ﷺ لله وفي الله، وليس حبّنا له حبًّا مستقلاً، فحبُّ الرسول، ﷺ، من حبِّ الله، ونقدِّمه على أنفسنا، وأهلنا، وأولادنا، والناس أجمعين، وأحببناه من أجل أنه رسول الله ﷺ.

ونحقق شهـادة أنَّ محمـدًا رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا ونعترف به بألسنتنا، ونطبِّق ذلك في متابعته، ﷺ، بجوارحنا، فنعمل به، ولا نعمل له.

وحقُّ الرسول، ﷺ، علينا ما يلي:

١ ـ نؤمن بأنَّه رسول الله ﷺ.

٢ ـ نحبه لحبنا لله عز وجل.

٣ ـ نحقق شهادة أنَّ محمدًا رسول الله.

أمَّا ما ينقض تحقيق هذه الشهادة فهو:

. . . .

---

١ ـ فعـل المعـاصي، فالمعصية نقص في تحقيق هذه الشهادة، لأنَّك خرجت بمعصيتك من اتباع النبي ﷺ.

٢ ـ الابتداع في الدين ما ليس منه، نقصٌ في تحقيق هذه الشهادة لأنَّك تقـرَّبت إلى الله بما لم يشرعـه الله، ولا رسوله، ﷺ، والابتداع في الدين في الحقيقة من الاستهزاء بالله، لأنَّك تقرَّبت إليه بشيء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرُّب إلى الله بهذا العمل.

قيل له: أنت أخطأت الطريق فتعذر على نيتك، ولا تعذر على مخالفة الطريق متى علمت الحق.

فالمبتدعون قد نقول: إنَّهم يثابون على حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نُخطِّئهم فيما ذهبوا إليه، أمَّا أئمتهم الذين علموا الحق، ولكن ردّوه، ليبقوا جاههم ففيهم شبه بأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة وغيرهم الذين قابلوا رسالة النبي، ﷺ، بالرد إبقـاءً على رئاستهم وجاههم.

أمَّا بالنسبة لأتباع هؤلاء الأئمة فينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئًا، ولم يحصل منهم تقصير في طلبه، حيث ظنُّوا أنَّ ما هم عليه هو الحق فهؤلاء معذورون.

القسم الثـاني: من علموا الحق، ولكنهم ردّوه تعصُّبًا لأئمتهم فهؤلاء لا يعذرون، وهم كمن قال الله فيهم: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنَّا على آثارهم مهتدون**﴾[1].

قوله: ﴿**وأنَّ عيسى عبدالله ورسوله**﴾.

الكـلام فيهـا كالكـلام في شهـادة محمد، ﷺ، إلا أننا نؤمن برسالة

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٢. .

. . . .

عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا، فالعمل على شرعنا.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا فنحن متبعون لشريعتنا، ولهذا الشرع الذي قيل لنا فيه: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[1].

الثالثة: أن تكون مسكوتاً عنها في شريعتنا، وفي هذه الحالة اختلف علماء الأصول هل نعمل بها، أو ندعها؟

والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[2].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾[3].

وقد تطرَّف في عيسى طائفتان:

الأولى: اليهود كذَّبوا، فقالوا: بأنَّه ولد زِنا، وأنَّ أُمه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعًا، أي: محكوم عليهم عند الله أنهم قتلوه في حكم الله الشرعي لقوله تعالى عنهم: ﴿**إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم**﴾[4]. وأمَّا بالنسبة لحكم الله القدري فقد كذبوا، وما قتلوه يقينًا، بل رفعه الله إليه، ولكن شبه لهم، فقتلوا المشبه لهم، وصلبوه.

الثانية: النصارى قالوا: إنَّه ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلـهًا مع الله، وكذبوا فيما قالوا.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

. . . .

أما عقيدتنا: فنشهد أنه عبدالله، ورسوله، وأن أمه صديقة، كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنَّها عذراء ولكن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.

وفي قوله: ﴿**عبدالله**﴾ رد على النصارى.

وفي قوله: ﴿**ورسوله**﴾ رد على اليهود.

قوله: ﴿**وكلمته ألقاها إلى مريم**﴾.

أطلق الله عليه كلمة، لأنَّه خلق بالكلمة، عليه السلام، فالحديث ليس على ظاهره، إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة، لأنَّه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوَّط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية قال الله تعالى: ﴿**إنَّ مَثَل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كنْ فيكون**﴾[1].

وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله، إذ إنَّ كلام الله وصف قائم به، لا بائن منه، أمَّا عيسى فهو ذات بائنة عن الله سبحانه، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام.

قوله: ﴿**ألقاها إلى مريم**﴾.

أي: وجهها إليها بقوله: ﴿**كن فيكون**﴾ كما قال تعالى: ﴿**إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾[2].

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى وهارون عليهما السلام، ولكن كما قال الرسول، ﷺ، كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم[3]، فهارون أخو مريم، ليس

---

(١)(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٣) من حديث المغيرة بن شعبة، رواه مسلم، كتاب الأدب/ باب النهي عن التكني بأبي القاسم، وما يستحب من الأسماء ٣/ ١٦٨٥.

. . . .

هارون أخا موسى، بل هو آخر يسمى باسمه، وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى.

قوله: ﴿**وروح منه**﴾.

أي: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله، أي: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه للتشريف والتكريم.

وعيسى عليه السلام ليس روحًا، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى: ﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمّه صديقة كانا يأكلان الطعام**﴾[1].

فبالنفخ صار جسدًا، وبالروح صار جسدًا وروحًا.

قوله: ﴿**منه**﴾.

هذه هي التي أضلَّت النصارى، فضلُّوا، وأضلّوا كثيرًا، ولكننا نقول: إنَّ الله قد أعمى بصائركم، فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، فمن المعلوم أنَّ عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شيء معروف، ومن المعلوم أيضًا أنَّ اليهود يقولون: إنهم صلبوه وهل يمكن لمن كان جزءًا من الرب أن ينفصل عن الرب، ويأكل، ويشرب، ويُدَّعى أنه قُتِل وصُلِب؟

وعلى هذا تكون «من» للابتداء، وليست للتبعيض، فهي كقوله تعالى: ﴿**وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه**﴾[2] فلا يمكن أن نقول: إنَّ الشمس والقمر، والأنهار جزء من الله، وهذا لم يقل به أحد.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

فقوله: ﴿منه﴾ أي: روح صادرة من الله عز وجل، وليست جزءًا من الله كما تزعم النصارى.

واعلم أنَّ ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العين القائمة بنفسها، وإضافتها من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق كقوله تعالى: **﴿وسخرَّ لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه﴾**[1]. وقوله تعالى: **﴿إنَّ أرضي واسعة﴾**[2].

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفيته كقوله تعالى: **﴿وطهِّر بيتي للطَّائفين﴾**[3]. وكقوله تعالى: **﴿ناقة الله وسقياها﴾**[4]. وهذا القسم مخلوق.

الثاني: أن يكون شيئًا مضافًا إلى عين مخلوقة يقوم بها مثاله قوله تعالى: **﴿وروح منه﴾**[5] فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفًا، فهي روح من الأرواح التي خلقها الله، وليست جزءًا أو روحًا من الله، إذ إنَّ هذه الروح حلّت في عيسى عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله. وهذا القسم مخلوق أيضًا.

الثالث: أن يكون وصفًا غير مضاف إلى عين يقوم بها.

مثال ذلك: قوله تعالى: **﴿إنِّي اصطفيتك على النَّاس برسالاتي وبكلامي﴾**[6].

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة الشمس، الآية: ١٣.
(٥) سبق تخريجه ص (٥٧).
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.

. . . .

فالرِّسالة، والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة فهذه الصفة غير مخلوقة وبهذا يتبيَّن أن هذه الأقسام الثلاثة: قسمان منها مخلوقان وقسم غير مخلوق.

فالأعيان القائمة بنفسها، والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة. والوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق، لأنَّه يكون من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة.

وقد اجتمع القسمان في قوله: ﴿**كلمته، وروح منه**﴾.[1] فكلمته هذه وصف مضاف إلى الله، وعلى هذا فتكون كلمته صفة من صفات الله.

وروح منه: هذه أضيفت إلى عين، لأنَّ الروح حلّت في عيسى فهي مخلوقة.

قوله: «**أدخله الله الجنة**».

إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتمّ العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل.

فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاءالله عذَّبه بقدر عمله وإن شاء لم يعذِّبه، قال الله تعالى: ﴿**إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[2].

---

(١) سبق تخريجه ص (٥٧).

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.

ولهما[1] في حديث عِتْبَانَ: «**فإنَّ الله حرَّمَ على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجْهَ الله**».

قوله: «**عتبان**» هو عتبان بن مالك أحد الأنصار رضي الله عنهم كان يصلي مع النبي، ﷺ، فضعف بصره، وشقَّ عليه المجيء إلى النبي، ﷺ، فطلب من النبي، ﷺ، أن يخرج إليه، وأن يُصلي في مكان من بيته، ليتخذه مصلًّى، فخرج إليه النبي، ﷺ، ومعه طائفة من أصحابه فلما دخل البيت قال: أين تريد أن أصلي؟ قال: صل ههنا. فصلَّى بهم النبي، ﷺ، ركعتين بعد أن صفّوا وراءه، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدخشم، فقال بعضهم: هو منافق، فقال رسول الله، ﷺ: «**لا تقل هكذا، أليس يشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله؟**». فقالوا: نعم، قال: «**فإن الله حرَّم على النار . . . الحديث**».

فنهاهم أن يقولوا هكذا، لأنَّهم لا يدرون عمَّا في قلبه، لأنَّه يشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمـدًا رسـول الله، وهنـا الرسول قال هكذا، ولم يبرىء الرجل، إنَّما أتى بعبارة عامة بأنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذلـك وجـه الله، ونهى أن نطلق ألسنتنا في عباد الله الذين ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مراءٍ، هذا فاسق، وما أشبه ذلك، لأننا لو أخذنا بما نظنّ فسدت الدنيا والآخرة، فكثير من الناس نظنُّ بهم سوءًا، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك، وظاهرهم الصلاح، ولهذا قال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة.

قوله: «**فإن الله حرَّم على النار**» أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه.

---

(١) من حديث عتبـان بن مالـك، رواه البخاري، كتاب الصلاة/ باب المساجد في البيوت ١/ ١٥٤، ومسلم، كتاب المساجد/ باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر ١/ ٤٥٥.

. . . .

قوله: «**من قال لا إلـه إلا الله**» أي: يشترط الإخلاص، بدليل قوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**» أي: يطلب وجه الله، ومن طلب وجهًا فلا بد أنْ يعمل كل ما في وُسعه الوصول إليه، لأنَّ مبتغي الشيء يسعى في الوصول إليه، وعليه فلا نحتاج إلى قول الزهريّ، رحمه الله، بعد أن ساق الحديث كما في صحيح مسلم[1]، حيث قال: «ثم وجبت بعد ذلك أمور، وحُرِّمت أمور، فلا يغترّ مغترٌّ بهذا». فالحديث واضح الدلالة على شرطية العمل لمن قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله، ولذا قال بعض السلف عند قول النبي ﷺ: «**مفتاح الجنة لا إلـه إلا الله**، لكن من أتى بمفتاح لا أسنان له لا يفتح له».

قال شيخ الإسلام: إنَّ المبتغي لابد أن يُكمِّل وسائل البُغية وإذا أكملها حُرِّمت عليه النار تحريمًا مطلقًا، فإذا أتى بالحسنات على الوجه الأكمل فإنَّ النار تحرم عليه تحريمًا مطلقًا، وإن أتى بشيء ناقص، فإن الابتغاء فيه نقص، فيكون تحريم النار عليه فيه نقص، لكن يمنعه ما معه من التوحيد من الخلود في النار، وكذا من زنا، أو شرب الخمر، أو سرق، فإذا فعل شيئًا من ذلك ثم قال حين فعله: أشهد أن لا إلـه إلا الله ابتغى بذلك وجه الله، فهو كاذب في زعمه لأنَّ النبي، ﷺ، قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[2] فضلاً عن أن يكون مبتغيًا وجه الله.

وفي الحديث رد على المرجئة، والخوارج، والمعتزلة.

فالمرجئة يقولون: يكفي قول: لا إلـه إلا الله، دون ابتغاء وجه الله.

---

(١) في كتاب المساجد/ باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر ١/٤٥٦.

(٢) من حديث أبي هريرة، رواه البخاري، كتاب المظالم/ باب النهي بغير إذن صاحبه ٢/٢٠١، ومسلم كتاب الإيمان/ باب نقصان الإيمان بالمعاصي ١/٧٦.

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: ياربِّ عَلِّمني شيئًا أذكرُكَ وأدعُوكَ به، قال: قُلْ ياموسى: لا إله إلا الله، قال: يارب كلُّ عِبادِكَ يقولون هذا؟

وفيه رد على الخوارج والمعتزلة، لأنَّ ظاهر الحديث أنَّ مَنْ فعل هذه المحرَّمات لا يُخلَّد في النار، لكنه مستحق للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلَّد في النار.

قوله: «**أذكرك وأدعوك به**».

صفة لشيء أي: كي أذكرك، وأدعوك به، وليست جواب الدعاء، فموسى عليه السلام طلب أمرين:

١ ـ ذكر الله.

٢ ـ دعاؤه.

فأجابه الله بقوله: ﴿**قل لا إله إلا الله**﴾ وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء، لأنَّ الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته، إذًا فهو ذكر متضمِّن للدعاء.

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء

يعني: عطاؤك.

واستشهد ابن عباس على أنَّ الذكر بمعنى الدعاء بقول الشاعر:

إذا أثنى عليك العبد يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء

قوله: «**كل عبادك يقولون هذا**».

ليس المعنى أنها كلمة هينة كلٌّ يقولها، لأنَّ موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئًا يختصُّ به، لأنَّ تخصيص الإنسان بالأمر يدل على منقبة له، ورفعة، فبيَّن الله لموسى أنَّه مهما أعطي فلن يعطى

قال: يامـوسى، لو أنَّ السَّمٰوَاتِ السبعَ وعامرَهُنَّ غيري والأرضين السبع في كِفَّةٍ، ولا إلـه إلا الله في كِفَّةٍ، مالتْ بهنَّ لا إله إلا الله» رواه ابن حِبَّانَ والحاكم وصححهُ[1].

أفضل من هذه الكلمة، وأنَّ لا إلـه إلا الله أعظم من السموات والأرض، وما فيهن، لأنَّها تميل بهن وترجح، فدلَّ ذلك على فضل لا إلـه إلا الله، وعظمها، لكن لابد من الإتيان بشروطها، أمَّا مجرَّد أن يقولها القائل بلسانه، فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوي شيئًا لأنَّه لم يقلها على الوجه الذي تمت به الشروط، وانتفت به الموانع.

قوله: «**والأرضين السبع**». في بعض النسخ بالرَّفع، وهذا لا يصلح، لأنه إذا عطف على اسم أنَّ قبل استكمال الخبر وجب الرفع.

قوله: «**مالت**». أي: رجحت حتى يملن.

قولـه: «**عامرهن**». أي: ساكنهن، فالعامر للشيء هو الذي عُمر به الشيء.

قوله: «**غيري**» استثنى نفسه تبارك وتعالى، لأنَّ قول لا إلـه إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى في السماء ليس ككون الملائكة في السماء، فكون الملائكة في السماء كون حاجي، فهم ساكنون في السماء لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجًا إليها بل إنَّ السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى، فلا يظن ظانٌّ أنَّ السَّماء تقل الله أو تظلّه، أو تحيط به، وعليه فالسموات باعتبار الملائكة أمكنة

---

(١) رواه ابن حبان برقم (٢٣٢٤) والحاكم ٥٢٨/١ وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (١٠٢) وعزاه الهيثمي في المجمع ٨٢/١٠ لأبي يعلى وقال: «رجاله وثقـوا على ضعف فيهم». وفيه دراج بن سمعان أبو السمح وهو ضعيف، انظر تقريب التهذيب ٢٣٥/١.

وللترْمذيِّ ـ وحسَّنهُ ـ عن أنسٍ : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : **«قال الله تعالى : يا ابنَ آدم، لو أتيتني بقُرابِ الأرض خطايا، ثم لقِيتني لا تُشركُ بي شيئًا، لأتَيْتُكَ بقُرابها مغفرةً»**[1]

مقلة للملائكة، وما فوقهم منها مظلٌّ لهم، أما بالنسبة لله فهي جهة؛ لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه لا يقله شيء من خلقه.

قوله: **«بقراب الأرض»**. أي: ما يقاربها إمّا ملئًا، أو ثقلاً، أو حجمًا.

قوله: **«خطايا»**. جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب، ولو كانت صغيرة لقوله تعالى: ﴿**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته**﴾[2].

قوله: **«لا تشرك بي شيئًا»**. جملة «لا تشرك» في موضع نصب على الحال من التاء أي: لقيتني في حال لا تشرك بي شيئًا.

قوله: **«شيئًا»** نكرة في سياق النفي تفيد العموم أي لا شركًا أصغر ولا أكبر.

وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري، فحبّ المال مثلاً بحيث يلهي عن طاعة الله من الإشراك قال النبي، ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة... الحديث»**[3].

فسمّى النبي، ﷺ، من كان همّه الدينار سمّاه عبدًا له.

قوله: **«لأتيتك بقرابها مغفرة»** أي: أنَّ حسنة التوحيد عظيمة تُكفِّر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئًا.

---

(١) رواه الترمذي، الدعوات/ باب غفران الذنوب ٩/١٩٤، وقال: «حسن غريب» وقد حسنه ابن حجر والسخاوي انظر الفتوحات الربانية ٧/٢٨٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨١.

(٣) سبق تخريجه ص (٣١).

(فيه مسائل) الأولى: سعة فضل الله. **الثانية**: كثرة ثواب التوحيد عند الله. **الثالثة**: تكفيره مع ذلك للذنوب **الرابعة**: تفسير الآية التي في سورة الأنعام. **الخامسة**: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

مناسبة الحديث للترجمة:

في هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب، فهو مطابق لقوله في الترجمة: «وما يكفر من الذنوب».

قوله: «**فيه مسائل**».

الأولى: «سعة فضل الله».

لقوله: «**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**».

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

لقوله: «**مالت بهن لا إلـه إلا الله**».

الثالثة: تكفيره مع ذلك الذنوب:

لقوله: «**لأتيتك بقرابها مغفرة**» فالإنسان قد تغلبه نفسه أحيانًا، فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته، وطاعته فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام:

وهي قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾. فالظلم هنا الشِّرك لقوله ﷺ: «**ألم تسمعوا قول الرجل الصالح ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾**»(١).

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة:

١ - ٢ - الشهادتان.

---

(١) سبق تخريجه ص (٥٦).

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: «**لا إلـه إلا الله**» وتبين لك خطأ المغرورين. **السابعة**: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان. **الثامنة**: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل **لا إله إلا الله**. **التاسعة**: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

---

٣ ـ أنَّ عيسى عبدالله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فما ذُكر في موضوع واحد، يعتبره المؤلف واحدًا.

٤ ـ أنَّ الجنة حق.

٥ ـ أنَّ النار حق.

السادسة: أنَّك إذا جمعت بينه، وبين حديث عتبان، وحديث أبي سعيد، وحديث أنس تبينَّ لك معنى قول: لا إلـه إلا الله، وتبينَّ خطأ المغرورين.

لأنَّه لابدّ أن يبتغي بها وجه الله، وإذا كان كذلك، فلابدَّ أن تحمل المرء على العمل الصالح.

السابعة: التنبيه للشرط في حديث عتبان:

وهو أن يبتغي بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرَّد القول؛ لأنَّ المنافقين كانوا يقولونها، ولم تنفعهم.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إلـه إلا الله، فغيرهم من باب أولي.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أنَّ كثيراً ممن يقولها يخفّ ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسمٰوات.
الحادية عشرة: أن لهن عمارًا.

فالبلاء من القائل لا من القول، لأنَّه قد يكون اختلَّ شرطٌ من الشروط، أو وُجد مانع من الموانع، فإنَّها تخفّ بحسب ما عنده، أمَّا القول نفسه فيرجح بجميع المخلوقات.

العاشرة: النص على أنَّ الأرضين سبع كالسموات:

لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحًا أن السموات سبع بقوله تعالى: ﴿**قل من رب السموات السبع**﴾[1] لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**﴾[2]. فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن، فبقيت المثلية في العدد.

أمَّا السنَّة فهي صريحة جدًّا، بأنها سبع مثل قوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»[3].

وقد اختلف في قوله ﷺ: «**من سبع أرضين**» كيف تكون سبعًا؟

فقيل: المراد القارات السبع، وهذا ليس بصحيح، لأنَّ هذا يمتنع بالنسبة لقوله: «**طوقه من سبع أرضين**» وقيل المراد: المجموعة الشمسية، فظاهر هذا الحديث أنها طباق كالسموات، وليس لنا أن نقول إلا ما جاء في الكتاب والسنَّة عن هذه الأرضين لأننا لا نعرفها.

الحادية عشرة: أنَّ لهن عُمَّارًا. أي: السموات.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٣) من حديث سعيد بن زيد رواه مسلم، كتاب المساقاة/ باب تحريم الظلم وغصب الأرض ٣/ ١٢٣٠.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية. **الثالثة عشرة**: أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان: «**فإن الله حرَّم على النار من قال لا إلهٰ إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**». أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان. **الرابعة عشرة**: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية.

وفي بعض النُّسخ خلافًا للمعطلة، وهذه أحسن، لأنَّها أعمّ، ففيه إثبات الوجه لله سبحانه بقوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**»، وإثبات الكلام بقوله: «**وكلمته ألقاها**» والقول في قوله: «**قل لا إلـه إلا الله**».

الثالثة عشرة: إنَّك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أنَّ قوله في حديث عتبان: «**فإنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**» أنه ترك الشرك.

وفي بعض النُّسخ: إذا ترك الشرك.

أي أنَّ قوله: «**حرَّم على النار من قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذلك يعني ترك الشرك**»، وليس مجرد قولها باللسان، لأنَّ من ابتغى وجه الله في هذا القول لا يمكن أن يُشرك أبدًا.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون كل من عيسى، ومحمد عبديِّ الله ورسوله:

عبديّ: منصوب على أنه خبر كون، لأنَّ كون مصدر.

وعيسى ومحمد: اسم كون.

وتأمل الجمع من وجهين:

الأول: أنَّه جمع لكل منهما بين العبودية، والرسالة.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله. **السادسة عشرة**: معرفة كونه روحًا منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار. **الثامنة عشرة**: معرفة قوله «**على ما كان من العمل**».

الثاني: أنه جمع بين الرجلين فتبيَّن أن عيسى مثل محمد وأنَّه عبد، ورسول، وليس ربًّا، ولا ابنًا للرب سبحانه.

وقول المؤلف: «تأمل» لأنَّ هذا يحتاج إلى تأمُّل.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله:

أي: أنَّ عيسى انفرد عن محمد في أصل الخِلْقة، فقد كان بكلمة، أمَّا محمد، ﷺ، فقد خُلِقَ من ماء أبيه.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحًا منه:

أي: أنَّ عيسى روح من الله، و«من» هنا بيانية، أو للابتداء، وليست للتبعيض؛ أي روح جاءت من قبل الله وليست بعضًا من الله، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنَّة والنار:

لقوله في حديث عبادة: «**وأنَّ الجنة حق، والنار حق**» والفضل بأنه دخول الجنة.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: «**على ما كان من العمل**»:

أي: على ما كان من العمل الصالح، ولو قلّ، أو على ما كان من العمل السيء ولو كَثُر، بشرط أن لا يأتي بما ينافي التوحيد، ويوجب الخلود في النار لكن لابد من العمل.

ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج. ولم تُذكر

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان. العشرون: معرفة ذكر الوجه.

أركـان الإسلام هنا؛ لأنَّ منها ما يكفر، ومنها ما لا يُكفِّر أيّ: منها ما يكفر الإنسـان بتركـه، ومنهـا ما لا يكفـر. فإنَّ الصحيح أنَّـه لا يكفـر إلا بترك الشهادتين، والصلاة. وإن كان روي عن الإمام أحمد أنَّ جميع أركان الإسلام يكفر بتركها، لكن الصحيح خلاف ذلك.

التاسعة عشرة: معرفة أنَّ الميزان له كفَّتان:

أخذها المؤلف من قوله: «**لو أن السموات... إلخ، وضعت في كفَّة ولا إلـه إلا الله في كفَّة**».

والظاهر أن الذي في الحديث تمثيل يعني أنَّ قول: لا إلـه إلا الله أرجح من كل شيء، وليس في الحديث أنَّ هذا الوزن في الآخرة، وكأن المؤلف رحمه الله حصل عنده انتقال ذهني، فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة.

العشرون: معرفة ذكر الوجه:

وجه الله تعالى صفة من صفاته الخبرية الذاتية التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء؛ لأنَّ من صفات الله تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما مسماه بالنسبة لنا أبعاض، وأجزاء، ولا نقول بالنسبة لله تعالى أبعاض لأننا نتحاشى كلمة التبعيض في جانب الله تعالى.



بــاب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

هذا البـاب كالمتمم للباب الذي قبله، لأنَّ الذي قبله: «باب فضل التوحيد، وما يُكفِّر من الذنوب» فمن فضله هذا الفضل العظيم الذي يسعى إليه كل عاقل، ولاسيما إذا كان بغير حساب، وهو دخول الجنة بغير حساب.

قولـه: «من» شرطية، وفعل الشرط: «حقق» وجوابه: «دخل» قوله: «بلا حساب» أي: لا يُحاسب لا على المعاصي، ولا على غيرها.

وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشِّرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم فلا يمكن أن تحقق شيئًا قبل أن تعلمه، فلابد من تصوّره بعلمه قال الله تعالى: ﴿**فاعلم أنَّه لا إلـه إلا الله**﴾[1].

الثاني: الاعتقاد: فإذا علمت، ولم تعتقد، واستكبرت لم تحقّق التوحيد. قال الله تعـالى عن الكـافـرين: ﴿**أجعـل الآلهة إلـهًا واحدًا إنَّ هذا لشيء عُجاب**﴾[2]. فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية.

الثالث: الانقياد: فإذا علمت واعتقدت، ولم تنقد لم تحقق التوحيد، قال تعالى: ﴿**إنَّهم كانوا إذا قيل لهم لا إلـه إلا الله يستكبرون. ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾[3].

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد، فإنَّ الجنَّة مضمونة له بغير حساب، ولا نقول إن شاءالله، لأنَّ هذا حكم ثابت شرعًا، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالى

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٥.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

وقول الله تعالى: ﴿إنَّ إبراهيم كان أُمَّةً قانِتًا لله حنيفًا ولم يكُ من المشركين﴾(١).

بذلك في الترجمة دون أن يقول: إن شاءالله.

أمَّا بالنسبة للرجل المعيّن فإننا نقول: إن شاء الله.

قوله: ﴿أمة﴾ أي إمامًا، وقد سبق(٢) أنَّ أمة تأتي في القرآن على أربعة أوجه: إمام، ودهر، وجماعة، ودين(٣)

وقوله: ﴿إنَّ إبراهيم كان أمَّة﴾:

هذا ثناء من الله سبحانه وتعالى على إبراهيم بأنَّه إمام متبوع؛ لأنَّه أحد الرسل الكرام من أولي العزم، ثم إنَّه، ﷺ، قدوة في أعماله، وأفعاله، وجهاده، فإنَّه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٢) وقال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٢٠): «وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له، فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله... فمن حقق التوحيد بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت إلى أوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على المعاصي فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص مايدل على تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شؤونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهر وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه، وجميع أحواله كلها مقصود بها وجه الله متبعاً فيها رسول الله».

(٣) سبق ص (٢١).

ثم ابتلاه الله سبحانه وتعالى بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيده، وقد بلغ معه السعي، أي شب، وترعرع، فليس كبيراً قد طابت النفس منه، ولا صغيراً لم تتعلق به النفس كثيراً، فصار على منتهى تعلّق النفس به.

ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله، قال تعالى عنه: **﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾**[1]. لم يحنث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من برّه بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالى، انظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله في قوله: **﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾**.

فالسين في قوله: **﴿ستجدني﴾** تدل على التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد على نفسه، بل استعان بالله في قوله: **﴿إن شاءالله﴾**.

وامتثلا جميعًا وأسلما، وانقادا لله عز وجل، وتلَّه للجبين أي: على جبين أي جبهته؛ لأجل أن يذبحه وهو لا يرى وجهه فجاء الفرج من الله تعالى: **﴿وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدَّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾**[2]، ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديدًا.

فهو إمام في الصبر على أمر الله عز وجل.

قوله: **﴿قانتًا﴾**. القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها على كل حال، فهو مطيع لله ثابت على طاعته، مديم لها في كل حال.

كما أنَّ ابنه محمدًا، ﷺ، يذكر الله على كل أحيانه[3]، إن قام ذكر الله، وإن جلس ذكره، وإن نام وإن أكل، وإن قضى حاجته ذكر الله، فهو قانت آناء الليل والنهار.

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٠٤، ١٠٥.

(٣) من حديث عائشة رواه مسلم، كتاب الحيض/ باب ذكر الله تعالى حال الجنابة ١/ ٢٨٢.

. . . .

قوله: ﴿حنيفًا﴾ أي: مائلاً عن الشرك، مجانبًا لكل ما يخالف الطاعة، فوصف بالإثبات، والنفي أي: بالوصفين الإيجابي والسلبي.

قوله: ﴿ولم يك من المشركين﴾ تأكيد، أي لم يكن مشركًا طول حياته، فقد كان عليه الصلاة والسلام معصومًا عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله بامتناع الشرك استمرارًا في قوله: ﴿حنيفًا﴾ وابتداءً في قوله: ﴿ولم يكُ من المشركين﴾. والدليل على ذلك: أنَّ الله جعله إمامًا، ولا يجعل الله للناس إمامًا من لم يحقق التوحيد أبدًا.

ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وجد أنه في غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفي غاية ما يكون من مراتب اليقين؛ لأنَّه لا يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب. فمن عنده شك أو تردد لا يصبر على هذا؛ لأنَّ النفس لا تدع شيئًا إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئًا إلا ما تيقنت فائدته. لأنَّ ما عندها فيه شك لا تسعى لأجله.

ويجب أن نعلم أنَّ ثناء الله على أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هامان:

الأول: محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيرًا، كما أنَّ من أثنى الله عليه شرًّا فإننا نبغضه، ونكرهه، فنحب إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّه كان إمامًا حنيفًا قانتًا لله، ولم يكن من المشركين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا، لأنهم قائمون بأمر الله، ونكره الشياطين؛ لأنَّهم عاصون لله، وأعداء لنا، ولله، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنَّهم عاصون لله أيضًا.

الثاني: أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنى الله بها عليه لأنَّها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالى: ﴿لقد كان في

قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾[1] وقال تعالى: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾**[3].

وهذه مسألة مهمة، لأنَّ الإنسان أحيانًا يغيب عن باله الغرض الأول، وهو محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيرًا، ولكن هذا ينبغي أن لا يغيب؛ لأنَّ الحب في الله، والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان.

فائـدة: أبوإبراهيم مات على الكفر، والصواب الذي نعتقده أن اسمه آزر كما قال الله تعالى: **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصنامًا آلهة﴾**[4] وقال تعالى: **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إيَّاه﴾**[5] لأنَّه قال: **﴿سأستغفر لك ربي إنَّه كان بي حفيًّا﴾**[6]. **﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منـه إن إبـراهيم لأواه حليم﴾**[7]. وفي سورة إبـراهيم قال: **﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾**[8]. ولكن فيها بعد تبرأ منه.

أما نوح فقال: **﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنـات﴾**[9] وهذا يدل على أن أبوي نوح كانا مُؤمنيْن. قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: المغازي والملاحم والتفسير، فهذه الغالب فيها أنَّها تذكر بدون إسناد، ولهذا فإن المفسرين يذكرون قصة آدم **﴿فلما آتاهما صالحًا﴾**[10]

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١١٤.
(٦) سورة مريم، الآية: ٤٧.
(٧) سورة التوبة، الآية: ١١٤.
(٨) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.
(٩) سورة نوح، الآية: ٢٨.
(١٠) سورة الأعراف، الآية: ١٩٠.

وقال: ﴿والَّذِينَ هم بِربِّهِمْ لا يُشركون﴾[1].

وقليل منهم من ينكر القصة المكذوبة في ذلك.[2] فالقاعدة إذاً: أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئاً إلا من طريق الوحي، قال تعالى: **﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾**[3].

قوله: **﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾**. هذه الآية سبق لها طرف وهو قوله: **﴿إنَّ الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾**[4].

لكن المؤلف ذكر الشاهد. و**﴿من خشية ربهم﴾** أي: من خوفهم منه. و**﴿مشفقون﴾** أي: خائفون من عذابه إن خالفوه.

فالمعـــاصي بالمعنى الأعمّ - كما سبق -[5] شرك لأنَّها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: **﴿أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه﴾**[6].

أما بالنسبة للمعنى الأخص، فيقسمها العلماء قسمين:

١ - شرك.

٢ - فسوق.

وقوله: **﴿لا يشركون﴾** يُراد به الشرك بالمعنى الأعم، إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلّا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي، لأنَّ كل ابن آدم خطَّاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا، فإنَّهم

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٩.

(٢) انظر الجزء الثالث باب قول الله تعالى: **﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما...﴾**.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٩.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٧.

(٥) انظر ص٤٤.

(٦) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

وعن حُصين بن عبدالرحمن قال: «كنتُ عند سعيد بن جُبيْرٍ فقال: أيُّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلتُ: أمَا إنِّي لم أكنْ في صلاةٍ.

يتوبون، ولا يستمرون عليها كما قال تعالى: ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾[1].

لكن هل هذه النقطة الصغيرة تبقى وتكبر، أو تزول؟ فالذي لا يشرك تزول، لأنَّه يرى أن هذه المعصية على نفسه أثقل من الجبل أما الفاسق المستهين فيرى المعصية كما ورد في الحديث كالذباب وقع على أنفه يقول به هكذا[2] ولا يهمه، لكنَّ الإنسان الذي قلبه حيّ لا يكاد يذكر هذا الذنب إلا أحدث له توبة.

قوله: «**عن حصين بن عبدالرحمن قال كنت عند سعيد بن جبير**»:

وهما رجلان من التابعين.

قوله: «**انقضَّ البارحة**» أي: سقط، والبارحة: قال بعض أهل اللغة: ما بعد الزوال تقول البارحة، وقبل الزوال تقول الليلة.

وهذه المسألة تحتاج إلى تحقيق، وأنا لم أحققها هل هذا عند جميع علماء اللغة؟

وأمَّا في عرفنا فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول البارحة، ومن غروب الشمس إلى طلوعها نقول الليلة.

بل بعضهم يتوسع متى قام من الليل قال: البارحة، وإن كان الأمر كذلك، فإن هذا الجلوس كان بعد الظهر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٢) موقوفًا على ابن مسعود رواه البخاري، كتاب الدعوات/ باب التوبة ٤/ ١٥٤.

ولكنّي لُدِغْتُ، قال: فما صنعت؟ قلتُ: ارتقيت. قال: فما حملك على ذلـك؟ قلت: حديث حدثناهُ الشعبيّ، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيْبِ أنه قال: لا رُقْية إلا من عَيْنٍ أو حُمةٍ،

قوله: «فقلت أنا» أي: حصين.

قوله: «أما إني لم أكن في صلاة» أما: أداة استفتاح، وقيل: إنَّها بمعنى حقًّا، وعلى هذا فتفتح همزة «إن» فيقال: أما أني لم أكن في صلاة أي حقًّا لم أكن في صلاة.

وقـال هذا رحمه الله لئلا يظن أنه قائم يصلي فيحمد بما لم يفعل وهذا خلاف ما عليه بعضهم يفرح أنَّ الناس يتوهمون أنَّه يقوم يصلي، وهذا من نقص التوحيد.

وقول حصين رحمه الله ليس من باب المراءاة، بل هو من باب الحسنات، وليس كمن يترك الطاعـات خوفًـا من الـرياء؛ لأنَّ الشيطان قد يلعب على الإنسان، ويُزيِّن له ترك الطاعة خشية الرياء، بل افعل الطاعة، ولكن لا يكن في قلبك أنَّك ترائي الناس.

قوله: «لدغت» أي: لدغته عقرب، أو غيرها، والظاهر أنها شديدة لأنَّه لم ينم منها.

قولـه: «ارتقيت» أي: استرقيت، لأنَّ افتعل مثل استفعل وفي رواية مسلم: «ارتقيت» أي: طلب الرقية.

قوله: «فما حملك على ذلك» أي: قال سعيد: ما السبب أنَّك استرقيت.

قولـه: «حديث حدثناه الشعبي» وهذا يدل على أن السلف رضي الله عنهم يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة.

فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه، ويعرف مستنده.

قال قد أحْسن من انتهى إلى ما سمع .

قوله : «**لا رقية**» أي : لا قراءة على مريض ، أو مصاب .

قوله : «**من عين**» ويسميها العامة الآن «النحاتّة» وبعضهم يسميها الحسد .

قولـه : «**حُمَة**» أي : سم ، لدغته إحدى ذوات السموم ، والعقرب من ذوات السموم .

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن سن انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس . . . إلخ .

إذن فحصين استند على حديث : «**لا رقية إلا من عين أو حُمَةٍ**» ، وهذا يدل على أنَّ الرقية من العين ، أو الحمة مفيدة ، وهذا أمر واقع فإنَّ الرقى تنفع بإذن الله من العين ، ومن الحمة أيضًا ، وكثير من الناس يقرأون على الملدوغ ، فيبرأ حالاً ، ويدل لهذا قصة الرجل الذي بعثه النبي ، ﷺ ، في سرية فاستضافوا قومًا فلم يضيِّفوهم ، فلدغ سيدهم لدغته حيَّة فقالوا : من يرقي؟ فقالوا : لعل هؤلاء الـركب عنـدهم راق فجاؤوا إلى السرية ، قالوا : هل فيكم من راق؟ قالوا : نعم ، ولكن لا نرقي لكم إلا بشيء من الغنم ، فقالوا : نعطيكم ، فاقتطعوا لهم من الغنم ، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة ، قرأها ثلاثاً ، أو سبعاً ، فقام كأنما نشط من عقال ، فانتفع اللديغ بقراءتها ، ولهذا قال ﷺ : «**وما يدريك أنها رقية**» يعني الفاتحة[1] . وكذا القراءة من العين مفيدة .

ويستعمـل للعين طريقة أخرى غير الرقية ، وهو الاستغسال وهي أن يؤتى بالعائن ، ويطلب منه أن يتوضأ ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه ، ويصب على المصاب ، ويشرب منه ، ويبرأ بإذن الله .

---

(١) من حديث أبي سعيد رواه البخاري ، كتاب الإجارة/ باب ما يعطى في الرقية ٢/ ١٣٦ . ومسلم ، كتاب السلام/ باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن ٤/ ١٧٢٧ .

ولكن حدثنا ابن عبّاس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضتْ عليّ الأمَمُ، فرأيتُ النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ.

وهناك طريقة أخرى، ولا مانع منها أيضًا، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره أي: ما يلي جسمه من الثياب كالثوب، والطاقية والسروال وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب، أو يشربه. وهو مُجرَّب.

وأما العائن، فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يُبرّك عليه لقول النبي، ﷺ، لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: «**هلا برَّكت عليه**»[1] أي قلت: بارك الله عليك.

ويقولون أيضًا لأجل تبطل العين: أنَّك تصلي على العائن صلاة الميت.

قوله: «**ولكن حدثنا**» القائل: سعيد بن جبير.

قوله: «**عرضت علي الأمم**» العارض لها الله سبحانه وتعالى، وهذا في المنام، والأمم جمع أمة، وهي أمم الرسل.

قوله: «**الرهط**» من الثلاثة إلى التسعة.

قوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان**». الظاهر: أنَّ الواو بمعنى أو، أي: ومعه الرجل أو الرجلان؛ لأنَّه لو كان معه الرجل والرجلان صار يغني أن يقول: ومعه ثلاثة، لكن المعنى: والنبي ومعه الرجل، والنبي الثاني ومعه الرجلان.

قوله: «**والنبي وليس معه أحد**» أي: يبعث، ولا يكون معه أحد، لكن

---

(١) من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه، رواه مالك في الموطأ، كتاب العين/ باب الوضوء من العين ٢/٩٣٨، ورجاله ثقات، انظر حاشية زاد المعاد ٤/١٦٣.

إذ رُفع لي سوادٌ عظيمٌ، فظننت أنهمْ أُمَّتي.
فقيل لي: هذا موسى وقومُه، فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أُمَّتُك. ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ».
ثم نهض فدخل منزله. فخاض الناسُ في أولئك، فقال بعضُهم: فلعلهم الذين صَحِبوا رسول الله ﷺ.

يبعثه الله لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذ يعذر الله من الخلق، ويقيم عليهم الحجة.

قوله: «**إذ رفع لي**» هذا على تقدير محذوف أي: بينما أنا كذلك إذ رفع لي.

قوله: «**سواد عظيم**» المراد بالسواد هنا، الظاهر: أنَّه الأشخاص، ولهذا يقول: ما رأيت سواده أي شخصه، أي: أشخاصًا عظيمة كانوا من كثرتهم سوادًا لأنَّ السواد يطلق على الشخص.

قوله: «**فظننت أنَّهم أمتي**» لأنَّ الأنبياء عرضوا عليه بأممهم فظنَّ هذا السواد أمته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله: «**فقيل لي هذا موسى وقومه**» وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم.

قوله: «**فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك**» وهذا أعظم من السواد الأول، لأنَّ أمة النبي، ﷺ، أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

قوله: «**بغير حساب ولا عذاب**» أي: لا يُعذَّبون ولا يُحاسبون كرامة لهم، وظاهره أي: لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة.

قوله: «**فخاض الناس في أولئك**» هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظريًّا، وعمليًّا حتى يكونوا منهم.

وقال بعضُهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام فلم يُشركوا بالله شيئًا. وذكـرُوا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروهُ. فقال: «**هُمُ الذين لا يَسْترْقُون**

قولـه: «**الـذين صحبـوا رسول الله**» يحتمل أنَّ المراد الصحبة المطلقة ويؤيده ظاهر اللفظ.

ويحتمـل أنَّ المـراد الذين صحبوه في هجرته، ويؤيده أنَّه لو كان المراد الصحبة المطلقة لقالوا: نحن؛ لأنَّ المتكلم هم الصحابة ويدل على هذا قول الرسول، ﷺ، لخالد بن الوليد: «**لا تسبوا أصحابي**»[1] فإنَّ المراد بهم الذين صحبوه في هجرته، لكن يمنع منه أنَّ المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفًا.

ويمنع الاحتمال الأول: أنَّ الصحابة أكثر من سبعين ألفًا. ويحتمل أنَّ المراد من كان مع الرسول، ﷺ، إلى فتح مكة، لأنَّه بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجًا.

وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر.

قولـه: «**الذين ولدوا في الإسلام**» أي: من ولد بعد البعثة، وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفًا.

قوله: «**فخرج عليهم رسول الله**» أي: أخبروه بما قالوا، وما جرى بينهم.

قوله: «**لا يسترقون**» في بعض روايات مسلم[2] «**لا يرقون**» ولكن هذه

---

(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رواه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، ﷺ، / باب قول النبي، ﷺ: «لـو كنت متخذًا خليلًا» ٣/٨، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة/ باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ٤/٦٧١٩.

(٢) في كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ١/٢٠٠.

. . . .

الرواية خطأ كما قال شيخ الإسلام، لأنَّ الرسول، ﷺ، كان يرقي[1] ورقاه جبريل[2] وعائشة[3] وكذلك الصحابة كانوا يرقون[4][5].

واستفعل بمعنى طلب الفعل مثل: استغفر أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى: أي: طلب الرقية أي: لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم لما يلي:

١ ـ لقوة اعتمادهم على الله.

٢ ـ لعزَّة نفوسهم عن التذلل لغير الله.

٣ ـ ولما في ذلك من التعلُّق بغير الله.

---

(١) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب الطب/ باب رقية النبي، ﷺ، ٤/ ٤٤. ومسلم كتاب السلام/ باب استحباب الرقية من العين ٤/ ١٧٢٤.

(٢) من حديث عائشة رواه مسلم، كتاب السلام/ باب الطب والمرض والرقى ٤/ ١٧١٨.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن / باب فضل المعوذات ٣/ ٣٤٤، ومسلم كتاب السلام / باب رقية المريض ٤/ ١٧٢٣.

(٤) كما في قصة صاحب السرية.

(٥) فعند شيخ الإسلام: أن الرقية إذا فعلها الإنسان بنفسه أو بغيره فإنها لا تنافي التوكل، وأن الذي ينافي تمام التوكل هو طلب الرقية من الناس.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١/ ١٨٢: «. . . فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون: أي لا يطلبون من أحد أن يرقيهم، والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك، وقد روي فيه: «ولا يرقون» وهو غلط فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة، وكان النبي - ﷺ - يرقي نفسه وغيره، ولم يكن يسترقي فإن رقية نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره، وهذا مأمور به، فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك في قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم».

ولا يكْتوُون ولا يتطيّرُون.

قولـه: «**ولا يكتوون**» لأنَّ النبي ، ﷺ ، كوى سعد بن معاذ في أكحله[1][2].

ومعنى اكتوى: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: «**ولا يسترقون**».

أما بالنسبة لمن أُعد للكي من قبل الحكومة، فطلب الكي منه ليس فيه ذلّ، لأنَّه معد من قبل الحكومة يأخذ الأجر على ذلك من الحكومة، ولأنَّ هذا الطلب مجرد إخبار من الطالب بأنَّه محتاج إلى الكي، وليس سؤال تذلل.

أمّا بالنسبة للاعتماد على الله ففيه نوع من ضعف الاعتماد على الله، على أنَّ في نفسي شيئًا من هذا الأمر، إذا كان الإنسان معدًّا لهذا الأمر، فإنَّ غاية ما يقول: إنني مريض، وأُريد أن تكويني وهذا خبر وليس فيه طلب.

قوله: «**ولا يتطيرون**» مأخوذ من الطير، والمصدر منه طيرة والتطيُّر هو اسم المصدر، والفعل تطيَّر.

وأصله التشاؤم بالطير، ولكنه أعمُّ من ذلك فهو: التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتَّطيُّر حتى لو أراد الإنسان منهم خيرًا ثم رأى الطير سنحت يمينًا، أو شمالاً حسب ما كان معروفًا عندهم تجده يتأخَّر عن هذا الذي أراده.

ومنهم من إذا سمع صوتًا، أو رأى شخصًا تشاءم، ومنهم من يتشاءم في

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب السلام/ باب لكل داء دواء ٤/١٧٣١.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد ٤/٦٥: «فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته له، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه، ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى، فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو النوع الذي لا احتياج إليه بل يفعل خوفاً من حدوث الداء».

وعلى ربهم يتوكَّلُون».

شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: «عقد عليَّ رسول الله، ﷺ، في شوال، وبنى بي في شوال، فأيكنَّ كان أحظى عنده»[1].

ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر، وهذا كله مما أبطله الشرع لضرره على الإنسان عقلاً، وتفكيراً، وسلوكًا، وكون الإنسان لا يبالي بهذه الأمور هذا هو التوكّل على الله ولهذا ختم المسألة بقوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**». فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على قوة توكُّلهم.

هل هذه الأشياء تدل على أنَّ من لم يتَّصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أنَّ الكمال فاته إلاّ بالنسبة للتّطيُّر فإنَّه لا يجوز؛ لأنَّه ضرر وليس له حقيقة أصلاً.

أما بالنسبة لطلب العلاج، فالظاهر أنه مثله؛ لأنَّه عام، وقد يقال: إنَّه لولا قوله: «**ولا يسترقون**» لقلت: إنَّه لا يدخل؛ لأنَّ الاكتواء ضرر محقق: إحراق بالنار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجى لكن كلمة «**يسترقون**» مشكلة، فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تضر، وهنا نقول الدواء مثلها لأنَّ الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضر أيضًا؛ لأنَّ الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وهل نقول مثلاً ما تؤكد منفعته إذا لم يكن في الإنسان إذلال لنفسه فهو لا يضر، أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثل: الكسر، وقطع العضو مثلاً، أو كما يفعل الناس الآن في الزائدة، وغيرها.

ولو قال قائل: بالاقتصار على ما في هذا الحديث، وهو أنَّهم لا يسترقون

---

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح/ باب استحباب التزوج والتزويج في شوال ٢/١٠٣٩.

. . . .

ولا يكتــوون، ولا يتطيرون، وأنَّ ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حســاب، ولا عذاب، للنصـوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء على بعض الأدوية، كالعسل[1] والحبة السوداء[2] لكان له وجه[3].

---

(١) كحديث ابن عباس مرفوعًا: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي» رواه البخاري، كتاب الطب/ باب الشفاء في ثلاث ٤/٣٢.

(٢) لحديث عائشة مرفوعًا: «إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا من السام قلت: وما السام؟ قال: الموت». رواه البخاري، كتاب الطب/ باب الحبة السوداء ٤/٣٤، ومسلم، كتاب السلام/ باب التداوي بالحبة السوداء ٤/١٧٣٥.

(٣) قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد ص (١١٠): «واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيمي، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ أي كافية، إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله كالاسترقاء والاكتواء، فتركهم لها ليس لكونه سبباً، لكن لكونه سبباً مكروهاً، لا سيما والمريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت.

أما مباشرة الأسباب نفسها، والتداوي على وجه لا كراهية فيه فغير قادح في التوكل فلا يكون تركه مشروعاً كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً: «**ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء**»، وعن أسامة بن شريك أن النبي - ﷺ -: «**ياعباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد، قالوا: ماهو؟ قال: الهرم**» أخرجه أحمد. وقال ابن القيم في: زاد المعاد ٤/١٤: فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها، والأمر بالتداوي وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً وأن تعطيلها يقدح في مباشرته في التوكل نفسه، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ماينفع العبد في دينه، =

فقام عُكَّاشةُ بن مِحْصن فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم،

وإذا طَلبَ منك إنسان أن يرقيك فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب: لا يفوتك لأنَّ النبي، ﷺ، لم يمنع عائشة أن ترقيه[1]، وهو أكمل الخلق توكّلاً على الله وثقة به، ولأنَّ هذا الحديث «**لا يسترقون**» إلخ إنَّما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب.

قوله: «**فقال أنت منهم**» وقول الرسول، ﷺ، هذا هل هو بوحي من الله إقراري، أو وحي إلهاميّ، أو وحي رسول؟

مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامي، أو بواسطة الرسول، أو وحي إقراري بمعنى أن الرسول يقولها فإذا أقرَّه الله عليه صارت وحيًا إقراريًّا.

لكن رواية البخاري: «**اللهم اجعله منهم**» تدل على أن الجملة «**أنت منهم**» خبر بمعنى الدعاء.

= ولابد مع هذا من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل عجزه توكلاً، ولا توكله عجزاً».

مسألة: واختلف العلماء في التداوي هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟ فالمشهور عن الإمام أحمد الأول، والمشهور عند الشافعي الثاني، ومذهب أبي حنيفة: مؤكد حتى يداني به الوجوب، ومالك: يستوي فعله وتركه.

وقال شيخنا كما في الشرح الممتع - أول كتاب الجنائز:

والصحيح:

١ - أن ماعلم أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك بعدمه فهو واجب.

٢ - ماغلب على الظن نفعه، لكن ليس هناك هلاك محقق بتركه فهو أفضل.

٣ - ماتساوى فيه الأمران فتركه أفضل

(١) سبق تخريجه ص (٩٧).

ثم قام رجـلٌ آخـرُ فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: **سَبَقك بها عُكاشةُ»**[1].

قوله: **«ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عُكاشة»** لم يرد النبي، ﷺ، أن يقول له: لا، ولكن قال: سبقك بها أي: بهذه المنقبة والفضيلة أو بهذه المسألة عُكاشة بن مُحصن.

وقد اختلف العلماء لماذا قال الرسول، ﷺ، هذا الكلام؟

فقيل: إنه كان منافقًا فأراد الرسول، ﷺ، ألّا يجابهه بما يكره تأليفًا.

وقيل: خاف أن ينفتح الباب فيطلبها من ليس منهم، فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلاً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق/ باب يدخل الجنة سبعون ألفًا ٤/١٩٩، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ١/١٩٩.

فيه مسائل : الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد. **الثانية**: ما معنى تحقيقه. **الثالثة**: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكُ من المشركين. **الرابعة**: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

قوله: «**فيه مسائل**» أي: في هذا الباب مسائل:

المسألة الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

وهذه مأخوذة من قوله: «**يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**» ثم قال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيَّرون**»[1].

الثانية: ما معنى تحقيقه:

أي: تحقيق التوحيد، وسبق لنا في أول الباب: أنَّ تحقيقه: تخليصه من الشرك.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين: وهو ظاهر في الآية الكريمة: ﴿**إنَّ إبراهيم كان أمَّة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين**﴾[2] فإنَّ هذه الآية لا شك أنها سيقت للثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه دل ذلك على أنَّ كل من انتفى عنه الشرك فهو محل ثناء من الله سبحانه وتعالى.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك: لقوله تعالى: ﴿**والذين هم بربِّهم لا يشركون**﴾ وهذه الآية في سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقوله: ﴿**إنَّ الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم بربهم لا يشركون، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنَّهم إلى ربهم راجعون، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**﴾[3].

---

(١) سبق تخريجه ص (٩٩).

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧ ـ ٦١..

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد. **السادسة**: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل. **السابعة**: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل. **الثامنة**: حرصهم على الخير. **التاسعة**: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها أي: أولياء السادات وليس يريد رحمة الله الأسياد أو السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذين هم سادات الخلق.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد:

لقوله: «**الذين لا يسترقون ولا يكتوون**» فالمراد بقول المؤلف: «الرقية والكي» الاسترقاء والاكتواء.

السادسة: كون الجامع لتلك الخِصال هو التوكّل: الجامع لتلك الخصال هو ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء وترك التطيُّر يعني أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله عز وجل.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفة أنَّهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل: أي: لم ينل هؤلاء السبعون ألفًا هذا الثواب إلا بعمل. ووجهه: أنَّ الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء.

الثامنة: حرصهم على الخير: وجهه: خوضهم في هذا الشيء لأنَّهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكميَّة والكيفيَّة: أما الكميَّة: فلأن النبي ، ﷺ رأى سوادًا عظيمًا أعظم من السواد الذي كان مع موسى، وأما الكيفيَّة: فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكّلون.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى. **الحادية عشرة**: عرض الأمم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ **الثانية عشرة**: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها. **الثالثة عشرة**: قلة من استجاب للأنبياء.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى: وهو مأخوذ من قوله: «**إذ رفع لي سواد عظيم**» ولكن قد يقال: إنَّ التعبير بقول: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث لأنَّ الحديث يقول: «**سواد عظيم فظننت أنَّهم أمتي**» وهذا يدل على الكثرة.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه، عليه الصلاة والسلام: وهذا له فائدتان:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول، عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد فيتسلى بذلك عليه الصلاة والسلام ويقول: ﴿**ما كنت بدعًا من الرسل**﴾.

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام، وشرفه حيث كان أكثرهم أتباعًا وأفضلهم، فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان.

الثانية عشرة: أنَّ كل أمة تحشر وحدها مع نبيها:

لقوله: «**رأيت النبي، ومعه الرجل والرجلان**» ولولا أنَّ كل نبي متميز عن النبي الآخر لاختلط بعضهم ببعض، ولم يعرف الأتباع من غير الأتباع ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿**وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها**﴾[1] فإنه يدل على أنَّ كل أمة تكون وحدها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء: وهو واضح من قوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد**».

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

الـرابعـة عشرة: أن من لم يجبه أحدٌ يأتي وحده.

الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة. **السادسة عشرة**: الرخصة في الرقيةِ من العينِ والحمةِ.

الرابعة عشرة: أنَّ من لم يجبه أحد يأتي وحده: لقوله: «**والنبي وليس معه أحد**».

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم وعدم الاغترار بالكثرة، فإنَّ الكثرة قد تكون ضلالاً قال الله تعالى: ﴿**وإنْ تُطع أكثر من في الأرض يضلُّوك عن سبيل الله**﴾[1]. وأيضًا الكثرة من جهة أخرى إذا اغترَّ الإنسان بكثرته وظنَّ أنه لن يغلب أو أنه منصور فهذا أيضًا سبب للخذلان فالكثرة إن نظرنا إلى أن أكثر أهل الأرض ضلّال لا تغتر بهم، فلا تقل: إنَّ الناس على هذا، كيف أنفرد عنهم؟

كذلك أيضًا لا تغترّ بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق فكلام المؤلف له وجهان:

الوجه الأول: أن لا نغترّ بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الـوجه الثاني: أن لا نغتر بكثرة الناجين فيلحقنا الإعجاب بالنفس، وعدم الزهد في القلة: أي: أن لا نزهد بالقلة فقد تكون القلة خيرًا من الكثرة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحُمة. مأخوذة من قوله: «**لا رقية إلا من عين أو حُمة**».

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

السابعة عشرة: عمقُ علم السلفِ لقوله (**قد أحسنَ من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكـذا**) فعلَم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني. **الثامنة عشرة**: بُعد السلفِ عن مدحِ الإنسان بما ليس فيه. **التاسعة عشرة**: قوله: (**أنت منهم**) علم من أعلام النبوة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله: «**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا**» **فعلم أنَّ الحديث الأول لا يخالف الثاني**.

لأنَّ قوله: لا رقية إلا من عين أو حُمة لا يخالف الثاني؛ لأنَّ الثاني إنَّما هو في الاسترقاء، والأول في الرقية، فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه فإنه لا ينافي قوله: «**ولا يسترقون**» لأن هناك ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال لأنَّه لم يسترق ولم يطلب.

المرتبة الثالثة: أن يمنع من يرقيه وهذا خلاف السنة فإن النبي، ﷺ، لم يمنع عائشة أن ترقيه، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحدًا أن يرقيهم[1] لأنَّ هذا لا يُؤثر في التوكّل.

الثامنة عشرة: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه: يؤخذ من قوله: «**أما أني لم أكن في صلاة ولكني لدغت**» لأنَّه إذا كان رأى الكوكب الذي انقض استلزم أن يكون يقظانًا، واليقظان: إما أن يُصلي، وإمّا أن يكون له شغل آخر، وإما يكون لديه مانع من النوم.

التاسعة عشرة: قوله: «**أنت منهم**» علم من أعلام النبوة: يعني دليلاً على نبوة الرسول، ﷺ، وكيف ذلك؟ لأنَّ عُكَّاشة بن محصن، رضي الله عنه، بقي محروسًا من الكفر حتى مات على الإسلام، فيكون في هذا علم، يعني

العشرون: فضيلة عكاشة. الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.
الثانية والعشرون: حسنُ خلقهِ ﷺ.

دليلاً من دلائل نبوة الرسول، ﷺ، هذا إذا قلنا إنَّ الجملة خبرية ليست جملة دعائية، فإن قلنا إنها جملة دعائية فقد نقول أيضًا: فيه علم من أعلام النبوة وهو أن الله استجاب دعوة الرسول، ﷺ، لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء فقد تجاب دعوة من ليس بنبي وحينئذٍ لا يمكن أن تكون علمًا من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة.

العشرون: فضيلة عُكَّاشة: بكونه ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم؛ لأنَّ الرسول، ﷺ، شهد له بها.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض: وفي المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لقول الرسول، ﷺ: «**سبقك بها عُكاشة**» فإن هذا في الحقيقة ليس هو المانع الحقيقي، بل المانع ما أشرنا إليه في الشرح إما أن يكون هذا الرجل منافقًا فلم يُرد النبي، ﷺ، أن يجعله مع الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب، وإمّا خوفًا من انفتاح الباب فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ: وذلك لأنه ردَّ هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.

بـاب
الخوف من الشرك[1]

وقولِ الله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفرُ أن يُشرك به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاءُ﴾[2]. .

مناسبة الباب للبابين قبله:

في الباب الأول ذكر المؤلف رحمه الله، تحقيق التوحيد، وفي الباب الثاني ذكر أنَّ من حقَّق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلَّث بهذا الباب رحمه الله تعالى؛ لأنَّ الإنسان يرى أنَّه قد حقَّق التوحيد، وهو لم يحقِّقه، ولهذا

---

(١) الشرك قسمان:

الأول: الشرك الأكبر: وهو أن يجعل الإنسان لله نداً في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته.

انظر: معارج القبول ٢/٤٨٣، وفتاوى اللجنة الدائمة ١/٥١٦.

وقال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٢٤): «هو أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه، أو يرجوه، أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعاً من أنواع العبادة».

الثاني: الشرك الأصغر: وهو ما أتى في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

انظر: باب من تبرك بشجر أو حجر، المجموع الثمين ٢/٢٧.

وقال السعدي في القول السديد ص (٢٤): «فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك كالغلو في المخلوق الذي يبلغ رتبة العبادة كالحلف بالله، ويسير الرياء، ونحو ذلك». وقال ص (٤٥): «هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات، والأقوال، والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة».

وفي فتاوى اللجنة الدائمة ١/٥١٧: «كل مانهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الأكبر، ووسيلة للوقوع فيه، وجاء في النصوص تسميته شركا».

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.

. . . .

قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»، وذلك أن النفس متعلِّقة بالدنيا تريد حظوظها من مال، أو جاه، أو رئاسة، قد تريد بعمل الآخرة الدنيا، وهذا نقص في الإخلاص، وقلَّ من يكون غرضه الآخرة في كل عمله، ولهذا أعقب المؤلف، رحمه الله، ما سبق من البابين بهذا الباب وهو الخوف من الشرك.

قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾: لا: نافية. أن يشرك به: فعل مضارع مقرون بأن المصدريَّة، فيحول إلى مصدر تقديره: إن الله لا يغفر الإشراك به، أو لا يغفر إشراكًا به، فالشرك لا يغفره الله أبدًا، لأنَّه جناية على حقّ الله الخاصّ، وهو التوحيد.

[أما] المعاصي: كالزِّنا والسرقة، فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة، أمَّا الشرك فهو اعتداء على حق الله تعالى، وليس للإنسان فيه حظ نفسٍ، وليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده منها، ولكنها ظلم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾[1].

وهل المراد بالشرك هنا الأكبر، أم مطلق الشرك؟

قال بعض العلماء: مطلق يشمل كلَّ شرك، ولو أصغر كالحلف بغير الله فإنَّ الله لا يغفره، أمَّا بالنسبة لكبائر الذنوب كالسرقة، والخمر، فإنَّها تحت المشيئة، فقد يغفرها الله، وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقِّق في هذه المسائل اختلف كلامه في هذه المسألة فمرَّة قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر[2]، وعلى كل حال فيجب

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٢) قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في جامع الرسائل ٢/٢٥٤: «وأعظم الذنوب عند الله الشرك به، وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء، والشرك منه جليل ودقيق، وخفي وجلي». =

وقال الخليل عليه السلام: ﴿واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أن نعبُدَ الأصنام﴾[1].

الحذر من الشرك مطلقًا، لأنَّ العموم يحتمل أن يكون داخلاً فيه الأصغر، لأنَّ قوله: ﴿أن يشرك به﴾ أن وما بعدها في تأويل مصدر، تقديره: إشراكًا به، فهو نكرة في سياق النفي فتفيد العموم.

قوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ المراد بالدون هنا ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

قوله: ﴿واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام﴾.

قيل المراد: إسماعيل وإسحاق، وقيل المراد: ذريته وما توالد من صلبه وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلَّت على دعوته للناس من ذريته، ولكن حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم كما أن الرسول، ﷺ، دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم[2] فلم يجب الله دعاءه.

وأيضًا يمنع من الأوّل أنَّ الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق، وإسماعيل.

ومعنى اجنبني: أي: اجعلني في جانب، والأصنام في جانب، وهذا أبلغ مما لو قال: امنعني وبنيّ من عبادة الأصنام، لأنَّه إذا كان في جانب عنها كان أبعد.

= وقال في الرد على البكري ص (١٤٦): «وقد يقال: الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر على مقتضى القرآن، وإن كان صاحب الشرك ـ أي الأصغر ـ يموت مسلماً، لكن شركه لا يغفر له، بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة».

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/٩٨: «فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة، فالمغلظة الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، والمخففة الشرك الأصغر كيسير الرياء».

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.
(٢) يأتي تخريجه ص (٤٨٥).

فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء فما بالك بنا نحن إذن، فلا تأمن الشرك، ولا تأمن النِّفاق إذ لا يأمن النفـاق إلا منـافق، ولا يخاف النفـاق إلا مؤمن، ولهذا قال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي، ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه»[1].

وعمر رضي الله عنه أمسك حذيفة وقال: «أنشدك الله هل سمَّاني لك رسول الله، ﷺ، مع من سمَّى من المنافقين»؟

وانـظر إلى هذا الإيمان الـراسـخ القوي مع أنَّ الرَّسول، ﷺ، بشَّره بالجنة[2] ولكن خاف أن يكون الرسول، ﷺ، بشَّره بالجنة بناء على ما رأى من أفعاله في حياته، وأنَّه لا يدري ما حصل له بعد موته. ولهذا قال الرسول ﷺ: «**أقول أصحابي**» يعني عند ورودهم الحوض يوم القيامة فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك[3].

ولا يُقال: إنَّ قول عمر هذا لحثِّ الناس على الخوف من النفاق، وهو أنَّه إذا كان عمر يقول هذا، وهو ممن شُهِدَ له بالجنة فغيره من باب أولى؛ لأنَّ هذا لا يصلح، لأنَّ الأصـل أنَّ الكـلام يبقى على حقيقته، وبعض العلماء يسلك هذا المسلك في هذا وفي غيره حتى فيما يفعله الرسول، ﷺ، أحيانًا في بعض الأشياء يقولون: هذا قصد به التعليم، وقصد به أن يبيِّن لغيره كما قيل: إن الـرسول، ﷺ، لم يقل رب اغفر لي لأنَّ له ذنوبًا، ولكن لأجَل أن يعلِّم الناس الاستغفار، وهذا خلاف الأصل.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان/ باب خوف المؤمن أن يحبط عمله ١/ ٣٢.

(٢) لحديث أبي موسى، رواه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي/ باب قول النبي، ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً» ٣/ ١٢، ومسلم كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل عمر ٤/ ١٨٦٨.

(٣) من حديث أنس، رواه البخاري رقم (٦٥٨٢) ومسلم رقم (٢٣٠٤).

وفي الحديث: «أخْوف ما أخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصغر، فسُئل عنه؟ فقال: الرِّياءُ»[1].

قوله: ﴿أن نعبد الأصنام﴾ نعبد: مفعول ثاني لاجنبني.

والأصنام: جمع صنم، وهو: ما جعل على صورة إنسان أو غيره يعبد من دون الله.

أما الوثن فهو ما عبد من دون الله على أي شكل كان وفي الحديث: «لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»[2] فالوثن أعمُّ من الصنم.

ولا شكَّ أنَّ إبراهيم سأل ربّه الثبات على التوحيد، لأنَّه إذا جنّبه عبادة الأصنام صار باقيًا على التوحيد.

الشاهد من هذه الآية:

أنَّ إبراهيم خاف الشرك، وهو إمام الحنفاء، وهو سيدهم ما عدا رسول الله ﷺ.

قوله: «وفي الحديث» الحديث: ما أضيف إلى الرسول ﷺ. والخبر: ما أضيف إليه وإلى غيره.

والأثر: ما أضيف إلى غير الرسول، ﷺ، إلى الصحابي فمن بعده إلا إذا قُيّد فقيل: وفي الأثر عن رسول الله، ﷺ، فيكون على ما قُيّد به.

قولـه: «أخوف ما أخاف عليكم»: الخطاب للمسلمين إذ المسلم هو الذي يخاف عليه الشرك الأصغر، وليس لجميع الناس.

---

(١) من حديث محمود بن لبيد، رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٤٢٨، قال ابن حجر في بلوغ المرام ص (٣٠٢): «أخرجه أحمد بإسناد حسن» وقال المنذري في الترغيب ١/٦٩: «إسناده جيد» وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٢٢: «رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن شبيب بن خالد وهو ثقة».

(٢) يأتي ص (٤٢٩).

. . . .

قوله: «**الرياء**»: مشتقٌّ من الرؤية مصدر راءى يرائي والمصدر رياءً، كقاتل يقاتل قتالاً.

والرِّياء: أن يعمل ليراه الناس، لا لله، والظاهر: أنَّ هذا على سبيل التمثيل، وإلّا فقد يكون رياءً، وقد يكون سماعًا أي: يقصد بعمله أن يسمعه الناس، فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب، فالرياء،: أن يعمل العبادة يريد من الناس أن يمدحوه عليها.

أمَّا إن أراد أن يقتدوا به فيها فليس رياءً بل هذا من الدعوة إلى الله عز وجل، والرسول، ﷺ، يقول: «**فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي**»[1].

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة أي: ما قام يتعبد إلّا للرياء، فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في الصحيح مرفوعًا قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[2].

الثاني: أن يكون الرّياء طارئًا على العبادة، أي أصل العبادة لله لكن طرأ عليها الرياء فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يدافعه فهذا لا يضرّه.

مثاله: رجل صلى ركعة ثم جاء أناس في الركعة الثانية فحصل في قلبه شيء، بأن أطال الركوع، أو السجود، أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه فإنه لا يضره، لأنه قام بالجهاد.

---

(١) من حديث سهل بن سعد الساعدي رواه البخاري، كتاب الجمعة/ باب الخطبة على المنبر ١/ ٢٩٠، ومسلم كتاب المساجد/ باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة ١/ ٣٨٦.

(٢) سبق تخريجه ص (٤٤).

. . . .

وإن استرسل معه فكل عمل ينشأ عن الرياء فهو باطل كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟

نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأول: أن يكون آخر العبادة مبنيًّا على أولها بحيث لا يصحّ أولها مع فساد آخرها فهي كلها فاسدة.

وذلك مثل الصلاة: فالصلاة مثلاً لا يمكن أن يفسد آخرها، ولا يفسد أولها إذن تبطل الصلاة.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلاً عن آخرها بحيث يصحّ أولها دون آخرها، فما سبق الرياء فهو صحيح، وما كان بعده فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مائة ريال فتصدق بخمسين لله بنية، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء، فالأولى مقبولة، والثانية غير مقبولة، لأنَّ آخرها منفك عن أولها.

وأما بالنسبة للوضوء فهل نقول يبطل الوضوء؟ أو نقول يبطل ما حصل فيه الرياء، فإذا غسل يديه ومسح رأسه، نقول: أعد مسح يديك، وغسل رأسك؟

الوضوء ينبني بعضه على بعض، فليس كل من الأعضاء مستقلاًّ، وهذه المسألة عند التأمّل تجد أنَّها ليست كالصدقة من كل وجه، وليست كالصلاة من كل وجه، وهي طرأت عليَّ الآن، وتحتاج إلى تأمل فيها، هل نقول بطل غسل العضو الذي حصل فيه الرياء، وتعيد غسله، لأنَّه في الحقيقة لم تتغير الهيئة أم لا؟!

وعلى كل حال هذه لا أبتُّ فيها برأي الآن.

مثلاً: لو أنه بعدما غسل يديه رجع وغسل وجهه هل يبطل وضوؤه؟ لا، ولو أنه بعدما سجد رجع وركع تبطل صلاته؟ والترتيب موجود في

وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله، ﷺ، قال: «**من مات وهو يدعو من دون الله نِدًّا دخل النار**». رواه البخاري[1].

هذا، وهذا، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لا تبطله، والرجوع مثلاً إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضًا، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءًا لأنَّه غير شرعي، وربما يكون بالأولى غسل وجهه على أنه واحدة، ثم غسل يديه ثم قال الأحسن أن أكمل الثلاث في الوجه أفضل، فغسل وجهه مرتين، وهو سيرتِّب أي سيغسل يديه ثم وجهه فوضوؤه صحيح.

ولو ترك التسبيح ثلاث مرَّات في الركوع، وبعدما سجد قال: فوتُّ على نفسي فضيلةً سأرجع لأجل أن أسبح ثلاث مرَّات فتبطل صلاته، فالمهمُّ أن هناك فرقًا بين الوضوء والصلاة، ومن أجل هذا الفرق لا أبتُّ فيها الآن حتى أراجع وأتأمل إن شاء الله تعالى.

قوله: «**من**» هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى.

قوله: «**يدعو من دون الله ندًّا**» أي: يتخذ لله ندًّا سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة لأنَّ الدعاء ينقسم إلى قسمين:

الأول: دعاء عبادة مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان، أو صام فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة كما أنَّها تتضمَّن الدعاء بلسان المقال.

ويدلّ لهذا القسم قوله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾[2] فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كلّه شرك

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا﴾ ١٩٦/٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤١.

. . . .

فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فقد كَفر كُفرًا مُخرجًا له عن المِلَّة، فلو ركع لإنسان، أو سجد لشيء يعظِّمه كتعظيم الله في هذا الركوع، أو السجود لكان مشركًا، ولهذا منع النبي، ﷺ، من الانحناء عند الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن ينحني له؟ قال: لا[٢].

خلافًا لما يفعله بعض الجهَّال إذا سلَّم عليك انحنى لك. فيجب على كلّ مؤمن بالله أن ينكره، لأنَّه عظَّمك على حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة: فهذا ليس كُلّه شركًا بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادرًا على ذلك فليس بشرك كقولك: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك. قال، ﷺ: «**من دعاكم فأجيبوه**»[٣]. وقال تعالى: ﴿**وإذا حضر القسمة أولو القربىٰ واليتامى والمساكين فارزقوهم منه**﴾[٤].

فإذا مدَّ الفقير يده، وقال: ارزقني: أي: أعطني فهو جائز كما قال تعالى: ﴿**فارزقوهم منه**﴾ وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلاّ الله، فإن دعوته شرك مخرج عن المِلَّة.

مثال ذلك: أن تدعو إنسانًا أن يُنزِّل الغيث معتقدًا أنَّه قادر على ذلك.

والمراد بقول الرسول ﷺ: «**من مات وهو يدعو. . .**» المراد النِّدّ في

---

(١) من حديث أنس، رواه الترمذي، كتاب الاستئذان/ باب ما جاء في المصافحة ٧/٣٥٦، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه كتاب الأدب/ باب في المصافحة ٢/١٢٢٠، وأحمد في المسند ٣/١٩٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٦٨، وأبوداود (٣/١٧)، والنسائي ٥/٢٨، والحاكم ١/٤١٢، والبيهقي ٤/٩٩، وصححه الحاكم، والحافظ في تخريج الأذكار كما في الفتوحات ٥/٢٥٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨.

. . . .

العبادة، أما النّد في المسألة ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف، ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلانًا المقبور الذي بقي جثَّة، أو أكلته الأرض ينفع، أو يضرّ، أو يأتي بالنَّسل لمن لا يولد لها، وهذا والعياذ بالله شرك أكبر مُخرج من الملَّة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر، والزِّنا، واللواط، لأنَّه إقرار على كفر، وليس إقرارًا على فسوق فقط.

قوله: «**دخل النار**» أي: خالدًا مع أن اللفظ لا يدلّ عليه؛ لأن دخل فعل، والفعل يدلّ على الإطلاق.

وأيضًا قال الله تعالى: ﴿**إنَّه من يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النـار وما للظالمين من أنصار**﴾[1]. وإذا حُرِّمت الجنَّة لزم أن يكون خالدًا في النار أبدًا، فيجب أن نخاف من الشِّرك ما دامت هذه عقوبته، فالمُشرك خَسِرَ الآخرة لأنَّه في النار خالدٌ، وخَسِرَ الدنيا أيضًا لأنَّه لم يستفد منها شيئًا، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر، والعياذ بالله ما استفاد شيئًا من الدنيا قال تعالى: ﴿**أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير**﴾[2] ولهذا قال الله عز وجل: ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصـابتـه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. يدعو من دون الله مالا ينفعـه ومالا يضره ذلك هو الضلال البعيد. يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**قل إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة**﴾[4].

فخسر نفسه، لأنَّه لم يستفد منها شيئًا، وخسر أهله لأنَّهم إن كانوا من

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٢.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الحج، الآية: ١١، ١٢، ١٣.
(٤) سورة الزمر، الآية: ١٥.

ولمسلم عن جابر، أن رسول الله، ﷺ، قال: **«من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيَهُ يشرك به شيئًا دخل النار»**(١).

المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك، لأنَّه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشرك خفي جدًّا فقد يكون في الإنسان، وهو لا يشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص».

فالشرك أمره صعب جدًّا ليس بالهين، ولكن ييسر الله الإخلاص على العبد، وذلك بأن يجعل الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لا يقصد مدح الناس، أو ذمَّهم، أو ثناءهم عليه، فالناس لا ينفعونه أبدًا، حتى لو خرجوا معه لتشييع جنازته لم ينفعه إلاّ عمله، قال ﷺ: **«يخرج مع الميت أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان: أهله وماله، ويبقى عمله»**(٢).

وكذلك أيضًا من المهم أنَّ الإنسان لا يفرحه أن يقبل الناس قوله، لأنَّه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله إذا رأى أنه الحق، لأنَّه الحق، لا أنَّه قوله، وكذا لا يحزنه أن يرفض الناس قوله، لأنَّه قوله، لأنه حينئذٍ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنَّه الحق، وبهذا يتحقَّق الإخلاص.

فالإخلاص صعب جدًّا إلاّ أنَّ الإنسان إذا كان متجهًا إلى الله اتجاهًا صادقًا سليمًا على صراط مستقيم، فإنَّ الله يعينه عليه، وييسِّره له.

قولـه: «من» للعموم: قوله: **«دخل الجنة»** وهذا الدخول لا ينافي أن يُعذَّب بقدر ذنوبه إن كانت عليه ذنوب لدلالة نصوص الوعيد على ذلك، وهذا إذا لم يغفر الله له، لأنَّه داخل تحت المشيئة. و«دخل» جواب «من».

---

(١) من حديث أنس، رواه البخاري، كتاب الرقاق/ باب سكرات الموت ٤/١٩٣، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٧٣.

(٢) كتاب الإيمان/ باب من مات وهو لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ١/٩٤.

. . . .

قوله: «لا يشرك» في محل نصب على الحال.

قوله: «شيئًا» نكرة في سياق الشرط فيعم أي شرك حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول، ﷺ، دخل النار فكيف بمن يجعل الرسول، ﷺ، أعظم من الله؟ فيلجأ إليه عند الشدائد، ولا يلجأ إلى الله بل ربما يلجأ إلى ما دون الرسول ﷺ.

وهناك من لا يُبالي بالحلف بالله صادقًا أم كاذبًا، ولكن لا يحلف بقوميته إلا صادقًا، ولهذا اُختلف فيمن لا يُبالي بالحلف بالله، ولكنه لا يحلف بملَّته أو مما يعظمه إلا صادقًا هل يحلف بالله أو يحلف بهذا؟

فقيل: يحلف بالله، ولو كذب، ولا يُعان على الشرك، وهو الصحيح.

وقيل: يحلف بغير الله ؛ لأنَّ المقصود الوصول إلى بيان الحقيقة وهو إذا كان كاذبًا لا يمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقًا حلف وحصل الشرك.

مسألة:

هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر فإنَّه لا يلزم من ذلك الخلود في النار، وإن كان أكبر فإنَّه يلزم منه الخلود في النار.

لو أننا حملنا الحديث على الشرك الأكبر في الموضعين في قوله: **«من مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة»**[1] وفي قوله: **«ومن لقي الله يُشرك به شيئًا دخل النار»**[2] قلنا: من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة. وإن عُذّب قبل

---

(١) سبق تخريجه ص (١١٧).

(٢) سبق تخريجه ص (١١٩).

. . . .

الدخول، في النار بما يستحق فيكون مآله إلى الجنة. ولا حاجة إلى أن نقول ولننظر إلى النصوص الأخرى الدالة على أنه يُعذّب، لأنَّه دخلها دخولاً مطلقًا مخلّدًا، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار، ولا حاجة أن نُقَسِّم، ونقول: دخولاً مطلقًا، أو مطلق دخول.

أمّا إذا قسَّمنا الشرك إلى قسمين: أصغر، وأكبر، فإننا أيضًا نُقسّم الدخول إلى قسمين: دخول مطلق، ومطلق الدخول.

فيه مسائل : الأولى : الخوف من الشرك. **الثانية** : أن الرياءَ من الشركِ. **الثالثة** : أنه من الشرك الأصغر. **الرابعة** : أنه أخوف ما يخاف منهُ على الصالحين.

فيه مسائل :

الأولى: الخوف من الشرك: لقوله: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾ ولقوله: ﴿**واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**﴾.

الثانية: أن الرياء من الشرك: لحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسئل عنه فقال: «الرياء». وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر: لأنَّ النبي، ﷺ، لما سئل عنه قال: الرياء، فسماه شركًا أصغر.

وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟ ظاهر الحديث لا يمكن؛ لأنَّه قال: «الشرك الأصغر» فسئلَ عنه؟ فقال: «الرياء».

لكن في عبارات ابن القيم، رحمه الله، أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسير الرياء، فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكميَّة فنعم؛ لأنَّه لو كان يرائي في كل عمل لكان مشركًا شركًا أكبر، لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية فظاهر الحديث أنَّه أصغر مطلقًا.

الرابعة: أنَّه أخوف ما يخاف منه على الصالحين: وتؤخذ من قوله: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» ولأنَّه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه، وتطلّع النفس إليه، فإنَّ كثيرًا من النفوس تحبّ أن تمدح بالتعبد لله.

الخامسة: قربُ الجنةِ والنارِ. **السادسة**: الجمعُ بينَ قربهما في حديثٍ واحدٍ. **السابعة**: أنه من لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ولو كان من أعبدِ الناسِ. **الثامنة**: المسألة العظيمةُ سؤالُ الخليل له ولبنيه وقايةَ عبادةِ الأصنامِ. **التاسعة**: اعتبارُه بحالِ الأكثر لقوله: ﴿**رب إنهنَّ أضللن كثيرًا من الناسِ**﴾[1].

الخامسة: قرب الجنة والنار: لقوله: «**من لقي الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**».

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد: «**من لقي الله لا يُشرك به شيئًا. . .**» الحديث.

السابعة: أنَّ من لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار، ولو كان من أعبد الناس، تؤخذ من العموم في قوله: «**من لقي الله**» لأنَّ «من» للعموم لكن إن كان شركه أكبر لم يدخل الجنة بعد لقوله تعالى: ﴿**إنَّه من يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار**﴾.[2] وإن كان أصغر عُذِّب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له، ولبنيه وقاية عبادة الأصنام: تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام**﴾.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿**رب إنهن أضللن كثيراً من الناس**﴾ وفيه إشكال إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: ﴿**كثيراً من**

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

العاشرة: فيه تفسيرُ (**لا إلهٰ إلا الله**) كما ذكره البخاري. **الحادية عشرة**: فضيلة من سلمَ من الشركِ.

الناس﴾ وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالى في بني آدم: **﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**.[1] فلم يقل على أكثر الخلق، ولا على الخلق، فالآدميون فُضِّلوا على كثير ممن خلق الله، وليسوا أكرم الخلق على الله، ولكنه كرَّمهم.

العاشرة: فيه تفسير لا إلـه إلا الله كما ذكره البخاري.

الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب؛ لأن لا إلـه إلا الله فيها نفي وإثبات.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك. لقوله: **﴿ويغفر ما دون ذلك﴾**. وقوله: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

بـــاب
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقـــولِ الله تعـــالى: ﴿قـــل هذه سبيـــلي أدْعـــو إلى الله على بصيرةٍ﴾[1]. الآية.

هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون؛ لأنَّه لما ذكر توحيد الإنسـان بنفسه ذكر أنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلى التوحيد. قال تعالى: **﴿والعصر إنَّ الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر﴾**[2].

فلابدّ مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلاّ كان ناقصًا، ولا ريب أنَّ هذا الذي سلك هذا السبيل لم يسلكه إلاّ وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقًا في اعتقاده، فلابدّ أن يكون داعيًا إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به.

قوله: **﴿قل هذه سبيلي﴾** المشار إليه ما جاء به النبي، ﷺ، من الشرع عبادة ودعوة إلى الله.

وسبيلي: طريقي.

قوله: **﴿أدعو﴾** حال من الياء في قوله: **﴿سبيلي﴾** أو يحتمل أن تكون استئنافًا لبيان تلك السبيل.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة العصر.

. . . .

وقوله: ﴿أدعو إلى الله﴾ لأن الدعاة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:

١ - داع إلى الله.

٢ - داع إلى غيره.

فالداعي إلى الله تعالى هو المخلص الذي يُريد أن يُوصل الناس إلى الله تعالى.

والداعي إلى غيره قد يكون داعيًا إلى نفسه، يدعو إلى الحق لأجل أن يُعظَّم بين الناس ويُحترم، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهيًا أعظم منه، لكن لم يدع إلى تركه.

وقد يكون داعيًا إلى رئيسه كما يوجد في كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول، لا علماء الملل يدعون إلى رؤسائهم.

من ذلك لما ظهرت الاشتراكية في البلاد العربية قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة بل ليس فيها دلالة فهؤلاء دعوا إلى غير الله.

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارين منه، فلا ييأس، ويترك الدعوة، فإن الرسول، ﷺ، قال لعلي: «**انفذ على رسلك، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»[1]. رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلى الله فليكن غضبه من أجل أنَّ الحق لم يُتَّبع، لا لأنَّه لم يجب، فإذا كان يغضب لهذا معناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد كفى، وإذا لم يستجب أحد يكفي أيضًا، وفي الحديث: «**والنبي وليس معه أحد**»[2] ثم أنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس

---

(١) يأتي ص (١٣١).

(٢) سبق تخريجه ص (٩٤).

. . . .

أنَّ هذا حق، وهذا باطل؛ لأنَّ الناسِ إذا سكتوا عنِ بيان الحق، وأُقرَّ الباطل مع طول الزمن ينقلب هذا الحق باطلاً، والباطل حقًّا.

قولـه: ﴿عـلى بصيرة﴾ أي: علم، فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم، لأنَّ أكثـر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود هنا بالعلم في قوله: ﴿على بصيرة﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل: العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي، ﷺ، لمعاذ: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب**»[1].

وهذه ليست كلها من العلم بالشرع؛ لأنَّ علمي أنَّ هذا الرجل قابل للدعوة باللّين، وهذا قابل للدعوة بالشدَّة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهـات، وكـذلـك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا، والتشجيع كقوله ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[2].

أو بالتأليف فالنبي، ﷺ، أعطى المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين إلى مائة بعير[3]، فهذا كله من الحكمة، فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محمودًا،

(١) يأتي تخريجه ص (١٣١).

(٢) من حديث أبي قتـادة أن النبي ﷺ: قال: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه» رواه البخـاري، كتـاب المغـازي/ باب قول الله تعـالى: ﴿ويوم حنـين إذ أعجبتكم...﴾ ٣/١٥٤، ومسلم، كتاب الجهاد/ باب استحقاق القاتل سلب القتيل ٣/ ١٣٧٠.

(٣) من حديث أنس، رواه البخاري، كتاب الخمس/ باب ما كان النبي، ﷺ، يعطي المؤلفة رقم (٣١٤٧)، ومسلم، كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة رقم (١٠٥٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله، ﷺ، لما بعث مُعاذًا إلى اليمن قال له:

إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكُن أولَ ما تدعوهم إليه

وليست طريقته طريقة الرسول، ﷺ، لأنَّ الجاهل يفسد أكثر مما يصلح.

قوله: ﴿**أنا ومن اتَّبعني**﴾ ذكروا فيها رأيين:

الأول: «أنا» مبتدأ، وخبرها «على بصيرة» «ومن اتبعني» معطوفة على «أنا» أي: أنا ومن اتبعني على بصيرة أي في عبادتي، ودعوتي.

الثاني: «أنا» توكيد للواو في قوله: «أدعو» أي أدعو أنا إلى الله ومن اتبعني يدعو أيضًا، أي: قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، ويدعو من اتَّبعني، وكلانا على بصيرة.

قوله: ﴿**وسبحانَ الله**﴾ أي: وسبحان الله أن أكون أدعو على غير بصيرة.

وإعراب «سبحان»: مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح.

قوله: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾ محلها مما قبلها في المعنى توكيد؛ لأنَّ التوحيد معناه نفي الشرك.

قوله: «**بعث**» أي: أرسله، وبعثه على صفة المعلّم، والحاكم، والداعي وبعثه في ربيع الأول سنة عشر من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسى الأشعري، رضي الله عنهما، بعث معاذًا إلى صنعاء، وما حولها، وأبا موسى إلى عدن وما حولها وأمرهما: أن اجتمعا وتطاوعا، ولا تفترقا، ويسِّرا ولا تُعسِّرا، وذكِّرا ولا تنفِّرا[1].

قوله: «**لما**» إعرابها شرطية، وهي حرف وجود لوجود.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ٣/ ١٦٠.

و«لو» حرف امتناع لامتناع.

و«لولا» حرف امتناع لوجود.

قوله: **«إنَّك تأتي قومًا من أهل كتاب»**.

قال ذلك مرشدًا له، وهذا دليل على معرفته، ﷺ، بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم، فله طريقان:

١ ـ الوحي.

٢ ـ العلم والتجربة.

قولـه: **«من»** بيانية، والمـراد بالكتاب التوراة والإنجيل، فيكون المراد اليهود والنصارى، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون، لكن الأكثر اليهود والنصارى، ولهذا اعتمد الأكثر.

وأخبره النبي، ﷺ، بذلك لأمرين:

الأول: أن يكون بصيرًا بأحوال من يدعو.

الثاني: أن يكون مستعدًّا لهم؛ لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم.

قوله: **«فليكن»** الفاء للاستئناف، أو عاطفة، واللام للأمر، و«أول»: اسم يكن، وخبرها شهادة، وقيل: العكس، يعني «أول»: خبر و«شهادة»: اسم يكن.

والظاهر أنه يريد أن يبيِّن أنَّ أول ما يكون الشهادة، وإذا كان كذلك يكون «أول» مرفوعًا على أنه اسم يكن، أي: أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله.

قوله: **«شهادة»** الشهادة هنا من الحضور، أو من العلم؟.

من العلم قال تعالى: **﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾**[1] فالشهادة

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

ـ وفي رواية ـ إلى أن يوحِّدوا الله ـ فإن هم أطاعوك لذلك فأَعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كلِّ يومٍ وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأَعلمهم أن الله افترض عليهم صدقَةً تؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوك لذلك، فإيَّاك وكرائمَ أموالِهم، واتَّق دعوةَ المظلوم. فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه[1].

هنا العلم والنطق باللسان، لأنَّ الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لابد من علم، وإخبار، وقبول، وإقرار، وإذعان أي: انقياد.

فلو اعتقد بقلبه، ولم يقل بلسانه أشهد أن لا إلـه إلا الله، فقد قال شيخ الإسـلام: إنه ليس بمسلم بالإجماع حتى يقول؛ لأنَّ كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلا بد من النطق، فالنية فقط لا تجزىء، ولا تنفعه عند الله حتى ينطق، والنبي ﷺ، قال لعمه أبي طالب: **«قل»**[2] ولم يقل اعتقد أن لا إلـه إلا الله.

قوله: **«إلـه»** بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول أي: معبود، وعند المتكلمين: إلـه آله فهو اسم فاعل أي قادر على الاختراع وهذا باطل[3]؛ لأنَّ هذا هو الذي عليه المشركون الذين قالوا: **﴿أجعل الآلهة إلـهًا واحدًا﴾**[4]، ولو قيل بهذا لكان المشركون يقرون به، قال تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلقهم**

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ٣/ ١٦٠، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين ١/ ٥٠، ورواية «فليوحدوا» رواها البخاري، كتاب التوحيد/ باب ما جاء في دعاء النبي، ﷺ، أمته ٤/ ٣٧٨.

(٢) يأتي ص (٣٥١).

(٣) انظر ص (٦٠).

(٤) سورة ص، الآية: ٥.

ولهما عن سهل بن سعد (رضي الله عنه): أن رسولَ الله ﷺ قال يومَ خَيبرَ: «**لأعطِينَّ الراية غدًا رجلًا يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، يفتح الله علي يديه**». فبات الناس يَدُوكُون ليلتهم، أيهم يُعطاها، فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ،

ليقولنَّ الله﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾**[2].

فإن قيل: كيف يقال: لا معبود إلا الله، والمشركون يعبدون أصنامهم؟ أجيب: بأنَّهم يعبدونها بغير حق فهم وإن سمَّوها آلهة فألوهيتها باطلة، وليست معبودات بحق، ولذلك إذا مسهم الضر لجأوا إلى الله تعالى، وأخلصوا له الدين، وعلى هذا لا تستحق أن تُسمى إلـهًا.

فهم يعبدونها، ويعترفون بأنَّهم لا يعبدونها إلا لأجل أن تقرِّبهم إلى الله فقط، فجعلوها وسيلة، وذريعة، وبهذا التقرير لا يرد علينا إشكال في قول الرسل لقومهم: ﴿**اعبدوا الله مالكم من إلـه غيره﴾**[3] لأنَّ هذه المعبودات لا تستحق أن تُعبد، بل الإلـه المعبود حقًّا هو الله سبحانه وتعالى.

وفي قوله: «**لا إلـه إلا الله**» نفي الألوهية لغير الله، وإثباتها لله، ولهذا جاءت بطريق الحصر.

قوله: «**لأعطينَّ**» هذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطينَّ.

قوله: «**الراية**» العَلَمْ، وسُمِّي راية لأنَّه يُرى، وهو ما يأخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

. . . .

واللواء قيل: إنه الراية، وقيل: ما لوي أعلاه، أو لوي كلّه، فيكون الفرق بينهما: أن الرَّاية مفلولة لا تُطوى، واللواء يُطوى إما أعلاه، أو كله، والمقصود منهما المعرفة، ولهذا يُسمى عَلَمًا.

قوله: **«غدًا»** يُراد به ما بعد اليوم.

والأمس يراد به ما قبله.

والأصل: أنه يراد بالغد: ما يلي يومك، ويُراد بالأمس الذي يليه يومك، وقد يُراد بالغد ما وراء ذلك قال تعالى: **﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾**(١) أي: يوم القيامة.

وكذلك بالأمس قد يُراد به ما وراء ذلك، أي: ما وراء اليوم الذي يليه يومك.

قوله: **«يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»**.

أثبت المحبة من الجانبين، ومحبة الله تعالى ثابتة، وهي من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات الله يكون له سبب فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب، فقد يبغض الله إنسانا في وقت ويحبه في وقت لسبب من الأسباب.

قوله: **«على يديه»** أي: يفتح الله خيبر على يديه، وفي ذلك بشارة بالنصر.

قوله: **«يدوكون»** أي: يخوضون، وجملة يدوكون خبر بات.

قوله: **«غدوا على رسول الله»** أي: ذهبوا إليه في الغدوة مبكرين كلهم يرجو أن يُعطاها لينال محبة الله ورسوله.

قوله: **«فقال أين علي»**؟ القائل الرسول ﷺ.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «**أين عليُّ بن أبي طالب؟**» فقيل: هو يَشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأُتيَ به، فبصق في عينيه ودعا له فبرىء، كأَن لم يكن به وجع، فأعطاه الرايةَ، فقال: «**انْفُذْ على رِسْلِك حتى تنزلَ بساحتهم**.

قوله: «**يشتكي عينيه**» أي: يتألم منهما، ولكنه يشتكي إلى الله لأنَّ عينيه مريضة.

وقوله: «**فأرسلوا إليه**» بأمر الرسول ﷺ.

قوله: «**فأتي به**» كأنه، رضي الله عنه، قد عمم على عينيه، لأنَّ قوله: «**أتي به**» أي: يقاد.

وقوله: «**كأن لم يكن به وجع**» أي: ليس بهما أثر حمرة، ولاغيرها.

قوله: «**فبرأ**» هذا من آيات الله الدالة على قدرته، وصدق رسوله، ﷺ، وهذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنَّه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله لتخصيص النبي، ﷺ، له ذلك من بين سائر الصحابة.

قولـه: «**انفذ على رسلك**» أي: مهلك، مأخوذ من رسل الناقة أي: حليبها يحلب شيئًا فشيئًا، والمعنى: امش هوينًا هوينًا لأنَّ المقام خطير، لأنَّه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

قوله: «**حتى تنزل بساحتهم**» أي: ما يقرب منهم، وما حولهم، والنبي، ﷺ يقول: «**إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[1].

---

(١) من حديث انس، رواه البخاري، كتاب الصلاة/ باب ما يذكر في الفخذ ١/ ١٣٩، ومسلم، كتاب الجهاد/ باب غزوة خيبر ٣/ ١٣٩.

ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لئن يَهديَ الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النّعَمْ»[1].
يَدُوكُون: أي يخوضون.

وهذا إذا كنّا على الوصف الذي عليه الرسول، ﷺ، وأصحابه، أما إذا كنا على وصف القومية، فإننا لو نزلنا في أحضانهم فمن الممكن أن يقوموا، ونكون في الأسفل.

قوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**» أي: أهل خيبر.

قوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم**» أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به، ويلتزموا.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها وإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا فإننا نقول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن وأنهم لا يسلمون عن اقتناع فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يخبرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيهم.

وظاهر الحديث: أنَّك تدعو أولاً إلى الإسلام، ثم تخبره بما يجب عليه.

وقيل: تخبره أولاً بما يجب عليه من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، لأجل أن يدخل عن اقتناع؛ لأنَّه إذا دخل في الإسلام ثم لم يلتزم وجب قتله.

ويحتمل أن يقال: أن تترك هذه المسألة للواقع، وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا، أو هذا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب غزوة خيبر ٣/ ١٣٤، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل علي ٤/ ١٨٧٢.

. . . .

قوله: «**خير لك**» «أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ، و«خير» خبر، ونظيرها قوله تعالى: ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾[1].

قوله: «**حمر النعم**» بتسكين الميم جمع أحمر، وبالضم جمع حمار والمراد الأول.

وحمر النعم هي الإبل الحمراء، وذكرها لأنَّها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن، وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

وقوله: «**لأن يهدي الله بك**» ولم يقل: لأن تهدي، لأن الذي يهدي هو الله.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أم يعم كل هداية؟ نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام، وهل نقول إن القرينة الحالية تقتضي التخصيص، وأنَّ من اهتدى على يديه رجل في مسألة فرعية من مسائل الدين يحصل له هذا الثواب؟ نقول: الله أعلم أنَّه لا يحصل هذا الثواب بقرينة المقام، لأنَّ علياً موجه إلى قوم كفَّار يدعوهم إلى الإسلام، والظاهر أن القرينة محكمة هنا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

فيه مسائل : الأولى : أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعَه ﷺ. **الثانية** : التنبيه على الإخلاص لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعــو إلى نفســه. **الثالثة** : أن البصيرة من الفرائض. **الرابعة** : من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهاً الله تعالى عن المسبة.

فيه مسائل :

الأولى : أنَّ الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ.

وتؤخذ من قوله تعالى : ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾.

والأشمل من ذلك، والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال : إن الدعوة إلى الله طريق الرسل.

الثانية : التنبيه على الإخلاص.

وتؤخذ من قوله : «**أدعو إلى الله**» ولهذا قال : لأنَّ كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه، فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلاّ أن يقوم دين الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول حقًّا كان أم باطلاً.

الثالثة : أن البصيرة من الفرائض :

وتؤخذ من قوله تعالى : ﴿**أدعو إلى الله على بصيرة**﴾ ووجه كون البصيرة من الفـرائض، لأنَّـه لابد للداعية من العلم بما يدعو إليه والدعوة فريضة، فيكون العلم بذلك فريضة.

الرابعة : من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيه لله عن المسبة.

وتؤخذ من قوله تعالى : ﴿**سبحان الله وما أنا من المشركين**﴾. فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله.

الخامسة: أن من قبحِ الشرك كونه مسبة لله. **السادسة**: وهي من أهمها: إبعادُ المسلمِ عن المشركينَ لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.
السابعة: كونُ التوحيدِ أول واجبٍ. **الثامنة**: أنه يبدأُ به قبل كل شيءٍ حتى الصلاة.

ومعنى عن المسبّة أي: وعن مماثلة الخالق للمخلوق، إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبّة لله:

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾. بعد قوله: ﴿**وسبحان الله**﴾.

السادسة: وهي أهمها إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك. لقوله تعالى: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾. ولم يقل: «وما أنا مشرك». لأنّه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركًا، فهو في ظاهره منهم، ولهذا لما قال الله للملائكة: ﴿**اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس**﴾[1] توجّه الخطاب له ولهم.

السابعة: كون التوحيد أول واجب:

تؤخذ من قوله ﷺ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**». وفي رواية: «**أن يوحدوا الله**».

وقال بعض العلماء: أول واجب النظر، لكن الصواب أنه واجب التوحيد، لأنَّ معرفة الخالق دلت عليها الفطرة.

الثامنة: أن يُبدأ به قبل كل شيء:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

التاسعة: أن معنى: «**أن يوحدُوا الله**» معنى شهادة أن لا إلـه إلا الله.
العـاشرة: أن الإنسان قد يكونُ من أهلِ الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها. **الحادية عشرة**: التنبيه على التعليم بالتدريج.
الثانية عشرة: البداءةُ بالأهم فالأهم. **الثالثة عشرة**: مصرف الزكاة.

تؤخذ من قوله ﷺ: «**ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

التاسعة: أنَّ معنى أن يوحِّدوا الله معنى شهادة أن لا إلـه إلا الله: تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبَّر برواية بقوله: «شهادة أن لا إلـه إلا الله» وفي رواية عبَّر بقوله: «أن يوحدوا الله».

العاشرة: أنَّ الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها.

ومراده بقوله: «لا يعرفها، أو يعرفها» شهادة أن لا إلـه إلا الله. وتؤخذ من قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله**» إذ لو كانوا يعرفون: لا إلـه إلا الله ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج:

تؤخذ من قولـه، ﷺ، لمعـاذ: «**ادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطـاعـوك لذلـك، فاعلمهم أن الله افـترض عليهم...**». الحـديث، فاعلمهم.. فاعلمهم... إلخ.

الثانية عشرة: البدء بالأهم، فالأهم:

تؤخذ من أمره، ﷺ، معاذاً بالتوحيد ليدعو إليه أولاً ثم الصلاة، ثم الزكاة.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة:

الـرابعـة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم. **الخامسة عشرة**: النهي عن كرائم الأمـوال. **السـادسـة عشرة**: اتقـاءُ دعوة المظلوم. **السابعة عشرة**: الإخبار بأنها لا تحجب.

تؤخذ من قوله: «**فترد على فقرائهم**».

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم:

المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم، أي: يكون عنده جهل.

تؤخذ من قوله: «**إنَّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**».

فبيَّن أنَّ هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأنَّ مصرفها الفقراء.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال:

تؤخذ من قوله: «**فإياك وكرائم أموالهم**» إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي، وإياك تحذير.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم:

تؤخذ من قوله: «**واتق دعوة المظلوم**».

السابعة عشرة: الإخبار بأنَّها لا تُحجب:

تؤخذ من قوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»: فقرن الترغيب، أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيبًا، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيبًا، لقوله: «**اتق دعوة المظلوم**» فالنفس قد لا تتقي لكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب خافت ونفرت من ذلك.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء. **التاسعة عشرة**: قوله: «**لأعطينَّ الراية**» إلخ. علمٌ من أعلام النبوة. **العشـــرون**: تفله في عينيه علمٌ من أعلامها أيضًا. **الحادية والعشرون**: فضيلة علي رضي الله عنه.

الثامنة عشرة: ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء:

الظاهر: أن المؤلف، رحمه الله، يريد الإشارة إلى قصة خيبر، إذ وقع فيها في عهد النبي، ﷺ، جوع عظيم حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم[1]، وأمَّا الوباء فهو ما وقع في عهد علي رضي الله عنه، وأما المشقة فظاهرة.

وكون ذلك من أدلة التوحيد: أنَّ الصبر والتحمل في مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده وأن قصده الله ولذلك صبر على البلاء.

التاسعة عشرة: قوله: «**لأعطين الراية**» علم من أعلام النبوة: لأنَّ هذا حصل، فعلي بن أبي طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا: لأنَّه بصق في عينيه فبرأ كأن لم يكن به وجع.

الحـادية والعشرون: فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: وهذا ظاهر لأنَّه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

---

(١) أكل لحوم الحمر من حديث سلمة بن الأكوع، رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب غزوة خيبر ٣/١٣٥، ومسلم، كتاب الجهاد/ باب غزوة خيبر ٣/١٤٢٧.
وأكل الثوم رواه البخاري في الكتاب والباب السابقين ٣/١٣٨ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح. **الثالثة والعشرون**: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى. **الرابعة والعشرون**: الأدب في قوله: «على رسلك». **الخامسة والعشرون**: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال. **السادسة والعشرون**: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا. **السابعة والعشرون**: الدعوة بالحكمة لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح: لأنَّهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى: لأنَّ الصحابة غدوا على رسول الله مبكرين كلهم يرجو أن يُعطاها ولم يعطوها، وعلي بن أبي طالب مريض ولم يسع لها ومع ذلك أعطي الراية.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: **«على رسلك»**.

ووجهه: أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال:

لقوله: **«انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام»**.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة:

تؤخذ من قوله: **«أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»**، لأن من الحكمة أن تتم الدعوة، وذلك بأن تأمره بالإسلام أولاً، ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام لأنَّه قد يطبِّق هذا الإسلام الذي أمرته به، وقد لا يطبقه، بل لابد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام. التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجلٌ واحدٌ. الثلاثون: الحلف على الفُتْيَا.

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام:

تؤخذ من قوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد:

لقوله: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم**». أي: خير لك من كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم: خير لك من أن تتصدق بنعم حمر.

الثلاثون: الحلف على الفتيا:

لقوله: «**فوالله لأن يهدي الله... إلخ**» فأقسم النبي، ﷺ، وهو لم يُستقسم، والفائدة: هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه.

ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلّا لمصلحة وفائدة، لأنَّه قد يفهم السامع أنَّ المفتي لم يحلف إلا لشك عنده.

والإمام أحمد، رحمه الله، أحيانًا في إجابته: إي والله. وقد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن: في قوله تعالى: ﴿**ويستنبئونك أحق هو؟ قل: إي وربي إنَّه لحق**﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثنَّ**﴾[2]. وفي قوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم**﴾[3] فإذا كان هناك في القَسَم مصلحة ابتداءً، أو جوابًا لسؤال جاز وربما يكون مطلوبًا.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٣.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣.

(٣) سورة التغابن، الآية: ٧.

باب
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقـول الله تعالى: ﴿أولـئك الذين يَدْعون يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ أيُّهم أقرب﴾[1]. الآية.

التفسـير معنـاه: الكشف والإيضاح مأخوذ من قولهم: فسرت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فسرت ثوبي فاتضح ما وراءه. ومنه تفسير القرآن الكريم.

والتوحيد: هل هو جعل الشيء واحدًا، أو اعتقاد الشيء واحدًا[2]؟

بالنسبة هنا اعتقاد، لأننا لسنا الذين جعلنا الله واحدًا.

وقوله: «وشهادة أن لا إلـه إلا الله» معطوف على التوحيد، أي: وتفسير شهادة أن لا إلـه إلا الله.

والعطف هنا من باب عطف المترادفين، لأنَّ التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إلـه إلا الله.

وهذا الباب مهم لأنَّه لما سبق الكلام على التوحيد، وفضله، والدعوة إليه كأن النفس الآن اشرأبت إلى بيان ما هو هذا التـوحيد، الذي بوب له هذه الأبواب؟ وجوبه، وفضله، والدعوة إليه.

فيُجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد.

قوله: ﴿أولئك﴾ أولاء مبتدأ، ﴿الذين﴾ بدل منه، ﴿يدعون﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يبتغون﴾ خبر المبتدأ، أي: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء هم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

(٢) انظر تعريفه ص (٥).

. . . .

أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، فكيف تدعونهم، وهم محتاجون مفتقرون؟ فهذا سفه في الحقيقة، وهذا ينطبق على كل من دعي، وهو داع كعيسى ابن مريم، والملائكة.

وأمّا الشجر والحجر فلا يدخل في الآية.

فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله، لا يملكون كشف الضر، ولا تحويله من مكان إلى مكان، لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب، وقد قال تعالى مبينًا حال هؤلاء المدعوين: **﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثلُ خبير﴾**[1].

قوله: **﴿يدعون﴾** أي: يعبدون، وقد تكون دعاء مسألة كمن يدعو عليًا عند وقوعهم في الشدائد، وكمن يدعو النبي ﷺ:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وقد يكون دعاء عبادة كمن يتذلل لهم بالتقرُّب، والنذر، والركوع، والسجود.

قوله: **﴿يبتغون﴾** يطلبون.

قوله: **﴿الوسيلة﴾** أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله، يعني يطلبون ما يكون وسيلة إلى الله سبحانه وتعالى أيهم أقرب إلى الله، وكذلك أيضا: يرجون رحمته، ويخافون عذابه.

وجه مناسبة الآية للباب:

لأن المؤلف يقول: باب تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله،

---

(١) سورة فاطر، الآيتان: (١٣، ١٤).

وقوله: ﴿وإذْ قال إبراهيمُ لأبيه وقومِه إنني بَرَاءٌ مما تعبدون إلاّ الذي فطَرَني﴾[1] الآية.

دعا غير الله، ولو مع الله فليس بموحد؛ لأن الموحِّد من وحَّد الشيء أي اتَّخذه واحدًا.

ومناسبة الآية للباب فيها شيء من الخفاء، إذ الآية الكريمة التي جاء بها لتفسير التوحيد لا تعطي تمامًا، ولكننا ربما نقول أن وجه ذلك أنَّ هؤلاء الذين هم أنفسهم يبتغون إلى الله الوسيلة ما وحدوا الله عز وجل فدعوا من لا ينفعهم.

قوله: ﴿براء﴾ على وزن فعال، وهي صفة مشبهة من التبرؤ، وهو التَّخلي أي أنَّني متخلٍّ غاية التَّخلي عمَّا تعبدون إلاّ الذي فطرني. وإبراهيم عليه الصلاة والسلام قوي في ذات الله، فقال ذلك معلناً به لأبيه وقومه وأبوه هو آزر[2].

قوله: ﴿تعبدون﴾ العبادة هنا: التذلُّل والخضوع؛ لأنَّ في قومه من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشَّمس والقمر، والكواكب.

قوله: ﴿إلاّ الذي فطرني﴾ جمع بين النفي، والإثبات، فالنَّفي ﴿براء مما تعبدون﴾ والإثبات ﴿إلاّ الذي فطرني﴾ فدل على أنَّ التوحيد لا يتم إلاّ بالكفر بما سوى الله، والإيمان بالله وحده، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى، وهؤلاء هل يعبدون الله أو لا يعبدون الله؟ يعبدون الله، ويعبدون غيره؛ لأنَّه قال: ﴿إلاّ الذي فطرني﴾ والأصل في الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٦.

(٢) انظر ص (٨٧).

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أحبارَهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾[1]. الآية.

وكذا يوجد في بعض البلدان الإسلامية منْ يصلي، ويزكِّي، ويصوم، ويحج، ومع ذلك يذهبون إلى القبور يسجدون لها، ويركعون فهم كفَّار غير موحِّدين، ولا يقبل منهم أي عمل، وهذا من أخطر ما يكون على الشعوب الإسلامية؛ لأنَّ الكفر بما سوى الله عندهم ليس بشيء، وهذا جهل منهم، وتفريط من علمائهم؛ لأنَّ العامي لا يأخذ إلا من عالمه، لكن بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ عالم دولة، لا عالم ملة.

وفي قول إبراهيم ﷺ: ﴿إلا الذي فطرني﴾ ولم يقل إلّا الله فائدتان:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة؛ لأنَّه كما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام؛ لأنَّها لم تفطركم حتى تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات، وهذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم، عليه السلام.

يستفاد من الآية: أنَّ التوحيد لا يحصل بعبادة الله مع غيره بل لابد من إخلاصها لله، والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

قسم يعبد الله وحده.

وقسم يعبد غيره فقط.

وقسم يعبد الله، وغيره، والأوّل هو الموحّد.

قوله: ﴿أحبارهم﴾ والمعطوف عليها المفعول الأول لاتخذوا، والثاني: «أربابًا» أي: هؤلاء اليهود والنصارى صيروا أحبارهم، ورهبانهم أربابًا.

---

(١) التوبة، الآية: ٣١.

. . . .

والأحبار: جمع حَبْر سمّي بذلك لضمه العلم، وهو العالم، ويقال للعالم أيضًا بحر لكثرة علمه.

والحَبر: بفتح الحاء، وكسرها، يقال: حَبر، وحِبر.

قوله: ﴿ورهبانهم﴾ أي: عبادهم.

قوله: ﴿أربابًا﴾ جمع ربّ أي: يجعلونهم أربابًا من دون الله، فجعلوا الأحبار أربابًا، لأنهم يأتمرون بأمرهم، في مخالفة أمر الله، فيطيعونهم في معصية الله.

وجعلوا الرهبان أربابًا باتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون الله.

قوله: ﴿من دون الله﴾ أي: من غير الله.

قوله: ﴿والمسيح ابن مريم﴾ معطوف على أحبارهم، أي: اتخذوا المسيح ابن مريم أيضًا ربًّا حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿إلا ليعبدوا﴾ أي: يتذللوا بالطاعة لله وحده، الذي خلق المسيح والأحبار، والرهبان والسماوات، والأرض.

قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود حق إلا الله.

قوله: ﴿سبحانه﴾ تنزيه الله عما يشركون.

وجه كون هذه الآية تفسيرًا للتوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله: أن الله أنكر عليهم اتخاذ الأحبار، والرهبان أربابًا من دون الله، وهذه الآية سيأتي فيها ترجمة كاملة في كلام المؤلف، رحمه الله، فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم سواء وافق أمر الله أم لا.

إذًا فتفسير التوحيد أيضًا بلا إله إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله

وقـولِه: ﴿ومن الناسِ مَن يتخذُ من دونِ الله أَندادًا يحبونهم كحبِّ الله﴾[1]. الآية.

فهؤلاء الذين يدعون غير الله ليسوا بموحدين، فمن وحده، ولهذا على الرغم من تأكيد النبي ﷺ لطاعة ولاة الأمر قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»[2].

قوله: ﴿**من**﴾ أي: الذي يتخذ، وقال هنا: ﴿**من**﴾ مراعاة للفظ ثم قال: يحبونهم: مراعاة للمعنى.

قوله: ﴿**من الناس**﴾ من: للتبعيض، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، وعلامتها أنه يصح أن يحل محلها بعض.

قوله: ﴿**يتخذ**﴾ يجعل، ومفعولها الأول: أندادًا، والثاني: من دون الله.

قوله: ﴿**أندادًا**﴾ جمع ند، وهو الشبيه، والنظير، ولهذا قال النبي، ﷺ، لمن قال له ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده**»[3].

قوله: ﴿**يحبونهم كحب الله**﴾ هذا وجه المشابهة، أي: النّديّة في المحبة، يحبونهم كحب الله.

وحُب: مصدر مضاف إلى المفعول أي: جعلوهم مساوين لله.

واختلف المفسِّرون في قوله: ﴿**كحبِّ الله**﴾.

فقيل: يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون في قلوبهم محبَّة لله، ومحبَّة للأصنام، ويجعلون محبَّة الأصنام كمحبَّة الله فيكون المصدر مضافًا إلى مفعوله.

وقيل: يحبون هذه الأصنام كمحبة المؤمنين لله.

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(2) من حديث علي، رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب سرية عبدالله بن حذافة السهمي ١٦٠/٣، ومسلم كتاب الإمارة/ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ١٤٦٩/٣.

(3) سبق ص (٥٣).

. . . .

وسياق الآية يؤيِّد الرأي الأول.

قوله: ﴿والذين آمنوا أشدّ حُبًا لله﴾.

على الرأي الأول يكون معناها، والذين آمنوا أشدّ حبًا لله من هؤلاء لله، لأنَّ محبَّة المؤمنين خالصة، ومحبة هؤلاء فيها شرك بين الله وبين أصنامهم.

وعلى الرأي الثاني معناها: والذين آمنوا أشد حبًا لله من هؤلاء لأصنامهم؛ لأنَّ محبة المؤمنين ثابتة في السرَّاء والضراء على برهان صحيح، بخلاف المشركين فإنَّ محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسَّهم الضر.

فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبته لله؟ وما بالك برجل يحب غير الله ولا يحب الله؟ فهذا أقبح وأعظم، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم، فإنَّهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا لو قيل له: احلف بالله حلف صادقًا أو كاذبًا، أمَّا الوليّ فلا يحلف به إلا صادقًا.

وتجد كثيرًا منهم يأتون إلى مكة والمدينة ويرون أنَّ زيارة قبر الرسول، ﷺ أعظم من زيارة البيت لأنَّهم يجدون في نفوسهم حبًا لرسول الله، ﷺ، كحبِّ الله أو أعظم، وهذا شرك؛ لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسول الله، ﷺ، إلا لحب الله، ولأنَّه رسول الله، ما أحببناه لأنَّه محمد بن عبدالله، لكننا أحببناه لأنَّه رسول الله، ﷺ، فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هؤلاء يجعلون محبة الله تابعة لمحبة الرسول، ﷺ، إن أحبوا الله.

فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليوم الذين يجعلون غير الله مثل الله في المحبة، فيه أناس أيضًا أشركوا بالله في محبة غيره لا على وجه العبادة الشرعية لكن على وجه العبادة المذكورة في الحديث[1]، وهي

(١) سبق ص (٣٠).

. . . .

محبة الدرهم والدينار والخميصة والخميلة، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم لوجدت قلوبهم ملأى من محبة متاع الدنيا. وحتى هذا الذي جاء يصلي هو في المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهذا نوع من أنواع العبادة في الحقيقة، ولو حاسب الإنسان نفسه لماذا خُلِق؟ خلق لعبادة الله، وأيضًا خُلِقَ لدار أخرى ليست هذه الدار، فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التي خُلِقَ لها والتي يجب أن يُعتنى بالعمل لها، يا ليت شعري متى يومًا من الأيام فكَّر الإنسان ماذا عملت؟ وكم بقي لي في هذه الدنيا؟ وماذا كسبت؟ الأيام تمضي ولا أدري هل ازددت قربًا من الله أو بعدًا من الله؟ هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟.

فلابدّ لكل إنسان عاقل من غاية؟ فما هي غايته؟

نحن الآن نطلب العلم للتقرّب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا، فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ نحن على كل حال نجد في أنفسنا قصورًا كثيرًا وتقصيرًا، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعوا عباد الله إليها؟

هذا أمر يحتاج إلى محاسبة ولذلك فإن على طالب العلم، ضريبة ليست هيِّنة، عليه أكثر من زكاة المال، فيجب أن يعمل ويتحرَّك ويبث العلم والوعي في الأمة الإسلامية، وإلَّا انحرفت عن شرع الله.

قال ابن القيم رحمه الله: كل الأمور تسير بالمحبة، فأنت مثلًا لا تتحرك لشيء إلا وأنت تحبه؛ حتى اللقمة من الطعام، لا تأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيل: إنَّ جميع الحركات مبناها على المحبة، فالمحبة أساس العمل، فالإشراك بالمحبة إشراك بالله.

. . . .

والمحبة أنواع:

الأول: المحبة لله، وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله.

والمحبة لله هي أن تحب هذا الشيء، لأنَّ الله يحبه سواء كان شخصًا، أو عملاً، وهذا من تمام التوحيد.

قال مجنون ليلى:

أمـر على الـديـار ديـار ليـلى   أقبِّـل ذا الجـدار وذا الجـدارا
ومـا حب الـديـار شغـفـن قلبي   ولكن حبّ من سكن الـديـارا

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة الله، فهذه لا تنافي محبة الله كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي، ﷺ، من أحبّ الناس إليك؟ قال: عائشة، قيل: فمن الرجال؟ قال: أبوها[1].

ومن ذلك محبة الطعام، واللباس.

الثالث: المحبة مع الله التي تنافي محبة الله، وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله، أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله، ومحبة غيره، قدّم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة ندًّا لله يقدمها على محبة الله، أو يساويها بها[2].

---

(١) من حديث عمرو بن العاص، رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة/ باب قول النبي، ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا» ٩/٣، ومسلم كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر ١٨٥٦/٤.

(٢) انظر باب: قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال لا إلـه إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ماله ودمُه. وحسابُه على الله عز وجل**»(١).

وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

الشاهد من هذه الآية: أنَّ الله جعل هؤلاء الذين ساووا محبة الله بمحبة غيره، مشركين جاعلين لله أندادًا.

قولـه: «**إلا الله**» بدل من الضمير المستتر في الخبر، ومن يرى أن «**لا**» تعمل في المعرفة يقولون: «**الله**» خبر مثل «**إنما الله إلـه واحد**».

قولـه: «**وكفر بما يعبد من دون الله**» هذا دليل على أنَّه لا يكفي مجرَّد التلفظ بلا إلـه إلا الله، بل لابد أن تكفر بعبادة من يُعبد من دون الله، بل وتكفر أيضًا بكل كفر، فمن يقول لا إلـه إلا الله، ويرى أن النصارى واليهود اليوم على دين صحيح فليس بمسلم، ومن يرى الأديان أفكارًا يختار منها ما يريد فليس بمسلم، بل الأديان عقائد مرسومة من قبل الله عز وجل، يتمشى الناس عليها، ولهذا ينكر على بعض الناس في تعبيره بقولـه: الفكر الإسلامي، بل الواجب أن يقال: الدين الإسلامي، أو العقيدة الإسلامية، ولا بأس بقول المفكِّر الإسلامي؛ لأنَّه وصف للشخص نفسه، لا للدين الذي هو عليه.

قوله: «**وشرح هذه الترجمة**» المراد بالشرح هنا: التفصيل.

والـترجمـة: هي التعبير بلغة عن لغة أخرى، ولكنَّها تطلق باصطلاح

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إلـه إلا الله ١/ ٥٣.

فيه أكبر المسائل وأهمها.

وهي تفسـير التوحيد وتفسير الشهادة. وبيَّنها بأمور واضحة.

المؤلفين على العناوين، والأبواب، فيقال: ترجم على كذا أي بوَّب له.

قوله: «**فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد**» فتفسير التوحيد لابد فيه من أمرين:

الأول: البراءة مما سوى الله عز وجل، والكفر بغيره.

الثـاني: إثبات الألوهية لله وحده، فلابد من النفي والإثبات لتحقيق التوحيد، لأن التوحيد جعل الشيء واحدًا بالعقيدة، والعمل، وهذا لابد فيه من النفي والإثبات.

فإذا قلت: زيد قائم أثبت له القيام، ولم توحده به، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد، أثبت له القيام ووحدته به.

وأيضًا إذا قلت: الله إلـه أثبت له الألوهية، لكن لم تنفها عن غيره، فالتوحيد لم يتم.

قوله: «**وتفسير الشهادة**» الشهادة: هي التعبير عما تيقنه الإنسان بقلبه، فقول: أشهد أن لا إلـه إلا الله: أي: أنطق بلساني معبّرًا عما يكنه قلبي من اليقين، وهو أنه لا إلـه إلا الله.

قوله: «**منها آية الإسراء**» وهي قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين يدعون**﴾[1] الآية، فبيّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبيّن أن هذا هو الشرك الأكبر لأن الدعاء من العبادة قال تعالى: ﴿**ادعوني أستجب لكم إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾[2] فدلّ على أنَّ الدعاء عبادة، وإلا لكان أول

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤١.

منها آية الإسراء. بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها آية براءة بيَّن أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله.

الكلام مناقضًا لآخره، مع أنَّ آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحدًا غير الله حيًّا أو ميّتًا، فهو مشرك شركًا أكبر.

والدعاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقًا بأمر من الأمور التي يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة، فهذا ليس من دعاء العبادة، بل هو من الأمور الجائزة قال ﷺ: «**وإذا دعاك فأجبه**»[1].

الثاني: أن تدعو مخلوقًا مطلقًا سواء كان حيًّا، أو ميّتًا فيما لا يقدر عليه إلّا الله، فهذا شرك أكبر مثل: يا فلان اجعل ما في بطن امرأتي ذكرًا.

الثالث: أن تدعو مخلوقًا ميّتًا لا يجيب بالوسائل الحسيّة المعلومة فهذا شرك أكبر أيضًا.

قوله: «**ومنها آية براءة بيّن فيها أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله**:»

وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية؛ لأنَّ الحكم شرعيًّا كان أو كونيًّا إلى الله تعالى فهو من تمام ربوبيته، قال تعالى: ﴿**وما**

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه مسلم، كتاب السلام / باب من حق المسلم للمسلم رد السلام ٤/١٧٠٤.

وبيَّن بأنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلـهًا واحدًا مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية، لا دعاءهم إياهم.

ومنها قول الخليل، عليه السلام، للكفار **﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾**. [1] فاستثنى من المعبودين ربَّه.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إلـه إلا الله فقال: **﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾**[2].

اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾[3]. وقال تعالى: **﴿له الحكم وإليه ترجعون﴾**[4].

والشيخ، رحمه الله، جعل شرك الطاعة من الأكبر، وهذا فيه تفصيل وسيأتي، إن شاء الله، في باب من أطاع الأمراء، والعلماء في تحليل ما حرَّم الله، أو بالعكس.

قوله: «**ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ فاستثنى من المعبودين ربه**» فدل هذا على أن التوحيد لابد فيه من نفي وإثبات: البراءة مما سوى الله، وإخلاص العبادة لله وحده.

وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة، وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إلـه إلا الله فقال: **﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾** وهي لا إلـه إلا الله، فكان معنى قوله: **﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾** هو معنى قول: لا إلـه إلا الله.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٠.

(٤) سورة القصص، الآية: ٧٠.

ومنهـا آية البقـرة في الكفـار الذين قال الله فيهـم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾[1]. ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحبَّ النِّدَّ أكبر من حب الله؟، وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!

قولـه: «ومنهـا آية البقرة» في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾.

فجعل الله المحبة شركًا إذا أحبَّ شيئًا سوى الله كمحبته لله، فيكون مشركًا مع الله في المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة الله خالصة لا يشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول، ﷺ، فلولا أنَّه رسول ما وجبت طاعته، ولا محبته إلاّ كما نحب أي مؤمن، ولا يُمنع الإنسان من المحبة، بل له أن يحب كل شيء كالولد، والزوجة، ولكن لا يجعل ذلك كمحبة الله.

والمحبـة لها أسبـاب، ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقه، وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب؛ هذا ليس كفرحه بذكر الله ونحوه.

حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده، ويحب ولده وفرق بينهما، ويحب الله، ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.

فجميع الأمـور البـاطنة في المحبة، والفرح، والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتي، إن شاء الله، لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

ومنها قوله، ﷺ: «من قال لا إلـه إلا الله وكفر بما يعبدُ من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله».

وهـذا من أعظم ما يبين معنى «لا إلـه إلا الله» فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله،

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا﴾.

قوله: «ومنها قول النبي ﷺ: من قال لا إلـه إلا الله». . إلخ إذًا فلابدّ من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[1].

قولـه: «وكفر بما يعبد من دون الله». أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقًّا، فلا يكفي أن يقول: لا إلـه إلا الله، ولا أعبد صنمًا، بل لابدّ أن يقول: الأصنام التي تُعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها.

فاللات مثلاً لا يكفي أن يقول: لا إلـه إلا الله، ولا أعبد اللات ولكن لابدّ أن يكفر بها، ويقول: إنَّ عبادتها ليست بحق، وإلّا كان مقرًّا بالكفر.

فمن رضي دين النصارى دينًا يدينون الله به فهو كافر؛ لأنَّه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام فقد كذَّب قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه﴾[2].

وبهذا يكون كافرًا، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذي أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصارى، والنصارى يدعون إلى دينهم صباحًا ومساءً،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها؟! ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع؟!

والمسلمون لا يتحركون، بل بعض المسلمين الذين ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينـون لهؤلاء ﴿**ودوا لو تدهن فيـدهنون**﴾[1] وهذا من المحنة التي أصابت المسلمين الآن، وآل بهم إلى هذا الذل الذي صاروا إليه الآن.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٩.

باب

من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

قوله: «**من الشرك**» من: هنا للتبعيض، أي: هذا من الشرك، وليس كل الشرك، والشرك اسم جنس يشمل الأصغر والأكبر، ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر، وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها وكان لبس هذه الأشياء من الشرك: لأنَّ كل من أثبت لله سببًا لم يجعله الله سببًا شرعيًا، ولا قدريًّا فقد أشرك بالله.

مثلاً: قراءة الفاتحة: سبب للشفاء شرعي.

وأكل المسهل: سبب لانطلاق البطن، وهو قدريّ، لأنَّه يُعلم بالتجارب[1].

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله كالجبرية والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سببًا، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية، ونحوهم.

---

(١) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٣٤): ولابد من معرفة ثلاثة أمور في الأسباب:

الأول: ألا يجعل منها سبباً إلا ماثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً.

الثاني: ألا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

الثالث: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، ولا خروج لها عنه».

. . . .

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله سببًا شرعيًّا أو كونيًّا(١).

---

(١) انظر بسط هذه المسألة في مجموع الفتاوى ٨/٥٢٦ ـ ٥٣٩، و٨/٧٢ ـ ٧٣، ومدارج السالكين ٣/٤٩٥.

وقال ابن القيم في مدارج السالكين ٣/٤٩٥: «وبالجملة فليس إسقاط الأسباب من التوحيد، بل القيام بها واعتبارها، وإنزالها منازلها التي أنزلها الله فيها: هو محض التوحيد والعبودية.

والقول بإسقاط الأسباب هو توحيد القدرية الجبرية أتباع جهم بن صفوان في الجبر فإنه كان غالياً فيه، وعندهم أن الله لم يخلق شيئاً بسبب ولا جعل في الأسباب قوى وطبائع تؤثر، فليس في النار قوة الإحراق، ولا في السمّ قوة الإهلاك، ولا في الماء والخبز قوة الري والتغذي به، ولا في العين قوة الإبصار، ولا في الأذن والأنف قوة السمع والشم، بل الله سبحانه يحدث هذه الآثار عند ملاقاة الأجسام لا بها فليس الشبع بالأكل، ولا الري بالشرب. . . ولا الطاعات والتوحيد سبباً لدخول الجنة، ولا الشرك والكفر والمعاصي سبباً لدخول النار، بل يدخل هؤلاء النار بمحض مشيئته من غير سبب ولا حكمة. . وطرد هذا المذهب مفسد للدين والدنيا، بل ولسائر أديان الرسل، ولهذا لما طرده قوم أسقطوا الأسباب الدنيوية وعطلوها، ولم يمكنهم ذلك فإنهم أن يأكلوا ويشربوا، ويباشروا من الأسباب مايدفع عنهم الحر والبر.

وقال ص (٤٩٩):

«وقد قال بعض أهل العلم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد. ومحو الأسباب ـ أن تكون أسبابا ـ تغيير في وجه العقل. والإعراض عن الأسباب بالكلية: قدح في الشرع. والتوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد. فالالتفات إلى الأسباب ضربان:

أحدهما: شرك. والآخر: عبودية وتوحيد. فالشرك: أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود. فهو معرض عن المسبِّب لها. ويجعل نظره والتفاته مقصوراً =

= عليها. وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها، وإنزالها منازلها: فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب. وأما محوها أن تكون أسباباً: فقدح في العقل والحس والفطرة. فإن أعرض عنها بالكلية: كان ذلك قدحاً في الشرع، وإبطالاً له.

وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب، واعتقاد أنها بيده. فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها. وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه.

فالموحد المتوكل: لا يلتفت إلى الأسباب، بمعنى أنه لا يطمئن إليها، ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن إليها. ولا يلتفت إليها ـ بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها ـ بل يكون قائماً بها، ملتفتاً إليها، ناظراً إلى مسببها سبحانه ومجريها. فلا يصح التوكل ـ شرعا وعقلا ـ إلا عليه سبحانه وحده. فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده. فهو الذي سبب الأسباب. وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها، ولم يجعل منها سبباً يقتضي وحده أثره: بل لابد معه من سبب آخر يشاركه. وجعل لها أسبابا تضادها وتمانعها، بخلاف مشيئته سبحانه. فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر. ولا في الأسباب الحادثة مايبطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته. فيشاء الأمر ثم يشاء مايضاده ويمنع حصوله. والجميع بمشيئته واختياره. فلا يصح التوكل إلا عليه، ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمته، كما قال أعرف الخلق به، ﷺ، **«أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»** وقال: **«لا منجي ولا ملجأ منك إلا إليك»**.

فإذا جمعت بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب: استقام قلبك على السير إلى الله. ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع رسل الله أنبيائه وأتباعهم. وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم. وبالله التوفيق. وما سبق به علم الله وحكمه حق وهو لا ينافي إثبات الأسباب. ولا يقتضي إسقاطها. فإنه سبحانه قد علم وحكم: أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه. فإسقاط الأسباب خلاف موجب علمه وحكمه. فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب: لم يكن نظره وشهوده =

. . . .

ولا شك أنَّ هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيمانًا حقيقيًّا، وآمنوا بحكمته حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها وهذا من تمام الحكمة.

ولبس الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنَّها مؤثرة بنفسها دون الله فهو مشرك شركًا أكبر في توحيد الربوبية؛ لأنَّه اعتقد أنَّ مع الله خالقًا غيره.

وإن اعتقد أنَّها سبب، ولكنه ليس مؤثرًا بنفسه، فهو مشرك شركًا أصغر، لأنَّه اعتقد أنَّ ما ليس بسبب سببًا، فقد شارك الله تعالى في الحكم لهذا =

= مطابقاً للحق، بل كان شهوده غَيبةً، ونظره عمىً. فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها. فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ماهي عليه في علمه وحكمه وخلقه وأمره؟

والعلل التي تتقى في الأسباب نوعان. أحدهما: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق ويغلظ. وبين ذلك.

الثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب. وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً. وبين ذلك. بل على العبد أن يفعل ماأمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله. سبق به علمه وحكمه. وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يقضي ولا يحكم، ولا يحصل للعبد مالم تسبق له به المشيئة الإلهية. ولا يصرف عنه ماسبق به الحكم والعلم. فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها. ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تُحَصِّلُ له فلاحاً، ولا توصله إلى المقصود عليها. فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، ويُفَرِّغُ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها، تجريداً للتوكل، واعتماداً على الله وحده. وقد جمع النبي، ﷺ، بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح. حيث يقول «احرص على ماينفعك، واستعن بالله. وَلاَ تَعْجِزْ» فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبب. ونهاه عن العجز. وهو نوعان: تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله، وترك تجريدها. فالدين كله ـ ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه ـ تحت هذه الكلمات النبوية. والله أعلم».

. . . .

الشيء بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سببًا.

وطريق العلم بأنَّ الشيء سبب: إمَّا عن طريق الشرع، وذلك كالعسل فيه شفاء للناس من القرآن، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس.

وإما عن طريق القدر: كما إذا جرّبنا هذا الشيء فوجدناه نافعًا في هذا الألم، أو المرض، ولكن لابدّ أن يكون أثره ظاهرًا مباشرًا كما لو اكتوى بالنار فبرىء بذلك مثلاً، فهذا سبب ظاهر بيّن، وإنَّما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أنا جرّبت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشرًا كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنَّها نافعة، فينتفع لأنَّ للانفعال النفسي للشيء أثرًا بيّنًا، فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له، ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحلق، ويربطون الخيوط قد يحسون بخفتها بناء على اعتقادهم نفعها.

وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي والشعور النفسي ليس طريقًا شرعيًا لإثبات الأسباب كما أن الإلهام ليس سببًا للشرع، وما ذكره شيخ الإسلام في بعض كلام له في الفتاوى أنه طريق شرعي لإثبات الأحكام، هذا بالنسبة للإنسان نفسه، لا بالنسبة للأمة، وذكر في الفتاوى ما يدل على أن الإلهام طريق من طرق الشرع، ولكنه في الحقيقة ليس طريقًا للتشريع، فقد يرتاح الإنسان لهذا الشيء، ويرى أنه هو الصواب، ولكن لا يكون حجة على غيره، وإن ألهم.

قوله: **«لبس الحلقة والخيط»**.

الحلقة: من حديد، أو ذهب، أو فضة، أو ما أشبه ذلك، والخيط معروف.

قوله: **«ونحوهما»** كالمرصَّعات لرفع البلاء، أو دفعه، وكمن يصنع شكلاً

وقولِ الله تعالى: ﴿قُلْ أفرأَيتم ما تدعون من دون الله إن أرادَنيَ الله بضُرٍّ هل هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّه﴾[1] الآية.

معينًا من نحاس، أو غيره لدفع البلاء، أو يعلِّق على نفسه شيئًا من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يُعلِّقون القرب البالية لدفع العين حتى إذا رآه الشخص نفرت نفسه فلا يعين[2].

قوله: «**لرفع البلاء، أو دفعه**» والفرق بينهما: أن الرفع: بعد نزول البلاء. والدفع: قبل نزول البلاء.

وشيخ الإسلام لا ينكر السبب الصحيح للرفع أو الدفع، وإنَّما يُنكر السبب غير الصحيح.

قوله: «**أرأيتم**» أي: أخبروني، وهذا تفسير باللازم، لأنَّ من رأى أخبر، وإلاّ فهي استفهام عن رؤية قال تعالى: ﴿**أرأيت الذي يُكذِّب بالدين**﴾[3] أي: أخبرني ما حال من كذَّب بالدين؟ وهي تنصب مفعولين: الأول: مفرد، والثاني: جملة استفهامية.

قوله: «**ما**» المفعول الأول لرأيتم، والمفعول الثاني جملة: «إن أرادني الله بضر».

قوله: ﴿**تدعون**﴾ المراد بالدعاء دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فهم

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

(٢) قال الشيخ عبدالعزيز بن باز في فتاويه ٢/٣٨٤: «عن التمائم إذا كانت من أسماء الشياطين، أو العظام، أو الخرز، أو المسامير، أو الطلاسم وهي الحروف المقطعة وأشباه ذلك من الشرك الأصغر، وقد تكون شركاً أكبر إذا اعتقد معلق التميمة أنها تحفظه أو تكشف عنه المرض أو تدفع عنه الضرر دون إذن الله تعالى ومشيئته».

(٣) سورة الماعون، الآية: ١.

. . . .

يدعـون هذه الأصنـام دعاء عبادة، فيتعبَّدون لها بالنذر، والذبح، والرُّكوع والسجود، ودعاء مسألة أيضًا.

فالله سبحانه إذا أراد بعبده ضرًّا لا تستطيع أن تكشفه، وإن أراده برحمة لاتستـطيع أن تكشف الرحمة عنه، فهي لاتكشف الضر، ولاتمنع النفع فلماذا تعبد؟!

والعرب كانوا إذا نزلوا بأرض طلبوا أربعة أحجار ثلاثة للقدر، والرابع ربًّا يعبدوه.

ومنهم من يصنـع ربه من التمر، فإذا جاع قال أطعمني، فلم يطعمه أكله!!

قوله: ﴿**كاشفات**﴾ يشمل الدفع، والرد، فهي لا تكشف الضر بدفعه، وإبعاده، ولا تكشفه برفعه، وإزالته.

قولـه: ﴿**قل حسبي الله**﴾ أي: كافيني، والحسب الكفاية، ومنه قوله تعـالى: ﴿**جـزاء من ربـك عطاءً حسـابًـا**﴾[1] من الحسب، وهو الكفاية.

وحسبي: مبتدأ، والله: خبر، وهذا أبلغ.

وقيل: العكس، والراجح الأوّل من وجهين:

الأول: أنَّ الأصل عدم التقديم والتأخير.

الثاني: أن قولك: حسبي الله فيه حصر فهو كقولك: لا حسب لي إلا الله بخلاف قولك الله حسبي، فليس فيه حصر فهو كقولك: الله حسبي أنا فقط.

قوله: ﴿**عليه يتوكل المتوكلون**﴾. قدّم الجار والمجرور لإفادة الحصر، لأنَّ تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والمعنى: أنَّ المتوكل حقيقة هو المتوكل على الله، أمّا الذي يتوكل على الأصنام، والأولياء، والأضرحة، فليس بمتوكل.

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٦.

عن عِمران بن حُصَين رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأىٰ رجلاً في يده حَلْقـةٌ من صُفْر، فقال: ما هذه؟ قال: من الواهنة، فقال: **انْزِعْها فإنها لا تزيدك إلا وَهْنًا، فإنك لو مُتَّ وهي عليك ما أفْلَحْت أبدًا**». رواه أحمد بسند لا بأس به[1].

وهذا لا ينافي أن يوكّل الإنسان إنسانًا في شيء، ويعتمد عليه، لأنَّ هناك فرقًا بين التوكل على الإنسان الذي يفعل لك شيئًا بأمرك، وبين توكلك على الله، لأنَّ توكلك على الله اعتقادك أنَّ بيده النفع والضر، وأنك متذلِّل معتمد عليه، مفتقر إليه.

الشاهد من هذه الآية: أن هذه الأصنام لا تنفع أصحابها لا بجلب نفع، ولا بدفع ضر، فليست أسبابًا لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعي أو قدري، فيعتبر اتخاذه سببًا إشراكًا بالله.

وهذا يدل على حذق المؤلف، رحمه الله، وقوّة استنباطه، وإلاّ فالآية بلا شكّ في الشرك الأكبر، الذي تعبد فيه الأصنام، ولكن القياس واضح جدًّا، لأنَّ هذه الأصنام ليست أسبابًا تنفع فيقاس عليها كل ما ليس بسبب، فيعتبر إشراكًا بالله.

هذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامة لأنه هذا الرجل لبس حلقة من صفر لدفع البلاء أو لرفعه.

---

(١) رواه أحمد ٤/٤٤٥ واللفظ له، وابن ماجه كتاب الطب/ باب تعليق التمائم ٢/١١٦٧ وليس فيه: «فإنك لو مت. . .» إلخ، وفي الزوائد: «إسناده حسن، لأن مبارك هذا هو ابن فضالة»، ورواه ابن حبان أيضًا برقم (١٤١٠) بلفظ: «إنك إن تمت وهي عليك وكلت إليها».

ومن طريق أبي عامر الخزاز عن الحسن عن عمران بنحوه رواه ابن حبان برقم (١٤١١) والحاكم ٤/٢١٦، وصححه ووافقه الذهبي.

. . . .

والظاهر: أنه لرفعه لقوله: «**لا تزيدك إلا وهناً**» والزيادة تكون مبنية على أصل.

ففي هذا الحديث دليل على عدة فوائد:

١ - أنه ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسأل أولاً عن الحال لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكرًا، ودليله أن الرسول ﷺ قال: «**ما هذه**».

والاستفهام هنا للاستعلام فيما يظهر وليس للإنكار وقول الرجل (من الواهنة) من للسببية أي: لبستها بسبب الواهنة وهي مرض يوهن الإنسان ويضعفه قد يكون في الجسم كله، وقد يكون في بعض الأعضاء.

٢ - وجوب إزالة المنكر لقوله: «**انزعها**» فأمره بنزعها لأن لبسها منكر وأيد ذلك بقوله: «**إنها لا تزيدك إلا وهنًا**». أي: وهنًا في النفس لا في الجسم وربما تزيده وهنا في الجسم، أما وهن النفس فلأن الإنسان إذ تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد على الله - عز وجل - والانفعال النفسي له أثر كبير في إضعاف الإنسان فأحيانًا يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض وأحيانًا يتناسى الإنسان المرض وهو مريض فيصبح صحيحًا فانفعال النفس بالشيء له أثر بالغ، ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو بكذا فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة.

فهذا الذي لبس الحلقة من الواهنة، لا تزيده إلا وهنًا، لأنه سوف يعتقد أنها مادامت عليه فهو سالم فإذا نزعها عاد عليه الوهن وهذا بلا شك ضعف في النفس.

وله عن عُقْبة بن عامر مرفوعًا: «**مَن تعلَّق تَميمَةً فلا أتمَّ الله له، ومن تَعلقَ ودَعةً فلا وَدَعَ الله له**»[1].

---

٣ ـ أن الأسباب التي لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان.

٤ ـ أن لبس الحلقة وشبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك لقوله: «**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**» وانتفاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران.

ولكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر.

سبق لنا عند الترجمة أنه يختلف بحسب اعتقاد صاحبه.

٥ ـ أن الأعمال بالخواتيم لقوله: «**لو مت وهي عليك**» فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضره، لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له.

قوله: «**فلا أتم الله له**» الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وهي دعاء مقبول على كل تقدير لصدوره من النبي، ﷺ.

وكلا الاحتمالين دال على أن التميمة محرَّمة سواء نفى الرسول، ﷺ، أن يتم الله له، أو دعا بأن لا يتم الله له، فإن كان الرسول، ﷺ، أراد به الخبر، فإننا نخبر بما أخبر به النبي، ﷺ، وإلّا فإننا ندعو بما دعا به الرسول ﷺ.

ومثل ذلك قوله ﷺ: «**ومن تعلَّق ودعةً فلا ودعَ الله له**».

قوله: «**ودعة**» واحدة الودع، وهي أحجار تؤخذ من البحر يعلّقونها لدفع

---

(١) رواه أحمد في المسند ١٥٤/٤، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣٢٥/٤، والحاكم ٢١٦/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وفيه: خالد بن عبيد المعافري لم يوثقه غير ابن حبان كما في التعجيل ص (١١٤)، وقال المنذري في الترغيب ٣٠٦/٤: «إسناده جيد»، وقال الهيثمي في المجمع ١٠٣/٥: «رجاله ثقات»، وقال الحافظ في التعجيل ص (١١٤): «ورجاله موثقون».

وفي رواية: «مَن تعلَّق تَميمةً فقد أشرك»[1].

ولابن أبي حاتم عن حُذيفة أنه رأىٰ رجلًا في يده خَيطٌ من الحُمَّى، فقطعه وتلا قولَه: **﴿وما يؤمن أكثرُهم بالله إلَّا وهم مُشركونَ﴾[2].**

العين، ويزعمون أنَّ الإنسان إذا علّق هذه الودعة لم تصبه العين، أو لا يصيبه الجن.

قوله: «**لا ودع الله له**» أي: لا تركه الله في دعة وسكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم.

وقيل: لا ترك الله له خيرًا حتى يعامل بنقيض قصده.

قوله: «**من الحُمَّى**»: من هنا أي للسببية أي: خيط لبسه من أجل الحُمّى.

قوله «**فقطعه**»: أي: قطع الخيط، وفعله هذا من تغيير المنكر باليد، وهذا يدل على غيرة السلف الصالح، وقوتهم في تغيير المنكر باليد وغيرها.

وقوله وتلا قوله تعالى: **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾** دليل على أن الإنسان يجتمع في حقه إيمان وشرك، ولكن ليس شركاً أكبر؛ لأن الشرك الأكبر لا يجتمع مع الإيمان ولكن المراد الشرك الأصغر وهذا أمرٌ معلوم.

---

(١) رواه أحمد ١٥٦/٤، والحاكم ٢١٩/٤، كتاب الطب، وقال المنذري في الترغيب ٣٠٧/٤، والهيثمي في المجمع ١٠٣/٥: «ورواة أحمد ثقات».

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦، وفي النهج السديد ص (٥٧): «ضعيف رواه ابن أبي حاتم، وقد أورد سنده في تيسير العزيز الحميد من طريق عروة بن الزبير عن حذيفة، ولا يعرف لعروة سماع من حذيفة».

فيه مسائل : الأولى : التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك . **الثانية** : أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح ، فيه شاهدٌ لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر. **الثالثة** : أنه لم يعذر بالجهالة .

قوله **(فيه مسائل)** :

أي في هذا الباب **مسائل**

الأولى : التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك .

لقوله ﷺ : «**انزعها - لا تزيدك إلا وهنًا - لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**» وهذا تغليظ عظيم في لبس هذه الأشياء والتعلق بها .

الثانية : أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح .

هذه وهو صحابي ، فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح .

قال المؤلف : «فيه شاهد لكلام الصحابة : أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر» .

قوله (لكلام) أي لقول ، وهو كذلك فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا»[1] وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة ، لأن الشرك لا يغفر ولو كان أصغر بخلاف الكبائر فإنها تحت المشيئة .

الثالثة : أنه لم يعذر بالجهالة .

هذا فيه نظر لأن قوله ﷺ لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم .

بل ظاهره «لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا» أي : بعد أن علمت وأمرت بنزعها .

---

(١) يأتي تخريجه ص (٢٠٧).

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر لقوله: «لا تزيدك إلا وهنـًا».

وهذه المسألة فيها شيء من النظر فنقول الجهل نوعان:

جهـل يعـذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه مما كان ناشئًا عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم فإنه لا يعذر فيه سواء في الكفر أو في المعاصي، وما كان ناشئًا عن خلاف ذلك أي: أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المقتضي للتعلم بأن كان لم يطرأ على باله أن هذا الشيء حرام فإنه يعذر فيه، فإن كان منتسباً إلى الإسلام لم يضره، وإن كان منتسبًا إلى الكفر فهو كافر في الدنيا لكن في الآخرة أمره إلى الله وعلى القول الراجح يمتحن فإن أطاع دخل الجنة وإن عصى دخل النار.

فعلى هذا من نشأ ببادية بعيدة ليس عنده علماء ولم يخطر بباله أن هذا الشيء حرام، أو أن هذا الشيء واجب فهذا يعذر وله أمثلة:

رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنده عالم ولـم يسمع عن العلم شيئًا ويظن أن الإنسان لا تجب عليه العبادات، إلا إذا بلغ خمس عشرة سنة فبقي بعد بلوغه حتى تم له خمس عشرة سنة وهو لا يصوم ولا يصلي ولا يتطهر من جنابة فهذا لا نأمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذي لم يفرط فيه بالتعلم ولم يطرأ له على بال، وكذلك لو كانت أنثى أتاها الحيض وهي صغيرة وليس عندها من تسأل ولم يطرأ على بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة فإنها تعذر إذا كانت لا تصوم ولا تصلي.

وأما من كان بالعكس كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل لكن عنده تهاون وغفلة فهذا لا يعذر لأن الغالب في المدن أن هذه الأحكام لا تخفى عليه ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة فهو مفرط فيلزمه القضاء ولا يعذر بالجهل.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر لقوله: لا تزيدك إلا وهنًا.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه. **السابعة**: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك. **التاسعة**: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

والمؤلف استنبط المسألة وأتى بوجه استنباطها.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك. أي ينبغي أن ينكر إنكارًا مغلظًا على من فعل مثل هذا ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف وأيضًا قوله: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**».

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه: تؤخذ من قوله: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**» إذا جعلنا الجملة خبرية وأن من تعلق تميمة فإن الله لا يتم له فيكون موكولاً إلى هذه التميمة ومن وكل إلى مخلوق فقد خُذلَ، ولكنها في الباب الذي بعده صريحة «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»[1].

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك: وهو إحدى الروايتين في حديث عقبة بن عامر.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك:

يؤخذ من حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

---

(١) يأتي تخريجه ص (١٧٩).

العاشرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك. **الحادية عشرة**: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له، أي ترك الله له.

أي: أن قوله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ في الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الواردة في الشرك الأكبر على الأصغر، لأن الأصغر شرك في الحقيقة، وإن كان لا يخرج من الملة ولهذا نقول الشرك نوعان: أصغر وأكبر.

وقوله: كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

وهي قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله...**﴾[1] الآية فجعل المحبة التي تكون كمحبة الله من كاتخاذ الند لله ـ عز وجل ـ.

العاشرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك:

الودع: أحجار تخرج من البحر يعلقونها عن العين يقول (إنها من ذلك) أي: من تعليق التمائم الشركية لأنه لا أثر لها.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له أي: ترك الله له.

تؤخذ من دعاء النبي ﷺ على هؤلاء الذين اتخذوا تمائم وودعًا وليس هذا بغريب أن نؤمر الدعاء على من خالف وعصى فقد قال النبي ﷺ: «**إذا سمعتم من ينشد الضالة في المسجد فقولوا: لا ردها الله عليك**»[2] «**وإذا سمعتم من**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد/ باب النهي عن نشد الضالة في المسجد ١/٣٩٧.

. . . .

يبيع أو يبتاعٍ في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك»[1].

فهذا أيضا تقول له لا أتم الله لك، ولكن الحديث إنما قاله الرسول، ﷺ، على سبيل العموم فلا نخاطب هذا بالتصريح ونقول لشخص رأينا عليه تميمة لا أتم الله لك، وذلك لأن مخاطبتنا الفاعل بالصريح والتعيين سوف يكون سبباً لنفوره ولكن نقول دع التمائم أو الودع، فإن النبي، ﷺ، يقول: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله ومن تعلق ودعة فلا ودع الله**».

---

(1) أخرجه الترمذي في البيوع/ باب النهي عن البيع في المسجد ٢/٢٧٤، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٧٦) والدارمي (١٤٠٨)، وابن حبان (٣١٣) موارد، والحاكم ٢/٥٦، والبيهقي ٢/٤٤٧.

وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

بــاب
ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح عن أبي بَشيرٍ الأنصاري، رضي الله عنه: **«أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يَبقيَنَّ في رقبةِ بعيرٍ قلادةٌ من وَتَرٍ، أو قلادة إلا قُطِعَتْ»**[1].

لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك، لأنَّ الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة والخيط، ولهذا جزم المؤلف في الباب الأول أنَّها من الشرك بدون استثنـاء، أما هذا الباب فلم يذكر أنَّها شرك، لأنَّ من الرقى ما ليس بشرك. ولهذا قال: باب ما جاء في الرقى والتمائم.

قوله: «**الرقى**» جمع رقية، وهي القراءة فيقال: رقى عليه من القراءة، ورقي عليه من الصعود.

قوله: «**التمائم**» جمع تميمة، وسمّيت تميمة، لأنَّهم يرون أنَّه يتم بها دفع العين.

قوله: «**في الصحيح**» يحتمل أنَّه أراد في الصحيح الحديث الصحيح، وهو أعمُّ من أن يكون في البخاري أو مسلم، أو غيرهما، ويحتمل أنه أراد في صحيح البخاري، أو صحيح مسلم، وبعد الاطلاع تبيّن أنه في الصحيحين وغيرهما، وعلى هذا فمعنى قوله: «**في الصحيح**» أي في الحديث الصحيح.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد/ باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل ٢/٣٥٩، ومسلم كتاب اللباس/ باب كراهة الكلب والجرس في السفر ٣/١٦٧٢.

. . . .

قوله: «أسفاره» السَفَر: مفارقة محل الإقامة، وسُمّي سَفرًا لأمرين:

الأول: حسيّ، وهو أنَّه يسفر، ويظهر كالغريب.

الثاني: معنوي وهو أنه يسفر عن أخلاق الرجال، أي يكشف عنها وكثير من الناس لا تعرف أخلاقهم، وعاداتهم، وطبائعهم إلا بالأسفار.

قوله: «**قلادة من وتر، أو قلادة**» شكّ من الراوي، والأولى أرجح، لأنَّ القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير وهذا اعتقاد فاسد، لأنَّه تعلّق بما ليس بسبب، وقد سبق أنَّ من تعلّق بما ليس بسبب شرعي أو حسي، فإنه شرك؛ لأنَّه بتعلقه أثبت للأشياء سببًا لم يثبته الله لا بشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبي ﷺ، أن تقطع هذه القلائد.

أمَّا إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنّما تستعمل للقيادة كالزمام فهذا لا بأس به، لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك كثيراً من الصوف، أو غيره.

قوله: «**في رقبة بعير**» ذَكَرَ البعير لأنَّ هذا هو الذي كان منتشرًا حينذاك، فهذا القيد بناء على الواقع عندهم، فيكون كالتمثيل.

يستفاد من الحديث:

١ ـ أنّه ينبغي لكبير القوم أن يكون مراعيًا لأحوالهم فيتفقدهم وينظر في أحوالهم.

٢ ـ أنه يجب عليه رعايتهم بما تقتضيه الشريعة، فإذا فعلوا محرمًا منعهم منه، وإن تهاونوا في واجب حثَّهم عليه.

٣ ـ أنه لا يجوز أن تعلّق في أعناق الإبل أشياء تجعل سبباً في جلب منفعة أو دفع مضرة، وهي ليست كذلك لا شرعًا ولا قدرًا، لأنَّه شرك، ولا يلزم أن تكون القلادة في الرقبة بل لو جُعلت في اليد أو الرجل، فلها حكم

وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله، ﷺ يقول: «**إن الرُّقى والتَّمائمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ**». رواه أحمد وأبوداود[1]

الرقبة، لأنَّ العلّة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها، فالمكان لا يؤثّر.

٤ ـ أنه يجب على من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيّره بيده.

قوله: «**إنَّ الرقى**» الرقى: جمع رقية، وهذه ليست على عمومها بل هي عام أريد به خاص، وهو الرقى بغير ما ورد به الشرع، أمّا ما ورد به الشرع، فليست من الشرك، قال ﷺ في الفاتحة: «**وما يدريك أنّها رقية**»[2].

وهل المراد بالرقى مالم يرد به الشرع ولو كانت مباحة، أو المراد ما كان فيه شرك؟ لأنَّ كلام النبي، ﷺ، لا يناقض بعضه بعضًا، فالرقى المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة.

وكذا الرقى المباحة: التي يُرقى بها الإنسان المريض كدعاء من عنده ليس فيه شرك، جائزة.

قوله: «**التمائم**» فسّرها المؤلف بقوله: «شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين»، وهي من الشرك، لأنَّ الشارع لم يجعلها سببًا تُتّقى به العين[3].

---

(١) رواه أحمد ١/٣٨١، وأبو داود، كتاب الطب/ باب في تعليق التمائم ٥/٢١٢، وابن ماجه، كتاب الطب/ باب تعليق التمائم ٢/١١٦٦، والحاكم في الرقى والتمائم ٤/٤١٨ وقال: «صحيح الإسناد على شرط الشيخين» وأقره الذهبي، وابن حبان برقم (١٤١٢)، والطبراني في الكبير برقم (١٠٥٠٣).

(٢) سبق ص (٩٣).

(٣) وقال الشيخ الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٤٩٢): «ولا تزال هذه الضلالة ـ أي التمائم ـ فاشية بين البدو والفلاحين وبعض المدنيين، ومثلها الخرزات التي يضعها بعض السائقين أمامهم في السيارة يعلقونها على المرآة، وبعضهم يعلق نعلاً في مقدمة السيارة أو في مؤخرتها، وغيرهم يعلقون نعل فرس في واجهة الدار والدكان كل ذلك لدفع العين كما زعموا، وغير ذلك مما عمّ وطمّ بسبب الجهل بالتوحيد، وماينافيه من الشركيات والوثنيات».

. . . .

وإذا كان الإنسان يلبس أبناءه ملابس رثّة، وبالية خوفًا من العين فهل هذا جائز؟

الظاهر: أنّه لا بأس به، لأنّه لم يفعل شيئًا، وإنّما ترك شيئًا، وهو التحسين والتجميل، وقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد أنَّ عثمان رأى صبيًّا مليحًا فقال: دسّموا نونته، والنونة هي التي تخرج في الوجه عندما يضحك الصبي كالنقرة، ومعنى دسّموا: أي سوّدوا.

وأمّا الخط: وهي أوراق من القرآن تجمع وتوضع في جلد، ويلبسها الطفل على يده، أو رقبته ففيها خلاف بين العلماء إذا كانت من القرآن.

وظاهر الحديث: أنّها ممنوعة، ولا تجوز.

ومن ذلك أنّ بعضهم يكتب القرآن كله بحروف صغيرة في أوراق صغيرة، ويضعها في صندوق صغير، ويعلّقها على الصبي، وهذا مع أنه محدث، فهو إهانة للقرآن الكريم، لأنَّ هذا الصبي سوف يسيل عليه لعابه، وربما يتلوّث بالنجاسة، ويدخل به الحمام، والأماكن القذرة، وهذا كله إهانة للقرآن.

لكن مع الأسف أنَّ الناس اتخذوا من هذه العبادات نوعًا من التبرّك فقط مثل ما يشاهد من أنَّ بعض الناس يمسح الركن اليماني، ويمسح به وجه الطفل، وصدره، وهذا معناه أنَّهم جعلوا مسح الركن اليماني من باب التبرك لا التعبد، وهذا جهل وقد قال عمر في الحجر: «إنّي أعلم أنَّك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت رسول الله، ﷺ، يقبِّلك ما قبلتك»[١].

قوله: «**التولة**» شيء يعلّقونه على الزوج يزعمون أنَّه يُقرِّب الزوجة إلى

---

(١) يأتي ص (١٨٧).

وعن عبدالله بن عُكَيْمٍ مرفوعًا: «**مَن تعلَّق شيئًا وُكِلَ إليهِ**».

رواه أحمد والتِّرمذي[1].

التَّمائمُ: شيءٌ يُعَلَّقُ على الأولاد يتَّقون به العَيْنَ،

زوجها، والزوج إلى امرأته، وهذا شرك لأنّه ليس بسبب شرعي، ولا قدري للمحبة.

هل نقول: الدبلة منها:

والدبلة: خاتم يُشترى عند الزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج قالت المرأة: إنه لا يحبها، فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنّه ما دام في يد الـزوج فإنَّه يعني أنَّ العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية فإنّه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية ـ وهي بعيدة ألَّا تصحبها ـ ففيه تشبّه بالنصارى، فإنّها مأخوذة منهم.

وإن كانت من الذهب فهي بالنسبة للرجل فيها محظور ثالث وهو لبس الذهب.

قوله: «**شرك**» وهل هي شرك أصغر، أو أكبر؟

نقول: بحسب ما يُريد الإنسان منها:

إن اتّخذها معتقدًا أنَّ المسبب هو الله فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنَّها تفعل بنفسها فهي شرك أكبر.

قوله: «**من تعلّق شيئًا**» أي اعتمد عليه، وجعله أكبر همه ومبلغ علمه، وصار يُعلِّق رجاءه به، وزوال خوفه به.

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٣١٠ والترمذي أبواب الطب/ باب ما جاء في كراهة التعليق ٦/ ٢٦٣ قال: «حديث عبدالله بن عكيم إنما نعرفه من حديث ابن أبي ليلى»، والحاكم في كتاب الطب ٤/ ٢١٦ وسكت عنه هو والذهبي، وقال ابن البنا في الفتح الرباني ١٧/ ١٨٨: «قلت هذا الحديث لا تقل درجته عن الحسن لا سيما وله شواهد تؤيده».

. . . .

وشيئًا: نكرة في سياق الشرط، فتعم جميع الأشياء، فمن تعلّق بالله سبحانه وتعالى وجعل رغبته، ورجاءه فيه، وخوفه منه، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾[1] أي كافيه، ولهذا كان من دعاء الرسل وأتباعهم عند المصائب والشدائد «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» قالها إبراهيم حين أُلقيَ في النار، وقالها محمد وأصحابه حين قيل لهم: ﴿**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾[2].

قوله: «**وكل إليه**» أي أُسند إليه، وفوّض.

أقسام التعلق بغير الله:

الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلّق بشيء لا يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتمادًا كاملًا معرضًا عن الله مثل تعلّق عُبّاد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مسَّتهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان أنقذنا، فهذا لا شك أنَّه شرك أكبر مخرج عن الملة.

الثاني: ما ينافي كمال التوحيد: أن يعتمد على سبب شرعي صحيح مع الإعراض عن المسبب، وهو الله عز وجل، وعدم صرف قلبه إليه، فهذا نوع من الشرك ولا نقول شرك أكبر، لأنَّ هذا السبب جعله الله سببًا.

الثالث: أن يتعلّق بالسبب تعلّقًا مجردًا لكونه سببًا فقط مع اعتماده الأصلي على الله، فيعتقد أن هذا السبب من الله وأن الله لو شاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنّه لا أثر لسبب في مشيئة الله عز وجل، فهذا لا ينافي التوحيد لا كمالًا، ولا أصلًا.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس، كتاب التفسير/ باب ﴿الذين قال لهم الناس...﴾ ٣/٢١١.

ولكن إذا كان المُعَلَّقُ من القرآن فرخّص فيه بعضُ السَّلَف، وبعضهم لم يرخِّص فيه، ويجعلُه من المنهيِّ عنه. منهم ابن مسعود، رضي الله عنه.

ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغي للإنسان أن لا يُعلّق نفسه بالسبب بل يعلّقها بالله.

فالموظف الذي يتعلّق قلبه بمرتبه تعلقًا كاملاً مع الإعراض عن الاعتقاد في المسبب وهو الله، نوع من الشرك، أما إذا اعتقد أن المرتب سبب، والمسبب هو الله سبحانه وتعالى، وجعل الاعتماد على المسبب، وهو يشعر أن المرتب سبب فهذا لا ينافي التوكل.

والرسول، ﷺ، كان يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب وهو الله عز وجل.

أمّا إذا تعلّق بسبب لا تأثير له، كالذي يتعلّق بميت في حصول رزق، أو تسهيل أمر، أو دفع ضر، فهذا شرك أكبر.

وجاء في الحديث: «من تعلّق» ولم يقل: من علَّق، لأنَّ المتعلِّق بالشيء يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجاءه وأمله به.

قوله: «**وإذا كان المُعلّق من القرآن . . .**» إلخ.

إذا كان المُعلَّق من القرآن، أو الأدعية المباحة، والأذكار الواردة فهذه المسألة اختلف فيها السلف رحمهم الله، فمنهم من رخَّص في ذلك لعموم قوله تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾[1] ولم يذكر الوسيلة التي نتوصل بها إلى الاستشفاء بهذا القرآن، فدلَّ على أن كل وسيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جائزة، كما لو كان القرآن دواءً حسيًّا[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) وقد ورد أن عبدالله بن عمرو بن العاص «يعلق على أولاده الذين لم يبلغوا دعاء الفزع، =

. . . .

وقــال بعض الـعلماء: لا يجوز تعليق القــرآن للاستشفــاء به؛ لأنَّ الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي القراءة به، بمعنى أنَّك تقرأ على المريض به، فلا نتجاوزها، فلو جعلنا الاستشفاء بالقرآن على صفة لم ترد، فمعنى ذلك أنَّنا أدخلنا سببًا ليس مشروعًا[1].

ولولا الشعور النفسي بأن تعليق القرآن سبب للشفاء لكان انتفاء السببية على هذه الصــورة أمـرًا ظاهرًا، فإنَّ التعليق ليس له علاقة بالمرض بخلاف النفث على مكان الألم، فإنّه يتأثر بذلك.

ولهذا الأقرب أن يقال: إنّه لا ينبغي أن تعلّق هذه الآيات للاستشفاء بها، لا سيما وأن هذا المعلِّق قد يفعل أشياء تنافي قدسية القرآن كالغيبة مثلاً، ودخول بيت الخلاء، وأيضًا إذا علَّق وشعر أن به شفاء استغنى به عن القراءة المشروعة مثلاً: علَّق آية الكرسي على صدره، وقال: ما دام أنّ آية الكرسي على صدري فلن أقرأها، فيستغني بغير المشروع عن المشروع، وقد يشعر بالاستغناء عن القراءة المشروعة إذا كان القرآن على صدره[2].

= وهو: بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون».

أخرجه أحمد ٢/١٨١، وأبوداود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، وحسنه، والحاكم ١/٥٤٨.

لكن في إسناده محمد بن إسحاق، وقد عنعنه.

(١) انظر أقوال العلماء في هذه المسألة.

مصنف ابن أبي شيبة ٧/٣٧٤، وسنن البيهقي ٩/٢١٦، والمستدرك ٤/٢١٦، وتيسير العـزيز الحميد ١٦٨، وفتـح المجيد ١٣٢، والقـول السـديد ص٣٨، ومعـارج القبول ١/٣٨٢، وفتاوى ابن باز ١/٢٠، والمجموع الثمين للعثيمين ١/٥٨.

(٢) وقال الشيخ عبدالعزيز كما في فتاويه ١/٢٠: «والصواب أنها محرمة....».

و «الـرُّقى»: هي التي تسمى العزائم، وخَصَّ منها الدليل ما خَلَا من الشِّرْكِ، فقد رخَّصَ فيه رسول الله ﷺ من العَيْنْ والحُمةِ[1].

و«التِّـوَلـةُ»: هي شيءٌ يصنعـونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

وإن كان صبيًّا فربما بال، ووصلت الرطوبة إلى هذا المعلَّق، وأيضًا لم يرد عن النبي، ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم فيه.

فالأقرب أن يُقال: إنّه لا يفعل، أمّا أن يصل إلى درجة التحريم فأنا أتوقف فيه، لكن إذا تضمّن محظورًا، فإنّه يكون محرَّمًا بسبب ذلك المحظور.

قوله: «**التي تُسمّى العزائم**» أي في عرف الناس.

وعزم عليه: أي قرأ عليه، وهذه عزيمة أي قراءة.

قوله: «**وخصّ منها الدليل ما خلا من الشرك**». أي الأشياء الخالية من الشرك فهي جائزة سواءً كان مما ورد بلفظه مثل: «**اللهم رب الناس أذهب الباس اشف أنت الشافي..**»[2]. أو لم يرد بلفظه مثل: «**اللهم عافه، اللهم اشفه**»[3]. وإن كان فيها شرك، فإنّها غير جائزة مثل: «يا جني أنقذه، ويا فلان الميت اشفه» ونحو ذلك.

قولـه: «**من العـين والحُمة**»: العين: معروفة، وهي التي تسمّى عند العامة (النحاته). والحُمة: اللدغة من العقرب، أو الحيَّة، وما أشبه ذلك.

---

(١) سبق ص (٩٣).

(٢) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب المرض/ باب دعاء العائد للمريض ٤/ ٣١، ومسلم كتاب السلام/ باب استحباب رقية المريض ٤/ ١٧٢١.

(٣) رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات ٣/ ٣٤٤، وأصله عند مسلم كتاب السلام/ باب رقية المريض بالمعوذات والنفث ٤/ ١٧٢٣.

وروى أحمد عن رُوَيْفِعٍ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا رُوَيفعُ، لعل الحياة ستطول بك، فأخبرِ الناسَ أن مَن عَقَدَ لِحْيته، أو تقلَّد وَتَرًا، أو استنجى برجيعِ دابَّةٍ أَو عَظْمٍ، فإن محمدًا بريءٌ منه»**[1].

وظاهر كلام المؤلف: أنَّ الدليل لم يُرخّص بجواز القراءة إلاّ في هذين الأمرين: **«العين، والحمة»** لكن ورد بغيرهما، فقد كان النبي ﷺ، ينفخ على يديه عند منامه بالمعوذات ويمسح بهما ما استطاع من جسده[2] وهذا من الرقية، وليس عينًا، ولا حُمة.

ولهذا يرى بعض أهل العلم الترخيص في الرقية من القرآن للعين والحمة وغيرهما عامة، ويقول: إنَّ معنى قول النبي ﷺ: **«لا رقية إلاّ من عين أو حُمة»**[3] أي لا يطلب الاسترقاء إلا من العين، والحمة، فالمصيب بالعين «العائن» يطلب منه أن يقرأ على المعيون.

وكذلك الحمة يطلب الإنسان من غيره أن يقرأ عليه؛ لأنَّه مفيد كما في حديث أبي سعيد في قصة السريَّة[4].

شروط جواز القراءة للرقى:

الأول: أن لا يعتقد أنَّها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد أنّها تنفع بذاتها من دون الله فهو محرَّم؛ لأنَّه شرك، بل يعتقد أنَّها سبب لا تنفع إلاّ بإذن الله.

(١) رواه أحمد ٤/١٠٨، ١٠٩، وأبو داود كتاب الطهارة/ باب ما يُنهى عنه أن يستنجى به ١/٣٤، وسكت عنه، والنسائي، كتاب الزينة/ باب عقد اللحية ٨/١٣٥، والطبراني في الكبير برقم (٤٤٩١)، وإسناده صحيح كما في النهج السديد ص (٦٢).

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات ٣/٣٤٤، وأصله عند مسلم كتاب السلام/ باب رقية المريض بالمعوذات والنفث ٤/١٧٢٣.

(٣) سبق ص (١٠٢). (٤) سبق ص (٩٣).

. . . .

الثاني: أن لا تكون مما يخالف الشرع كما إذا كانت متضمنة دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وما أشبه ذلك، فإنه مُحرَّم.

الثالث: أن تكون مفهومة معلومة، فإن كانت من جنس الطلاسم والشعوذة فإنَّها لا تجوز.

أما بالنسبة للتمائم، فإن كانت من أمر محرم، أو اعتقد أنَّها نافعة بذاتها، أو كانت بكتابة لا تفهم فإنَّها لا تجوز بكل حال.

أمّا إذا تمَّت فيها الشروط الثلاثة السابقة، فإنَّ أهل العلم اختلفوا فيها كما سبق[1].

قوله: «**من عقد لحيته**» اللحية: عند العرب كانت لا تقص، ولا تحلق كما أن ذلك هو السنَّة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب:

الأول: افتخارًا، وعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد في قومه.

الثاني: خوفًا من العين؛ لأنَّها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة فمن فعل ذلك، فإنَّ الرسول، ﷺ، بريء منه.

وبعض العامة إذا جاءهم طعام من السوق أخذوا شيئًا منه يرمونه في الأرض، دفعًا للعين وهذا اعتقاد فاسد، ومخالف لقول النبي ﷺ: «**إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط ما بها من الأذى، وليأكلها**»[2].

قوله: «**أو تقلَّد وترًا**» الوتر: نوع من الخيوط العصبيّة تؤخذ من الشاة، وتتخذ للقوس وترًا، ويستعملونها في أعناق إبلهم، أو خيلهم، أو في أعناقهم

---

(1) انظر ص (١٨١).

(2) رواه مسلم من حديث أنس، كتاب الأشربة/ باب استحباب لعق الأيادي والقصعة ٣/١٦٠٧.

وعن سعيد بن جُبَير قال: «مَن قَطَعَ تَمِيمَةً من إنسان كان كَعَدْل رَقَبَةٍ». رواه وَكيع.

يزعمون أنه يبعد العين، وهذا من الشرك.

قوله: «أو استنجى برجيع دابة» الاستنجاء: مأخوذ من النجو، وهو: إزالة أثر الخارج من السبيلين، لأنَّ الإنسان الذي يتمسَّح بعد الخلاء يزيل أثره.

ورجيع الدابة: هو روثها فمن استنجى به، فإنَّ محمدًا بريء منه؛ لأنه، ﷺ نهى عنه لكونه علفًا لبهائم الجن.

قوله: «أو عظم» فمن استنجى بعظم، فإنَّ محمدًا بريء منه، لأنَّه طعام الجن يجدونه أوفر ما يكون لحمًا.

قوله: «فإنَّ محمدًا بريء منه» كل ذنب قرن بالبراءة من فاعله فهو من كبائر الذنوب كما هو معروف عند أهل العلم.

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «من تقلَّد وترًا».

قوله: وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة. . .» الحديث.

وجه المشابهة بين قطع التميمة، وعتق الرقبة أنَّه إذا قطع التميمة من إنسان فكأنه أعتقه من الشرك ففكَّه من النار ولكن يقطعها بالتي هي أحسن، لأنَّ العنف يؤدِّي إلى المشاحنة والشقاق إلاّ إن كان ذا شأن كالأمير، والقاضي، ونحوه ممن له سلطة، فله أن يقطعها مباشرة.

وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التَّمائم كلَّها من القرآن وغير القرآن».

قوله: **«كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن، وغير القرآن»**: وقد سبق أنَّ هذا رأي ابن مسعود رضي الله عنه، فأصحابه يرون ما يراه.

قوله: **«وله عن إبراهيم»** هو إبراهيم النخعي.

قوله: **«كانوا»** الضمير يعود إلى أصحاب ابن مسعود؛ لأنَّهم هم قرناء إبراهيم النخعي.

قولـه: **«التمائم»** هي ما يعلّق على المريض أو الصحيح، سواء من القرآن، أو غيره، للاستشفاء، أو لاتقاء العين، أو ما يعلَّق على الحيوانات.

وفي هذا الوقت أصبح تعليق القرآن، لا للاستشفاء، بل لمجرد التبرك، والزينة كالقلائد الذهبية، أو الحلي التي يكتب عليها لفظ الجلالة، أو آية الكرسي، أو القرآن كاملاً، فهذا كله من البدع.

فالقرآن ما نزل ليستشفى به على هذا الوجه، إنَّما يُستشفى به على ما جاء به الشرع.

ومن البدع أيضًا ما يفعله بعض الجهلة من التمسح بالكعبة، أو الركن اليماني، أو الحجر الأسود طلبًا للبركة فهذه لا يتبرك بها قال عمر، رضي الله عنه، للحجر الأسود: «إنني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله، ﷺ، يقبِّلك ما قبَّلتك»[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج/ باب تقبيل الحجر ١/٤٩٥، ومسلم كتاب الحج/ باب استحباب تقبيل الحجر ١/٩٢٥.

فيه مسائل : الأولى: تفسير الرقى والتمائم. **الثانية :** تفسير التولة. **الثالثة :** أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء. **الرابعة :** أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك. **الخامسة :** أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟

قوله الأولى : «**تفسير الرقى والتمائم**» وقد سبق ذلك.

الثانية : «**تفسير التولة**» وقد سبق ذلك.

وعندي أن منها ما يُسمَّى بالدبلة إن اعتقدوا أنها صلة بين المرء وزوجته.

الثالثة : «**أنَّ هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء**» ظاهر كلامه حتى الرقى وهذا فيه نظر لأن الرقى ثبت عن النبي، ﷺ، أنه يَرقي ويُرقى[1] ولكنه لا يسترقي أي: لا يطلب الرقية، فإطلاقها بالنسبة للرقى فيه نظر. وبالنسبة للتمائم فعلى رأي الجمهور فيه نظر أيضًا.

وعلى رأي ابن مسعود فصحيح، وبالنسبة للتولة فهي شرك وليس فيها نظر.

الرابعة : «**أن الرقية بالكلام الحق من العين أو الحُمة ليس من ذلك**» : قوله : «**الكلام الحق**» ضده الباطل، وكذا المجهول الذي لا يعلم أنه حق أو باطل.

والمؤلف، رحمه الله تعالى، خصَّص العين أو الحمة فقط استنادًا لقول الرسول ﷺ : «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»[2] ولكن الصحيح أنَّه يشمل غيرهما كالسحر.

الخامسة : «**أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟**» :

---

(١) ص (٩٧). (٢) ص (١٠٢).

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وترًا.

قوله: «**ذلك**» المشار إليه التمائم.

وقد سبق بيان هذا الخلاف[1] والأحوط مذهب ابن مسعود؛ لأنَّ الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة.

السادسة: «**أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك**»: أي من الشرك.

فمن اعتقد في شيء أنه سبب ولم يكن سببًا شرعيًّا ولا عاديًّا فإنَّه مشرك حيث اعتقد سببًا لم يجعله الله سببًا.

فالشرعي: ما عُلم بطريق الشرع كالقرآن.

والعادي: ما عُلم بالتجربة.

ظهر في الأسواق منذ سنتين حلقة من النحاس يقولون: إنَّها تنفع من الروماتيزم، ولها اسم لا أذكره، يزعمون أنَّ الإنسان إذا وضعها على عضده وفيه روماتيزم نفعته من هذا الروماتيزم، ولا ندري هل هذا صحيح أم لا؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح؛ لأنه ليس عندنا دليل شرعي ولا دليل حسي يدل على ذلك؛ وهي لا تؤثّر على الجسم، فليس فيها مادة دهنية حتى نقول: إن الجسم يشرب هذه المادة وينتفع بها، فالأصل أنَّها ممنوعة حتى يثبت لنا بدليل صحيح صريح واضح أنَّ لها اتصالاً مباشرًا بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها.

السابعة: «**الوعيد الشديد على من علّق وترًا**»: وذلك لبراءة الرسول، ﷺ ممن تعلّق وترًا، بل ظاهره: أنَّه كفر مُخرج من الملّة قال تعالى: ﴿**وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله**﴾[2]

---

(١) انظر ص (١٨٢).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان. **التاسعة**: أن كلام إبـراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف لأن مراده أصحاب عبدالله بن مسعود.

لكن قال أهل العلم: أنَّ البراءة هنا براءة من هذا الفعل كقوله ﷺ: «**من غشَّنا فليس منَّا**»[1].

الثامنة: «**فضل من قطع تميمة من إنسان**»: لقول سعيد بن جبير: «كان كعدل رقبة» ولكن هل قوله حجة أو لا؟

إن قيل ليس بحجة، فكيف يقول المؤلف: فضل من قطع تميمة من إنسان؟ فيقال: إنه إنَّما كان كذلك لأنَّه إنقاذ له من رق الشرك، فهو كمن أعتقه بل أبلغ.

ولا يجزم بهذا بل هو من باب القياس، فمن أنقذ نفسًا من الشرك فهو كمن أنقذها من الرق؛ لأنَّه أنقذه من رق الشيطان والهوى.

فائـــدة:

إذا قال التابعي من السنة كذا فهل يعتبر موقوفًا متَّصلاً، ويكون المراد من السنة أي سنة الصحابة، أو يكون مرفوعًا مرسلاً؟

اختلف أهل العلم في هذا فبعضهم قال: إنه يكون موقوفًا.

وبعضهم قال: يكون مرفوعًا مرسلاً.

وتقدم لنا أنَّه ينبغي أن يفصّل في هذا وأنَّ التابعي إذا قاله محتجًّا به فإنَّه يكون مرفوعًا مرسلاً، أما إذا قاله في سياق غير الاحتجاج فهذا قد يُقال: إنَّه من باب الموقوف الذي ينسب إلى الصحابي.

التاسعة: «**أن كلام إبراهيم النخعي لا يخالف ما تقدم من الاختلاف**»: لأنَّ مراده أصحـاب عبـدالله بن مسعود، وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عموماً.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

باب
من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

هذا باب مهم؛ لأنه يدل على أنَّه لا يتعلّق بشيء من الأشياء إلا ثبت بالشرع أنه متعلّق.

قوله: «**تبرّك**». تفعّل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من: البِركة بالكسر، والبِركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين:

١ - الكثرة. ٢ - الثبوت.

والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

١ - أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم، مثل القرآن قال تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مباركٌ**﴾[1].

فمن بركته أنَّ من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أممًا كثيرة من الشرك.

ومن بركته أنَّ الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفّر للإنسان الوقت والجهد، وغير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢ - أن يكون بأمر حسي معلوم مثل: العلم والدعاء ونحوه، فهذا الرجل يتبرك بعلمه، ودعوته إلى الخير. فيكون هذا بركة؛ لأنَّنا نلنا منه خيراً كثيراً[2].

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٢) والتبرك المشروع له أنواع منها:

١ - التبرك بالأقوال والأفعال والهيئات.

فهناك أقوال وأفعال وهيئات إذا جاء بها المسلم ملتمساً للخير والبركة حصل له ماأراد إذا اتبع في ذلك السنة، ولم يكن في ذلك مانع فمن هذه الأقوال: ذكر الله وتلاوة كتابه، فمن =

= بركات الذكر ماراوه أبوهريرة أن رسول الله، ﷺ، قال: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر**... وفيه أن الله يقول: **فأشهدكم أني غفرت لهم، قال يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم**» أخرجه البخاري.

ومن بركات القرآن أن الحرف الواحد بعشر حسنات، ومن ذلك أيضاً ماراوه أبو أمامة الباهلي أن رسول الله، ﷺ، قال: «**اقرؤا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرؤا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**». أخرجه مسلم.

ومن بركات القرآن أنه شفاء للناس وهدى ورحمة.

ومن الأفعال التي تكون سبب للبركة: طلب العلم وتعلمه، فمن بركاته الرفعة في الدنيا والآخرة، ومن ذلك أداء الصلاة جماعة مع المسلمين فمن بركة ذلك مضاعفة الحسنات وتكفير السيئات، وكذا بقية أركان الإسلام ففيها بركات عظيمة، وكذا الجهاد في سبيل الله، فمن بركاته نيل الشهادة.

ومن الهيئات المباركة: الاجتماع على الطعام، والأكل من جوانب القصعة، ولعق الأصابع، وكيل الطعام، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه**». أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ٢/ ٧١٧، وقال ﷺ: «**البركة تنزل في وسط الطعام فكلوا من حافتيه، ولا تأكلوا من وسطه**».

أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٢/ ٧١٩، وأمر، ﷺ، بلعق الأصابع، وقال: «**فإنه لا يدري في أيتهن البركة**» أخرجه أحمد وقال ﷺ: «**كيلوا الطعام يبارك لكم فيه**». أخرجه البخاري.

فكل قول أو فعل أمر الله به أو رسوله قام به العبد مع الإخلاص والمتابعة، فإنه سبب للبركة.

٢ - التبرك بالأمكنة.

هناك أمكنة معينة جعل الله فيها البركة إذا تحقق في العمل الإخلاص والمتابعة. =

. . . .

= فمن هذه الأماكن المساجد والتماس البركة فيها إنما يكون بأداء الصلاة فيها، والاعتكاف، وحضور مجالس العلم وغير ذلك مما هو مشروع، ولا يكون بالتمسح بجدرانها أو ترابها مما هو ممنوع.

ومن المساجد مايكون لها مزية وزيادة في البركة كالمسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، فصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف، وفي المسجد النبوي بألف صلاة، وفي المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة، وقال ﷺ: «**من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء وصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة**» أخرجه أحمد، والنسائي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/٢٣٨.

ومن الأمكنة المباركة: مكة والمدينة والشام، فإن النبي ﷺ قال: «**إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي مادعا إبراهيم لأهل مكة**». أخرجه مسلم، وقال ﷺ: «**من أراد أهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء**» أخرجه مسلم، وقال ﷺ: «**طوبي للشام، فقلنا: لأي شيء ذاك؟ فقال: لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه**» أخرجه أحمد والحاكم وصححه على شرطها فمن سكن مكة أو المدينة أو الشام طلباً لما فيها من البركة التي أخبر عنها النبي، ﷺ، فقد وفق إلى خير كثير، بخلاف مالو طلب التبرك بالتمسح بترابها وجدرانها وأشجارها وغير ذلك مما لم يرد به الشرع فإنه بدعة وكذا المشاعر المقدسة كعرفة ومزدلفة ومنى فهي أماكن مباركة لما في الاقتداء بالرسول، ﷺ، بالحصول فيها في الأوقات المشروعة من غفران الذنوب وحصول الأجر الكبير.

٣ ـ التبرك بالأزمنة.

هناك أزمنة خصها الشرع بزيادة فضل وبركة مثل شهر رمضان لما في صيامه من غفران الذنوب وزيادة رزق المؤمن، وغير ذلك.

ومن ذلك ليلة القدر، والعشر الأول من شهر ذي الحجة، ويوم الجمعة، والثلث الأخير من الليل وغير ذلك من الأزمنة التي خصها الشرع بمزية، ويكون فيها من الخير والفضل والبركة الشيء الكثير، والتماس البركة في هذه الأزمنة يكون باتباع ماأرشد إليه النبي ﷺ.

ومن الأطعمة التي تلتمس فيها البركة زيت الزيتون فإن النبي، قال: «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة**» أخرجه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، ومن ذلك اللبن لحديث =

. . . .

ومن ذلك الفأل، فقد كان النبي ، ﷺ، يعجبه الفأل[1] قال أسيد بن حضير: «ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر»[2]. فإنَّ الله يجري على بعض الناس من أمور الخير، ما لا يجريه على يد الآخر.

وهناك بركات موهومة باطلة مثل ما يزعمه الدّجّالون: أنَّ فلانًا الميت الذي يزعمون أنَّه وليّ أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك، فهذه بركة باطلة، لا أثر لها وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر، لكنها لا تعدو أن تكون آثارًا حسيّة بحيث أنَّ الشيطان يخدم هذا الشيخ، فيكون في ذلك فتنة[3].

= عائشة «كان رسول الله إذا أتي بلبن قال: كم في البيت بركة أو بركتين» أخرجه أحمد، ومن ذلك الحبة السوداء فهي شفاء من كل داء إلا السام كما أخبر النبي ، ﷺ، ومن ذلك أيضاً ماء زمزم فإنها مباركة إنها طعام طعم.

ومن ذلك الخيل فقد قال النبي ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» أخرجه البخاري.

ومن ذلـك أيضاً النخل فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم» أخرجه البخاري.

فهذه الأشياء تلتمس منها البركة حسب ماجاء عن الشارع ولا يتعدى بها الوجه المشروع والمباح.

انظر: التبرك المشروع للعلياني ص (٣٣ ـ ٥٠).

(١) من حديث أنس رواه البخاري كتاب الطب/ باب الطيرة ٤/ ٤٦، ومسلم كتاب السلام/ باب الطيرة والفأل ٤/ ١٧٤٦.

(٢) من حديث عائشة رواه البخاري، كتاب التيمم ١/ ١٢٥، ومسلم كتاب الحيض/ باب التيمم ١/ ٢٨٩.

(٣) ومن التبرك الباطل:

١ ـ التبرك بالأمكنة المباركة على غير ماورد في الشرع، كتقبيل أبواب المساجد، والتمسح =

. . . .

= بأعتابها، والاستشفاء بتربتها، ومثل ذلك: التمسح بجدران الكعبة، أو مقام إبراهيم وغير ذلك.

٢ ـ ومن ذلك أيضاً الذهاب إلى القبور لا لقصد الزيارة، وإنما لقصد الدعاء عندها لأجل بركتها واعتقاد أن الدعاء عندها أفضل.

قال شيخ الإسلام كما في اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٣٤): «فأما إذا قصد الرجل الصلاة عند بعض قبور الأنبياء، أو بعض الصالحين تبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله . .»

٣ ـ قال شيخ الإسلام كما في الاقتضاء ص (٤٢٤ ـ ٤٢٦): « . . مثل من يذهب إلى حراء ليصلي فيه ويدعو، أو يسافر إلى غار ثور ليصلي فيه ويدعو، أو يذهب إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ليصلي فيه ويدعو، أو يسافر إلى غير هذه الأمكنة من الجبال وغير الجبال التي يقال فيها مقامات الأنبياء. . ولا شرع لأمته زيارة موضع المولد، ولا زيارة موضع بيعة العقبة. . . ومعلوم أنه لو كان هذا مستحباً يثيب الله عليه لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك وأسرعهم إليه، ولكان علم أصحابه بذلك وكان أصحابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك علم أنه من البدع المحدثة».

وقد رد الشيخ عبدالعزيز بن باز في فتاويه ٣/٣٣٤: على من طالب بإحياء الآثار النبوية كطريقة الهجرة ومكان خيمة أم عبد، ونحو ذلك، وبين أن ذلك يجر إلى تعظيمها أو الدعاء عندها أو الصلاة ونحو ذلك، وهذه من الوسائل المفضية إلى الشرك».

٤ ـ وكذا الأمكنة التي صلى فيها الرسول، ﷺ، اتفاقا كأن يكون في سفر ونحو ذلك، ولم يقصد تخصيصها بالصلاة فيها فإنه لا يشرع تتبعها والتقرب إلى الله بالصلاة فيها، لأنها لم تكن مقصودة لذاتها.

ومن باب أولى الأماكن التي ارتبطت بحوادث نبوية معينة كغار حراء، وغار ثور، وموقعة بدر، ومكان شجرة بيعة الرضوان وغير ذلك وروى ابن سعد في الطبقات ٢/١٠٠ عن نافع قال: «كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها وأمر بقطعها».

٥ ـ وكذا الأزمنة المباركة كشهر رمضان وليلة القدر، ويوم الجمعة وغير ذلك إنما تلتمس بركتها بالقيام بالمشروع فيها من العبادات، ولو التمست بركة تلك الأزمنة بأعمال غير =

. . . .

أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة، أو الصحيحة؟ فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة، فإنَّ الله قد يجعل على يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره[1].

من ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته.

أما إن كان مخالفًا للكتاب والسنة، أو يدعو إلى باطل فإنَّ بركته موهومة وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده، ويضحي مع أهل بلده.

= مشروعة لأنكر عليه، لأن التماس البركة في زمان معين أو مكان معين عبادة يقتصر فيها على المشروع.

٦ - ومن ذلك تخصيص أزمنة معينة بنوع من التعظيم والاحتفالات والعبادات، كيوم مولد الرسول، ﷺ، ويوم الإسراء والمعراج، ويوم الهجرة، ويوم بدر، وفتح مكة وغير ذلك، فالتبرك بالأزمنة على هذا النحو من البدع.

٧ - ومن التبرك الباطل: التبرك بذوات الصالحين وآثارهم فلم يؤثر عن أحد من الناس أنه تبرك بوضوء أبي بكر أو عرقه، أو ثيابه أو ريقه أو غير ذلك، ولا عمر ولا عثمان ولا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وإنما كان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون بوضوء النبي، ﷺ، وجسمه وعرقه، وريقه، وشعره، وملابسه، وهذا خاص بالنبي، ﷺ، لا يجوز أن يقاس عليه أحد من الصالحين، ولو كانوا الخلفاء الراشدين، أو العشرة المبشرين فضلاً عن غيرهم، لان التبرك عبادة مبناها على التوقيف والاتباع.

انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٣٩)، الاعتصام للشاطبي ص (٨)، رسالة التبرك المشروع والتبرك الممنوع للعلياني ص (٨١).

(١) قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى ١/٨٣: «ولهذا قال الأئمة إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي».

وقول الله تعالى: ﴿أفرأَيْتُم اللَّات والعُزَّى﴾[1] الآيات.

قال شيخ الإسلام: إنَّ الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقـع منهم مخالفـات منها: عدم إتمام الحج، وكذا قال شيخ الإسلام: إنَّهم يمرّون بالميقات، ولا يُحرمون منه[2].

قولـه: «**شجـر**» اسم جنس، أي: شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه لمّا رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

قوله: «**أو حجر**» اسم جنس يشمل أي حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس، فلا يتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنّما يتعبد لله بمسحه، وتقبيله اتّباعًا للرسول، ﷺ، وبذلك تحصل بركة الثواب.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «**إنّي لأعلم أنَّك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله، ﷺ، يُقبّلك ما قبلتك**»[3].

فتقبيله عبادة محضة خلافًا للعامة يظنون أنَّ به بركة حسيّة، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبركًا بذلك.

قوله: «**ونحوهما**» أي: من البيوت، والقباب، والحجر، حتى حجرة قبر النبي، ﷺ، فلا يتمسح بها تبركًا، لكن لو مسح الحديد، لينظر هل هو أملس أو لا؟ فلا بأس إلّا إن خشي أن يُقتدى به فلا يمسحه.

قوله: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى**﴾. لما ذكر الله عز وجل المعراج بقوله: ﴿**والنجم إذا هوى ما ضلَّ صاحبكم وما غوى**﴾[4].. إلى أن قال: ﴿**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾[5].

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٩.

(٢) مجموع الفتاوى ١/٨٣.

(٣) سبق ص (١٨٧).

(٤) سورة النجم، الآيتان: ١، ٢.

(٥) سورة النجم، الآية: ١٨.

. . . .

بعض المعربين يقول: لقد رأى الكبرى من آيات الله.

وبعض المعربين يقول: لقد رأى من آيات الله الكبرى.

وعلى الرأي الأول: يكون ما رآه الرسول أكبر شيء.

وعلى الرأي الثاني: يكون من أكبر الأشياء، وهذا هو الصحيح، أن الكبرى صفة لآيات، وليست مفعولاً لرأى إذ إن ما رآه ليس أكبر آيات الله.

وبعد أن ذكر الله ما رأى النبي، ﷺ، من هذه الآيات قال: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى**﴾ أي: أخبروني ما شأنها، وما حالها بالنسبة إلى هذه الآيات العظيمة، فليست بشيء.

والاستفهام: للاستخفاف والاستهجان بهذه الأصنام.

قوله: ﴿**اللات**﴾ تقرأ بتشديد التاء، وتخفيفها، والتشديد قراءة ابن عباس، فعلى قراءة التشديد تكون اسم فاعل من اللت، وكان هذا الصنم أصله رجل يلت السويق للحجاج، أي يجعل فيه السمن، ويطعمه الحجاج، فلما مات عكفوا على قبره، وجعلوه صنماً.

وأما على قراءة التخفيف، فإن اللات مشتقة من الله، أو من الإله فهم اشتقُّوا من أسماء الله اسمًا لهذا الصنم، وسموه باللات، وهي معبودة عند قريش.

قوله: ﴿**ومناة**﴾ قيل: مشتقة من المنان، وقيل: من منى لكثرة ما يمنى عنده من الدماء بمعنى يُراق، ومنه سميت منى لكثرة ما يراق فيها من الدماء.

وكان هذا الصنم يقصده المشركون، يذبحون عنده.

قوله: ﴿**الثالثة الأخرى**﴾ إشارة إلى أن التي تعظمونها، وتذبحون عندها، وتكثر إراقة الدماء حولها أنَّها أخرى بمعنى متأخرة أي: ذميمة حقيرة، من فلان أخر أي ذميم حقير: أي: متأخر.

. . . .

فهذه الأصنام الثلاثة المعبودة عند العرب ما حالها بالنسبة لما رأى النبي ، ﷺ؟ لا شيء.

قوله: ﴿الآيات﴾ معنى هذا أنَّه يريد منَّا أن نستمر في شرح الآيات.

قولـه: ﴿ألكم الـذكـر وله الأنثى﴾ هذا أيضًا استفهام إنكاري على المشركـين الـذين يجعلون لله البنات، ولهم البنين، فإذا ولد لهم الولد الذكر فرحوا، واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسودًّا، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون الملائكة بنات الله فيجعلون البنات لله، والعياذ بالله.

قوله: ﴿تلك إذًا قسمة ضيزى﴾. ضيزى: جائرة، لأنَّه على الأقل إذا أردتم القسمة فاجعلوا لكم من البنات نصيبًا! واجعلوا لله من البنين نصيبًا، أمَّا أن تجعلواما تختارونه لأنفسكم وهم البنون، وتجعلون ما تكرهون لله فهذه قسمة جائرة.

قوله: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾: الضمير في «هي» يعود إلى الأصنام أي هذه الأصنام التي سميتموها اللات، والعزى، ومناة اتخذتموها آلهة تعبدونها هي أسماء سميتموها، ولكن ما أنزل الله بها من سلطان، أي: من حجة ودليل.

بل أبـطلها الله سبحانه قال تعالى: ﴿ذلك بأنَّ الله هو الحق، وأنَّ ما يدعون من دونه هو الباطل، وأنَّ الله هو العلي الكبير﴾[1].

و«سلطان» هنا بمعنى حجة.

وأصل السلطان في اللغة العربية ما به سلطة، فإن كان في مقام العلم فهو العلم، وإن كان في مقام القدرة فهو القدرة، وإن كان في مقام الأمر والنهي

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢.

. . . .

فهو من له الأمر والنهي. فمثلاً قوله تعالى: ﴿لا تنفذون إلا بسلطان﴾[1] أي بقدرة وقوة ومثل قوله تعالى: ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾[2] أي: من حجة وبرهان.

ومثل قول الرسول ﷺ: «**السلطان وليُّ من لا وليَّ له**»[3].

قولـه: ﴿**إن يتبعون إلا الظن**﴾ «إن» هنا بمعنى ما، وعلامة إن التي بمعنى ما أن تأتي بعدها إلاّ قال تعالى: ﴿**إن هذا إلاّ ملك كريم**﴾[4] يعني ما هذا إلا ملك كريم، وقال تعالى: ﴿**إنْ هذا إلاّ قول البشر**﴾[5] أي: ما هذا إلا قول البشر، وقال تعالى: ﴿**إنْ يتَّبعون إلاّ الظنّ**﴾[6] أي: ما يتبعون إلا الظن.

والظن الذي يتبعونه هو أنَّها آلهة، وأنَّ لله البنات، ولهم البنون، والظن لا يغني من الحق شيئًا كما قال تعالى في الآية.

قولـه: ﴿**وما تهوى الأنفس**﴾ كذلك أيضًا يتَّبعون ما تهوى الأنفس، وهذا أضر شيء على الإنسان أن يتبع ما يهوى فالإنسان الذي يعبد الله بالهوى، فإنَّه لا يعبد الله حقًّا، إنَّما يعبد عقله وهواه قال تعالى: ﴿**أفرأيت من اتَّخذ إلـهه هواه، وأضلَّه الله على علم**﴾[7] لكن الذي يعبد الله بالهدى لا بالهوى هو الذي على الحق.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٣.

(٣) من حديث عائشة رواه أبو داود، كتاب النكاح/ باب في الولي ٢/٥٦٨، وسكت عنه، والترمذي النكاح/ باب لا نكاح إلا بولي رقم ١١٠٢ وقال: «حديث حسن» وابن ماجه كتاب النكاح/ باب لا نكاح إلا بولي ١/٦٠٥، وأحمد ١/٤٧، ٦٦، ١٦٦، ٢٦٠.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٣١.

(٥) سورة المدثر، الآية: ٢٥.

(٦) سورة النجم، الآية: ٢٣.

(٧) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

وعن أبي واقِـدٍ اللَّيْثيِّ قال: «خـرجنـا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْنٍ،

قوله: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي: على يد النبي، ﷺ، فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

مناسبة الآية للترجمة:

لأنَّهم يعتقـدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها يدعونها، ويذبحون لها، ويتقرَّبون إليها، وقد يبتلي الله المرء، فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر، أو جلب نفع بهذا الشرك ابتلاء من الله وامتحانًا، وهذا قد تقدَّم لنا له نظائر أنَّ الله يبتلي المرء بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم من يخافه بالغيب.

قوله: «**خرجنا مع النبي** ﷺ» أي: بعد غزوة الفتح، لأنَّ النبي، ﷺ، لما فتح مكة تجمعت له ثقيف، وهوازن بجمع عظيم كثير جدًّا.

فقصدهم ﷺ، ومعه اثنا عشر ألفًا، ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف جاء بهم من المدينة، فلما توجهوا بهذه الكثرة العظيمة قالوا لن نغلب اليوم من قلة فأُعجبوا بكثرتهم، ولكن بينَّ الله أن النصر من عند الله وليس بالكثرة قال تعالى: ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت**﴾[1].

ثم لما انحدروا من وادي حنين، وجدوا أنَّ المشركين قد كمنوا لهم في الوادي، فحصل ما حصل، وتفرَّق المسلمون عن رسول الله، ﷺ، ولم يبق معه إلا نحو مائة رجل، وفي آخر الأمر كان النصر للنبي، ﷺ، والحمد لله.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

ونحن حُدثَاءُ عهدٍ بكفرٍ، وللمشركين سِدْرة يعكُفون عندها ويَنُوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذاتُ أنواطٍ، فمررنا بسِدْرةٍ، فقلنا: يارسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنْواطٍ كما لهم ذاتُ أنواطٍ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**الله أكبرُ، إنها السنَن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالتْ بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلـهًا كما لهم آلهة، قال إنَّكم قَوْمٌ تجهلون﴾**[1]. **«لَتَرْكَبُنَّ سُنن من كان قبلَكم»**. رواه الترمذيُّ وصحَّحَه[2].

قوله: «**حدثاء**» جمع حديث أي أننا قريب عهد بكفر، وإنَّما ذكر ذلك رضي الله عنه للاعتذار لطلبهم، وسؤالهم، ولو وقر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.

قولـه: «**يعكفـون عنـدهـا**»: أي: يقيمون عليها، والعكوف ملازمة الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿**وأنتم عاكفون في المساجد**﴾[3].

قوله: «**ينوطون**» أي: يعلِّقون بها أسلحتهم تبركًا.

قوله: «**يقال: لها ذات أنواط**» أي: أنَّها تلقَّب بهذا اللقب لأنَّه تناط فيها الأسلحـة، وتعلَّق عليهـا رجـاء بـركتها، فالصحابة، رضي الله عنهم، قالوا للنبي ﷺ: «اجعـل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» أي: سدرة نعلِّق

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٢) رواه أحمد في المسند ٢١٨/٥، والترمذي أبواب الفتن/ باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم ٣٤٣/٦ وقال: «حسن صحيح»، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٧٦)، وابن حبان برقم (١٨٣٥)، والطبراني في الكبير برقم (٣٢٩٠)، والبيهقي في المعرفة ١٠٨/١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

. . . .

أسلحتنا عليها تبركًا بها، فقال النبي، ﷺ: «**الله أكبر**» كبَّر تعظيمًا لهذا الطلب، أي: استعظامًا له، وتعجبًا لا فرحًا به، كيف يقولون هذا القول وهم آمنوا بأنه لا إلـه إلا الله؟

لكن: «**إنها السنن**» أي: الطرق التي يسلكها العباد «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلـهًا كما لهم آلهة**» أي: أنَّ الرسول، ﷺ قاس ما قاله الصحابة رضي الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى حين قالـوا: اجعـل لنا إلـهًا كما لهم آلهة. فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسي بيده**» المراد أنَّ نفسه بيد الله لا من جهة إماتتها وإحيائها فحسب، بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضًا، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها سبحانه وتعالى.

قوله: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**» أي لتفعلنَّ مثل فعلهم، ولتقولنَّ مثـل قولهم، وهذه الجملة لا يراد بها الإقرار وإنّما يراد بها التحذير، لأنَّه من المعلوم أنَّ سنن من كان قبلنا مما جرى تشبيهه سنن ضالّة حيث طلبوا آلهة مع الله فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحذِّر أمَّته أن تركب سنن من كان قبلها من الضلال والغي.

والشاهد من هذا الحديث قولهم: «**اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**» فأنكر عليهم النبي ﷺ[1].

---

(١) انظر ص (٢٠٤) (٢٠٥).

فيه مسائل : الأولى: تفسير آية النجم. **الثانية**: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا. **الثالثة**: كونهم لم يفعلوا. **الرابعة**: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

ثم ذكر المؤلف، رحمه الله، المسائل التي فيه، فقال: فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم: أي: قوله تعالى: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذًا قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**﴾ وقد مرَّ علينا تفسيرها، وأن الله تعالى أنكر على هؤلاء الذين يعبدون اللات والعزى، وأتى بصيغة الاستفهام الدالّة على التحقير والتصغير لهذه الأصنام.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا: وهو أنهم طلبوا من النبي، ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما أنَّ للمشركين ذات أنواط، وهم إنَّما أرادوا أن يتبرَّكوا بهذه الشجرة لا أن يعبدوها، فدلَّ ذلك على أنَّ التبرك بالأشجار ممنوع، وأنَّ هذا من سنن الضالين السابقين من الأمم.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا: أي لم يعلّقوا أنواطًا على الشجرة، ويطلبوا من الرسول، ﷺ، أن يقرَّهم على هذا العمل، بل طلبوا من الرسول، ﷺ، أن يجعل لهم ذلك.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرُّب إلى الله بذلك لظنِّهم أنه يحبه.

بذلك: أي: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التي يعينها الرسول، ﷺ ولهذا طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا معنى العبادة.

الخامسة: أنَّهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل؛ لأنَّ الصحابة لا شكَّ أعلم الناس بدين الله، فإذا كان الصحابة يجهلون أنَّ التبرك بهذا نوع من

السـادسـة: أن لهم من الحسنـات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبي، ﷺ، لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله: **«الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم»**. فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثـامنـة: الأمـر الكبير وهو المقصود أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى اجعل لنا إلهًا.

اتخاذها إلـهًا فغيرهم من باب أولى، وقصد المؤلف رحمه الله بهذا أن لا نغتر بعمل الناس؛ لأنَّ عمل الناس قد يكون عن جهل، فالعبرة بما دلَّ عليه الشرع لا بعمل الناس.

السادسة: أنَّ لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم: وهذا معلوم من الآيات: **﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعـظم درجـة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلًّا وعد الله الحسنى﴾**[1]. فالصحابة رضي الله عنهم لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة، وأسباب المغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك لم يعذرهم النبي، ﷺ، بهذا الطلب.

السابعة: أنَّ النبي، ﷺ، لم يعذرهم بل ردَّ عليهم بقوله: **«الله أكبر إنَّها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم»** فغلّظ الأمر بهذه الثلاث:

ما هي الثلاث؟ الله أكبر، إنّها السنن، لتركبنَّ سنن من كان قبلكم، فغلّظ الأمر بهذا لأنَّ التكبير استعظامًا للأمر الذي طلبوه، وإنَّها السنن أيضا تحذير، ولتركبنَّ سنن من كان قبلكم كذلك أيضًا تحذير.

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود أنَّه أخبر أنَّ طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: اجعل لنا إلـها كما لهم آلهة. فهؤلاء طلبوا سدرة يتبركون بها كما يتبرَّك المشركون بها وأولئك طلبوا إلـهًا كما لهم آلهة، فيكون في كلا الطلبين منافاة

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٠.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى «لا إلٰه إلا الله» مع دقته وخفائه على أولئك. **العاشرة**: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.
الحادية عشرة: أن الشرك فيه أصغر وأكبر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا.

للتوحيد؛ لأنَّ التبرُّك بالشجر نوع من الشرك، واتخاذ إله شرك واضح.

التاسعة: أنَّ نفي هذا من معنى لا إلـه إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك:

أي: أنَّ نفي التبرك بالأشجار ونحوها من معنى لا إلـه إلا الله، فإنَّ لا إلـه إلا الله تنفي كل إلـه سوى الله، وتنفي الألوهية عما سوى الله عز وجل، فكذلك البركة لا تكون من غير الله سبحانه وتعالى.

العاشرة: أنَّه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة:

أي: النبي، ﷺ، حلف على الفتيا في قولـه: «**قلتم، والـذي نفسي بيده**». والنبي، ﷺ، لا يحلف إلاّ لمصحلة، أو دفع مضرَّة ومفسدة، فليس ممن يحلف على أي سبب يكون، كما هي عادة بعض الناس.

الحـادية عشرة: أنَّ الشرك فيه أصغر وأكبر لأنَّهم لم يرتدوا بهذا: نعم الشرك فيه أصغر وأكبر، وفيه خفيٌّ وجليٌّ.

فالشرك الأكبر: ما يُخرج الإنسان من الملّة.

والشرك الأصغر: ما دون ذلك.

لكن كلمة ما دون ذلك ليست ميزانًا واضحًا، ولذلك اختلف العلماء في ضابط الشرك الأصغر.

القول الأول: إنَّ الشرك الأصغر كل شيء أُطلق الشارع عليه أنَّه شرك ودلت النصـوص على أنَّـه ليس من الأكـبر مثـل: «**من حلف بغـير الله فقد**

. . . .

أشرك»[1]. نقول: الشرك هنا أصغر لأنَّه دلَّت النصوص على أنَّه مجرَّد الحلف بغير الله لا يُخرج من الملة.

القول الثاني: أن الشرك الأصغر: ما كان وسيلة للأكبر، وإن لم يطلق الشرع عليه اسم الشرك، مثل: أن يعتمد الإنسان على شيء كاعتماده على الله لكنه لم يتخذه إلـهًا فهنا نقول: هذا شرك أصغر[2] لأنَّ هذا الاعتماد الذي يكون كاعتماده على الله يؤدي به في النهاية إلى الشرك الأكبر، وهذا التعريف أوسع من الأول، لأنَّ الأول يمنع أن تطلق على شيء أنَّه شرك إلا إذا كان لديك دليل، والثاني يجعل كل ما كان وسيلة للشرك فهو شرك، وربما نقول على هذا التعريف أنَّ المعاصي كلها شرك أصغر لأنَّ الحامل عليها الهوى وقد قال تعالى: **﴿أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه وأضله الله على علم﴾**[3]. ولهذا أطلق النبي، ﷺ الشرك على تارك الصلاة مع أنَّه لم يشرك فقال: **«بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»**[4].

---

(١) من حديث ابن عمر رواه أبو داود كتاب الأيمان/ باب في كراهية الحلف بالآباء ٣/ ٥٧٠ وسكت عنه، والترمذي، النذور/ باب كراهية الحلف بغير الله تعالى رقم ١٥٣٥ وحسنه، والطيالسي رقم (١٨٩٦)، وابن حبان رقم (١١٧٧)، والحاكم ١/ ١٨، ٤/ ٢٩٧ وصححه على شرطهما وأقره الذهبي، وأحمد في المسند ٢/ ٣٤، ٦٩.

(٢) بشرط أن يكون الاعتماد صحيحًا، فإن كان غير صحيح كاعتماد على الموتى ونحوهم فهو شرك أكبر.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٢٣.

(٤) رواه الترمذي، أبواب الإيمان/ باب ما جاء في ترك الصلاة ٩/ ٢٦١٣ وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي، كتاب الصلاة/ باب الحكم في تارك الصلاة ١/ ٢٣١، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة/ باب ما جاء فيمن ترك الصلاة رقم (١٠٧٩) وابن حبان كما في الموارد رقم (٢٥٥)، والحاكم ١/ ٧ وصححه وأقره الذهبي، وأحمد ٥/ ٣٤٦.

. . . .

فالحاصل: أنَّ المؤلف، رحمه الله، يقول: إنَّ هذا الشرك فيه أكبر وأصغر لأنَّهم لم يرتدوا بهذا لأنَّهم طلبوا ذات أنواط.

والجليّ والخفيّ: بعضهم قال: إنَّ الجليّ والخفيّ هو الأكبر والأصغر. وبعضهم قال: الجليّ ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر.

والخفي: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر.

وهذا هو المطابق للفظ: أن الجلي: ما انجلى أمره.

والخفي: ما خفي أمره، فقد يكون الحلف بغير الله إذا أعلنه الإنسان من باب الجلي لأنّه أظهر وأعلن، والرياء من باب الخفي لأنه لا يطلع عليه أحد.

وأيهما الذي لا يغفر؟

قال شيخ الإسلام: إنَّ الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر؛ لعموم قوله: ﴿**إن الله لا يغفر أن يُشرك به**﴾[1] و«أن يُشرك به» مؤول بمصدر تقديره: شركًا به، وهو نكرة في سياق النفي فيفيد العموم[2].

وقال بعض العلماء: إنَّ الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وأنَّ المراد بقوله: ﴿**أن يُشرك به**﴾ الشرك الأكبر الذي لا يغفر، وأمَّا الشرك الأصغر فإنه يغفر لأنَّه لا يُخرج من الملة، وكل ذنب لا يخرج من الملة فإنَّه تحت المشيئة. وعلى كل حال فصاحب الشرك الأصغر على خطر، وهو أكبر من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأنَّ أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أحلف بغيره صادقًا»[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) انظر: الرد على البكري ص (١٤٦).

(٣) رواه عبدالرزاق في المصنف ٨/٤٦٩، والطبراني في الكبير برقم (٨٩٠٢)، قال المنذري في الترغيب ٣/٦٠٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/١٧٧: «رواته رواة الصحيح».

الثانية عشرة: قولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر» فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك. **الثالثة عشرة**: التكبير عند التعجب خلافًا لمن كرهه.
الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الثانية عشرة: قوله: **«ونحن حدثاء عهد بكفر»**... معناه: أنه يعتذر عمّا طلبوا حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط فهم يعتذرون لجهلهم بكونه حدثاء عهد بكفر.

وعلى هذا فنقول: إنه ينبغي للإنسان أن يقدّم العذر عن قوله أو فعله حتى لا يُعرّض نفسه إلى القول بما ليس فيه، ومعلوم حديث صفية حين شيعها الرسول، ﷺ، وهو معتكف فمرَّ رجلان من الأنصار، فقال: إنها صفية بنت حيي[1].

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب... إلخ.

تؤخذ من قوله: **«الله أكبر إنها السنن»** أي: الله أكبر، وأعظم من أن يشرك به، وفي رواية الترمذي أنه قال: **«سبحان الله»**[2] أي: تنزيهٌ لله عما لا يليق به.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الذرائع: الطرق الموصلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله، وطرقه.

والذرائع نوعان:

أ ـ ذرائع إلى أمور مطلوبة، فهذه لا تسدّ، بل تفتح، وتطلب.

ب ـ ذرائع إلى أمور مذمومة، فهذه تسدّ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف/ باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ٦٧/٢.

(٢) سبق ص (٢٠١).

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم. **السابعة عشرة:** القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».

وذات أنواط وسيلة إلى الشرك الأكبر، فإذا وضعوا عليها أسلحتهم، وتبرّكوا بها، يتدرج بهم الشيطان إلى عبادتها، وسؤالهم حوائجهم منها مباشرة، فلهذا سدّ النبي، ﷺ، الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية:

تؤخذ من قوله: **«قلتم كما قالت بنو إسرائيل»** فأنكر عليهم، وبهذا نعرف أن الجاهلية لا تختصّ بمن كان قبل زمن النبي، ﷺ، بل كل من جهل الحق، وعمل عمل الجاهلين، فهو من أهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم:

والحديث ليس بصريح في ذلك.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: **«إنها السنن»**.

أي: الطرق، وأن هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها، وهذا لا يعني الحِلَّ، ولكنه للتحذير، والرسول، ﷺ، قال: **«ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»**[1]. ومثله قوله: **«ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير»**[2]. الحديث. وقوله: **«إنَّ الظعينة تذهب من كذا إلى كذا لا تخشى إلا الله»**[3]، وما أشبه ذلك من الأمور التي يحرّمها الشرع لكن القدر يأتي بها.

---

(١) سبق ص (٣٩).

(٢) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، كتاب الأشربة/ باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ٤/ ١٣.

(٣) من حديث عدي بن حاتم، رواه البخاري، كتاب المناقب/ باب علامات النبوة ٢/ ٥٢٧.

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.
التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

الثامنة عشرة: أنَّ هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر:
فإن قال قائل: إنَّ النبي، ﷺ، قد خطب الناس بعرفة وقال: «**إنَّ الشيطان قد أيس أن يُعبد في جزيرة العرب**»[1].
الجواب: أنَّ يأسه لا يدلّ على عدم الوقوع، بل إنَّ الأمر يقع على خلاف ما توقعه الشيطان؛ لأنَّ الشيطان لما حصلت الفتوحات، وقوي الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجًا يئس أن يعبد سوى الله في هذه الجزيرة، ولكن حكمة الله تأبى إلاّ أن يكون ذلك، وهذا نقوله ولابد، لئلا يقال: إنَّ جميع الأفعال التي تقع في الجزيرة العربية لا يمكن أن تكون شركًا، ومعلوم أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله جدد التوحيد في الجزيرة العربية، وأنَّ الناس كانوا في ذلك الوقت فيهم المشرك وغير المشرك.
فالحديث أخبر عما وقع في نفس الشيطان ذلك الوقت، ولكنه لا يدل على عدم الوقوع، وهذا الرسول، ﷺ، يقول: «**لتركبنَّ سنن من كان قبلكم**»، وهو يخاطب الصحابة، وهم في جزيرة العرب.
التاسعة عشرة: أنَّ ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنَّه لنا:
هذا ليس على إطلاقه وظاهره، بل يحمل قوله: «لنا» أي لبعضنا، ويكون المراد به المجموع لا الجميع كما قال العلماء في قوله تعالى: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم**﴾[2]. والرسل كانوا من الإنس فقط.
فقوله: «إنه لنا» أي: قد يكون من بعضنا.

---

(١) من حديث جابر رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين/ باب تحريش الشيطان ٤/٢١٦٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

العشـــرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أما «مَنْ ربك» فواضح وأما «مَنْ نبيك» فمن إخباره بأنباء الغيب. وأما «ما دينك» فمن قولهم «اجعل لنا» إلى آخره.

فإذا وقع تشبه باليهود والنصارى، فإنَّ الذم الذي يكون لهم يكون لنا، وما من أحد من الناس إلّا وفيه شبه باليهود أو النصـارى فالذي يعصي الله على بصيرة فيه شبه من اليهود، والذي يعبد الله على ضلالة فيه شبه من النصارى، والذي يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فيه شبه من اليهود، و«هَلُمَّ جَرًّا».

وإن كان يقصد رحمه الله، أنَّه لابدّ أن يكون في الأمة خصلة فهذا على إطلاقه وظاهره، لأنَّه قلّ من يسلم.

وإن أراد أنّ كلّ ما ذُمَّ به اليهود والنصارى فهو لهذه الأمة على سبيل العموم، فلا.

العشرون: أنَّه متقرر عندهم أنَّ العبادات مبناها على الأمر... إلخ وهذا واضح فالعبادات مبناها على الأمر فما لم يثبت فيه أمر الشارع فهو بدعة قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»[1]. وقال: «**إيَّاكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[2].

---

(١) من حديث عائشة، رواه مسلم، كتاب الأقضية/ باب نقض الأحكام الباطلة ١٣٤٣/٣. وأخرجه البخاري معلقاً (٢٦٩٧).

(٢) من حديث العرباض بن سارية، رواه أبو داود، كتاب السنة/ باب لزوم السنة ١٣/٥، والترمذي العلم/ باب الأخذ بالسنة رقم (٢٦٧٨)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة/ باب اتباع سنة الخلفاء رقم (٤٢).

فمن تعبّـد بعبـادة طولب بالـدليل، ومن رمى صيدًا فأكله لا يطالب بالـدليل إلا إذا وُجـد دليل على أنّه محرّم؛ لأنَّ الأصل في العبادات الحظر. والمنع، إلا إذا قام الدليل على مشروعيتها.

وأمّا الأكل والمعاملات، والآداب واللباس وغيرها فالأصل فيها الإباحة إلا ما قام الدليل على تحريمه.

وقـوله: «**مسائل القبر التي يسأل فيها الإنسان في قبره من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟**».

ففي هذه القصة دليل على مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أنَّ فيها دليلاً على أنَّ الإنسان يسأل في قبره أي: دليل على إثبات الربوبية، والنبوة، والعبادة.

أمَّا من ربك فواضح.

وأما من نبيك فمن إخباره بالغيب قال، ﷺ: «**لتركبنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذَّة بالقذَّة**»[1] فوقع كما أخبر.

أمَّا ما دينك فمن قولهم: «اجعل لنا إلـهًا» أي: مألوهًا معبودًا، والعبادة هي الدين.

والمؤلف، رحمـه الله، محمـد بن عبـدالـوهـاب فهمه دقيق جدًّا لمعاني النصوص، فأحيانًا يصعب على الإنسان بيان وجه استنباط المسألة من الكتاب.

الحادية والعشرون: أنَّ سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين تؤخذ من قوله: «**كما قالت بنو إسرائيل لموسى**».

---

(١) سبق ص (٢٠١).

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقوله «ونحن حدثاء عهد بكفر».

الثانية والعشرون: أنَّ المنتقل من الباطل الذي اعتاد قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة.

وهذا صحيح، فالإنسان المنتقل من شيء سواء باطلاً، أو لا، لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية منه، وهذه البقية لا تزول إلا بعد مدة لقوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر» فكأنه يقول ما سألناه إلا لأنّ عندنا بقية من بقايا الجاهلية ولهذا كان من الحكمة تغريب الزاني بعد جلده عن مكان الجريمة؛ لئلا يعود إليها.

فالإنسان ينبغي له أن يبتعد عن مواطن الكفر، والشك، والفسوق حتى لا يقع في قلبه شيء منها.

باب
ما جاء في الذبح لغير الله

قوله: «في الذبح» أي: ذبح البهائم.

قوله: «لغير الله» اللام للتعليل، والقصد أي: قاصدًا بذبحه غير الله.

والذبح لغير الله ينقسم إلى قسمين:

١ ـ أن يذبح لغير الله تقربًا وتعظيمًا فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

٢ ـ أن يذبح لغير الله فرحًا وإكرامًا فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور العادية التي قد تكون مطلوبة أحيانًا وغير مطلوبة أحيانًا، فالأصل أنها مباحة.

ومراد المؤلف هنا القسم الأول.

لو قدم السلطان إلى بلد فذبحنا له، فإن كان تقربًا وتعظيمًا فإنه شرك أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك: أننا نذبحها في وجهه ثم ندعها.

أما لو ذبحناها له إكرامًا وضيافة، وطبخت، وأكلت فهذا من باب الإكرام، وليس بشرك.

قوله: «غير الله» يشمل الأنبياء، والملائكة، والأولياء، وغيرهم، فكل من ذبح لغير الله تقربًا، وتعظيمًا، فإنه داخل في هذه الكلمة بأي شيء كان.

وقوله في الترجمة: «باب ما جاء في الذبح لغير الله» مثل هذه الترجمة يترجم بها العلماء للأمور التي لا يجزمون بحكمها، أو التي فيها تفصيل، وأمّا الأمور التي يجزمون بها فإنهم يقولون: «باب تحريم الذبح لغير الله» وهكذا.

والمؤلف، رحمه الله تعالى، لا شك أنَّه يرى تحريم الذبح لغير الله على سبيل التقرب والتعظيم، وأنَّه شرك أكبر، لكنه أراد أن يمرّن الطالب على أخذ الحكم من الدليل، وهذا نوع من التربية العلميّة أنَّ المعلم أو المؤلف يدع

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ونُسُكِي، ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لله رَبِّ العالمينَ لا شَرِيكَ لَه﴾[1]. الآية[1].

الحكم مفتوحًا ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلى الطالب فيحكم به على حسب ما سبق له من هذه الأدلة.

قوله: ﴿قل﴾ الخطاب للنبي، ﷺ، أي: قل: لهؤلاء المشركين معلنًا لهم قيامك بالتوحيد الخالص، إذ هذه السورة مكيَّة.

قوله: ﴿إنَّ صلاتي﴾ الصلاة في اللغة: الدعاء.

وفي الشرع: عبادة لله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

قوله: ﴿ونسكي﴾ النسك لغة: العبادة.

وفي الشرع: ذبح القربان.

فهل تحمل هذه الآية على المعنى اللغوي أو على المعنى الشرعي؟

تقدم لنا: أنَّ ما جاء في لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية، كما أنَّ ما جاء في لسان العرف فهو محمول على الحقيقة العرفية.

فعندما أقول لشخص عندك شاة؟ يفهم الأنثى من الضأن، لكن في اللغة العربية الشاة تطلق على الواحدة من المعز ذكرًا كان أو أنثى.

وقيل: تحمل على المعنى اللغوي، لأنَّه أعم، فالصلاة الدعاء، والنسك العبادة كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا الله، ولا أعبد إلا الله وهذا عام للدعاء، والتعبد.

وإذا حملت على المعنى الشرعي صارت خاصة في نوع من العبادات، وهي الصلاة، والنسك، ويكون هذا كمثال فإنَّ الصلاة أعلى العبادات

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

. . . .

البدنية، والذبح أعلى العبادات المالية؛ لأنَّه على سبيل التعظيم فلا يقع إلا قربة، هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة.

ويحتاج إلى مناقشة في مسألة أنَّ القربان أعلى أنواع العبادات المالية، فإنَّ الزكاة لا شك أنها أعظم، وهي عبادة مالية.

وهناك رأي ثالث يقول: إنَّ الصلاة هي الصلاة المعروفة شرعًا، والنسك: العبادة مطلقًا، ويكون ذكر الصلاة بخصوصها مع دخولها في مطلق العبادة من عطف العام على الخاص.

حتى ولو حُملت على الحقيقة الشرعية، وأنَّها خاصة بالصلاة والذبح، فإنَّ غيرها مثلها، ويكون هذا من باب التنبيه بالمثال.

قوله: ﴿**محياي ومماتي**﴾ أي حياتي وموتي.

أي التصرف فيّ، وتدبير أموري حيًّا وميتًا لله.

وفي قوله: ﴿**صلاتي ونسكي**﴾ إثبات توحيد العبادة.

وفي قوله «محياي ومماتي» إثبات توحيد الربوبية.

قوله: ﴿**لله**﴾ خبر إنَّ.

والله: علم على الذات الإلـهية، وأصله الإلـه فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال تخفيفًا.

وهو بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول، مثل غراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش.

قوله: ﴿**رب العالمين**﴾ المراد بالعالمين: ما سوى الله، وسُمّي بذلك، لأنَّه علم على خالقه.

قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يعصى الإله؟ أم كيف يجحده الجاحد

. . . .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وهي تطلق على العالمين بهذا المعنى، وتطلق على العالمين في وقت معين مثل قوله تعالى: ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾[1].

والربّ هنا: المالك المتصرّف، وهذه ربوبيّة مطلقة.

قوله: ﴿لا شريك له﴾ الجملة حاليّة من قوله: «لله» أي حال كونه لا شريك له، والله سبحانه لا شريك له في عبادته، ولا في ربوبيته، ولا أسمائه، وصفاته، ولهذا قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[2].

وقد ضلّ من زعم أنَّ لله شركاء كمن عبد الأصنام، أو عيسى بن مريم، عليه السلام، وكذلك بعض غلاة الشعراء الذين جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق كقول بعضهم يخاطب ممدوحًا له:

فكن كمن شئت يا من لا شبيه له وكيف شئت فما خلق يدانيك

وكقول البوصيري في قصيدته في مدح الرسول ﷺ:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن يوم المعاد آخذاً بيدي فضلاً وإلاّ فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا من أعظم الشرك، لأنّه جعل الدنيا والآخرة من الرسول، ومقتضاه أن الله جل ذكره ليس له فيهما شيء.

وقال: إنَّ «من علومك علم اللوح والقلم» من علومه، وليس كل العلوم فما بقي لله علم، ولا تدبير، والعياذ بالله.

قوله: ﴿بذلك﴾ الجار والمجرور متعلق بأمرت فيكون دالاًّ على الحصر

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

. . . .

والتخصيص، وإنّما خصَّ بذلك، لأنَّه أعظم المأمورات وهو الإخلاص لله تعالى. ونفى الشرك، فكأنّه ما أمر إلاّ بهذا، ومعلوم أنَّ من أخلص لله تعالى، فسيقوم بعبادة الله سبحانه وتعالى. في جميع الأمور.

قولـه: ﴿**أمرت**﴾ إبهام الفاعل هنا من باب التعظيم والتفخيم، وإلا فمن المعلوم أنَّ الآمر هو الله تعالى.

قوله: ﴿**وأنا أول المسلمين**﴾ يحتمل أنَّ المراد الأوليّة الزمنيّة فيتعين أن يكون المراد أنا أول المسلمين من هذه الأمة؛ لأنَّه سبقه في الزمن من أسلموا.

ويحتمل أنَّ المراد الأوليّة المعنويّة فإنَّ أعظم الناس إسلامًا وأتمهم انقيادًا هو الرسول، ﷺ، فتكون الأوليّة أوليّة مطلقة.

ومثل هذا التعبير يقع كثيرًا أن تقع الأولية أوليّة معنوية مثل أن تقول: أنا أول من يُصدِّق بهذا الشيء، وإن كان غيرك قد صدّق قبلك، لكن تريد أن لا يكون عندك إنكار أبدًا، ومثل قوله ﷺ: «**نحن أولى بالشك من إبراهيم حينما قال: «ربّ أرني كيف تحيي الموتى»**»(١) فليس معناه أنَّ إبراهيم شاك، لكن إن قدَّر أن يحصل شك فنحن أولى بالشك منه، وإلاّ فلسنا نحن شاكين، وكذلك إبراهيم ليس شاكًا.

قوله: ﴿**المسلمين**﴾ الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان، لأنَّ المراد به الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا، ويدل قوله تعالى: ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾(٢) وهذا إسلام الباطن.

لأنَّ «وهو محسن» هذا العمل للظاهر، قوله: ﴿**أسلم وجهه**﴾ هذا

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن/ باب قول الله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ ٣/ ٢٣٠، ومسلم كتاب الإيمان/ باب زيادة طمأنينة القلب ١/ ١٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحَرْ﴾[1].

للباطن، وكذا قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه﴾[2].
وإذا ذكر الإيمان دخل فيه الإسلام، قال تعالى: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[3].

ومتى وجد الإيمان حقًّا لزم من وجوده الإسلام.

وأمّا إذا قرنا جميعًا صار الإسلام في الظاهر، والإيمان في الباطن، مثل حديث جبريل، وفيه: أخبرني عن الإسلام، فأخبره عن أعمال ظاهرة، وأخبرني عن الإيمان، فأخبره عن أعمال باطنة[4].

وكذا قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنًا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[5].

الشاهد من هذه الآية التي ذكرها المؤلف: أنَّ الذبح لابد أن يكون خالصًا لله.

قوله: ﴿فصلِّ﴾. الفاء للسببيّة عاطفة على قوله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾[6]. أي بسبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكرًا لله تعالى على هذه النعمة.

والمراد بالصلاة هنا الصلاة المعروفة شرعًا.

---

(١) سورة الكوثر، الآية: ٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٤) من حديث عمر، رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٣٦.
(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٦) سورة الكوثر، الآية: ١.

. . . .

وقـولـه: ﴿**وانحـر**﴾ المراد بالنحر: الذبح أي اجعل نحرك لله كما أنَّ صلاتك له فأفادت هذه الآية الكريمة أنَّ النحر من العبادة، ولهذا أمر الله به وقرنه بالصلاة.

وقوله: ﴿**وانحر**﴾ مطلق فيدخل فيه كل ما ثبت في الشرع مشروعيته للنحر وهي ثلاثة أشياء: الأضاحي، والهدايا، والعقائق، فهذه الثلاثة يطلب من الإنسان أن يفعلها.

أمّـا الهـدايا فمنها واجب، ومنها مستحب، فالواجب كما في التمتع: ﴿**فمن تمتـع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي**﴾[1]، وكما في المحصر: ﴿**فـإن أحصرتم فما استيسر من الهدي**﴾[2] وكما في حلق الرأس ﴿**ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**﴾[3]. هذا إن صحّ أن نقول إنَّها هدي، ولكن الأولى أن نسميها كما سمَّاها الله عز وجل، لأنَّها بمنزلة الكفارة.

وأما الأضاحي فاختلف العلماء فيها: فمنهم من قال: إنَّها واجبة.

ومنهم من قال: إنَّها مستحبَّة.

وأكثر أهل العلم على أنها مستحبة، وأنه يكره للقادر تركها.

ومذهب أبي حنيفة رحمه الله أنَّها واجبة على القادر، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية.

والأضحية ليست عن الأموات كما يفهمه العوام بل هي للأحياء، وأمَّا الأموات فليس من المشروع أن يُضحَّى لهم استقلالاً، إلا إن أوصوا به فعلى ما أوصوا به، لأنَّ ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: «**حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلماتٍ: لَعَنَ الله مَن ذبحَ لغير الله، لَعَنَ الله مَن لَعَنَ والِدَيْه، لَعَنَ الله مَن آوى مُحدِثًا، لَعَنَ الله مَن غيَّرَ مَنارَ الأرض**». رواه مسلم(1).

وأمـا العقيقة: وهي التي تذبح عن المولود في يوم سابعه إن كان ذكرًا فاثنتان، وإن كان أنثى فواحدة، وتجزىء الواحدة مع الإعسار في الذكور.

وهي سنة عند أكثر أهل العلم، وقال بعض أهل العلم: إنَّها واجبة لأنَّ النبي، ﷺ، قال: «**كل غلام مرتهن بعقيقته**»(2).

قوله: «كلمات» جمع كلمة، والكلمة في اصطلاح النحويين: القول المفرد.

أمَّا باعتبار اللغة: فهي لكل ما أفاد، قال الرسول ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»**(3). وقال تعالى: ﴿**كلَّا إنها كلمة هو قائلها**﴾، وهي قوله: ﴿**رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا فيما تركت**﴾(4).

قال شيخ الإسلام: لا تطلق الكلمة في اللغة العربية إلا على الجملة المفيدة، وهنا بأربع كلمات كل كلمة جملة مفيدة.

قوله: «**لعن الله**» اللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإذا قيل:

---

(1) في كتاب الأضاحي/ باب تحريم الذبح لغير الله ٣/١٥٦٧.

(2) من حديث سمرة بن جندب رواه أحمد في المسند ٥/٧،٨،١٢،١٧،٢٢، وأبو داود، كتاب الأضاحي/ باب في العقيقة ٣/٢٥٩ والترمذي، الأضحية/ باب في العقيقة ٥/٢٣٧ وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي، كتاب العقيقة/ باب متى يعق؟ رقم ٤٢٢٥، وابن ماجه، كتاب الذبائح/ باب في العقيقة ٢/١٠٥٧، والدارمي، كتاب الأضاحي/ باب السنة في العقيقة ٢/٨١.

(3) من حديث أبي هريرة رواه البخاري، كتاب الرقاق/ باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ٤/١٨٩.

(4) سورة المؤمنون، الآيات: ٩٩ - ١٠٠.

. . . .

لعنه الله فالمعنى : طرده وأبعده عن رحمته ، وإذا قيل : اللهم العن فلانًا فالمعنى أبعده عن رحمتك ، واطرده عنها .

قولـه : «**من ذبـح لغـير الله**» عام يشمـل من ذبح بعيرًا ، أو بقرة ، أو دجاجة ، أو غيرها .

قوله : «**لغير الله**» يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي ، أو ملك ، أو جنيّ ، أو غيرهم .

وقوله : «**لعن**» يحتمل أن تكون الجملة خبرية ، وأنَّ الرسول ، ﷺ ، يخبر أنَّ الله لعن من ذبح لغير الله .

ويحتمل أن تكون إنشائية بلفظ الخبر ، أي : اللهم العن من ذبح لغير الله ، والخبر أبلغ ، لأنَّ الدعاء قد يُستجاب ، وقد لا يستجاب .

قوله : «**والديه**» يشمل الأب والأم ، ومن فوقهما ، لأنَّ الجد أب كما أنَّ أولاد الابن ، والبنت أبناء .

والمسألة هنا ليست مالية ، بل هي من الحقوق ، ولعن الأدنى أشد من لعن الأعلى ، لأنَّه أولى بالبر .

قولـه : «**من لعن والـديه**» أي : سبَّهما وشتمهما ، فاللعن من الإنسان السب والشتم ، فإذا سببت إنسانًا ، أو شتمته فهذا لعنه ، لأنَّ النبي ، ﷺ ، قيل له : كيف يلعن الرجل والديه قال : «**يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه**»[1] .

وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة وهي : أنَّ السبب بمنزلة المباشرة .

والفرق بين هذا والذي قبله : أنَّ حق الوالدين بعد حق الله كما قال تعالى :

---

(١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رواه البخاري ، كتاب الأدب/ باب لا يسب الرجل والديه ٤/٨٦ ، ومسلم ، كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر ١/٩٢ .

. . . .

﴿**واعبـدوا الله ولا تشركـوا به شيئًـا وبـالوالدين إحسانًا**﴾[1] . وقوله تعالى: ﴿**وقضى ربـك أن لا تعبـدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا**﴾[2] فلهذا لما ذكر النبي، ﷺ، تضييع حق الله والكفر به ذكر تضييع حق الوالدين لأنَّ حقهما بعد حق الله.

قوله: «**من آوى محدثًا**» المحدث: يشمل الإحداث في الدين كالبدع وغيرها، كالجهميَّة، والمعتزلة، وغيرهم.

ويشمل الإحداث في الأمر أي في شؤون الأمة كالجرائم وشبهها، فمن آوى محدثًا فهو ملعون، وكذا من ناصرهم؛ لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذى عنه فمن ناصره فهو أشد وأعظم.

والمحـدث أشـد منه لأنَّه إذا كان إيواؤه سبباً للعنة، فإن نفس فعله جرم أعظم.

ففيه التحذير من البدع والإحداث في الدين، قال النبي ﷺ: «**إيَّاكم ومحدثات الأمور فإنَّ كل بدعة ضلالة**»[3] . وظاهر الحديث: ولو كان أمرًا يسيرًا.

قوله: «**منار الأرض**» أي علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران فمن غيّرها ظلمًا فهو ملعون، وما أكثر الذين يغيِّرون منار الأرض لا سيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أنَّ الرسول، ﷺ، يقول: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلمًا طوقه من سبع أراضين**»[4] ، فالأمر عظيم مع أنَّ هذا الذي يقتطع من الأرض، ويغيّر المنار، ويأخذ ما لا يستحق لا يدري قد يستفيد منها في دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يُسلّط عليه آفة تأخذ ما أخذ.

فالحاصل: أنَّ هذا دليل على أنَّ تغيير منار الأرض من كبائر الذنوب، ولهـذا قرنه الله تعالى بالشرك، وبالعقوق، وبالإحداث مما يدل على أنَّ أمره

---

(1) سورة النساء، الآية: ٣٦.
(2) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(3) سبق ص (٢١١).
(4) سبق ص (٨٠).

وعن طارق بن شِهـابٍ أن رسول الله ﷺ قال: «**دخلَ الجنة رجُلٌ في ذُبابٍ**»، قالوا: وكيفَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «**مَرَّ رجُلان على قومٍ لهم صنمٌ لا يَجُوزُهُ أحدٌ حتى يُقَرِّبَ له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرِّب، قال: ليس عندي شيءٌ أُقَرِّبه، قالوا له: قرِّب ولو ذُبابًا، فقرب ذبابا فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرِّب، فقال: ما كُنْتُ لأُقرِّبَ لأحدٍ شيئًا دون الله عزّ وجلّ، فضربوا عنقه، فدخل الجنة**».

رواه أحمد[1].

عظيم، وأنَّه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف الله سبحانه وتعالى حتى لا يقع فيه.

قوله: «عن طارق بن شهاب» في الحديث علتان:

الأولى: أنّ طارق بن شهاب اتفق على أنه لم يسمع من النبي، ﷺ، واختلفوا في قصته فمنهم من أقرَّها، ومنهم من نفاها.

وإذا قلنا: إنَّه صحابي فلا يضر عدم سماعه من النبي، ﷺ، لأنَّ مرسل الصحابي حجة، وإن كان غير صحابي فإنَّه مرسل غير صحابي، وهو من أقسام الضعيف.

الثانية: أن الحديث معنعن من قبل الأعمش وهو من المدلسين، وهذه آفة في الحديث، فالحديث في النفس منه شيء من أجل هاتين العلتين.

قوله: «**في ذباب**» في: للسببية، وليست للظرفية أي بسبب ذباب.

قوله: «**فدخل النار**» أي: وإن ذبح شيئًا لا يؤكل، لكن لما نوى به التقرّب به إلى هذا الصنم صار مشركًا فدخل النار.

---

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد ص (١٥، ١٦) وأبو نعيم في الحلية ٢٠٣/١ عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفًا بسند صحيح، انظر النهج السديد ص (٦٨).

فيه مسائل : الأولى: تفسير ﴿**قل إن صلاتي ونسكي**﴾. **الثانية**: تفسير ﴿**فصل لربك وانحر**﴾. **الثالثة**: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله. **الرابعة**: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك. **الخامسة**: لعن من آوى محدثًا وهو الرجل يحدث شيئًا يجب فيه حق الله فيلتجيء إلى من يجيره من ذلك.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿**قل إن صلاتي ونسكي**﴾. وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: تفسير ﴿**فصلِّ لربك وانحر**﴾ وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

بدأ به، لأنَّه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولاً بالتوحيد، قال تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانًا**﴾[2] وينبغي أن يبدأ بالمناهي وبالعقوبات بالشرك، وعقوبته.

الرابعة: لعن من لعن والديه.

ولعن الرجل للرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثاني: سبّه وشتمه، لأن الرسول، ﷺ، فسَّره بقوله: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[3].

الخامسة: لعن من آوى محدثًا.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سبق ص (٢٢٣).

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك من الأرض فتغيرها بتقديم أو تأخير. **السابعة**: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم. **الثامنة**: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب.

وقد سبق أنه يشمل الإحداث في الدين، والجرائم، فمن آوى محدثًا ببدعة، فهو داخل في ذلك، ومن آوى محدثًا بجريمة فهو داخل في ذلك.

السادسة: لعن من غيّر منار الأرض...

وسواء كانت بينك وبين جارك، أو بينك وبين السوق مثلاً، لأنَّ الحديث عام.

السابعة: الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم: فإذا رأيت من آوى محدثًا فلا تقل لعنك الله، بل قل لعن الله من آوى محدثًا على سبيل العموم، والدليل على ذلك أنَّ النبي، ﷺ، لما صار يلعن أناسًا من المشركين من أهل الجاهلية بقوله: «اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا» نُهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**ليس لك من الأمر شيء، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم فإنَّهم ظالمون**﴾[1]. فالمعينَّ ليس لك أن تلعنه، وكم من إنسان صار على وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب الله عليه، إذن يؤخذ هذا من دليل منفصل، وكأن المؤلف رحمه الله قال: الأصل عدم جواز إطلاق اللعن فجاء هذا الحديث لاعنًا للعموم فيبقى الخصوص على أصله لأنَّ المسلم ليس بالطّعَّان ولا باللعَّان، والرسول، ﷺ، ليس طعّانًا ولا لعّانًا، ولعل هذا وجه أخذ الحكم من الحديث، وإلاّ فالحديث لا تفريق فيه.

الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب:

كأن المؤلف، رحمه الله، يصحح الحديث، ولهذا بنى عليه حكمًا،

---

(١) انظر ص (٢٩٤).

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصًا من شرهم.

والحكم المأخوذ من دليل فرع عن صحته، والقصة معروفة.

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصًا من شرِّهم:

هذه المسألة ليست مسلّمة، فإن قولهم قرّب ولو ذبابًا يقتضي أنّه فعله قاصدًا التقرّب، أما لو فعله تخلصًا من شرهم فإنّه لا يكفر لعدم قصد التقرّب، ولهذا قال الفقهاء: لو أُكره على طلاق امرأته فطلّق تبعًا لقوله: أي: طلّق ناويًا الطلاق فإنَّ الطلاق يقع، وإن طلّق دفعًا للإكراه لم يقع، وهذا حق لقوله، ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات**»[1].

وظاهر القصة أنَّ الرجل ذبح بنية التقرّب؛ لأنَّ الأصل أن فعلاً بني على طلب أن يكون موافقًا لهذا الطلب.

ونحن نرى خلاف ما يرى المؤلف، رحمه الله، أي: أنَّه لو فعله بقصد التخلّص ولم ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر لعموم قوله تعالى: ﴿**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا**﴾[2].

وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر تخلّصًا مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضًا: أنّه لا فرق بين القول المكره عليه والفعل، وإن كان بعض العلماء يفرّق ويقول: إذا أُكره على القول لم يكفر، وإذا أُكره على الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الذباب فيها نظر من حيث حجيتها،

---

(١) من حديث عمر، رواه البخاري، كتاب بدء الوحي / باب كيف كان بدء الوحي ١/ ١٣، ومسلم، كتاب الإمارة/ باب قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» ٣/ ١٥١٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

وفيها نظر من حيث الدلالة لما سبق أنَّ الفعل المبني على طلب يحال على هذا الطلب.

ولو فرض أن الرجل تقرَّب بالذباب تخلصًا من شرّهم فإنَّ لدينا نصًّا محكمًا في الموضوع وهو قوله تعالى: ﴿**من كفر بالله**﴾[1] الآية. ولم يقل بالقول، فما دام عندنا نصّ قرآني صريح فإنّه لو وردت السنة صحيحة على وجه مشتبه فإنّها تحمل على النصّ المحكم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين... إلخ.

مسألة: هل الأولى للإنسان أن يصبر إذا أكره على الكفر، ويقتل؟ أو يوافق ظاهرًا ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا يجوز لأنَّه ردة.

ثانيًا: أن يوافق ظاهرًا لا باطنًا، ولكن يقصد التخلص من الإكراه فهذا جائز.

ثالثًا: أن لا يوافق لا ظاهرًا ولا باطنًا ويقتل، وهذا جائز وهو من الصبر.

لكن أيهما أولى أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهرًا؟

فيه تفصيل:

إذا كان الإكراه لا يترتب عليه ضرر في الدين للعامة فإنّ الأولى أن يوافق ظاهرًا لا باطنًا، لا سيّما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس مثل: صاحب المال، أو العلم، وما أشبه ذلك حتى وإن لم يكن فيه مصلحة ففي بقائه على الإسلام

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦

الحادية عشرة: إن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافرًا لم يقل «دخل النار في ذباب».

زيادة عمل، وهو خير، وهو قد رُخّص له أن يكفر ظاهرًا عند الإكراه، فالأولى أن يتأول، ويوافق ظاهرًا لا باطنًا.

أما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام فإنه يصبر، وقد يجب الصبر، لأنَّه من باب الصبر على الجهاد في سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكى الصحابة للنبي، ﷺ، ما يجدونه من مضايقة المشركين قصّ عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأنّ الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده، بأمشاط الحديد[1] ويصبر، فكأنه يقول لهم: اصبروا على الأذى.

ولو حصل من الصحابة، رضي الله عنهم، في ذلك الوقت موافقة للمشركين وهم قلة لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام.

والإمام أحمد، رحمه الله، في المحنة المشهورة لو وافقهم ظاهرًا لحصل في ذلك مضرّة على الإسلام.

الحادية عشرة: أنَّ الذي دخل النار مسلم؛ لأنَّه لو كان كافرًا لم يقل دخل النار في ذباب.

وهذا صحيح أي: أنَّه كان مسلمًا ثم كفر بتقريبه للصنم، فكان هو السبب في دخوله النار.

و«في» للسببية ونظيره قوله ﷺ: **«دخلت النار امرأة في هرَّة حبستها»**[2].

---

(١) من حديث خباب بن الأرت، رواه البخاري، كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام ٢/ ٥٢٠.

(٢) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب الرقاق/ باب الجنة أقرب إلى أحدكم ٤/ ١٨٩.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»[1]. الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأصنام.

ولو كان كافرًا قبل أن يُقرِّب الذباب، لكان دخوله النار لكفره الأول، لا بتقريبه الذباب.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**».

والغرض من هذا: الترغيب والترهيب، فإذا عُلم أنَّ الجنَّة أقرب إليه من شراك النعل، فإنَّه ينشط على السعي فيقول ليست بعيدة كقوله، ﷺ، لما سئل عما يدخل الجنة، ويباعد عن النار فقال: «**لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه**»[2] والنار إذا قيل له إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى في مشيه لئلا يزلّ فيهلك، ورب كلمة توصل الإنسان إلى أعلى عليين، وكلمة أخرى توصله إلى أسفل سافلين.

الثالثة عشرة: معرفة أنَّ عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان:

والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيها شبه تناقض؛ لأنَّه في هذه المسألة أحال الحكم على عمل القلب، وفي التاسعة أحاله على الظاهر فقال: تخلصًا من شرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سليم، وهنا يقول: إن العمل

---

(١) من حديث ابن عمر، رواه البخاري، كتاب بدء الخلق/ باب إذا وقع الذباب ٢/ ٤٤٨، ومسلم، كتاب السلام/ باب تحريم قتل الهرَّة ٤/ ١٧٦٠.

(٢) من حديث معاذ، أخرجه الإمام أحمد ٥/ ٢٣١، رواه الترمذي، الإيمان/ باب ما جاء في حرمة الصلاة ٧/ ٢٨٠، وقال: «حسن صحيح» والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف ٨/ ٣٩٩، وابن ماجه، كتاب الفتن/ باب كف اللسان في الفتنة رقم ٣٩٧٣.

. . . .

بعمل القلب، ولا شك أن ما قاله المؤلف رحمه الله، حق بالنسبة إلى أنَّ المدار على القلب.

والحقيقة أنَّ العمل مركب على القلب، والناس يختلفون في أعمال القلوب أكثر من اختلافهم في أعمال الأبدان، والفرقان بينهم قصدًا وذلًّا، أعظم من الفرقان بين أعمالهم البدنية؛ لأنَّ من الناس من يعبد الله لكن عنده من الاستكبار ما لا يذلّ معه، ولا يذعن لكل حق.

وبعضهم يكون عنده ذلّ للحق لكن عنده نقص في القصد فتجد عنده نوعًا من الرياء مثلًا.

فأعمال القلب، وأقواله لها أهمية عظيمة، فعلى الإنسان أن يخلصها لله.

وأقوال القلب هي: اعتقاداته كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه.

وأعماله هي: تحركاته كالحب، والخوف، والرجاء، والتوكّل، والاستعانة، وما أشبه ذلك.

والدواء لذلك: القرآن والسنة، والرجوع إلى سيرة الرسول، ﷺ، بمعرفة أحواله، وأقواله، وجهاده، ودعوته، هذا مما يعين على جهاد القلب.

ومن أسباب صلاح القلب أن لا تشغل قلبك بالدنيا.

باب
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى ﴿لا تَقُمْ فيه أبدًا﴾. الآية[1].

هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون، ففي الباب السابق ذكر الذبح لغير الله فنفس الفعل لغير الله.

وفي هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنَّه في مكان يذبح فيه لغيره كمن يريد أن يضحي لله في مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه؛ لأنَّه موافقة للمشركين في ظاهر الحال، وربما أن الشيطان أدخل في قلبك نيَّة سيئة فيكون اعتقادك أنَّ الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر[2].

قوله: ﴿لا تقم فيه﴾ ضمير الغيبة يعود إلى مسجد بني على نيَّة فاسدة قال تعالى: **﴿والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله﴾**.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

(٢) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٤٦): «ماأحسن اتباع هذا الباب بالذي قبله، فالذي قبله من المقاصد، وهذا من الوسائل، ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقرباً إليها وشركاً بالله صار مشعراً من مشاعر الشرك، فإذا ذبح المسلم ذبيحة ولو قصدها لله فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم، ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم، وهيئاتهم، ولباسهم، وجميع مايختص بهم، إبعاداً للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفاً من التشبه المحذور».

. . . .

فالغرض من اتخاذ هذا المسجد ما يلي:

١ - مضارة مسجد قباء، ولهذا يُسمى مسجد الضرار.

٢ - كفرًا بالله لأنَّه يقرر فيه الكفر، والعياذ بالله، لأنَّ الذين اتخذوه هم المنافقون.

٣ - التفريق بين المؤمنين، فبدلاً من أن يصلي في مسجد قباء صف، أو صفان، يصلي فيه نصف صف، والباقون في المسجد الآخر، والشرع له نظر في اجتماع المؤمنين.

٤ - إرصادًا لمن حارب الله ورسوله، فيقال إنَّ فيه رجلاً ذهب إلى الشام، وهو فاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير ما يريدونه من المكر والخديعة للرسول، ﷺ، وأصحابه، قال الله تعالى: ﴿**وليحلفنَّ إن أردنا إلا الحسنى**﴾. فهذه سنة المنافقين الأيمان الكاذبة.

إنْ: نافية بدليل وقوع الاستثناء بعدها، أي: ما أردنا إلّا الحسنى، والجواب عن هذا اليمين الكاذب: ﴿**والله يشهد إنَّهم لكاذبون**﴾.

ذكر الله الشهادة على كذبهم، لأنَّ ما يسرونه في قلوبهم، ولا يعلم ما في القلوب إلا علّام الغيوب، فكأنَّ هذا المضمر في قلوبهم بالنسبة إلى الله أمر مشهود يُرى بالعين كما قال الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿**والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون**﴾[1].

وقوله: ﴿**لا تقم فيه أبدًا**﴾ لا: ناهية، وتقم: مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه السكون، لكن حذفت الواو، لأنَّه مما سكن آخره، والواو ساكنة.

قوله: ﴿**أبدًا**﴾ إشارة إلى أنَّ هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

(١) سورة المنافقون، الآية: ١.

. . . .

قوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾.

اللام: للابتداء، ومسجد مبتدأ، وخبره أحق أن تقوم فيه، وفي هذا التنكير تعظيم للمسجد، بدليل قوله: ﴿أسس على التقوى﴾[1] أي جعلت التقوى أساسًا له فقام عليه.

وهذه الأحقيّة ليست على بابها، وهو أنَّ اسم التفضيل يدلّ على مفضل، ومفضل عليه اشتراكًا في أصل الوصف، لأنَّه هنا لا حق لمسجد الضرار للقيام فيه، وهذا أعني كون الطرف المفضَّل عليه ليس فيه شيء من الأصل الذي وقع فيه التفضيل موجود في القرآن كثيرًا كقوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقرًّا وأحسن مقيلًا﴾[2].

قوله: ﴿فيه﴾ أي: في هذا المسجد.

قوله: ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ بخلاف من كان في مسجد الضرار فإنَّهم رجس كما قال الله تعالى: ﴿يحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم إنَّهم رجس﴾[3].

قوله: ﴿يتطهروا﴾ يشمل طهارة القلب من النفاق والحسد والغل، وغير ذلك، وطهارة البدن من الأقذار والنجاسات.

قوله: ﴿والله يحب المطّهرين﴾ هذه محبة حقيقية ثابتة لله عز وجل، تليق بجلاله وعظمته، ولا تماثل محبة المخلوقين. وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته، فيفسرونها إمّا بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ.

وقوله: ﴿المطهرين﴾ أصله المتطهرين، وأدغمت التاء بالطاء لعلة تصريفيّة معروفة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٥.

وعن ثابت بن الضَّحَّاكِ، رضي الله عنه، قال: «نَذَر رجلٌ أن يَنْحَـرَ إبلاً ببُوانةَ، فسأل النبي ﷺ، فقال: **«هل كان فيها وَثَنٌ من أوثانِ الجاهليَّة يُعْبَد؟»** قالوا: لا، قال: **«فهل كان فيها عيدٌ**

وجه المناسبة من الآية: أنَّه لما كان مسجد الضرار مما اتخذ للمعاصي ضراراً وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين نهى الله رسوله أن يقوم فيه، فدلّ على أنَّ كلَّ مكان يُعصى الله فيه أنَّه لا يقام فيه، فهذا المسجد متَّخذ للصلاة لكنَّه محل معصية فلا تُقام فيه الصلاة.

وكذا لو أراد إنسان أن يذبح فيما يذبح فيه لغير الله كان حرامًا، لأنَّه يشبه الصلاة في مسجد الضرار.

وقريب من ذلك النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لأنَّهما وقتـان يسجـد فيهـما الكفـار للشمس، فهـذا باعتبار الزمن والوقت، والحديث الذي ذكره المؤلف باعتبار المكان.

قوله: **«نذر»** النذر في اللغة: الإلزام، والعهد.

واصطلاحًا: إلزام المكلف نفسه لله شيئًا غير واجب.

وقال بعضهم: لا نحتاج أن نقيد بغير واجب، وأنَّه إذا نذر الواجب صار واجبًا من وجهين، من جهة النذر، ومن جهة الشرع.

والنـذر في الأصـل: أنـه مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلى تحريمه، لأنَّ النبي، ﷺ، نهى عنه وقال: **«لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل»**[1]. ولأنه إلزام لنفس الإنسان مما جعله الله في حلّ منه، وفي ذلك زيادة تكليف على نفسه.

---

(١) رواه البخـاري، كتاب الأيمان/ باب الوفاء بالنذر ٤/٢٧٧، ومسلم كتاب النذر/ باب النهي عن النذر ٣/١٢٦٠.

. . . .

ولأنَّ الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسأل يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه، ولا سيَّما ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة يريدها، تجده ينذر كأنه يقول إنَّ الله لا ينعم عليه بجلب خير، أو دفع الضرر إلاّ بهذا النذر.

قوله: «**إبلاً**» اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

قولـه: «**ببوانة**» الباء بمعنى في وهي للظرفية، والمعنى بمكان يسمى بوانة.

قوله: «**هل كان فيها وثن**» الوثن: كل ما عبد من دون الله من شجر، أو حجر سواء نحت أو لم يُنحت.

والصنم: يختص بما صنعه الآدميّ.

قوله: «**الجاهلية**» نسبة إلى ما كان قبل الرسالة، وسمِّيت بذلك لأنهم كانوا على جهل عظيم.

قوله: «**يعبد**» صفة لقوله: «**وثن**» وهو بيان للواقع، لأنَّ الأوثان هي التي تعبد من دون الله.

قولـه: «**لا**» السائل واحد، لكنَّه لما كان محضوراً، وعنده ناس أجابوا النبي، ﷺ، ولا مانع أن يكون المجيب غير السائل.

قوله: «**عيد**» العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، والعود بمعنى الرجوع، أي هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلى هذا المكان ويتخذوا هذا اليوم عيدًا، وإن لم يكن فيه وثن؟ قالوا: لا. فسأل النبي، ﷺ، عن أمرين: عن الشرك، ووسائله.

فالشرك: هل كان فيها وثن؟

ووسائله: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟

من أعيادهم؟» قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: **«أَوْفِ بِنذرك، فإنه لا وَفاءَ لِنذْرٍ في معصيةِ الله، ولا فيما لا يَمْلِكُ ابنُ آدم»**. رواه أبو داود، وإسنادُه على شرطِهما[1].

قولـه: **«أوف بنـذرك»** فعـل أمـر مبني على حذف حرف العلة الياء، والكسرة دليل عليها.

وهل المراد به المعنى الحقيقي، أو المراد به الإباحة؟

الجواب: يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يُراد به المعنى الحقيقي فبالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقي.

وبالنسبة للمكان المراد به الإباحة، لأنَّه لا يتعين أن يذبحها في ذلك المكان، إذ إنَّه لا يتعين أي مكان في الأرض، إلا ما تميز بفضل، والمتميز بفضل المساجد الثلاثة، فالأمر هنا بالنسبة لنحر الإبل من حيث هو نحر واجب.

وبالنسبة للمكان، فالأمر للإباحة بدليل أنَّه سأل هذين السؤالين، فلو أجيب بنعم لقال: لا توف، فإذا كان المقام يحتمل النهي والترخيص، فالأمر للإباحة.

وقوله: **«أوف بنذرك»** علَّل، ﷺ، فقال: **«فإنَّه لا وفاء لنذر في معصية الله»**.

قوله: **«لا وفاء»** لا نافية للجنس، وفاء: اسمها، لنذر: خبرها.

قوله: **«في معصية الله»** صفة لنذر، أي: لا يمكن أن توفي بنذر بمعصية الله، لأنَّه لا يتقرّب إلى الله بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال افعلها.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأيمان النذور/ باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر ٣/٦٠٧، وسكت عنه، والبيهقي في السنن ١٠/٨٣، والطبراني في الكبير برقم (١٣٤١)، وصححه ابن حجر في التلخيص ٤/١٨٠.

. . . .

أقسام النذر:

الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة لقوله ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[1].

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية لقوله ﷺ: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[2]. وقوله: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**».

الثالث: ما يجري مجرى اليمين، وهو نذر المباح مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفّر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسُمِّي بهذا الاسم؛ لأنَّ اللجاج والغضب يحملان عليه غالبًا، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذي يقصد به معنى اليمين، الحثّ، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: وإن كان حاصلاً فعلي لله نذر أن أصوم سنة، فالغرض من هذا النذر التكذيب فإذا تبين أنه حاصل: فالناذر مخيَّر بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفِّر كفَّارة يمين، لأنَّه إن صام فقد وفَّى بنذره، وإن لم يصم حنث، والحانث في اليمين يكفّر كفَّارة يمين.

الخامس: المكروه[3].

مسألة: هل ينعقد نذر المعصية؟

الجواب: نعم ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**من نذر أن يعصي الله**

---

(١) (٢) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور/ باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ٤/ ٢٢٩.

(٣) وذلك كأن ينذر طلاق زوجته، أو يأكل ثوماً أو بصلاً. انظر حاشية ابن قاسم على الروض ٧/ ٤٩٩.

. . . .

فلا يعصه». ولو قال: من نذر أن يعصي الله فلا نذر له لكان لا ينعقد ففي قوله: «**فلا يعصه**» دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

وإذا انعقد هل تلزمه كفَّارة أو لا؟

اختلف في ذلك أهل العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

فقال بعض العلماء: إنَّه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النبي ﷺ: «**لا وفاء لنذر في معصية الله**»[1].

وبقوله ﷺ: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» ولم يذكر النبي، ﷺ، كفَّارة، ولو كانت واجبة لذكرها.

القول الثاني: تجب الكفارة وهو المشهور من المذهب: لأنَّ الرسول ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفارته كفَّارة يمين، وكون الأمر لا يذكر في حديث لا يقتضي عدمه، فعدم الذكر ليس ذكرًا للعدم، نعم لو قال الرسول لا كفارة صار في الحديثين تعارض، وحينئذ نطلب الترجيح، لكن الرسول لم ينف بل سكت، والسكوت لا ينافي المنطوق، فالسكوت وعدم الذكر يكون اعتمادًا على ما تقدم، فإن كان الرسول قاله قبل أن ينهى هذا الرجل فاعتماد عليه لم يقله، لأنَّه ليس بلازم أن كل مسألة فيها قيد أو تخصيص يذكرها الرسول عند كل عموم، فلو كان يلزم هذا لكانت تطول السنة لكن الرسول، ﷺ، إذا ذكر

---

(١) سبق ص (٢٣٩).

(٢) سبق ص (٢٣٨).

(٣) من حديث عائشة، رواه أحمد ٦/٢٤٧، وأبو داود برقم (٣٢٩٠)، والترمذي برقم (١٥٢٤)، والنسائي برقم (٣٨٣٤) وابن ماجه برقم (٢١٢٥)، والبيهقي ١٠/٦٩، وصححه الطحاوي وابن السكن كما في تلخيص الحبير ٤/١٧٦.

. . . .

حديثًا عامًّا وله ما يخصصه حمل عليه، وإذا سكت عن شيء وقد نطق به في مكان آخر حمل عليه.

وأيضًا من حيث القياس لو أن الإنسان أقسم ليفعلنَّ محرَّمًا وقال: والله لأفعلن هذا الشيء وهو محرم فلا يفعله، ويكفِّر كفَّارة يمين مع أنَّه أقسم على فعل محرَّم، والنذر شبيه بالقسم، وعلى هذا فكفَّارته كفارة يمين، وهذا القول أصح.

يستفاد من الحديث:

أنَّه لا يُذبح بمكان يذبح فيه لغير الله، وهو ما ساقه المؤلف من أجله والحكمة من ذلك ما يلي:

الأول: أنَّه يؤدي إلى التشبه بالكفار.

الثاني: أنَّه يؤدي إلى الاغترار بهذا الفعل؛ لأنَّ من رآك تذبح بمكان يذبح فيه المشركون ظنَّ أن فعل المشركين جائز.

الثالث: أنَّ هؤلاء المشركين سوف يقوون على فعلهم إذا رأوا من يفعل مثلهم، ولا شك أن تقوية المشركين من الأمور المحظورة، وإغاظتهم من الأعمال الصالحة قال الله تعالى: ﴿**ولا يطؤون موطئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح**﴾[1].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

فيه مسائل : الأولى : تفسير قوله : ﴿**لا تقم فيه أبدًا**﴾ . **الثانية** : أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة. **الثالثة** : رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.

الرابعة : استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله تعالى : ﴿**لا تقم فيه أبدًا**﴾ .

وقد سبق ذلك، في أول الباب.

الثانية : أنَّ المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة :

أي : لما كانت هذه الأرض مكان شرك حُرّم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين.

أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة، فإنَّ الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة، فلا يكون الإنسان متشبهًا بهذا العمل، بخلاف الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك، لأنَّه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان.

وكذا الطاعة تؤثر في الأرض، ولهذا فإن المساجد أفضل من الأسواق، والقديم منها أفضل من الجديد.

الثالثة : رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال :

فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل لكنَّ الرسول، ﷺ، بيَّن ذلك بالاستفصال.

الرابعة : استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك :

لأنَّ النبي، ﷺ، استفصل، لكن هل يجب الاستفصال على كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الخـامسـة: أن تخصيص البقعـة بالنـذر لا بأس به إذا خلا من الموانع. **السادسة**: المنع منه إذا كان فيه وثنٌ من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله. **السابعة**: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الجواب: لا يجب إلّا إذا وجد الاحتمال؛ لأنَّنا لو استفصلنا في كل مسألة لطال الأمر.

فمثلاً لو حصل سؤال عن مسألة في البيع ثم استفصلنا عن الثمن هل هو معلوم، وعن المثمن هل هو معلوم؟ وهل وقع البيع معلَّقًا أو غير معلّق؟ لطال الأمر.

أمّا إذا وجد الاحتمال فيجب الاستفصال مثل: أن يسأل عن رجل مات عن بنت، وأخ، وعم شقيق، فيجب الاستفصال عن الأخ هل هو شقيق أو لأم؟ فإن كان لأم سقط، وأخذ الباقي العم، وإلّا سقط العم وأخذ الباقي الأخ.

الخامسة: أنَّ تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع:

لقوله: «**أوف بنذرك**» وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة فالواقعة: أن يكون فيها وثن، أو عيد من أعياد الجاهلية.

والمتوقعة: أن يخشى من الذبح في هذا المكان تعظيمه، فإذا خُشي كان ممنوعًا مثل: لو أراد أن يذبح عند جبل، فالأصل أنه جائز لكن لو خُشي أن العوام يعتقدون أن في هذا المكان مزيّة كان ممنوعًا.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله:

لقوله: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟**».

لأن «كان» فعل ماض، والمحظور بعد زوال الوثن باق، لأنَّه ربما يعاد.

السـابعـة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله:

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية. **التاسعة**: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده. **العاشرة**: لا نذر في معصية. **الحادية عشرة**: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

لقوله: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**».

الثامنة: أنَّه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنَّه نذر معصية: لقوله: «**فإنَّه لا وفاء لنذر في معصية الله**».

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده: وقد نصَّ شيخ الإسلام ابن تيمية على أن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد فإنَّه يمنع منه ولو لم يقصده، لكن مع القصد يكون أشدّ إثمًا، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية الله: الحديث يقول: «**لا وفاء لنذر**» وبينها فرق:

فإذا كانت العبارة لا نذر في معصية، فالمعنى أن النذر لا ينعقد، وإذا كان لا وفاء فالمعنى أن النذر ينعقد لكن لا يوفى، وقد وردت السنة بهذا، وبهذا.

لكن: «لا نذر» يحمل على أنَّ المراد لا وفاء لنذر لقوله، ﷺ، في الحديث المتفق عليه: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[1].

فقوله: «**من نذر أن يعصي الله**» دليل على أنَّ النذر ينعقد لكن لا يوفّيه.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك:

مثل: لا نذر في معصية، لقوله: «**ولا فيما لا يملك ابن آدم**».

والمعنى: لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم، ويشتمل ما لا يملكه شرعًا، وما لا يملكه قدرًا.

---

(١) سبق ص (٢٣٩).

بـــاب
من الشرك النذْر لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾[1].

النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان عليّ نذر، أو لهذا القبر عليَّ نذر، أو لجبريل عليَّ نذر، وما أشبه ذلك.

والفرق بينه، وبين نذر المعصية أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً، ونذر المعصية لله، ولكنه على معصية من معاصيه مثل أن يقول: لله عليَّ نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله، فيكون النذر لله والمنذور معصية، ونظير هذا الحلف بالله على شيء محرَّم، والحلف بغير الله، فالحلف بغير الله مثل: والنبي لأفعلنَّ كذا وكذا، نظيره النذر لغير الله، والحلف بالله على محرَّم مثل: والله لأسرقنَّ نظير نذر المعصية، وحكم النذر لغير الله شرك؛ لأنَّه عبادة للمنذور له، وإذا كان عبادة فقد صرفها لغير الله فيكون مشركًا[2].

وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقا، ولا تجب فيه كفارة، بل شرك تجب التوبة منه كالحلف بغير الله، فلا ينعقد وليس فيه كفَّارة.

وأمَّـا نذر المعصية فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفَّارة يمين كالحلف بالله على المحرَّم ينعقد وفيه كفارة.

قوله: ﴿يوفون بالنذر﴾.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٧.

(٢) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٥٠): «فإن النذر عبادة مدح الله الموفين، وأمر النبي، ﷺ، بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع، أو أثنى على من قام به أو أمـر به فهـو عبادة، فإن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة، والنذر من ذلك».

وقوله: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُم مِّنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّنْ نَذْرٍ فَإِنَّ الله يَعْلَمُهُ ﴾. (١)

هذه الآية سيقت لمدح الأبـرار ﴿إنَّ الأبـرار يشربـون من كأس كان مزاجها كافورًا﴾.

ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون عبادة، لأنَّ الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عبادة.

ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وليوفوا نذورهم﴾(٢) لكان أوضح، لأنَّ قوله: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ أمر، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة، لأنَّ العبادة ما أمر به شرعًا.

وجه استدلال المؤلف بالآية على أنَّ النذر لغير الله من الشرك: أنَّ الله تعـالى أثنى عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سببًا يدخلون به الجنة إلاّ وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك.

قوله: «وما أنفقتم» ما: شرطية، وأنفقتم: فعل الشرط، وجوابه: فإن الله يعلمه.

قوله: «من نفقة» بيان «لما» في قوله: «ما أنفقتم». والنفقة: بذل المال، وقد يكون في الخير، وقد يكون في غيره.

قوله: «أو نذرتم» معطوف على قوله: «وما أنفقتم».

قوله: «فإنَّ الله يعلمه» تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء، إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلاّ لترتب الجزاء عليه، وترتب الجزاء عليه يدلّ على أنَّه من العبادة التي يُجازى الإنسان عليها، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٩.　　(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٠.

وفي الصحيح عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن نَذرَ أن يُطِيعَ الله فليُطعْهُ، ومَنْ نَذرَ أن يَعصيَ الله فَلا يَعْصِه**»[1].

قوله: «**وفي الصحيح**»

تنبيه: المؤلف ليس له اصطلاح معيّن.

فقد يراد به صحيح البخاري، وقد يراد به صحيح مسلم، وقد يراد به الحديث الصحيح سواء في البخاري أو مسلم، أو غيرهما. وهذا يرجع إلى تتبع الحديث أين يوجد؟

قولـه: «**مَنْ نذر**» شرطية تعم الكافر، فالكافر إن وفّى نذره حال كفره برأت ذمته، وإلا وجب عليه أداؤه بعد إسلامه فهذا عمر بن الخطاب نذر أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام وهو في الجاهلية[2].

وهل يشمل الصغير والكبير؟

قال بعض العلماء: يشمله فينعقد النذر منه.

وقيل: لا يشمله لأنَّ الصغير ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام، وبناء على هذا يكون خروج الصغير من هذا العموم لأنَّه ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام.

قوله: «**أن يطيع الله**».

الطاعة: هي موافقة الأمر، أي: أن توافق الله فيما يريد منك إن أمرك، فالـطاعـة فعل الأمر، وإن نهاك فالطاعة ترك النهي، هذا معنى الطاعة إذا جاءت مفردة.

أمَّـا إذا قيل: طاعة ومعصية، فالطاعة لفعل الأوامر، والمعصية لفعل النواهي.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور/ باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ٤/ ٢٢٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف/ باب الاعتكاف ليلاً ٢/ ٦٦، ومسلم، كتاب الأيمان/ باب نذر الكافر ٣/ ١٢٧٧.

. . . .

قوله: «**فليطعه**».

الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لأنَّ الجملة إنشائيّة طلبيَّة، واللام لام الأمر.

وظـاهـر الحديث: يشمل ما إذا كانت الطاعة المنذورة جنسها واجب كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب كتعليم العلم وغيره.

وقال بعض أهل العلم: لا يجب الوفاء بالنذر إلّا إذا كان جنس الطاعة واجبًا، وعموم الحديثِ يرد عليهم.

وظاهر الحديث أيضًا يشمل من نذر نذرًا مطلقًا ليس له سبب، مثل: «لله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام».

ومن نذر نذرًا معلّقًا مثل: إن نجحت فلله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام.

وظـاهر الحديث يعم هذا، وهذا، ومن فرّق بينهما فليس بجيد؛ لأنَّ الحديث عام.

واعلم أنَّ النذر لا يأتي بخير ولو كان نذر طاعة، وإنَّما يستخرج به من البخيل، ولهذا ينهى عنه، وبعض العلماء يحرِّمه.

وإليه يميل شيخ الإسلام ابن تيمية أن عقد النذر حرام، لأنَّك تلزم نفسك بأمر أنت في عافية منه، وكم من إنسان نذر، وأخيرًا ندم، وربما لم يفعل.

ويدل لقوة القول بتحريم النذر قوله تعالى: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمـرتهم ليخرجنَّ**﴾[1] فهذا قسم ملتزم للنذر لأنَّه مؤكَّد بالقسم قال الله تعالى: ﴿**قل لا تقسموا طاعة معروفة**﴾[2] أي: بدون يمين، والإنسان الذي

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٣.

. . . .

لا يفعل الطاعة إلّا بنذر، وحلف على نفسه، معناه: أنَّ الطاعة ثقيلة عليه.

والنذر المعلّق مثل قوله تعالى: **﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنَّ ولنكوننَّ من الصالحين﴾** هذا نذر معلّق على عطاء الله **﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به، وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾**[1] وهذا أمر عظيم.

ومما يدل على القول بالتحريم أيضًا خصوصًا النذر المعلّق: أن الناذر كأنَّه غير واثق بالله عز وجل فكأنَّه يعتقد أن الله لا يعطيه الشفاء إلّا إذا أعطى مقابله، ولهذا إذا أيسوا من البرء ذهبوا ينذرون، وفي هذا سوء ظن بالله عز وجل.

والقول بالتحريم قول وجيه.

فإن قيل: كيف تحرمون ما أثنى الله على من وفى به؟

فالجواب: إننا لا نقول: إنَّ الوفاء هو المحرَّم حتى يقال: إننا هدمنا النص، إنَّما نقول: المحرَّم أو المكروه كراهة شديدة هو عقد النذر، وفرق بين عقده ووفائه، فالعقد ابتدائي، والوفاء في ثاني الحال تنفيذ لما فعلت.

قوله: **«ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**.

لا: ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حرامًا، فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة فالوفاء بالنذر مكروه؛ لأنَّ المعصية الوقوع فيها نهي عنه، والمنهي عنه ينقسم عند أهل العلم إلى قسمين: منهي عنه نهي تحريم، ومنهي عنه نهي تنزيه.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٥.

فيه مسائل : الأولى : وجوب الوفاء بالنذر. **الثانية** : إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك. **الثالثة** : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

فيـه مسائل :

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر:

وهذا ليس على إطلاقه، بل في نذر الطاعة فقط لقوله: «**من نذر أن يطيـع الله فليطعه**»[1] واستدلال المؤلف على وجوب الوفاء بالنذر مطلقا بقوله ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**» ليس بسديد؛ لأنَّك ذكرت حكمًا مطلقًا أو عامًّا، ثم استدللت له بدليل خاص، وذكر الحكم عامًّا والاستدلال عليه بدليل خاص ليس بسليم عند أهل العلم، لكن لو ذكرت خاصًّا واستدللت له بنص أعم فهذا سديد؛ لأنَّ الخاص يدخل في العموم، لكن العموم لا يؤخذ من التخصيص، ولهذا دائمًا في باب المناظرات والمناقشات بين أهل العلم يقولون في رد حجـة الغير الدليل أخصّ من الدعوى، أو أخص من المدعى، فهم يقصدون أن الإنسان يذكر مسألة عامة ويستدل بدليل خاص.

وكلام المؤلف، رحمه الله، من العام المعتمد على دليل خاص، وهذا ليس بسديد، ولهذا قلنا: يجب أن يقيّد فيقال: وجوب الوفاء بنذر الطاعة، ولعل هذا مراده لقوله في الثالثة: إنَّ نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

الثانية : إذا ثبت كونه عبادة فصرفه إلى غير الله شرك:

وهذه قاعدة في توحيد العبادة، فأيّ فعل كان عبادة فصرفه لغير الله شرك.

الثالثة : أنَّ نذر المعصية لا يجوز الوفاء به:

لقوله ﷺ: «**من نذر أن يعصي الله فلا يعصه**».

---

(١) سبق ص (٢٣٨).

بــاب
من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كان رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1].

قوله: «من الشرك» من: للتبعيض.

وهذه الترجمة ليست على إطلاقها، لأنَّه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه فإنَّه جائز كالاستعانة.

قوله: «وأنَّه كان رجال من الإنس».

الواو: حرف عطف، و«أن» فتحت همزتها بسبب عطفها على قوله: ﴿أنه استمع نفر من الجن﴾.

قال ابن مالك:

وهمـز إنَّ افتـح لسـد مصـدر مسـدها، وفي سوى ذاك اكسر

فيؤولُ بمصدر أي: قل أوحى إلي استماع نفر.

قوله: «من الإنس» صفة لرجال، لأن رجال نكرة، وما بعد النكرة صفة لها.

قوله: «يعوذون» الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به ولاذ به، فأعاذ مما يُخاف، ولاذ فيما يؤمل، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحه، ولا يصلح إلا لله:

يـا مـن ألـوذ به فيمـا أأمـله ومـن أعـوذ به مما أحـاذره

لا يجبر النـاس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضـون عظمًا أنـت جابـره

قولـه: «يعوذون برجال من الجن» أي: يلتجئون إليهم مما يحاذرونه،

---

(١) سورة الجن، الآية: ٦.

وعـن خَوْلَـةَ بنتِ حكيـم قالـت: سمعـتُ رسـول الله ﷺ يقـول: «مَـنْ نَـزَلَ مَنْـزِلاً فقـال: أعـوذ بكـلمـات الله

يظنون أنَّهم يعيذونهم، ولكن زادوهم رهقًا، أي: خوفًا وذعرًا، وكانت العرب في الجاهليّة إذا نزلوا في وادٍ نادوا بأعلى أصواتهم: أعوذ بسيّد هذا الوادي من سُفهاء قومه.

قولـه: «رهقًـا» أشـد من مجرد الـذعـر والخـوف، فكأنَّهم مع ذعرهم وخوفهم، أرهقهم وأضعفهم شيء، فصار الذعر والرهق يصل إلى الأبدان.

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ الاستعاذة بالجنّ حرام؛ لأنهم يريدون الأمن، لكن زادوهم خوفًا وذعرًا فعوقبوا بنقيض قصدهم.

وقيل: العكس: إنَّ الإنس زادوا الجن رهقًا أي استكبارًا، وعتوًّا، ولكن الصحيح أنَّ الفاعل الجن كما سبق.

قوله: «برجال من الجن» يستفاد منه أنَّ للجن رجالاً، ولهم إناث، وربما يجامع الرجل من الجن الأنثى من بني آدم، وكذلك العكس الرجل من بني آدم قد يجامع الأنثى من الجن.

والفقهاء يقولون في باب الغسل: لو قالت: إنَّ بها جنيًّا يجامعها كالرجل وجب عليها الغسل، وأمَّا أنَّ الرجل يجامع الأنثى من الجن، فقد قيل ذلك لكن لم أره في كلام أهل العلم، وإنما أساطير تقال، والله أعلم.

إنما يكفينا أن نصدّق بوجودهم وأنَّهم مكلّفون، وبأنَّ منهم الصالحين، ومنهم دون ذلك، وبأنَّ منهم المسلمين والقاسطين وبأنَّ منهم رجالاً ونساءً.

وجه الاستشهاد بالآية: ذم المستعيذين بغير الله، والمستعيذ بالشـيء لا شكّ أنَّه قد علق رجاءه به، واعتمد عليه، وهذا نوع من الشرك.

قوله: «كلمات» من جموع القلة، لأنَّه جمع مؤنث، وجموع القلة من واحد

إلى عشرة، والكثرة: ما فوق ذلك.

وقيل: جموع الكثرة من ثلاثة إلى ما لا نهاية له، فيكون جمع القلة والكثرة يتفقان في الابتداء، ويختلفان في الانتهاء.

قال ابن مالك:

أفـعِـلَةٌ أفْـعُـلُ ثم فِعْـلَهْ ثُمَّـت أفـعـالٌ جُموعُ قِلَّهْ
وبَعضُ ذي بِكَثْـرةٍ وضْعًا يفي كَأَرْجُلٍ والعكس جاءَ كالصُّغي

والراجح: أن جموع القلة تدلّ على الكثرة بالقليل.

و«كلمات» جمع قلة دلّ على الكثرة لوجود القرينة، قال تعالى: **﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددًا﴾**[1].

وأبلغ من هذا قوله تعالى: **﴿ولو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾**[2].

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونيّة والشرعية.

وقوله: «**من نزل منزلاً**» يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: «**أعوذ**» بمعنى التجيء وأعتصم.

قوله: «**التامات**» تمام الكلام بأمرين:

١ ـ الصدق بالأخبار.

٢ ـ العدل في الأحكام.

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

لم يَضُرَّهُ شيءٌ حتى يَرْحَلَ من منزله ذلك». رواه مسلم[1].

قال الله تعالى: ﴿**وتمّت كلمة ربك صدقًا وعدلاً**﴾[2].

قوله: «**من شر ما خلق**» أي: من شر الذي خلق؛ لأنَّ الله خلق كلَّ شيء الخير والشر، ولكن الشرَّ لا ينسب إليه، لأنَّه خلق الشر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيرًا، فكان خيرا.

وعلى هذا نقول: الشرّ ليس في فعل الله، بل في مفعولاته أي: مخلوقاته.

وعلى هذا تكون «ما» موصولة لا غير، أي من شر الذي خلق، لأنَّك لو أولتها إلى المصدرية وقلت: من شرّ خلقك لكان الخلق هنا مصدرًا يجوز أن يُراد به الفعل، ويجوز أيضًا المفعول، لكن لو جعلتها اسمًا موصولاً تعيّن أن يكون المراد بها المفعول وهو المخلوق.

وليس كل ما خلق الله فيه شر لكن من شره إن كان فيه شر؛ لأنَّ مخلوقات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

١ ـ شر محض كالنار وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهم الله من أجلها فهي خير.

٢ ـ خير محض كالجنة والرسل.

٣ ـ فيه شر وخير كعامة المخلوقات.

وأنت إنما تستعيذ من شر ما فيه شر.

قوله: «**لم يضره شيء**» نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم لا من شياطين الإنس ولا من الجن، لا من الظاهر ولا من الخفي، حتى يرتحل من منزله.

لأنَّ هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره، لأنَّه حق وصدق، لكن إن

---

(١) في كتاب الذكر والدعاء/ باب في التعوذ من سوء القضاء ٤/ ٢٠٨٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

. . . .

تخلف هذا المخبر فهو لوجود مانع يمنع من حصول أثر ذلك الخير.

ونظير ذلك كل ما أخبر به النبي ، ﷺ، من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب، فليس ذلك لخلل في السبب، ولكن لوجود مانع ، مثل: قراءة الفاتحة على المرضى شفاء[1]، ويقرأها بعض الناس ولا يشفى المريض، وليس ذلك قصورًا في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره.

ومنه التسمية عند الجماع ، فإنَّها تمنع ضرر الشيطان للولد[2]، فقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتى تزيله فيحصل لك أثر السبب.

قال القرطبي: وقد جرّبت ذلك حتى إني نسيت ذات يوم فدخلت منزلي، ولم أقل ذلك فلدغتني عقرب.

الشاهد من الحديث قوله: «**أعوذ بكلمات الله**».

والمؤلف يقول في الترجمة الاستعاذة بغير الله ، وهنا استعاذة بالكلمات، ولم يستعذ بالله فلماذا؟

أجيب: أنَّ كلمات الله من صفاته، ولهذا استدلّ العلماء بهذا الحديث على أنَّ كلام الله من صفاته غير مخلوق، لأنَّ الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبي ، ﷺ، إلى الاستعاذة بها.

ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير الله أي: أو صفة من صفاته.

---

(١) سبق ص (٩٣).

(٢) من حديث ابن عباس رواه البخاري، كتاب النكاح/ باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله ٣٧٨/٣، ومسلم، كتاب النكاح/ باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع ١٠٥٨/٢.

. . . .

وفي الحديث: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»[1] وهنا استعاذ بعزة الله، ولم يستعذ بالله، والعزَّة من صفات الله، وهي ليست مخلوقة.

ولهذا يجوز القسم بالله، وبصفاته، لأنَّها غير مخلوقة.

أمَّا القسم بالآيات، فإنْ أراد الآيات الشرعية فجائز، وإن أراد الآيات الكونيَّة فغير جائز.

بقينا في الاستعاذة بالمخلوق:

ففيها تفصيل: فإن كان المخلوق لا يقدر عليه فهي من الشرك، كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية: لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة وهذا ليس على إطلاقه بل مرادهم مما لا يقدر عليه إلّا الله، لأنَّه لا يعصمك من الشرّ الذي لا يقدر عليه إلّا الله، إلا الله.

ومن ذلك أيضًا الاستعاذة بأصحاب القبور فإنَّهم لا ينفعون ولا يضرّون.

أمّا الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه فهي جائزة، وقد أشار إلى ذلك الشارح الشيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد»، وهو مقتضى الأحاديث الواردة في صحيح مسلم لما ذكر النبي، ﷺ، الفتن قال: «**فمن وجد من ذلك ملجأً، فليعذ به**»[2].

وكذلك قصة الرجل الذي عاذ بأم سلمة[3]، والمرأة التي عاذت بالنبي،

---

(١) من حديث عثمان بن أبي العاص، رواه مسلم، كتاب السلام/ باب استحباب وضع يده على موضع الألم ٤/١٧٢٨.

(٢) من حديث أبي هريرة رواه البخاري، كتاب المناقب/ باب علامات النبوة ٢/٥٢٠. ومسلم، كتاب الفتن/ باب نزول الفتن ٤/٢٢١٢.

(٣) من حديث جابر رواه مسلم، كتاب الحدود/ باب حد السرقة ٣/١٦٨٩.

. . . .

= ﷺ وكذلك في قصة الذين يستعيذون بالحرم والكعبة[1]، وما أشبه ذلك.

وهـذا هو مقتضى النظر، فإذا اعترضني قطّاع طريق، فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم فلا شيء فيه.

لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شكّ أنّه من الشّرك، فإذا علّقت قلبك، ورجاءك، وخوفك، وجميع أمورك بشخص معيّن، وجعلته ملجأً فهذا شرك، لأنَّ هذا لا يكون إلّا لله.

وعـلى هذا فكـلام الشيخ، رحمه الله، في قوله: إنَّ الأئمة لا يجوِّزون الاستعـاذة بمخلوق مقيَّد بما لا يقدر عليه إلّا الله، ولولا أنَّ النصوص وردت به لأخذنا الكلام على إطلاقه، وقلنا لا يجوز الاستعاذة بغير الله مطلقًا.

---

(١) من حديث أم سلمة، رواه مسلم، كتاب الفتن/ باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت ٤/٢٢٠٨.

فيه مسائل : الأولى: تفسير آية الجن. **الثانية**: كونه من الشرك. **الثالثة**: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك. **الرابعة**: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره. **الخامسة**: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك.

فيه المسائل:

الأولى: تفسير آية الجن، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: كونه من الشرك: أي الاستعاذة بغير الله.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأنَّ العلماء يستدلّون به على أنَّ كلمات الله غير مخلوقة، لأنَّ الاستعاذة بالمخلوق شرك.

وجه الاستشهاد: أنَّ الاستعاذة بكلمات الله لا تخرج عن كونها استعاذة بالله، لأنَّها صفة من صفاته.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره: أي: فائدته، وهي أنَّه لا يضرك شيء ما دمت في هذا المنزل.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كفّ شرّ أو جلب نفع لا يدل على أنَّه ليس من الشرك.

ومعنى كلامه: أنَّه قد يكون الشيء من الشرك، ولو حصل لك فيه منفعة، فلا يلزم من حصول النفع أن ينتفي الشرك، فالإنسان قد ينتفع بما هو شرك.

مثال ذلك: الجن، فقد يعيذونك، وهذا شرك مع أنَّ فيه منفعة.

مثال آخر: قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالاً، وقصورًا، وهذا شرك مع أنَّ فيه منفعة، ومن ذلك ما يحصل لغلاة المداحين لملوكهم، لأجل العطاء،

. . . .

فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مشركين.

قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لا نظير له ... وكيف شئت فما خلق يدانيك

وفي الحديث فائدة وهي: أن الشّرع لا يبطل أمرًا من أمور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه، ففي الجاهليّة كانوا يستعيذون بالجنّ، فأبدل بهذه الكلمات، وهي: أن يستعيذ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق.

وهذه الطريقة هي الطريقة السليمة التي ينبغي أن يكون عليها الداعية أنّه إذا سدّ عن الناس باب الشرّ وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول حرام ويسكت، بل يقول هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بدلاً عنه، وهذا له أمثلة في القرآن، والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا، وقولوا انظرنا**﴾[1].

ومن السنة قوله، ﷺ، لمن نهاه عن بيع الصّاع من التمر الطيّب بالصاعين، والصاعين بالثلاثة: «**بع الجمع بالدراهم، واشتر بالدراهم جنيبًا**»[2].

فلما منعه من المحذور فتح له الباب السليم الذي لا محذور فيه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، رواه البخاري، كتاب البيوع / باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه ٢/١١٣، ومسلم، كتاب المساقاة/ باب بيع الطعام مثلاً بمثل ٣/١٢١٥.



بـــاب
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

قوله: «**من الشرك**» من للتبعيض، فيدلّ على أنَّ الشرك ليس مختصًّا بهذا الأمر.

والاستغاثة: طلب الغوث، وهو إزالة الشدّة، ومنه قول العامّة: عن الاستغاثة استغياثة، فيأتون بياء أيضًا.

وكلام المؤلف، رحمه الله، ليس على إطلاقه، لأنَّ طلب الاستغاثة ممن يقدر على إزالة الشدة ليس من الشرك قال الله تعالى: ﴿**فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه**﴾[1].

ولكن إذا كان لا يقدر عليه إلّا الله فهو شرك.

وإذا طلبت من أحد الغوث، وهو قادر عليه فإنّه يجب عليك تصحيحًا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرّد سبب، وأنّه لا تأثير له مباشر في إزالة الغوث؛ لأنَّك ربما تعتمد عليه وتنسى خالق السبب، وهذا قادح في كمال التوحيد.

قوله: «**أو يدعو غيره**» الدعاء من العبادة قال الله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾[2] عبادتي أي: دعائي.

وقال، ﷺ: «**إنَّ الدعاء هو العبادة**»[3].

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٥. (٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) رواه أحمد في المسند ٤/٢٦٧، والترمذي، الدعوات/ باب الدعاء مخ العبادة ٩/٩٢ وقال: «حديث حسن صحيح» وأبو داود، كتاب الصلاة/ باب الدعاء ٢/١٦١، وابن ماجه، كتاب الدعاء/ باب فضل الدعاء ٢/١٢٥٨، والحاكم ١/٤٩٠ وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في الصغير ٢/٩٧، وقال ابن حجر في الفتح ١/٤٩: «إسناده جيد».

. . . .

والدعاء ينقسم إلى قسمين:

١ - ما يقع عبادة، وهذا صرفه لغير الله شرك، وهو المقرون بالرّهبة والرغبة والحب، والتضرّع.

٢ - ما لا يقع عبادة فهذا يجوز أن يوجه إلى المخلوق قال النبي ﷺ: «**من دعاكم فأجيبوه**»(١). وقال: «**إذا دعاك فأجبه**»(٢).

قوله: «**أن يستغيث**» أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ، وخبرها من الشرك، والتقدير: من الشرك الاستغاثة بغير الله.

والمبتدأ يكون صريحًا، ومؤولاً.

فالمبتدأ الصريح مثل: زيد قائم، والمؤول مثل: ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾(٣).

وقوله: «**باب من الشرك أن يستغيث بغير الله**» هذا ليس على إطلاقه ولكن يجب أن يقيّد فيما لا يقدر عليه المستغاث به إمّا لكونه ميّتًا، أو لكونه غائبًا، أو لكون الأمر مما لا يقدر عليه إلا الله، فأنت إذا استغثت بحي لإنزال المطر فهو شرك، وإن استغثت بميّت ليدافع عنك فهو شرك.

قوله: «**أو يدعو غيره**» أي من الشرك أيضًا أن يدعو غير الله؛ لأنَّ الدعاء عبادة لا يكون إلا مع محبة وتعظيم وافتقار وتذلّل، واعتقاد أن المدعو قادر ولهذا جاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «**إنَّ الدعاء هو العبادة**»(٤). وفي القرآن قال الله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنَّ الذين يستكبرون عن**

---

(١) ص (١١٧).

(٢) سبق ص (١٥٤).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(٤) سبق ص (٢٦١).

وقول الله تعالى: ﴿ ولا تَدْعُ مِنْ دُونِ الله ما لا يَنْفَعُكَ ولا يَضرُّك فإنْ فَعَلْتَ فإنَّكَ إذًا مِن الظَّالمين﴾[1].

عبادتي﴾[2] ولم يقل يستكبرون عن دعائي، بل قال عن عبادتي، وهذا دليل على أن الدعاء عبادة.

وقوله: «أو يدعو» هذا من باب عطف العام على الخاص، لأنَّ الاستغاثة دعاء بإزالة الشدة فقط، والدعاء عام فقد تدعو بجلب منفعةٍ، أو بدفع مضرة.

وقوله: «أو يدعو غيره» هل نقول في الدعاء كما قلنا في الاستغاثة أو لا؟.

الجواب: لا نقول ذلك، لأنَّ الدعاء كله عبادة، فالدعاء معنى خاص في الهيئة والكيفية، ويكون معه حب المدعو وتعظيمه، والرغبة إليه، وإظاهر الافتقار، واعتقاد قدرته، وإجابته على الإعطاء بخلاف المستغيث، فقد تستغيث بإنسان بدون أن يكون بقلبك محبة له، وتعظيم.

فإن قيل: هل يجوز أن تقول لشخص أعطني نقوداً أستعين بها على سفري؟

أجيب: بأنه جائز، وهذا من باب الاستعانة، وأنت لا تدعوه راغبًا، وراهبًا كما تدعو الله.

وأما قوله ﷺ: «وإذا دعاك فأجبه»[3] فهذا الدعاء ليس المراد هنا، بل المراد إذا دعاك لوليمة أو نحو ذلك أي طلب حضورك فأجبه، ففرِّق بين الدعاء الذي يقع عبادة، وبين مثل هذه الأمور التي يُقصد بها الاستعانة، ومجرَّد حضور المدعو، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿ولا تدع من دون الله﴾ ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول،

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) سبق ص (١٥٤).

. . . .

ﷺ، وسواء كان خاصًّا به، أو عامًّا له ولغيره، فإنَّ بعض العلماء قال: لا يصح أن يكون للرسول ﷺ لأنَّ الرسول، ﷺ، يستحيل أن يقع منه ذلك، والآية على تقدير قل، وهذا ضعيف جدًّا، وإخراج للآيات عن سياقها.

والصواب: أنَّه إمّا خاص بالرسول، ﷺ، والحكم له ولغيره، وإمّا كل من يصح خطابه، ويدخل فيه الرسول ﷺ.

وكونه يوجّه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ممكنًا منه، قال تعالى: ﴿**ولقد أوحي إليك، وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنَّ عملك، ولتكوننَّ من الخاسرين**﴾[1]. فالخطاب له ولجميع الرسل، ولا يمكن أن يقع منه باعتبار حاله لا باعتبار كونه إنسانًا وبشرًا.

إذًا فالحكمة من النَّهي أن يكون غيره متأسّيًا به، فإذا كان النَّهي موجَّهًا إلى من لا يمكن منه باعتبار حاله، فهو إلى من يمكن منه من باب أولى.

وقوله: ﴿**ولا تدع من دون الله**﴾ الدعاء طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر، وهو نوعان كما قال أهل العلم:

الأول: دعاء عبادة وهو أن يكون قائمًا بأمر الله، لأنَّ القائم بأمر الله كالمصلي، والصائم، والمزكّي، يريد بذلك الثواب والنجاة من العقاب، إذًا ففعله متضمِّن للدعاء بلسان الحال، وقد يصحب فعله هذا دعاء بلسان المقال.

الثاني: دعاء مسألة: وهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضره.

وكلاهما لا يجوز صرفه لغير الله.

قوله: ﴿**من دون الله**﴾ أي سوى الله.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

. . . .

قوله: ﴿**ما لا ينفعك ولا يضرك**﴾.

ما لا ينفعك: أي ما لا يجلب لك النفع لو عبدته.

ولا يضرك: قيل: لا يدفع عنك الضرّ، وقيل: لو تركت عبادته لا يضرّك؛ لأنَّه لا يستطيع الانتقام، وهو الظاهر من اللفظ.

وقوله: ﴿**ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرّك**﴾ أي لأنَّه لا ينفعك ولا يضرّك، وهذا القيد ليس شرطًا بحيث يكون له مفهوم، فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضرّك؛ لأنَّ هذا ليس بموجود قال الله تعالى: ﴿**ومن أضلّ ممَّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾[1].

ومن القيد الذي ليس بشرط قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم**﴾[2].

فإن قوله: ﴿**الذين من قبلكم**﴾ قيل: لبيان الواقع، إذ ليس هناك ربّ ثان لم يخلقنا والذين من قبلنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وربائبكم اللائي في حجوركم**﴾[3] فهذا بيان للواقع الأغلب.

ومنه قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾[4]. فهذا بيان للواقع، إذ دعاء الرسول، ﷺ، إيّانا كله لما يحيينا.

---

(١) سورة الأحقاف، الآيتان: ٥ - ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

. . . .

وكل قيد يُراد به بيان الواقع فإنَّه كالتَّعليل للحكم فمثلاً قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم**﴾[1] أي لأنَّه خلقكم.

وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ أي لأنَّه لا يدعوكم إلا لما يحييكم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك**﴾ أي لأنَّـه لا ينفعك ولا يضرك، فعلى هذا لا يكون هذا القيد شرطًا، وهذه يسمّيها بعض الناس صفة كاشفة.

بحيث لا يكون له مفهوم بأن تدعو من ينفعك، ومن يضرّك، لأنَّ هذا أمر ليس بموجود.

قوله: ﴿**فإن فعلت فإنَّك إذاً من الظالمين**﴾ أي: إن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك.

والخطاب للرسول ﷺ.

و«إن» شرطية، وجواب الشرط جملة «فإنَّك إذًا».

و«إذًا» أي: حال فعلك من الظالمين، وهو قيد؛ لأنَّ «إذًا» للظرف الحاضر أي فإنَّك حال فعله من الظالمين لكن قد تتوب منه فيزول عنك وصف الظلم، فالإنسان قبل الفعل ليس بظالم وبعد التوبة ليس بظالم، لكن حين فعل المعصية يكون ظالمًا، قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[2] فنفى الإيمان عنه حال الفعل.

ونـوع الـظلم هنـا ظلم شرك، قال الله تعـالى: ﴿**إنَّ الشرك لظلم**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سبق ص (٧٤).

عظيم﴾[1] . وعبّر الله بقوله من الظالمين، ولم يقل من المشركين لأجل أن يبيِّن أنَّ الشرك ظلم ؛ لأنَّ كون الداعي لغير الله مشركًا أمر بيِّن، لكن كونه ظالمًا قد لا يكون بيِّنًا من الآية .

قوله : **﴿يمسسك﴾** أي : يصيبك بضرٍّ كالمرض، والفقر ونحوه .

قوله : **﴿فلا كاشف له إلا هو﴾** «لا» : نافية للجنس .

واسمها : «كاشف» . وخبرها : «له» و«إلا هو» بدل، وإن قلنا : بجواز كون خبرها معرفة صار «هو» الخبر .

أي ما أحد يكشفه أبدًا إذا مسَّك الله بضرٍّ إلّا الله ، وهذا كقول النبي ، ﷺ : **«واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله لك»**[2] .

قوله : **﴿وإن يُردك بخير﴾** هنا قال : «يردك» وفي الضرّ قال : «يمسسك» فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟

الجواب : هناك فرق معنوي ، وهو أن الأشياء المكروهة لا تنسب إلى إرادة الله ، بل تنسب إلى فعله قال تعالى : **﴿وأنّا لا ندري أشرٌّ أُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا﴾**[3] .

فالمس من فعل الله ، والضرّ من مفعولاته ، فالله لا يريد الضر لذاته ، بل يريده لغيره لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكم البالغة وفي

---

(1) سورة لقمان، الآية : ١٣ .

(2) من حديث ابن عباس رواه أحمد في المسند ١/٢٩٣ ، ٣٠٧ ، والترمذي أبواب صفة القيامة، باب وليكن يا حنظلة ساعة وساعة ٧/٢٠٣ ، وقال : «حديث حسن صحيح» .

(3) سورة الجن، الآية : ١٠ .

. . . .

الحديث القدسي: «**إن من عبادي من لو أغنيته أفسده الغنى**»[1].

أمّا الخير فهو مراد لله لذاته، ومفعول له، ويقرب من هذا ما في سورة الجن: ﴿**وأنّا لا ندري أشرٌّ أُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا**﴾.

فإذا أصيب الإنسان بمرض فالله لم يرد به الضرر، بل أراد المرض وهو يضره، لكن لم يرد ضرره، بل أراد خيراً من وراء ذلك، وقد تكون الحكمة ظاهرة في نفس المصاب، وقد تكون ظاهرة في غيره كما قال تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أنَّ الله شديد العقاب**﴾[2].

فالمهمّ أنَّه ليس لنا أن نتحجَّر حكمة الله، لأنَّها أوسع من عقولنا، لكننا نعلم علم اليقين أنَّ الله لا يريد الضرر لأنَّه ضرر، فالضرر عند الله ليس مراداً لذاته، بل لغيره، ولا يترتَّب عليه إلاّ الخير، أمَّا الخير فهو مراد لذاته، ومفعول له، والله أعلم بما أراد بكلامه لكن هذا الذي يتبينَّ لي.

قوله: ﴿**فلا رادَّ لفضله**﴾ أي لا يستطيع أحد أن يرد فضل الله أبدًا، ولو اجتمعت الأمَّة على ذلك، وفي الحديث: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت**»[3].

وعليه فنعتمد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أنَّ الأمَّة مهما بلغت من المكر والكيد والحيل لتمنع فضل الله، فإنَّها لا تستطيع.

قوله: ﴿**يصيب به من يشاء**﴾ الضمير إمّا أن يعود إلى الفضل لأنَّه

---

(١) من حديث أنس رواه الطبراني.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٣) من حديث المغيرة بن شعبة، كتاب الأذان/ باب الذكر بعد الصلاة ١/ ٢٧٠، ومسلم، كتاب المساجد/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة ١/ ٤١٤.

أقرب، أو إلى الخير لأنَّه هو الذي يتحدّث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.

قوله: ﴿من يشاء﴾ كل فعل مقيّد بالمشيئة، فإنَّه مقيد بالحكمة؛ لأنَّ مشيئة الله ليست مجردة يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط؛ لأنَّ من صفات الله الحكمـة، ومن أسمائه الحكيم قال الله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلَّا أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا﴾[2].

قوله: ﴿من عباده﴾ العبودية هنا عامّة، لأنَّ قوله: «بخير» يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفَّار.

قولـه: ﴿وهـو الغفـور الرحيم﴾ أي ذو المغفرة، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر، وهو ما يُتَّقى به السِّهام، والمغفر فيه ستر، ووقاية.

والـرحيم: أي ذو الـرحمـة، وهي صفـة تليق بالله عز وجل، تقتضي الإحسان والإنعام.

الشاهد قوله: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك﴾ فقد نبه الله نبيه أن من يدعو من دون الله، أي من سواه، لا ينفعه ولا يضرّه.

قوله: ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾.

لو أتى المؤلف بأول الآية: ﴿إنَّ الذين تعبدون من دون الله﴾.

قوله في أول الآية: ﴿لا يملكون لكم رزقًا﴾ فهم يعبدون هذه الأوثان من شجر وحجر وغيرها، وهي لا تملك لهم رزقًا أبدًا، لو دعوها إلى يوم القيامة ما أحضرت لهم ولا حبَّة برٍّ، ولا دفعت عنهم أدنى مرض أو فقر، فإذا كانت لا

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

. . . .

تملك الرزق فالذي يملكه هو الله، ولهذا قال: ﴿**فابتغوا عند الله الرزق**﴾ أي اطلبوا عند الله الرزق لأنَّه سبحانه هو الذي لا ينقضي ما عنده ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**﴾[1].

قوله: ﴿**فابتغوا عند الله الرزق**﴾ عند الله: حال من الرزق، وقدَّم الحال مع أنَّ موضعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصر إذ إنَّ تقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر، أي فابتغوا الرزق حال كونه عند الله لا عند غيره.

قوله: ﴿**واعبدوه**﴾ أي تذلَّلوا له بالطَّاعة، لأنَّ العبادة مأخوذة من التعبيد وهو التذليل، ومنه قولهم: طريق معبَّد أي مذلَّل للسالكين، قد أزيل عنه الأحجار والأشجار المؤذية، لأنَّكم إذا تذلَّلتم له بالطاعة فهو من أسباب الرزق.

قال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾[2] فأمر أن نطلب الرزق عنده ثم أعقبه بقوله: ﴿**واعبدوه**﴾ إشارة إلى أنَّ تحقيق العبادة من طلب الرزق؛ لأنَّ العابد مادام يؤمن أن من يتقي الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب فعبادته تتضمَّن الطلب بلسان الحال بالرِّزق.

قوله: ﴿**واشكروا له**﴾ إذا أضاف الله الشكر له، فإنَّه يتعدَّى باللام، والحكمة أنَّ الشكر لم يتعدّ بنفسه إشارة إلى الإخلاص أي واشكروا نعمة الله لله، فشكر النعمة أن يكون مخلصًا بذلك الشكر لله عز وجل، فاللام هنا لإفادة الإخلاص، لأنَّ الشاكر قد يشكر لله عز وجل، ولكن لبقاء النعمة، وهذا لا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.

. . . .

بأس به، ولكن كونه يشكر لله، ويأتي إرادة بقاء النعمة تبعًا هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسَّروه بأنَّه: طاعة المنعم، وقالوا: إنَّه يكون في ثلاثة مواضع:

١ ـ في القلب: وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمة من الله فيرى لله فضلاً عليه بها قال تعالى: **﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾**[1]. وأعظم نعمة هي نعمة الإسلام. قال تعالى: **﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته﴾**[3].

٢ ـ اللسان: وهو أن يتحدَّث بها على وجه الثناء على الله والاعتراف، وعدم الجحود، لا على سبيل الفخر والخيلاء والترفّع على عباد الله، فيتحدَّث بالغنى لا ليكسر خاطر الفقير، بل لأجل الثناء على الله، وهذا جائز كما في قصة الأعمى من بني إسرائيل لما ذكرهم الملك بنعمة الله قال: «نعم كنت أعمى فردَّ الله عليَّ بصري، وكنت فقيراً فأعطاني الله المال»[4] فهذا من باب التحدُّث بنعمة الله.

والنبي، ﷺ، تحدَّث بنعمة الله عليه بالسِّيادة المطلقة فقال: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»**[3].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٤) **يأتي في باب ماجاء في قول الله تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا...﴾.**

(٥) من حديث أبي هريرة، رواه مسلم، كتاب الفضائل/ باب تفضيل النبي، ﷺ، على جميع الخلائق ٤/١٧٨٢.

وقوله ﴿ ومَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِن دون الله من لا يَسْتجيبُ لَهُ إلى يوْمِ القِيامَة ﴾[1]. الآية.

---

٣ - الجوارح: وهو أن يستعملها بطاعة المنعم، وعلى حسب ما يختصّ بهذه النعمة.

فمثلاً: شكر الله على نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلّمه الناس.

وشكر الله على نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله وتنفع الناس منه.

وشكـر الله على نعمـة الطعام: أن تستعمله فيما خلق له، وهو تغذية البدن، فلا تبني من العجين قصرًا مثلاً، فهو لم يخلق لهذا الشيء.

قوله: ﴿**وإليه ترجعون**﴾ الجار والمجرور متعلّق بترجعون، وتقديمه يدلّ على الحصر، أي أنَّ رجوعنا إلى الله سبحانه، وهو الذي سيحاسبنا على ما حمّلنا إيَّاه من الأمر بالعبادة، والأمر بالشُّكر، وطلب الرزق منه.

الشاهد من هذه الآية: ﴿**إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقـًا فابتغوا عند الله الـرِّزق**﴾[2] فالفقير يستغيث بالله لكي ينجيه من هذا الفقر، والله هو الذي يتسحقّ الشُّكر، وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الرزق فكيف تستغيث بها؟!

قولـه: ﴿**ومن أضـل**﴾ من: اسم استفهـام مبتـدأ، وأضـلّ خبره، والاستفهام يُراد به هنا النَّفي أي لا أحد أضلّ.

وأضلّ: اسم تفضيل أي لا أحد أضلّ من هذا.

والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح.

وإذا كان الاستفهام مرادًا به النَّفي كان أبلغ من النَّفي المجرَّد لأنَّه يحوِّله

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

. . . .

من نفي إلى تحدٍّ، أي بيِّن لي عن أحـد أضـلّ ممن يدعو من دون الله؟ فهو متضمِّن للتحدّي، وهو أبلغ من قوله: «لا أضل ممن يدعو» لأنَّ هذا نفي مجرّد، وذاك نفي مشرب معنى التحدّي.

قولـه: ﴿ممن يدعو﴾ متعلّق بأضل، ويُراد بالدعاء هنا دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

قوله: ﴿من دون الله﴾ أي سواه.

قوله: ﴿من لا يستجيب له﴾ من: مفعول يدعو أي لو بقي كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب له قال الله تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾[1]. والخبر هنا عن الله تعالى قال تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾[2] يعني نفسه سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿من لا يستجيب﴾ أتى «بمن» وهي للعاقل مع أنَّهم يعبدون الأصنام، والأحجار، والأشجار، وهي غير عاقلة لكنَّهم لما عبدوها نزلوها منزلة العاقل فخوطبوا بمقتضى ما يدعون، لأنَّه أبلغ في إقامة الحجة عليهم في أنَّهم يدعون من يرونهم عقلاء، ومع ذلك لا يستجيبون لهم، وهذا من بلاغة القرآن لأنَّه خاطبهم بما تقتضيه حالهم ليقيم الحجة عليهم، إذ لو قيل: ما لا يستجيب له لقالوا لنا عذر في عدم الاستجابة لأنَّهم غير عقلاء.

قولـه: ﴿وهم عن دعائهم﴾ الضمير في قوله: «هم» يعود على «من» باعتبار المعنى، لأنَّهم جماعة، وضمير يستجيب يعود على «من» باعتبار اللفظ، لأنَّه مفرد، فأفرد الضمير باعتبار لفظ من، وجمعه باعتبار المعنى، لأنَّ من تعود

---

(١) (٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.

. . . .

على الأصنام وهي جماعة، و«من» قد يُراعى لفظها ومعناها في كلام واحد.

ومنه قوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا قد أحسن الله له رزقًا﴾[1]. فهنا راعى اللفظ، ثم المعنى، ثم اللفظ.

قوله: ﴿عن دعائهم﴾ الضمير في دعائهم يعود إلى المدعوين، وهل المعنى: «وهم» أي: الأصنام «عن دعائهم» أي دعاء الدَّاعين إيَّاهم فيكون من باب إضافة المصدر إلى مفعوله؟

أو المعنى: «وهم» عن «دعاء» العابدين لهم، فيكون مفعول «دعاء» محذوفًا ويكون «دعاء» مضافًا إلى فاعله، وكلا المعنيين جائز.

والأول أبلغ أي عن دعاء العابدين إيّاهم، أبلغ من دعاء العابدين على سبيل الإطلاق؛ لأنَّ قوله: «عن دعائهم» لابدّ أن نُقدّر المدعو محذوفًا، فإذا قلت: «عن دعائهم» أي عن دعاء العابدين إيَّاهم، وجعلت الضمير هنا يعود على المدعو، صار المعنى أنَّ هذه الأصنام غافلة عن دعوة هؤلاء إيَّاهم، ويكون هذا أبلغ في أنَّ هذه الأصنام لا تفيدهم شيئًا في الدنيا وفي الآخرة إن كانوا من الكفار المغلو فيهم فهم غافلون في عذاب، وإلَّا فهم غافلون في نعيم.

قوله: ﴿وإذا حشر الناس﴾ أي يوم القيامة.

قوله: ﴿كانوا لهم أعداء﴾ هل المعنى كان العابدون للمعبودين أعداء؟

أو كان المعبودون للعابدين أعداء؟ الجواب: يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن، سبحان الله العظيم.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١١.

وقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[1].

حتى الملائكة يقولون: ﴿سبحانك ما كان ينبغي أن نتخذ من دونك من أولياء﴾[2].

الشـاهد: قوله: ﴿من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ فإذا كان من سوى الله لا يستجيب إلى يوم القيامة فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله؟ فبطل تعلّق هؤلاء العابدين بمعبوداتهم.

فالـذي يأتي للبدوي أو للدسوقي، في مصر، فيقول المدد، المدد، أو أغثني لا يغني عنه شيئًا، بل قد يبتلى فيصاب بالقدر عند حصول هذا الشيء لا بهذا الشيء، وفرق بين من يأتي بالشيء، ومن يأتي عند الشيء.

مثال ذلك: امرأة دعت البدوي أن تحمل، فلما جامعها زوجها في الليل حملت، وكانت بالأول لا تحمل فنقول هنا: إنَّ الحمل لم يحصل بالدعاء وإنَّما حصل عنده لقوله تعالى: ﴿من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾.

أو يأتي للجيلاني في العراق، أو ابن عربي في سوريا فهي لا تنفع ولو بقي الواحد منهم إلى يوم القيامة يدعو ما أجابه أحد.

والعجب أنَّهم في العـراق يقـولون: عندنا الحسين، وفي مصر يقولون ذلك، وفي سوريا يقولون ذلك، فسبحان من جزأ الواحد إلى ثلاثة، وهذا سفه في العقول، وسفه في الدين، والعامة قد لا يُلامون في الواقع لكن الذي يُلامَ من عنده علم من العلماء، ومن غير العلماء وأيضًا من عنده فطرة سليمة؛ لأنَّ هذا لا يحتاج إلى دراسة.

قوله: ﴿أمن﴾ أم: منقطعة، والفرق بين المنقطعة والمتَّصلة ما يلي:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١٨. (٢) سورة النمل، الآية: ٦٢.

. . . .

---

١ ـ المنقطعة بمعنى بل، والمتصلة بمعنى أو.

٢ ـ المتصلة لابد فيها من ذكر المعادل، والمنقطعة لا يشترط فيها ذكر المعادل.

مثـال ذلك: أعندك زيد أم عمرو؟ فهذه متصلة، وقوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾(١) متصلة، وقوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر﴾ منقطعة لأنَّه لم يذكر لها معادلاً فهي بمعنى بل والهمزة.

قوله: ﴿المضطر﴾ أصلها: المضتر أي الذي أصابه الضرر قال تعالى: ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنّي مسني الضرّ وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له﴾ فلا يجيب المضـطر إلا الله، لكن قيّده بقـوله: ﴿إذا دعاه﴾ أمّا إذا لم يدعه فقد يكشف الله ضرّه، وقد لا يكشفه.

قوله: ﴿ويكشف السّوء﴾ أي يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة لأنَّ الإنسان قد يُساء بما لا يضرّه لكن كل ضرورة سوء.

هل هي متعلّقة بما قبلها في المعنى، وأنَّه إذا أجابه كشف سوءه، أو هي مستقلّة يجيب المضطر إذا دعاه ثمَّ أمر آخر يكشف السوء؟

الجواب: المعنى الأخير أعمّ لأنها تشمل كشف سوء المضطر وغيره، وعلى التقدير الأول تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنَّه كلما كان المعنى أعمّ كان أولى، ويؤيّد العموم قوله: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾.

قوله: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عبـاد الله الصالحون، قال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذِّكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

روَى الطبرانيُّ بإسناده[1]: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافقٌ يُؤذِي المؤمنين، فقال بعضُهم: قوموا بنا نسْتغيثُ برسول الله ﷺ من هذا المنافق،

وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرضِ كما استخلف الذين من قبلهم وليمكِّننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا﴾[2].

قوله: ﴿**أءله مع الله**﴾؟ الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفي وهما متقاربان أي هل أحد مع الله يفعل ذلك؟!

الجواب: لا، وإذا كان كذلك فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، فالواجب على العبد أن يوجّه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل سوءه وهو لا يستطيع.

إشكال وجوابه:

وهو أنَّ الإنسان المضطر يسأل غير الله، ويُستجاب له، كمن اضطرّ إلى طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه، فهل يجوز أم لا؟

الجواب: أنَّ هذا جائز لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرَّد سبب لا أنَّه مستقل، فالله جعل لكل شيء سببًا، فيمكن أن يصرف الله قلبه فلا يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يُيسِّره الله ويُعطيك.

قوله: «**بإسناده**» يشير إلى أنَّ هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، أو

---

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد ١٠/١٥٩ عن عبادة بن الصامت، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث». ورواه أحمد في المسند ٥/٣١٧، وابن سعد في الطبقات ١/٣٨٧ عن عبادة بلفظ: «إنه لا يقام لي بل يقام لله تبارك وتعالى» وفيه ابن لهيعة، ورجل لم يسم، انظر المجمع ٨/٤٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

فقال النبيُّ ﷺ : «إنه لا يُستغاثُ بي، وإنما يُسْتغاثُ بالله».

المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه فيجب أن يُراجع هذا الإسناد، فليس كل إسناد محدّث قد تمت فيه شروط القبول.

وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: «أن رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلّط في آخر عمره لاحتراق كتبه». ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت، رضي الله عنه.

قوله: «**في زمن النبي**» كان الكافر أولاً يعلن كفره ولا يُبالي، ولما قوي المسلمون بعد غزوة بدر خاف الكفَّار فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

قوله: «**منافق**» المنافق: هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهؤلاء ظهروا بعد غزوة بدر.

لم يسم ويحتمل أنه عبدالله بن أبيّ؛ لأنَّه مشهور بإيذاء المسلمين، ويُحتمل غيره.

واعلم أن أذيَّة المسلمين ليست بالضَّرب أو القتل؛ لأنَّهم يتظاهرون بمحبة المسلمين، ولكن بالقول والتعريض كما صنعوا في قصة الإفك.

قوله: «**فقال بعضهم**» أي الصَّحابة.

قوله: «**نستغيث**» أي نطلب الغوث وهو إزالة الشدّة.

قوله: «**من هذا المنافق**» إمَّا بزجره، أو تعزيره، أو بما يناسب المقام.

وفي الحديث إيجاز حذف دلّ عليه السياق، أي فقاموا إلى رسول الله فقالوا: يا رسول الله: إنَّا نستغيث بك من هذا المنافق.

قوله: «**إنَّه لا يُستغاث بي**» ظاهر هذه الجملة النفي مطلقًا، ويحتمل أنَّه لا يُستغاث بي في هذه القصة المعيّنة.

فعلى الأول: يكون نفي الاستغاثة من باب التأدُّب في اللفظ، وليس من

. . . .

باب الممنوع معنى ؛ لأن نفي الاستغاثة بالرسول، ﷺ، ليس على إطلاقه، بل تجوز فيما يقدر عليه.

أمَّا إذا قلنا: إنَّ النفي عائد على القضيّة المعيّنة التي استغاثوا بالنبي، ﷺ، منها فإنَّه يكون على الحقيقة، أي على نفي المعنى، أي لا يُستغاث بي في مثل هذه الصورة، لأنَّ النبي، ﷺ، كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنافقين أن ينتقم من هذا المنافق انتقامًا ظاهرًا، إذ إن المنافقين يستترون.

ولكن المعنى الأول أظهر في اللفظ، فيكون النبي، ﷺ، علمهم اللجوء إلى الله تعالى في الأمور لما يلي:

١ ـ لعموم النفي في قوله: «**لا يُستغاث بي**» وهذا عام في هذه القضيّة وغيرها.

٢ ـ أن قوله: «**إنَّما يُستغاث بالله**» ظاهره أنَّ المراد العموم.

وعليه فيكون من باب التأدُّب في الألفاظ على أنه أيضًا لا يُستغاث بالنسبة للتخلّص من المنافق إلاّ بالله، لأنَّ الحاكم لا يستطيع أن يحكم بخلاف ظاهر حاله، فيلجأ إلى الله في هذا الأمر الخفيّ.

والمؤلف ساقه لبيان أنَّه لا يُستغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه المستَغَاث به، وإنَّما يُستغاث بالله.

فقوله تعالى عن موسى: ﴿**فاستغاثه الذي من شيعته**﴾[1] تحمل على ما يقدر عليه موسى، وهذا لا ينافي التوحيد.

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٥.

فيه مسائل : **الأولى** : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص . **الثانية** : تفسير قوله : **﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك﴾** . **الثالثة** : أن هذا هو الشرك الأكبر.

فيه مسائل :

الأولى : أنَّ عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص :

حيث قال في الترجمة : باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره .

إذ الاستغاثة نوع من الدعاء ، والدعاء أعمّ فهو من باب عطف العام على الخاص ، وهذا سائغ في اللغة العربية ، فهو كقوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم﴾**[1] .

الثانية : تفسير قوله : **﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾** .

الخطاب في هذه الآية للنبي ، ﷺ ، خاصة ، بدليل الآيات التي قبلها قال تعالى : **﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفًا ولا تكونن من المشركين﴾**[2] .

فإن قيل : كيف ينهاه الله عن أمر لا يمكن أن يقع منه شرعًا؟

أجيب : أنَّ الغرض هو التنديد بمن فعل ذلك ، كأنه يقول : لا تسلك هذا الطريق التي سلكها أهل الضلال ، وإن كان الرسول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعًا .

الثالثة : أنَّ هذا هو الشرك الأكبر:

يُؤخذ من قوله تعالى : **﴿فإن فعلت فإنَّك إذًا من الظالمين﴾** مضافًا إلى قوله تعالى : **﴿إنَّ الشرك لظلم عظيم﴾**[3] .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٧٧ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ١٠٥ .

(٣) سورة لقمان ، الآية : ١٣ .

الـرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاءً لغيره صار من الظالمين. **الخامسة**: تفسير الآية التي بعدها. **السادسة**: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا. **السابعة**: تفسير الآية الثالثة. **الثامنة**: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره صار من الظالمين:

تؤخذ من عموم الآيات، والخطاب للرسول، ﷺ، وهو أصلح الناس، فمن فعـل ذلك إرضاءً لغيره صار من الظالمين حتى ولو فعله مجاملة لإنسان مشرك فدعا صاحب قبر إرضاءً لذلك المشرك فإنه يكون مشركًا، إذ لا تجوز المحاباة في دين الله.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها:

وهي قوله تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلّا هو**﴾[1] الآية، فإذا كان لا يكشف الضرّ إلّا الله وجب أن تكون الاستغاثة بالله عز وجل.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو**﴾ فلم ينتفع من دعائه هذا.

السابعة: تفسير الآية الثالثة:

وهي قوله تعالى: ﴿**فابتغوا عند الله الرزق**﴾.

وقوله: ﴿**عند الله**﴾ حال من الرزق، وعليه يكون الرزق عند الله وحده.

الثـامنة: أنَّ طلب الرزق لا ينبغي إلَّا من الله كما أنَّ الجنة لا تطلب إلَّا منه:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٧.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة. **العاشرة**: أنه لا أضل ممن دعا غير الله. **الحادية عشرة**: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه. **الثانية عشرة**: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له. **الثالثة عشرة**: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون**﴾ لأنَّ العبادة سبب لدخول الجنة، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿**إليه ترجعون**﴾.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة:

وهي قوله تعالى: ﴿**ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**﴾

العاشرة: أنَّه لا أضلّ ممن دعا غير الله:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**﴾ لأنَّ الاستفهام هنا بمعنى النفي.

الحادية عشرة: أنَّه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه:

لقوله تعالى: ﴿**وهم عن دعائهم غافلون**﴾.

وهم: أي المدعوون، عن دعائهم: أي دعاء الداعين.

أو عن دعاء الداعين إيَّاهم، فالاحتمال في الضمير الثاني وهو قوله: ﴿**عن دعائهم**﴾، أمَّا الضمير الأول فإنَّه يعود إلى المدعوين لا ريب.

الثانية عشرة: أنَّ تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة. **الخامسة عشرة**: هي سبب كونه أضل الناس. **السادسة عشرة**: تفسير الآية الخامسة. **السابعة عشرة**: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة:

معنى كفر المدعو: ردّه وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس:

وذلك لأمور هي:

١ ـ أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له.

٢ ـ أنَّ المدعوين غافلون عن دعائهم.

٣ ـ أنه كافر بعبادتهم.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة:

وهي قوله تعالى: **﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السُّوء﴾ وقد سبق ذلك.**

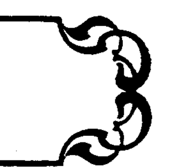
السابعة عشرة: الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنَّه لا يجيب المضطر إلاّ الله:

وهو كما قال، رحمه الله: وهذا موجود الآن فمن الناس من يسجد للأصنام التي صنعوها بأنفسهم تعظيمًا، فإذا وقعوا في الشدّة دعوا الله مخلصين له الدين، وكان عليهم أن يلجؤوا للأصنام لو كانت عبادتها حقًّا، إلاّ أن من المشركين اليوم من هو أشدّ شركًا من المشركين السابقين فإذا وقعوا في الشدة دعوا أولياءهم كعليّ والحسين، وإذا كان الأمر بسيطًا دعوا الله، وإذا حلفوا حلفًا لا

يحنثون به حلفوا بعليّ أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفًا يحنثون به حلفوا بالله.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى حمى التوحيد، والتأدب مع الله:

اختـار المؤلف: أنَّ قولـه: «**يستغـاث بي**» من باب التأدّب بالألفاظ، والبعد عن التعلّق بغير الله، وأن يكون تعلّق الإنسان دائمًا بالله وحده، فهو يُعلِّم الأمة أن تلجأ إلى الله وحده إذا وقعت في الشّدائد، ولا تستغيث إلاّ به وحده.



بـاب
قول الله تعالى

﴿أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شيئًا وَهُمْ يُخْلَقُون، ولا يستطيعون لهم نصرًا﴾[1]. الآية.

مناسبة الباب لما قبله:

لما ذكر، رحمه الله، الاستعاذة والاستغاثة بغير الله عز وجل، ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله، ولهذا جعل الترجمة لهذا الباب نفس الدليل[2].

قوله: ﴿أيشركون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

أي يشركونه بالله.

قوله: ﴿ما لا يخلق﴾ هنا عبَّر بـ «ما» دون «من» وفي قوله: **﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾**[3] عبَّر بـ «من».

والمناسبة ظاهرة لأنَّ الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أمَّا هنا.

فالمدعو: جماد؛ لأنَّ الذي لا يخلق شيئًا ولا يصنعه هذا جماد.

قوله: «شيئًا» نكرة في سياق النفي فتفيد العموم.

قوله: **﴿وهم يخلقون﴾**.

الربّ المعبود: لا يمكن أن يكون مخلوقًا بل هو الخالق، فلا يجوز عليه الحدوث، ولا الفناء.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩١، وصدر آية ١٩٢.

(٢) في القول السديد ص (٥٣): «هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ماليس لغيره».

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٥.

. . . .

والمخلوق: حادث والحادث يجوز عليه العدم، لأنَّ ما جاز انعدامه أولاً جاز انعدامه آخرًا.

فكيف يعبد هؤلاء من دون الله؟ إذ المخلوق هو بنفسه مفتقر إلى خالقه وهو حادث بعد أن لم يكن، فهو ناقص في افتقاره وفي وجوده.

إشكال وجوابه:

قوله: ﴿**ما لا يخلق**﴾ الضمير بالإفراد، وقوله: ﴿**وهم يخلقون**﴾ الضمير بالجمع:

أجيب: أن قوله: ﴿**ما لا يخلق**﴾ عاد الضمير على «ما» باعتبار اللفظ لأنَّ «ما» اسم موصول، لفظها مفرد لكن معناها الجمع، فهي صالحة بلفظها للمفرد، وبمعناها للجمع، كقوله: ﴿**من لا يستجيب له**﴾.

وقوله: ﴿**وهم يخلقون**﴾ عاد الضمير على «ما» باعتبار المعنى كقوله: ﴿**وهم عن دعائهم غافلون**﴾.

قولـه: ﴿**ولا يستطيعون لهم نصرًا**﴾ أي لا يقدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو، لأنَّ هؤلاء المعبودين قاصرون.

والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه.

قوله: ﴿**ولا أنفسهم ينصرون**﴾ بنصب أنفسهم على أنَّه مفعول مقدَّم، وليس من باب الاشتغال، لأنَّ العامل لم يشتغل بضمير.

أي زيادة على ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم، فبيَّن الله عجز هذه الأصنام، وأنَّها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه هي:

١ ـ أنَّها لا تخلق ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد.

٢ ـ أنَّهم مخلوقون من العدم فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداءً ودوامًا.

٣ ـ أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: ﴿**لا يستطيعون**﴾ أبلغ من

وقوله: ﴿والذين تَدْعون مِن دُونِهِ مايملِكون من قِطْمير﴾[1].

قولـه: «لا ينصرونهم» لأنَّـه إذا قال: «لا ينصرونهم» فقد يقول قائل: لكنهم يستـطيعون، لكن لما قال: «لا يستطيعون لهم نصرًا» كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤ ـ أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

قوله: ﴿والذين تدعون من دونه﴾ يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

ومن دون الله: أي سوى الله.

قوله: ﴿ما يملكون من قطمير﴾.

ما: نافية، من: حرف جر زائد لفظًا، وقيل: لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن، بل يُقال: من: حرف صلة، وهذا فيه نظر لأنَّ الحروف الزائدة لها معنى وهو التوكيد، وإنَّما يقال: زائد من حيث الإعراب.

وجملة «ما يملكون» خبر المبتدأ الذي هو «الذين».

وقوله: ﴿من قطمير﴾ القطمير: سلب نواة التمرة.

وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن:

القطمير: اللفافة الرقيقة التي عليها.

الفتيل: سلك يكون في الشق الذي في النواة.

النقير: هي النقرة التي تكون على ظهر النواة.

فهؤلاء لا يملكون من قطمير، فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملاً؟

أُجيب: أنَّه يملكه ولكنه ملك ناقص ليس حقيقيًا فلا يتصرّف فيه إلاّ على حسب ما جاء به الشَّرع، فلا يملك مثلاً إحراقه للنَّهي عن إضاعة المال.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٣.

. . . .

قوله: ﴿**إن تدعوهم**﴾ جملة شرطية.

تدعوا: فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، وأصلها: تدعونهم.

قوله: ﴿**لا يسمعوا دعاءكم**﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل.

قوله: ﴿**ولو سمعوا ما استجابوا لكم**﴾ أي: أنَّ هذه الأصنام لو دعوتموها ما سمعت، ولو فُرض أنَّها سمعت ما استجابت؛ لأنَّها لا تقدر على ذلك ولهذا قال إبراهيم، عليه السلام، لأبيه: ﴿**يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يُغني عنك شيئًا**﴾(١).

فإذا كانت كذلك فأي شيء يدعو إلى أن تدعى من دون الله؟!! بل هذا سفه قال تعالى: ﴿**ومن يرغب عن ملَّة إبراهيم إلَّا من سفه نفسه**﴾(٢).

قوله: ﴿**ويوم القيامة يكفرون بشرككم**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾(٣).

فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيرًا والمسيح.

وإن كانوا أحجارًا وأشجارًا ونحوها، فيحتمل أن نأخذ بظاهر الآية وهو أنَّ الله يُنْطِق هذه الأشياء فتكفر بشرك من يُشرك، ويدلّ له ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «**أنَّه عند بعث الناس يقال لكل أمة: لتتبع كل**

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٦.

. . . .

أمة ما كانت تعبد من دون الله»[1]، فالحجر يكون إمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم.

قوله: ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾[2] هذا مثال يُضرب لمن أخبر بخبر ورأى شكًّا عند من خاطبه به فيقول: ولا ينبئك مثل خبير.

ومعناه: أنَّه لا يُخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو الله؛ لأنَّه لا يعلم أحد ما يكـون في يوم القيامة إلاّ الله، وهو خبر صدق لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿**ومن أصدق من الله قيلاً**﴾[3].

والخبير: العالم ببواطن الأمور.

مسألة: هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلَّم عليهم؟

اختلف في ذلك على قولين:

القول الأول: أن الأموات لا يسمعون السلام، وأن قول الزائر للمقبرة: السلام عليكم دعاء لا يقصد به المخاطبة ثم على فرض أنَّهم يسمعون كما جاء في الحديث الذي صححه ابن عبد البر: «**بأن الإنسان إذا سلَّم على شخص يعرفه في الدنيا رد الله عليه روحه فردَّ السلام**»[4] على تقدير صحة هذا الحديث فإذا كانوا يسمعون السلام، فلا يلزم أن يسمعوا كل شيء، ثم لو فرض أنَّهم يسمعون غير السلام فإن الله صرَّح بأنَّهم لا يسمعون دعاء من يدعوهم، ولا

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه البخـاري، كتـاب الأذان/ باب فضل السجود ١/ ٢٦٠، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرؤية ١/ ١٦٧.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

(٤) الاستذكار لابن عبدالبر الجزء الأول/ باب جامع الوضوء.

وفي الصحيح عن أنس قال: «شُـجَّ النبيُّ ﷺ يوم أُحُـدٍ، وكُسِرتْ رباعِيَتُه.

يمكن أن نقول إنَّهم يسمعون دعاء من يدعوهم لأنَّ هذا كفر بالقرآن فتبينَّ بهذا أنَّه لا يمكن أن يُعارض قوله ﷺ: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**»(١) بوجه من الوجوه هذه الآية.

وأمَّا قوله: ﴿**ولو سمعوا**﴾ فمعناه لو سمعوا فرضًا ما استجابوا لكم، وآخر الآية لا يُبطل أوّلها.

القول الثاني: أن الأموات يسمعون.

واستدلوا على ذلك: بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة.

وبما ثبت في الصحيح من أنَّ المشيِّعين إذا انصرفوا سمع المشيَّع قرع نعالهم(٢).

والجواب عن هذين الدليلين: أمَّا الأول فإنَّه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلِّمون على النبي، ﷺ، في حياته في التشهد(٣)، وهو لا يسمعهم قطعًا.

وأمَّا الثاني: فهو وارد في وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدَّفن.

قوله: «**وفي الصحيح**» أي: في البخاري تعليقًا، ووصله مسلم، والنسائي، والترمذي، وأحمد.

---

(١) من حديث عائشة، رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب ما يُقال عند دخول القبور ٢/ ٦٦٩.

(٢) من حديث أنس، رواه البخاري، كتاب الجنائز/ باب الميت يسمع خفق النعال ١/ ٤١٠.

(٣) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب الاستئذان/ باب السلام اسم من أسماء الله تعالى ٤/ ١٣٦، ومسلم، كتاب الصلاة/ باب التشهد في الصلاة ١/ ٣٠١.

فقال: كيف يُفلحُ قومٌ شَجُّوا نبيهم؟ فنزلت: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾[1][2].

قوله: «أُحد» جبل معروف في الشمال من المدينة، ولا يُقال المنوَّرة، لأنَّ ذلك لم يكن معروفًا عند السلف، وكذلك جاء اسمها في القرآن بالمدينة فقط، وهذا الجبل حصلت فيه وقعة في السنة الثالثة من الهجرة في شوال هُزِمَ فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من مخالفة أمر النبي، ﷺ، كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون﴾[3]. وجواب الشرط محذوف تقديره: حصل لكم ما تكروهون.

وقد حصلت هزيمة المسلمين، لمعصية واحدة، ونحن الآن نريد الانتصار والمعاصي كثيرة عندنا، ولهذا لا يمكن أن نفرح بنصرٍ ما دمنا على هذه الحال، إلّا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعًا.

قوله: «شج» الشَّجَّة الجرح في الرأس والوجه خاصة.

قوله: «وكسرت رباعيته» السنّان المتوسطان يسمَّيان ثنايا، وما وراءهما يُسمَّى رباعية.

قوله: «فقال: كيف يُفلح قوم شجُّوا نبيهم؟».

وذلك لما كسروا رباعيته، ﷺ.

والاستفهام يُراد به الاستبعاد، أي بعيد أن يُفلح قوم شجُّوا نبيهم، ﷺ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٢) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، كتاب المغازي/ باب «ليس لك من الأمر شيء...» ٣/١٠٨، ومسلم موصولاً، كتاب الجهاد/ باب غزوة أحد ٣/١٤١٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

. . . .

قوله: «**يُفلح**» من الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

قوله: «**فنزلت ليس لك من الأمر شيء**».

أي نزلت هذه الآية، والخطاب للرسول ﷺ.

وشيء: نكرة في سياق النفي فتعم.

قولـه: «**الأمـر**» أي: الشـأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم حتى النبي، ﷺ، ليس له فيهم شيء.

ففي الآية خطاب للرسول، ﷺ، وقد شُجَّ وجهه، وكُسِرت رباعيته، ومع ذلك ما عذره الله سبحانه في كلمة واحدة: «**كيف يُفلح قوم شجوا نبيهم؟**» فإذا كان الأمر كذلك فما بالك بمن سِواه؟ فليس لهم من الأمر شيء، كالأصنام والأوثان والأنبياء، فالأمر كله لله سبحانه وتعالى كما أنَّه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه؛ لأنَّ المخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فكيف يملك لغيره؟!

ونستفيد من هذا الحديث أنَّه يجب الحذر من إطلاق اللسان فيما إذا رأى الإنسان مبتلى بالمعاصي، فلا نستبعد رحمة الله منه فإنَّ الله تعالى قد يتوب عليه.

فهؤلاء الذين شجُّوا نبيهم لما استبعد النبي، ﷺ، فلاحهم قيل له: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾.

والرجل المطيع الذي يمرُّ بالعاصي من بني إسرائيل ويقول: «والله لا يغفر الله لفلان قال الله له: (**من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك**)»[1] فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأنَّ زلَّته

---

(١) من حديث جندب، رواه مسلم، كتاب البر والصلة/ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله ٤/٢٠٢٣.

وفيه عن ابن عمرَ، رضي الله عنهما: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللهم العَنْ فلانًا وفلانًا.

عظيمـة، ثم يا أخي ألست تشـاهد أو تسمع قومًا كانوا من أكفر عبادالله، وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله؟ فإذا كان كذلك فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عُتاة.

وما دام الإنسان لم يمت فكل شيء ممكن، كما أنَّ المسلم، نسأل الله الحماية، قد يزيغ قلبه لما كان فيه من سريرة فاسدة.

فالمهم أنَّ هذا الحديث يجب أن يتخذ عبرة للمعتبر، في أنَّك لا تستبعد رحمة الله من أي إنسان كان عاصيًا.

قوله: «**فنزلت**» الفاء للسببية، وعليه فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: «**كيف يفلح قوم شجّوا وجه نبيهم؟**».

قوله: «**وفيه**» أي الصحيح.

هنا قيد الصلاة، وقيَّد مكان هذا الدعاء من الركعات، ومكانه من الركعة.

قوله: «**إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر**» مكان الدعاء من الصلوات الفجر، ومكانه من الركعات الأخيرة، ومكانه من الركعة بعد الرفع من الركوع.

قوله: «**يقول: اللهم العن فلانًا وفلانًا**».

اللعن: الـطرد والإبعـاد عن رحمـة الله، أي أبعـدهم عن رحمتـك، واطردهم منها.

وفلانًا وفلانًا: بيَّنه في الرواية الثانية.

بعدما يقول: سمع الله لمن حمده ربَّنا ولك الحمدُ». فأنْزَل الله: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾[1].

وفي رواية «يَدْعُو على صفوانَ بن أُميَّة وسُهيْل بن عَمرو والحارِث بن هِشام، فنزلت: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾[2].

قوله: «**بعدما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**» أي يقول ذلك إذا رفع رأسه وقال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد.

قوله: «**فأنزل الله ليس لك من الأمر شيء**» هنا قال: «فأنزل» وفي الرواية السابقة قال: «فنزلت» وكلها بالفاء، وعلى هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي، ﷺ، على هؤلاء، ولا مانع أن يكون للآية سببا نزول، فقد يتعدد السبب.

وقد أسلم هؤلاء الثلاثة وحَسُنَ إسلامهم، رضي الله عنهم، فتأمَّل الآن أن العداوة قد تنقلب ولاية، لأنَّ القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، ولو أنَّ الأمر كان على ظنّ النبي، ﷺ، لبقي هؤلاء على الكفر حتى الموت، إذ لو قبلت الدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة لم يبق إلاّ العذاب.

ولكنَّ النبي، ﷺ، ليس له من الأمر شيء، فالأمر كله لله، ولهذا هدى الله هؤلاء القوم، وصاروا من أولياء الله الذابّين عن دينه، بعد أن كانوا من أعداء الله القائمين ضدّه، والله سبحانه يمنُّ على من يشاء من عباده.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب ليس لك من الأمر شيء ٣/١٠٨.

(٢) رواها البخاري كتاب المغازي/ باب ليس لك من الأمر شيء ٣/١٠٨، وهي مرسلة عن سالم بن عبدالله، وقد وصلها أحمد كما في المسند ٢/٩٣، والترمذي رقم (٣٠٠٤)، وابن جرير في تفسيره ٤/٥٨، من طريق عمر بن حمزة عن سالم عن ابن عمر، وعمر ضعيف كما في التقريب ٢/٥٣.

وفيه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه: ﴿**وأنذرْ عشِيرتَكَ الأقْرَبينَ**﴾. فقال: «**يا مَعْشرَ قُرَيش، أو كلمة نحوها، اشتروا أَنفُسَكُم، لا أُغْني عنكم من الله شيئًا**»

وليس بعيدًا من ذلك قصة أصيرم بن عبدالأشهل[1] الأنصاري حيث كان معروفًا بالعداوة لما جاء به الرسول، ﷺ، فلما جاءت وقعة أحد ألقى الله الإسلام في قلبه دون أن يعلم به النبي، ﷺ، أو أحد من قومه، وخرج للجهاد وقتل شهيدًا، فلما انتهت المعركة جعل الناس يتفقدون قتلاهم فإذا هو في آخر رمق فقالوا: ما جاء بك يا غلام؟ أحدب على قومك؟ أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، وإني أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، فأخبروا عني رسول الله، ﷺ، فأخبروه، فقال: هو من أهل الجنة، فهذا الرجل لم يصل لله ركعة واحدة، ومع هذا جعله الله من أهل الجنَّة، فالله حكيم يهدي من يشاء لحكمة، ويضل من يشاء لحكمة فالمهمّ أنَّنا لا نستبعد رحمة الله عز وجل، من أي إنسان.

قوله: «**قام**» أي خطيبًا.

قوله: «**أنزل عليه**» أي أنزل عليه بواسطة جبريل ﴿**وأنذر عشيرتك**﴾[2].

قوله: «**أنذر**» أي حذِّر وخوِّف، والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

قوله: «**عشيرتك**» العشيرة قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

قوله: «**الأقربين**» أي الأقرب فالأقرب، فأول من يدخل فيهم أولاده ثم آباؤه، ثم إخوانه، ثم أعمامه وهكذا.

---

(١) رواه ابن هشام ٢/ ٩٠، وأحمد في المسند ٥/ ٤٢٨، ٤٢٩، وفي حاشية زاد المعاد ٣/ ٢٠١ «وسنده قوي».

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

. . . .

ويؤخذ من هذا أنَّ الأقرب فالأقرب أولى بالإنذار؛ لأنَّ الحكم المعلّق على وصف يقوى بقوة هذا الوصف، وذلك أنَّ الوصف الموجب للحكم كلَّما كان أظهر وأبين، كان الحكم فيه أظهر وأبين.

قوله: «**لما أنزل عليه**» لم يتأخر، ﷺ، بل قام فقال: يا معشر قريش، أي يا جماعة قريش.

وقريش: هو فهر بن النضر بن مالك أحد أجداد الرسول ﷺ.

قوله: «**أو كلمة نحوها**» أي أو قال: كلمة نحوها أي شبهها، وهذا من احتراز الرواة أنهم إذا شكُّوا أدنى شك قالوا: أو كما قال، أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك، وعليه (أو) للشك والتَّردد.

قوله: «**اشتروا أنفسكم**» أي أنقذوها لأنَّ المُشتري نفسه كأنَّه أنقذها من هلاك، والمشتري راغب، ولهذا عبَّر بالاشتراء كأنَّه يقول: اشتروا أنفسكم راغبين.

وفي قوله: «**اشتروا أنفسكم**» من الحض على هذا الأمر ما هو ظاهر لأنَّ المشتري يكون راغبًا.

قوله: «**لا أغني عنكم من الله شيئًا**» هذا هو الشاهد أي: لا أدفع، أو لا أنفع، أي: لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء أراده الله لكم، لأنَّ الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك فقال: ﴿**قل إنّي لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا. قل إنّي لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدًا**﴾[1].

قوله: «**شيئًا**» نكرة في سياق النفي فتعم أي شيء.

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢١، ٢٢.

يا عبـاسُ بن عبـدالمطَّلِب لا أُغني عنك من الله شيئًا، ياصفِيَّةُ عَمَّة رسـول الله ﷺ لا أُغني عنكِ من الله شيئًا، ويا فاطمةُ بنت محمدٍ، سليني من مالي ماشئتِ، لا أُغني عنكِ من الله شيئًا»[1].

قوله: **«يا عباس بن عبدالمطلب»** هو عم النبي، ﷺ، وعبدالمطلب جد النبي، ﷺ، وعبـاس: بالضم لأن المنادى إذا كان معرفة يبنى على الضم، ونعته إذا كان مضافًا ينصب، وهنا ابن عبد المطلب مضاف ولهذا نصب.

فإن قيل: كيف يقول النبي ﷺ: عبدالمطلب مع أنَّه لا يجوز أن يُضاف عبد إلَّا إلى الله عز وجل؟

فالجواب: أنَّ هذا ليس إنشاءً، بل هو خبر، فاسمه عبدالمطلب ولم يسمِّه النبي، ﷺ، لكن اشتهر بعبدالمطلب، ولهذا انتمى إليه الرسول، ﷺ، فقال:

أنـا الـنبـي لا كـذب أنـا ابـن عبـدالمـطلـب[2]

فلو فرض لك أب يُسمى عبدالمطلب، أو عبدالعزى فإنَّك تنتسب إليه، ولا يعد هذا إقرارًا، ولكنه خبر عن أمر واقعٍ كما لو قلت: كفر فلان، ونافق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه.

قوله: **«لا أغني عنك من الله شيئًا»** أي لا أنفعك بشيء دون الله ولا أمنعك من شيء أراده الله لك، فالنبي، ﷺ، لا يُغني عن أحد شيئًا حتى أبيه فقد أخبر أنَّه في النار.

قوله: **«يا صفية عمة رسول الله»** يقال فيها كما قيل في العباس.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ٣/٢٧٢، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ١/١٩٢.

(٢) من حديث البراء بن عازب رواه البخاري، كتاب الجهاد/ باب من صف أصحابه عند الهزيمة ٢/٣٤٠، ومسلم، كتاب الجهاد/ باب غزوة حنين ٣/١٤٠٠.

. . . .

قوله: **«يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت»** أي اطلبيني من مالي ما شئت فلن أمنعك لأنَّه، ﷺ، مالك لماله ولكن بالنسبة لحق الله فإنَّه يقول: «لا أغني عنك من الله شيئًا» فهذا كلام النبي، ﷺ، لأقاربه الأقربين عمه وعمته وابنته فما بالك بمن هم أبعد؟ فعدم إغنائه عنهم شيئًا من باب أولى، فهؤلاء الذين يتعلّقون بالرسول، ﷺ، ويلوذون به ويستجيرون به الموجودون في هذا الزّمن وقبله، قد غرَّهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق، لأنَّهم تعلَّقوا بما ليس بمتعلّق، إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول، ﷺ، هو الإيمان به واتباعه.

أمّا دعوته والتعلّق به ورجاؤه فيما يُؤمل، ويخشى مما يخاف منه، فهذا شرك بالله، وهو مما يبعد عن الرسول، ﷺ، وعن النجاة من عذاب الله.

ففي الحديث امتثال النبي، ﷺ، لقوله تعالى: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**(١) فإنَّه قام بهذا الأمر أتمَّ القيام فدعا وعمَّ وخصَّص وبيَّن أنه لا ينجي أحدًا من عذاب الله بأي وسيلة بل الذي ينجي هو الإيمان به واتّباع ما جاء به.

وإذا كان القُرب من النبي، ﷺ، لا يُغني عن القريب شيئًا، دلَّ ذلك على منع التوسل بجاه النبي، ﷺ، لأنَّ جاه النبي، ﷺ، لا ينتفع به إلاّ النبي، ﷺ، ولهذا كان أصحّ قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبي ﷺ.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

فيه مسائل : الأولى : تفسير الآيتين. **الثانية** : قصة أحدٍ. **الثالثة** : قنوتُ سيدِ المرسلينَ وخلفه ساداتُ الأولياءِ يؤمِّنونَ في الصلاة. **الرابعة** : أنَّ المدعوَّ عليهم كفارٌ.

فيه مسائل:

الأولى : تفسير الآيتين: سبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيها للتوبيخ والإنكار.

الثانية : قصة أحد: حيث شُجَّ النبي ﷺ... الحديث.

الثالثة : قنوت سيد المرسلين... إلخ.

أراد المؤلف بهذه المسألة أنَّ النبي، ﷺ، سيد المرسلين، وأصحابه سادات الأولياء ما أنقذوا أنفسهم فكيف ينقذون غيرهم؟! وليس مراده رحمه الله مجرَّد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيِّد وسادات، فلا أحد أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجؤون إلى الله سبحانه في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله فكيف يمكن أن يُلجأ إليه في كشف الكربات، فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

الرابعة : أن المدعو عليهم كفَّار:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**أو يتوب عليهم**﴾ فهذا دليل على أنَّهم الآن ليسوا على حالة مرضية، ثم أنَّه معروف أن صفوان بن أميَّة، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفارًا.

وهذه المسألة أنَّ المدعو عليهم كفَّار ترمي إلى أن الرسول، ﷺ، وإن كان يرى أنَّه دعاء عليهم بحق، ومع ذلك قطع الله سبحانه وتعالى أن يكون له من الأمر شيء، لأنَّه قد يقول قائل: إذا كانوا كفارًا أليس يملك الرسول، ﷺ، أن يدعو عليهم؟

الخامسة: أنَّهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار منها شجُّهُم نبيَّهم وحرصهم على قتله، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.
السادسة: أنزل الله عليه في ذلك ﴿**ليس لك من الأمر شيءٌ**﴾.
السابعة: قوله: ﴿**أو يتوب عليهم أو يعذبهم**﴾. فتاب عليهم فآمنوا.

نقول: حتى في هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئًا، هذا وجه قول المؤلف أنَّ المدعو عليهم كفار.

أما مجرد أن يعلمنا المؤلف أن المدعو عليهم كفار هذه مسألة أظنّ أنَّها لا تستحق أن يعنون لها، بل المراد في هذه الحال الذي كان هؤلاء كفارًا لم يملك النبي، ﷺ، شيئًا بالنسبة إليهم.

الخامسة: أنَّهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار...

أي: أنَّهم مع كفرهم كانوا معتدين، ومع ذلك قيل له في حقِّهم: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ وإلا فهم شجُّوا النبي، ﷺ، ومثَّلوا بالقتلى مثل حمزة بن عبدالمطلب، وكذلك أيضًا حرصوا على قتل النبي، ﷺ، مع أنَّ كل هؤلاء فيهم من بني عمهم، وفيهم من الأنصار.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾:

أي مع ما تقدم من الأمور التي تقتضي أن يكون للنبي، ﷺ، حق بأن يدعو عليهم أنزل، الله ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ فالأمر لله وحده، فإذا كان الرسول، ﷺ، قد قطع عنه هذا الشيء فغيره من باب أولى.

السابعة: قوله: ﴿**أو يتوب عليهم**﴾ فتاب عليهم فآمنوا: وهذا دليل على كمال سلطان الله وكمال قدرته، فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وآمنوا، لأنَّ الأمر كله بيده سبحانه، وهو الذي يذلّ من يشاء ويعزُّ من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر، رضي الله عنه، قبل إسلامه، وما جرى

منهم بعد إسلامه، فرسول الله، ﷺ، ومَنْ دونه لا يستطيعون أن يغيِّروا شيئًا من أمر الله.

الثامنة: القنوت في النوازل:

وهذه هي المسألة الفقهيَّة، فإذا نزل بالمسلمين نازلة فإنَّه ينبغي أن يُدعى لهم حتى تنكشف.

وهـذا القنوت مشروع في كل الصلوات، كما في حديث ابن عباس، رضي الله عنهـما، الذي رواه أحمد وغيره[1] إلّا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون وقالوا لا يُقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر[2]، رضي الله عنه ولم يقنت، ولأنَّه شهادة فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

والـظاهـر: أنَّ القنوت في النوازل التي تكون من غير الله مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أمَّا ما كان من فعل الله فإنَّه يشرع له ما جاءت به السنـة مثل: الكسوف فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس، رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات. والجدب يُشرع له الاستسقاء وهكذا.

وما علمت لساعتي هذه أنَّ القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يُدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضُيِّق على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك فإنَّه يقنت اتِّباعًا للسنة في هذا الأمر.

ثم من الذي يقنت الإمام الأعظم أو إمام كل مسجد، أو كل مصلٍّ؟

---

(١) رواه أحمـد في المسند ١/٣٠١، وأبو داود، كتاب الصلاة/ باب القنوت في الصلاة رقم (١٤٤٣) وسكت عنه، والحاكم ١/٢٥٥، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري، كتاب الطب/ باب ما يذكر في الطاعون ٤/٤١، ومسلم، كتاب السلام/ باب الطاعون والطيرة رقم (٢٢١٨).

المذهب: أنَّ الذي يقنت هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلى للدولة.

وقيل: يقنت كل إمام مسجد.

وقيل: يقنت كل مصل، وهو الصحيح لعموم قول النبي ﷺ: **«صلوا كما رأيتموني أصلي»**[1] وهذا يتناول قنوته، ﷺ، عند الزوال.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم: وهم صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فسمَّاهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هل هذا مشروع أو جائز؟

الجواب: هذا جائز، لكن في مسألة اللعن نهي عنه الرسول ﷺ.

فلو دعا إنسان لأناس في الصلاة جاز، لأنَّه لا يُعدُّ من كلام الناس، بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة الله تعالى، ولا يدخل في عموم قوله ﷺ: **«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النَّاس»**[2].

مسألة: هل الذي نهي عنه الرسول، ﷺ، الدعاء، أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهي عنه هو لعن الكفار في الدعاء على وجه التعيين، أما لعنهم عمومًا فلا بأس به، وقد ثبت عن أبي هريرة أنَّه كان يقنت ويلعن الكفرة عمومًا، ولا بأس بدعائنا على الكافر بقولنا: اللهم أرح المسلمين منه، واكفهم شرَّه واجعل شرَّه في نحره.

أما الدعاء بالهلاك فإنه محل نظر، ولهذا النبي، ﷺ، لم يدع على قريش

---

(١) من حديث مالك بن الحويرث، رواه البخاري، كتاب الأذان/ باب الأذان للمسافرين ٢١٢/١.

(٢) من حديث معاوية بن الحكم السلمي، رواه مسلم، كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ١/ ٣٨١، ٣٨٢.

بالهلاك بل قال: «**اللهم عليك بهم اللهم، اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف**»[1] وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى الله عن ظلمه.

فالمهم الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندي تردد فيه.

وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قال: «اللهم أحصهم عددًا ولا تبقي منهم أحدًا»[2]، لأنَّه وقع في عهد الرسول ﷺ.

وأيضًا الأمر وقع كما دعا فإنَّه ما بقي منهم أحد على رأس الحول، ولم ينكر الله تعالى ذلك ولا أنكره النبي، ﷺ، بل إنَّ إجابة الله دعاءه يدلّ على رضاه به وإقراره عليه.

فهذا قد يُستدل به على جواز الدعاء على الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن يُنظر في القصة فقد يكون لها أسباب خاصة لا تأتي في كل شيء.

ثم إن خبيبًا دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار لا لجميع الكفار.

وفيه أيضًا: إن صحّ الحديث، دعاؤه على عتبة بن أبي لهب «اللهم سلّط عليه كلبًا من كلابك»[3]، فيه دليل على الدعاء بالهلاك.

العاشرة: لعن المعيَّن في القنوت:

هذا غريب، فإن أراد المؤلف رحمه الله، أنَّ هذا أمر وقع، ثم النهي عنه

(١) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب سورة الدخان، ٣/٢٨٩، ومسلم، كتاب صفات المنافقين/ باب الدخان ٤/٢١٥٥.

(٢) من حديث أبي هريرة، رواه البخاري، كتاب المغازي ٣/٨٩.

(٣) رواه ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب، وفيه عنعنة ابن إسحاق، ورواه الحاكم في المستدرك من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه، كتاب التفسير/ تفسير سورة أبي لهب ٢/٥٣٩ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في فتح الباري ٤/٣٩.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربينَ﴾.
الثانية عشرة: جده ﷺ في هذا الأمر بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون وكذا لو فعله مسلمٌ الآن.

فلا إشكال، وإن أراد أنه يُستفاد من هذا جواز لعن المعيّن في القنوت أبدًا فهذا فيه نظر، لأنَّ النبي، ﷺ، نهي عن ذلك.

الحادية عشرة: قصته، ﷺ، لما أنزل عليه: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ وهي أنَّه لما نزلت عليه الآية نادى قريشًا فعمّ ثم خصَّص، فامتثل أمر الله في هذه الآية.

الثانية عشرة: جده ﷺ بحيث فعل ما نُسب بسببه إلى الجنون:

أي اجتهاده ﷺ في هذا الأمر بحيث قالوا: إنَّ محمدًا جنّ، كيف يجمعنا وينادينا هذا النداء.

وقوله: «**وكذلك لو يفعله مسلم الآن**»: أي: لو أنَّ إنسانًا جمع الناس ثم قام يحذِّرهم لقالوا مجنون إلّا إذا كان معتادًا عند الناس، قال تعالى: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**يقلب الله الليل والنهار**﴾ فهذا يختلف باختلاف البلاد والزمان، ثم إنَّه يجب على الإنسان أن يبذل جهده واجتهاده في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والنبي، ﷺ، قام بهذا الأمر ولم يُبال بما رُمِيَ به من الجنون.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب **«لا أغني عنك من الله شيئًا»**، حتى قال: **«يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئًا»**. فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين وآمن الإنسان بأنه لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم، تبينَ لهُ تركُ التوحيد وغربةُ الدينِ.

الثالثة عشرة: قوله: للأبعد والأقرب: **«لا أغني عنك من الله شيئًا»** إلخ صدق رحمه الله فيما قال، فإنَّه إذا كان هذا القائل سيد المرسلين، وقاله لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أنَّ الرسول، ﷺ، لا يقول إلاّ الحق، وأنَّه لا يغني عن ابنته شيئًا تبينّ لنا الآن أن ما يفعله خواصّ الناس تركٌ للتوحيد، لأنَّه يوجد أُناس خواص يرون أنفسهم علماء، ويراهم من حولهم علماء وأهلاً للتقليد، يدعون الرسول، ﷺ، لكشف الضرّ وجلب النفع دعوة صريحة ويرددون:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وغير ذلك من الشرك، وإذا أنكر عليهم ذلك ردّوا على المنكِر بأنَّه لا يعرف حق الرسول، ﷺ، ومقامه عند الله، وأنَّه سيد الكون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنَّه خلق من نور العرش، ويُلبِّسون بذلك على العامة، فيصدِّقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يدعوهم إلى التوحيد لم يستجيبوا له؛ لأنَّ سيدهم وعالمهم على خلاف التوحيد **﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾**(١). ثم إنَّ المؤمن عاطفته وميله للرسول، ﷺ، أمر لا يُنكر، وهذا يجذب العوام، لكن الإنسان لا ينبغي له أن يحكِّم العاطفة، بل

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.

. . . .

يجب عليه أن يتبع العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات.

ولهـذا نعى الله سبحانه على الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنَّهم لا يعقلون، وكلام المؤلف حق فإنَّ من تأمَّل ما عليه الناس اليوم في كثير من البلدان الإسلامية تبينَّ له ترك التوحيد وغربة الدين.

بـــاب
قوله تعالى

﴿حتى إذا فُزِّعَ عن قُلُوبِهِم قالوا ماذا قال ربُّكُمْ قالوا الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ﴾[1].

مناسبة الترجمة:

أنَّ هذا من البراهين الدالّة على أنَّه لا يستحق أحد أن يكون شريكًا مع الله؛ لأنَّ الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله عز وجل، ما عدا خواصّ بني آدم، يحصل منهم عند كلام الله سبحانه الفزع.

قوله: ﴿حتى إذا فُزع عن قلوبهم﴾.

قال: ذلك ولم يقل: «فزعت قلوبهم» إذ عن تفيد المجاوزة. والمعنى: جاوز الفزع قلوبهم أي أزيل الفزع عن قلوبهم.

والفزع: الخوف المفاجيء؛ لأنَّ الخوف المستمر لا يُسمَّى فزعًا.

وأصله: النُّهوض من الخوف.

وقـوله: ﴿عن قلوبهم﴾ أي قلوب الملائكة، لأنَّ الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة، ولا أعلى من تفسير النبي، ﷺ، للقرآن.

قوله: ﴿قالوا ماذا قال ربكم﴾ جواب الشرط (إذا).

والمعنى قال بعضهم لبعض، وإنَّما قلنا ذلك لأجل قائل ومقول له؛ لأنَّنا لو جعلنا الضمير في قالوا عائدًا على الجميع، فأين المقول له؟ والمعنى: أي شيء قال ربكم؟

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

. . . .

وإعراب ماذا على أوجه:

١ - ما اسم استفهام مبتدأ، وذا: اسم موصول خبر.

٢ - ماذا اسم استفهام.

٣ - ما اسم استفهام، وذا زائدة. قال ابن مالك:

ومثـل ماذا بعـدمـا استفهـام أو من إذا شرط لم تلغ في الكلام

قوله: ﴿قالوا الحق﴾ أي قال المسؤولون.

والحق: مفعول لفعل محذوف تقديره: قالوا: قال الحق.

والمعنى: أنَّ الله سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلّا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلّا الحق.

والحق: هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، كما قال الله تعالى: ﴿وتمَّت كلمة ربك صدقًا وعدلاً﴾[1].

ولا يُفهم من قولـه: ﴿قـالـوا الحق﴾ أنه قد يكون باطلاً بل هو بيان للواقـع. فإن قيل: ما دام بيانًا للواقع ومعروفًا عند الملائكة أنَّه لا يقول إلّا الحق، فلماذا الاستفهام؟

أجيب: أنَّ هذا من باب الثناء على الله بما قال، وأنَّه سبحانه لا يقول إلّا الحق.

قولـه: ﴿وهـو العلي الكبير﴾ أي العلي في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء وهي العظمة التي لا يُدانيها شيء، أي العظيم الذي لا أعظم منه.

مناسبة الآية للباب: أنه إذا كان منفردًا في العظمة والكبرياء فيجب أن يكون منفردًا في العبادة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥.

. . . .

والعلو قسمان:

الأول: علو الصفات، وقد أجمع عليه كل من يَنتسب للإسلام حتى الجهميَّة.

الثاني: علوّ الذات، وقد أنكره كثير من المنتسبين للإسلام مثل الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم، فإنَّ المحققين منهم أثبتوا علوّ الذات.

وعلوه لا ينافي كونه مع الخلق يعلمهم ويسمعهم ويراهم لأنَّه ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

وفي الآية فوائد:

١ - أن الملائكة يخافون الله كما قال تعالى: **﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾**[1].

٢ - إثبات القلوب للملائكة لقوله: **﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم﴾**.

٣ - إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحًا مجرَّدة من الجسميَّة، وهو أمر معلوم بالضرورة قال تعالى: **﴿جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة﴾**[2]. وقد رأى النبي، ﷺ، جبريل له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق[3]، فالقول بأنَّهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع.

لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنَّما أكلهم وشربهم التسبيح بدليل قوله تعالى: **﴿يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون﴾**[4] ففي هذا دليل على أنَّ ليلهم

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١.

(٣) رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب بدء الخلق / باب إذا قال أحدكم آمين ٢ /٤٢٧، ومسلم، كتاب الإيمان / باب معنى قول الله عز وجل: **﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾** ١ /١٥٨.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

. . . .

ونهارهم مستوعب لذلك، ولهذا جاء: ﴿يسبحون الليل﴾ولم يقل: يسبحون في الليل أي: أن تسبيحهم دائم، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

٤ ـ أنَّ لهم عقولاً، إذ إنَّ القلوب هي محلّ العقول خلافًا لمن قال: إنَّهم لا يعقلون، ولأنَّهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور.

٥ ـ إثبات القول لله سبحانه وتعالى وأنَّه متعلّق بمشيئته؛ لأنَّه جاء بالشرط ﴿إذا فُزِّع﴾ وإذا الشرطية تدلّ على حدوث الشرط والمشروط خلافًا للأشاعرة الذين يقولون: إنَّ الله لا يتكلَّم بمشيئة، وإنما كلامه هو المعنى القائم بنفسه، فهو قائم بالله أزلي أبدي كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر.

ولا ريب: أنَّ هذا باطل وأن حقيقته إنكار كلام الله، ولهذا يقولون: إنَّ الله يتكلَّم بكلام نفسي أزلي أبدي، كما يقولون هذا الكلام الذي سمعه موسى، وسمعه النبي، ﷺ، ونزل به جبريل على الرسول، ﷺ، شيء مخلوق للتعبير عن كلام الله القائم بنفسه.

وهذا في الحقيقة قول الجهميَّة كما قال بعض المحققين من الأشاعرة ليس بيننا وبين الجهميَّة فرق، فإننا اتَّفقنا على أن هذا الذي بين دفتي المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا عبارة عن كلام الله، وهم قالوا: هو كلام الله.

فالجهميَّة خير منهم في أنَّهم يقولون هذا كلام الله، لكنهم شرّ منهم في كونهم يصرِّحون أنَّ كلام الله مخلوق.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكةُ بأجنحتها خُضْعَانًا لقولِهِ، كأنَّه سِلْسِلَةٌ على صَفْوَانٍ، ينفذهُم ذلك، ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبيرُ﴾**،

---

٦ - إثبات أن الله يقول الحق، وهذا جاء في القرآن: **﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾**(١). وقال: **﴿فالحقُّ والحقّ أقول﴾**(٢). فالله تعالى لا يقول إلّا حقًّا؛ لأنَّه هو الحقّ ولا يصدر عن الحقّ إلا الحقّ.

قوله: «**صفوان**» هو الحجر الأملس الصلب، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم.

وليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا، لأنَّ الله **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون هذه السلسلة على صفوان.

قوله: «**ينفذهم ذلك**». النفوذ: هو الدخول في الشيء ومنه: نفذ السهم الرمية أي دخل فيها، والمعنى: أن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ.

قوله: «**حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم**» أي: أُزيل عنها الفزع.

قوله: «**قالوا**» أي قال بعضهم لبعض.

قوله: «**ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق**» أي قالوا: قال الحق، أي: قال القول الحق، فالحقّ صفة لمصدر محذوف مع عامله تقديره: قال القول الحق، وهذا القول الذي يقولونه هل هم يقولونه لأنهم سمعوا ما قال وعلموا أنَّه حق، أو أنَّهم كانوا يعلمون أنَّه لا يقول إلّا الحق؟

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٨٤.

. . . .

يحتمل أن يكونوا قد علموا ما قال، وقالوا إنه الحق فيكون هذا عائدًا إلى الوحي الذي تكلَّم الله به.

ويُحتمل أنَّهم قالوا ذلك لعلمهم أن الله سبحانه لا يقول إلّا الحق فلذلك قالوا هذا لأنَّ ذلك صفته سبحانه وتعالى.

قوله: «**وهو العلي الكبير**» مطابق للآية تمامًا، وعلى هذا يجب أن يكون هذا تفسير الآية، ولا يقبل لأي قائل أن يُفسرها بغيره، لأنَّ تفسير القرآن إذا كان بالقرآن أو السنَّة فإنَّه نصٌّ لا يمكن لأحد أن يتجاوزه.

وأمّا تفسير الصحابي فإنَّه حجة عند أكثر المفسرين، وأمّا التابعي فإن أكثر العلماء يقول: إنه ليس بحجة إلّا من اختصّ منهم بشيء كمجاهد، فإنَّه عرض المصحف على ابن عباس أكثر من عشرين مرة يقف عند كل آية ويسأله عن معناها، وأمَّا من بعد التابعين فليس تفسيره حجَّة على غيره لكن إن أيَّده سياق القرآن كان العمدة سياق القرآن.

فلا يقبل أن يقال: إذا فزع عن قلوب الناس يوم القيامة بل نقول: الرسول، ﷺ، فسَّر الآية بتفسير غيبي لا مجال للاجتهاد فيه، وما كان غيبيًّا وجاء به النَّص فالواجب علينا قبوله، ولهذا نقول في مسألة ما يعذر فيه بالاجتهاد وما لا يعذر أنَّه ليس عائدًا على أنَّ هذا من الأصول وهذا من الفروع، كما قال بعض العلماء: الأصول لا مجال للاجتهاد فيها ويُخطىء المخالف مطلقًا بخلاف الفروع.

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية أنكر تقسيم الدين إلى أصول وفروع، ويدلّ على بطلان هذا التقسيم: أنَّ الصلاة عند الذين يقسّمون فرع مع أنَّها أصل الأصول.

فيسمَعُها مُسْترِقُ السَّمع، ومُسْترقُ السَّمع هكذا بعضُهُ فَوق بعضٍ، وصفـهُ سُفيـانَ بكَفِّـهِ، فحـرَّفها وبَدَّد بين أصابعه، فيسْمَعُ الكلمة فَيُلقيها إلى من تحتهُ،

والصواب: أنَّ مدار التخطئة وعدمها في الاجتهاد على ما للاجتهاد مجال فيه، وما لا مجال للاجتهاد فيه. فالأمور الغيبية يُخطيء المخالف فيها ولا يُعذر، سواء كانت تتعلّق بصفات الله أو اليوم الآخر أو غير ذلك لعدم علمه بذلك، والإنكار عليه واجب، بل علينا أن نسلم وننقاد.

واجب، بل علينا أن نسلم وننقاد.

أما الأمور الاجتهادية فهي التي فيها للرأي مجال، ولا يُضلّل المخطىء فيها ولا يُنكر عليه، إلا إذا خالف نصاً صريحاً، إذ لا مجال للاجتهاد وإن كان يصحّ تضليله بهذا الأمر، كقول ابن مسعود في بنت وبنت ابن وأخت، وذكر له قسمة أبي موسى فقال: «قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين»[1].

قوله: «**فيسمعها مسترق السَّمع**» أي هذه الكلمة التي تكلَّمت بها الملائكة.

ومسترق: مفرد مضاف فيعم.

والمعنى: أي الذين يسترقون السمع، وقد أشار الله تعالى إليهم بقوله: ﴿**إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب**﴾[2].

وتأمَّل كلمة: «يسترق» ففيها دليل على أنه يُبادر فكأنَّه يختلسها اختلاسًا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض/ باب ميراث ابنة ابن مع ابنة ٤/٢٣٨.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠.

ثم يُلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحِر أو الكاهن، فرُبما

قوله: «**ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض**» يُحتمل أن يكون هذا من كلامه، ﷺ، أو من كلام أبي هريرة، أو من كلام سفيان.

قوله: «**وصفه سفيان بكفه**» أي أنَّها واحد فوق الثاني أي الأصابع فالجنّ يتراكبون واحدًا فوق الآخر، إلى أن يصلوا إلى السماء فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: ﴿**وأنَّا كنَّا نقعد منها مقاعد للسَّمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا**﴾[1].

قوله: «**فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته**».

أي يسمع أعلى المسترقين الكلمة فيلقيها إلى من تحته أي يخبره بها، و«مَنْ» اسم موصول، وقوله: «تحته» شبه جملة صلة الموصول لأنه ظرف.

قوله: «**ثم يلقيها إلى من تحته**» أي يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض إلى لسان الساحر أو الكاهن.

والسحر: عزائم ورقى وتعوّذات تؤثر في بدن المسحور وقلبه وعقله وتفكيره.

والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقد التبس على بعض طلبة العلم، فظنّوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولو فيما مضى فهو كاهن، لكن ما مضى مما يقع في الأرض ليس غيبًا بل هو غيبي نسبي مثل ما يقع في المسجد يعد غيبًا بالنسبة لمن في الشارع، وليس غيبًا بالنسبة لمن في المسجد.

وقد يتّصل الإنسان بجني فيخبره عما حدث في الأرض ولو كان بعيدًا، فيستخدم الجن لكن ليس على وجه محرَّم فلا يُسمَّى كاهنًا، لأنَّ الكاهن من

---

(١) سورة الجن، الآية: ٩.

يُخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يُخبر عمّا في الضمير، وهو نوع من الكهانة في الواقع إذا لم يستند إلى فراسة ثاقبة، أمّا إذا كان يُخبر عمّا في الضمير استنادًا إلى فراسة فإنّه ليس من الكهانة في شيء، لأنَّ بعض الناس قد يفهم ما في الإنسان اعتمادًا على أسارير وجهه ولمحاته، وإن كان لا يعلمه على وجه التفصيل، لكن يعلمه على سبيل الإجمال.

فمن يُخبر عما وقع في الأرض ليس من الكهّان، ولكن ينظر في حاله فإذا كان غير موثوق في دينه فإننا لا نصدِّقه، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا**﴾[1].

وإن كان موثوقًا في دينه ونعلم أنَّه لا يتلبَّس بمحرم من شرك أو غيره للوصول إلى غرضه، فإننا لا ندخله في الكهّان الذين يحرم الرجوع إلى قولهم. ومن يخبر بأشياء وقعت في مكان ولم يطلع عليها أحد دون أن يكون موجودًا فيه، فلا يُسمى كاهنًا لأنَّه يمكن أن يكون عنده جني يخبره بغير المحرم، والجني قد يخدم بني آدم بغير المحرم إمّا محبَّة لله عز وجل، أو لعلم يحصّله منه، أو لغير ذلك.

والسحرة قد يكون لهم من الجن من يسترق لهم السَّمع.

ولا يصل هؤلاء المسترقون إلاّ إلى السماء الدنيا لقوله تعالى: ﴿**وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا**﴾ فلا يمكن نفوذه إلى السماء.

قوله: «**فربما أدركه الشهاب**» إلخ.

الشهاب: جزء منفصل من النجوم ثاقب قوي ينفذ.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.

معها مائة كِذْبةٍ، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصَدَّقُ بتلك الكلمة التي سُمِعَتْ من السماء»[1].

قال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿**ولقد زيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين**﴾[2]. أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها، فهذا من باب عود الضمير إلى الجزء لا إلى الكل.

فالشُّهب: نيازك تنطلق من النجوم.

وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلى الأرض، وقد تحدث تصدُّعًا فيها.

أما النجم فلو وصل إلى الأرض لأحرقها.

واختلف العلماء، هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول، ﷺ، إلى الأبد، أو انقطعوا في وقته فقط؟ والثاني هو الأقرب أنَّهم انقطعوا في وقت البعثة فقط، حتى لا يلتبس كلام الكهان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا.

قوله: «**فيكذب معها مائة كذبة**» هل هذا على سبيل التحديد، أو المعنى أنَّه يكذب معها كذبات كثيرة؟ الثاني: هو الأقرب، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص، لأنَّ الكهنة لهم شياطين، فقد يكون لبعض الناس مبرِّر لعمل الكاهن، أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟

والناس في هذه الأمور الغريبة هم على حسب ما أخبر به المُخبر يأخذون كل ما يقوله صدقًا فإذا أخبر بشيء وقع ثم أخبر بشيء قالوا: إذن لابد أن يصدُق.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿إلا من استرق السمع﴾ ٣/ ٢٤٧.

(٢) سورة الملك، الآية: ٥.

. . . .

فوائد الحديث:

١ ـ إثبات القول لله عز وجل.

٢ ـ عظمة الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ إثبات الأجنحة للملائكة.

٤ ـ خوف الملائكة من الله عز وجل وخضوعهم له.

٥ ـ أن الملائكة يتكلَّمون ويعقلون.

٦ ـ أنَّه لا يصدر عن الله إلَّا الحق.

٧ ـ أنَّ الله سبحانه يمكِّن هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس، وإلَّا فالله قادر على أن لا يُمكِّنهم من ذلك، وهي ما يلقونه على الكهَّان فيحصل بذلك فتنة والله عز وجل حكيم.

فقد يُوجد الله أشياء تكون ضلالاً لبعض الناس، لكنها لبعضهم هدى امتحانًا وابتلاءً.

٨ ـ كثرة الجن، لأنَّهم يترادفون إلى السماء، ومعنى ذلك أنهم كثيرون جدًّا، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيرانًا.

وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير بهم، أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة، وهذا ممكن الآن في الطائرات لكن في ذلك الوقت ليس هناك طائرات فتحملهم الشياطين، ويجعلون للناس المكانس التي تكنس بها البيوت، ويقول: أنا أركب المكنسة وأطير بها إلى مكة، فيفعلون هذا، وشيخ الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومستخدمون للشياطين، ويسيئون حتى من الناحية العملية، لأنهم يمرون الميقات ولا يحرمون منه.

٩ ـ أنَّ الكهَّان من أكذب الناس، ولهذا يضيفون إلى ما سمعوا كذبات

وعن النـواس بن سمعـان (رضي الله عنـه) قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله تعالى أن يُوحي بالأمر، تكلَّم بالوحي أخذت**

كثيرة يضللون بها النـاس، ويتـوصَّلون بها إلى باطلهم تارة بالـترهيب وتارة بالتَّرغيب، كأن يقولوا: ستقوم القيامة يوم كذا وكذا، وسيجري عليك من موت أو سرقة مال ونحو ذلك.

١٠ - أنَّ الساحر يصوّر للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل التمويه والتلبيس، وأنَّهم إن صدقوا في شيء فيجب الحذر منه.

قوله: «وعن النواس. . . .».

هذا الحديث لم يخرجه المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وذكر فيه علَّة وهي أنَّ في سنده الوليد بن مسلم وهو مدلِّس، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة فيكون في الحديث ضعف، إلاّ أنَّه قد روى مسلم[1] وأحمد من حديث ابن عباس حديثًا قد يكون شاهدًا له، حيث أخبر أن الله إذا تكلَّم بالوحي سمعه حملة العرش فسبحوا ثم سمعه أهل كل سماء فيسبحون كما سبَّح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا فتخطفه الجن أو الشياطين.

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود، لكن يدلّ على أنَّ له أصلاً.

قوله: **«إذا أراد أن يُوحي بالأمر»** أي الشأن.

قوله: **«تكلم بالوحي»** جملة شرطية تقتضي تأخر المشروط عن الشرط، فالإِرادة سابقة والكلام لاحق، فيكون فيه ردّ على الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلَّم بإرادة، وأنَّ كلامـه أزلي كالسمع والبصر، ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا إنَّه يتكلم بما شاء كيف شاء متى شاء،

---

(١) في كتاب السلام/ باب تحريم الكهانة ٤/ ١٧٥٠.

السمٰوات منه رجفةٌ، أو قال: رعْدة شديدة، خوفًا من الله عزّ وجلّ، فإذا سمع ذلك أهلُ السمٰوات صُعِقوا وخرُّوا لله سُجَّدًا، فيكونُ أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم

بل هو صفة كمال، لكن النقص أن يُقال: إنَّه لا يتكلم بحرف وصوت، إنَّما الكلام معنى قائم بنفسه.

قوله: «**أخذت السماوات منه رجفة**».

السماوات: مفعول به جمع مؤنث سالم، أو ملحق به فيكون منصوبًا بالكسرة.

ورجفة: فاعل.

قوله: «**أو قال رعدة شديدة**» لأنَّه سبحانه عظيم يخافه كل شيء حتى السماوات التي ليس فيها روح.

قوله: «**فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخرّوا لله سُجدًا**».

كيف يكون صعقوا وخرّوا سجدًا؟

الصعق هنا: ـ والله أعلم ـ يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله: «**فيكون أوّل من يرفع رأسه جبريل**».

أوّل: بالنصب على أنها خبر يكون مقدمًا، وجبريل بالرفع على أنَّها اسم يكون مؤخَّرًا.

قوله: «**بما أراد**» أي بما شاء؛ لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة.

قوله: «**ثم يمرّ جبريل على الملائكة**» لأنَّه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي.

قوله: «**قال الحق وهو العلي الكبير**» سبق في تفسير ذلك: أنه يحتمل قال الحق في هذه القضية المعيَّنة، أو قال الحق لأنَّ من عادته سبحانه ألا يقول إلّا

يَمُرُّ جبريل على الملائكة، كُلَّما مرَّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا ياجبريل؟ فيقول: قال الحقَّ، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مِثل ماقال جبريلُ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيثُ أمَرَهُ الله عز وجل»[1]

الحق، وأيًّا كان فإن جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحى الله إليه بل يقول: قال الحق مبهمًا، ولهذا سمّي عليه السلام بالأمين، والأمين: هو الذي لا يخون السرّ لغير من ائتمنه.

قوله: «**وهو العلي الكبير**» تقدم الكلام عليه.

قوله: «**فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل**» أي قال الحق وهو العلي الكبير.

قوله: «فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمر الله عز وجل» أي يصل بالوحي إلى حيث أمر الله من الأنبياء والرُّسل.

من فوائد الحديث:

١ - إثبات الإرادة لقوله: «**إذا أراد الله**» وهي قسمان: شرعية، وكونية.

والفرق بينهما أولاً: من حيث المتعلق، فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله عز وجل، سواء وقع أم لم يقع، وأمّا الكونيَّة فتتعلّق فيما يقع سواء كان مما يحبّه الله أو مما لا يحبه.

ثانيا: الفرق بينهما من حيث الحكم، أي حصول المراد، فالشرعية لا

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة برقم (٥١٥) والطبري في تفسيره ٢٢/٦٣، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٣/٥٣٧، وابن خزيمة في التوحيد ص (١٤٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٢٠٢)، والبغوي في تفسيره ٥/٢٩٠، والحديث في إسناده نعيم بن حماد ضعيف، تهذيب التهـذيب ١٠/٤٥٨، والوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعنه، انظر تقريب التهذيب ٢/٣٣٦.

. . . .

يلزم منها وقوع المراد، أما الكونيَّة فيلزم منها وقوع المراد.

فقوله تعالى: ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾[1] هذه إرادة شرعية، لأنَّها لو كانت كونية لتاب على كل الناس، وأيضًا متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة.

وقوله: ﴿**إن كان الله يريد أن يغويكم**﴾[2] هذه كونيَّة، لأنَّ الله لا يريد الإغواء شرعًا، أما كونًا وقدرًا فقد يريد الإغواء.

وقوله: ﴿**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم**﴾[3] هذه كونيَّة لكنها في الأصل شرعيَّة لأنه قال: ﴿**ويتوب عليكم**﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾[5] هذه شرعيَّة لأن قوله: ﴿**ولا يريد بكم العسر**﴾ لا يمكن أن تكون الإرادة كونيَّة إذ إن العسر يقع، ولو كان الله لا يُريده قدرًا وكونًا لم يقع.

٢ ـ أن المخلوقات وإن كانت جمادًا تحسّ بعظمة الخالق، قال تعالى: ﴿**تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلّا يُسبح بحمده**﴾[6].

٣ ـ إثبات أن الملائكة يتكلَّمون ويفهمون ويعقلون لأنَّهم يسألون ﴿**ماذا قال ربكم**﴾؟ ويجابون: قال: ﴿**الحق**﴾، خلافًا لمن قال: إنَّهم لا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٣٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

. . . .

يوصفون بذلك فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

٤ - إثبات تعدّد السماوات لقوله: «**كلّما مرَّ بسماء**».

٥ - أن لكل سماء ملائكة مخصَّصين لقوله: «**سأله ملائكتها**».

٦ - فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة بن نوفل: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى»[1] والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السرّ.

٧ - أمانة جبريل، عليه السلام، حيث ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل فيكون فيه ردّ على الرافضة الكفرة الذين يقولون: بأن جبريل أمر أن يوحي إلى علي فأوحى إلى محمد، ﷺ، ويقولون: خان الأمين فصدها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب لأنَّه كان يقول في غزوة خيبر:

أنا الذي سمَّتني أمي حيدرة[2].

وفي هذا تناقض منهم لأنَّ وصفه بالأمانة يقتضي عدم الخيانة.

٨ - إثبات العزَّة والجلال لله عز وجل لقوله: «**عز وجل**» والعزَّة بمعنى الغلبة والقوة، وللعزَّة ثلاث معانٍ:

١ - عزيز: بمعنى ممتنع لا يناله أحد بسوء.

٢ - عزيز: بمعنى القوة.

٣ - عزيز: بمعنى غالب.

---

(١) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب بدء الوحي / باب حدثنا يحيى بن بكير ١ / ١٤، ومسلم كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي ١ / ١٣٩.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجهاد/ باب غزوة ذي قرد ٣/ ١٤٤١.

فيه مسائل : الأولى : تفسير الآية . **الثانية** : ما فيها من الحجة على إبطال الشرك خصوصًا من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل إنها تقطع عروق شجرة الشركِ من القلبِ.

قال ابن القيّم :

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يُرام جناب ذو السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذٍ ثلاث معان

وأمّا جلّ : فالجلال بمعنى العظمة التي ليس فوقها عظمة .

المسائل:

الأولى : تفسير الآية :

أي قوله تعالى : ﴿**حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم**﴾ الآية وقد سبق تفسيرها .

الثانية : ما فيه من الحجة على إبطال الشرك :

وذلك أنَّ الملائكة وهم من هم في القوة والعظمة يصعقون ويفزع عن قلوبهم ، فكيف بالأصنام التي تعبد من دون الله ، وهي أقل منهم بكثير فكيف يتعلق الإنسان بها؟!

ولذلك قيل : إنَّ هذه الآية هي التي تقطع عروق الشرك من القلب، لأنَّ الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه حيث ترتجف السماوات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحي ، فكيف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئًا مخلوقًا ربما يصنعه بيده، حتى كان جهّال العرب يصنعون آلهة من التّمر إذا جاع أحدهم أكلها!!

وينزل أحدهم بالوادي فيأخذ أربعة أحجار ثلاثة يجعلها تحت القدر، والرابع وهو أحسنها يجعله إلـهًا له!!!

الثالثة: تفسير قوله: ﴿**قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبيرُ**﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك. **الخامسة**: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله «قال كذا وكذا». **السادسة**: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل. **السـابعة**: أنه يقول لأهل السمٰوات كلهم لأنهم يسألونه. **الثـامنـة**: أنَّ الغشي يعم أهل السمٰوات كلهم. **التاسعة**: ارتجاف السمٰوات لكلام الله.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿**وهو العلي الكبير**﴾.

العلي: ذو العلو، وهو علو ذات، وعلو صفات.

الكبير: ذو العظمة والكبرياء.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك:

فالسؤال: ماذا قال ربكم؟ وسببه شدّة خوفهم منه وفزعهم خوفًا من أن يكون قد قال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا، أي: يقول قال الحق.

السادسة: ذكر أن أوَّل من يرفع رأسه جبريل:

لحديث النواس بن سمعان وفيه فضيلة جبريل.

السابعة: أنَّه يقول لأهل السماوات كلهم لأنَّهم يسألونه:

وفي هذا دليل على عظمته بينهم.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.

تؤخذ من قوله: «**فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخرّوا لله سجدًا**».

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله:

العاشرة: أنَّ جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.
الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.
الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا. **الثالثة عشرة**: إرسال الشهب. **الرابعة عشرة**: أنه تارةً يدركه الشهاب قبل أن يلقيها وتارةً يلقيها في أذنِ وليه من الإنس قبل أن يدركه. **الخامسة عشرة**: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

لقوله: «**أخذت السماوات منه رجفة**» أي لأجله تعظيمًا لله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره:

أي لا أحد يتولّى إيصال الوحي بعد جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به؛ لأنه الأمين على الوحي.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين:

أي الذين يسترقون ما يسمع في السماوات فيلقونه على الكهّان فيزيد فيه الكهّان وينقصون.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا:

وصفها سفيان، رحمه الله، بأن حرف يده وبدَّد بين أصابعه.

الثالثة عشرة: إرسال الشُّهب:

قال تعالى: ﴿**إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين**﴾[1].

الرابعة عشرة: أنَّه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليّه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان:

---

(١) سورة الحجر، الآية: ١٨.

السادسة عشرة: كونه يكذبُ معها مائة كذبةٍ. **السابعة عشرة**: أنَّه لم يصدَّق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء. **الثامنة عشرة**: قبول النفوس الباطل كيف يتعلقون بواحدةٍ ولا يعتبرون بمائة.

لأنه يأتي بما سمع من السَّماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السَّماء صار صادقًا.

اعتراض وجوابه:

كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بقال الحق فقط؟

والجواب: أن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبي ﷺ.

أما الأمور القدرية التي يتكلَّم الله بها فليست خاصة بجبريل، بل ربَّما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقو السمع.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة:

أي يكذب مع الكلمة التي تلقَّاها من المسترِق.

وقوله: «**مائة كذبة**» على سبيل المبالغة ليس على سبيل التَّحديد.

السابعة عشرة: أنَّه لم يصدق إلّا بتلك الكلمة التي سمعت من السَّماء:

وأما ما قاله من عنده فهو تخرّص، فالكلمة التي سمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب على الناس فيموِّه بها عليهم.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلَّقون بواحدة، ولا يعتبرون بمائة؟!!

وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسّفه، فهم يتعلَّقون بالكاهن من أجل مرة واحدة، وأما مائة كذبة فلا

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها. **العشــرون**: إثبات الصفاتِ خلافًا للأشعرية المعطلةِ.

يعتبرون بها، ولا شك أن بعض السُّفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد، ولكن لا يغترّ به أهل العقل والإيمان، ولهذا لما قال تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾[1].

تركها كثير من الصحابة اختيارًا بدون أمر للموازنة، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يُرجِّح جانب المفسدة، فهو وإن لم ينزل الشرع يعرف ويُميِّز بين المضار والمنافع.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقَّى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها.. إلخ.

الكلمة: هي الصدق لأنَّها هي التي تروّج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذبًا ما راجت بين الناس.

العشرون: إثبات الصِّفات خلافًا للأشعريَّة المعطّلة:

فإنَّهم يعطّلون أكثر الصفات، ولا يعطّلون جميعها بخلاف المعتزلة، فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء، هؤلاء عامَّتهم، وإلّا فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء، وأمّا الأشاعرة فهم معطّلة اعتبارًا بالأكثر، لأنَّهم لا يثبتون من الصِّفات إلا سبعًا، وصفاته تعالى لا تُحصى، وإثباتهم لهذه السَّبع ليس كإثبات السَّلف فمثلاً: الكلام عند أهل السنَّة: أن الله يتكلَّم بمشيئته بصوت وحرف.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

. . . .

والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزوم الحياة والعلم، وأنَّه لا يتكلَّم بمشيئة وأن هذا الذي يسمع عبارة عن كلام الله خلقه الله تعالى، فحقيقة الأمر أنَّهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنَّه لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله، لأنَّنا أجمعنا على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق، وحجَّتهم في إثبات الصفات السَّبع: أن العقل دلّ عليها.

وشبهتهم في إنكار البقية: زعموا أنَّ العقل لا يدلّ عليها.

والردّ عليهم بما يلي:

١ - أنَّ كون العقل يدلّ على الصِّفات السَّبع لا يدلّ على انتفاء ما سواها فإن انتفاء الدليل المعيَّن لا يستلزم انتفاء المدلول، فهب أن العقل لا يدلّ على بقية الصفات لكن السمع دل عليها، فنثبتها بالدليل السمعي.

٢ - أنَّها ثابتة بالدليل العقلي نظير ما أثبتم هذه السبع فمثلاً: الإرادة ثابتة لله عندهم بدليل التخصيص حيث إنَّ الله جعل الشمس شمسًا، والقمر قمرًا، والسماء سماءً، والأرض أرضًا، وكونه يميِّز بين ذلك معناه: أنَّه سبحانه وتعالى يريد، إذ لولا الإرادة لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأنَّ العقل دلَّ عليها.

فنقول لهم: الرحمة لا تمضي لحظة على الخلق إلا وهم في نعمة من الله فهذه النعم العظيمة من الله تدلّ على رحمته لخلقه أدلّ من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العُصاة يدلّ على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم، أدلّ من التخصيص على الإرادة وعلى هذا فقس، فالمؤلف رحمه الله لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات

الحادية والعشرون: التصريح بأنَّ تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله عزَّ وجلَّ. **الثانية والعشرون:** أنَّهم يخرُّون لله سجدًا.

على خلاف في إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطّلة على سبيل الإطلاق، وإلا فالحقيقة أنهم ليسوا معطلّة على سبيل الإطلاق.

الحادية والعشرون: التصريح بأنَّ تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله عز وجل:

فيدلّ على عظمة الخالق، جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.

الثانية والعشرون: أنَّهم يخرّون لله سجدًا.

أي: تعظيمًا لله واتقاءً لما يخشونه، فتفيد تعظيم الله عز وجل كالتي قبلها.

باب
الشفاعة

ذكر المؤلف، رحمه الله، الشفاعة في كتاب التوحيد؛ لأنَّ المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنها شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك.

وهم بذلك يظنُّون أنَّهم معظمون لله، ولكنهم منتقصون له، لأنَّه عليم بكل شيء وله الحكم التَّام المطلق والقدرة التامة، فلا يحتاج إلى شفعاء.

ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله فيقربونا إلى الله، فهو عليم وقدير وذو سلطان، ومن كان كذلك فإنَّه لا يحتاج إلى شفعاء.

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لقصور قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم فيتجرَّأ عليهم الشفعاء فيشفعون بدون استئذان، ولكن الله عز وجل كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يُراد بها معونة الله سبحانه في شيء مما شفع فيه، فهذا ممتنع كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام(1)، ولكن يُقصد بها أمران هما:

١ ـ إكرام الشافع.

٢ ـ نفع المشفوع له.

والشفاعة:

لغة: اسم من شفع يشفع إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر.

---

(1) انظر ص (٣٤١).

وقول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وأَنْذرْ به الذين يخافُون أن يُحْشَرُوا إلى ربِّهم ليس لهم من دُونِهِ وليٌّ ولا شفيعٌ ﴾[1].

قال تعالى: ﴿والشَّفع والوتر﴾[2].

واصطلاحًا: التوسُّط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرَّة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي، ﷺ، لأهل الجنَّة بدخولها[3].

مثال دفع المضرَّة: شفاعة النبي، ﷺ، لمن استحق النار أن لا يدخلها.

قوله: ﴿وأنذر به﴾. الإنذار: هو الإعلام المتضمن للتخويف، أمَّا مجرد الخبر فليس بإنذار، والخطاب للنبي ﷺ.

والضمير في «به» يعود للقرآن كما قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا لتنذر أم القرى ومن حولها﴾[4] وقال تعالى: ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾[5].

وقوله: ﴿يخافون أن يحشروا﴾ أي يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في ذلك الحشر.

والحشر: الجمع، وقد ضمن هنا معنى الضم والانتهاء، يحشرون أي يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

قوله: ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾.

ولي: أي ناصر ينصرهم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥١.

(٢) سورة الفجر، الآية: ٣.

(٣) يأتي ص (٣٣٣).

(٤) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢.

وقوله: ﴿ قُل لله الشَّفاعَةُ جميعًا ﴾[1].

ولا شفيع: أي شافع يتوسَّط لهم، وهذا محل الشاهد، ففي هذه الآية نفي الشفاعة من دون الله، أي من دون إذنه، ومفهومها: أنها ثابتة بإذنه وهذا هو المقصود، فالشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة.

أمـا عند الملوك فجائزة بإذنهم وبغير إذنهم، فيمكن لمن كان قريبًا من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن.

ويفيد قوله: ﴿من دونه﴾ أنه لهم بإذنه ولي وشفيع كما قال تعالى: ﴿إنَّما وليكم الله ورسوله﴾[2].

قولـه: ﴿لله الشفاعة﴾ مبتدأ وخبر، وقُدِّم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته، فأفادت الآية في قوله: ﴿جميعًا﴾ أن هناك أنواعًا للشفاعة.

وقد قسَّم أهل العلم، رحمهم الله، الشفاعة إلى قسمين رئيسيين هما:

القسم الأول: الشفاعة الخاصَّة بالرسول، ﷺ، وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله، فإنَّ الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغمِّ والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض اطلبوا من يشفع لنا عند الله، فيذهبون إلى آدم أبي البشر فيذكرون من أوصافه التي ميَّزه الله بها أن الله خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء، فيقولون: اشفع لنا عند ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه! فيعتذر لأنَّه عصى الله بأكله من الشجرة. ومعلوم أنَّ الشافع إذا كان عنده شيء يخدش كرامته عند المشفوع إليه فإنَّه لا يشفع لخجله

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

. . . .

من ذلك، مع أن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتباه وهداه قال تعالى: ﴿وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾[1].

ثم يذهبون إلى نوح، ويذكرون من أوصافه التي امتاز بها بأنه أول رسول أرسله الله إلى الأرض، فيعتذر بأنَّه سأل الله ما ليس له به علم حين قال: ﴿رب إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾[2].

ثم يذهبون إلى إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من صفاته ثم يعتذر بأنه كذب ثلاث كذبات لكنها حق حسب مراده.

ثم يذهبون إلى موسى، ﷺ، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع، لكنه يعتذر بقتل نفس لم يؤمر بقتلها، وهي نفس القبطي حين استغاثه الإسرائيلي فوكز موسى القبطي فقتله فقضى عليه.

ثم يذهبون إلى عيسى، عليه الصلاة السلام، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع فيعتذر إلَّا أنه لا يقدم ما يكون عذرًا، فيقول: اذهبوا إلى محمد، عبد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر، فيحيلهم إلى محمد، ﷺ، دون أن يذكر عذرًا يحول بينه وبين الشفاعة[3].

الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها[4] لأنَّهم إذا عبروا الصراط =

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٥.

(٣) حديث الشفاعة من حديث أبي هريرة، رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدًا شكورًا﴾ ٣/ ٢٥٠، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة ١/ ١٨٤.

(٤) ورد التصريح بهذه الشفاعة في حديث الصور، رواه الطبراني في المطولات ٢٥/ ٦٦ رقم (٣٦) وابن جرير في الجامع ٢/ ٣٣٠، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٩ ونسبه إلى

. . . .

ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع لهم فيشفع النبي، ﷺ، إلى الله في فتح أبواب الجنة لأهلها، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: **﴿حتى إذا جاءُوها وفتحت أبوابها﴾**[1] فقال: «وفتحت» فهناك شيء محذوف، أي وحصل ما حصل من الشفاعة، وفتحت الأبواب، أمَّا النار فقال فيها: **﴿حتى إذا جاءُوها فتحت أبوابها﴾**.

الثالث: شفاعته، ﷺ، في عمه أبي طالب أن يُخفّف عنه العذاب[2]، وهذه مستثناة من قوله تعالى: **﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾**[3] وقوله تعالى: **﴿يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلاّ من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾**[4]، وذلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبي، ﷺ، ودفاع عنه، وهو لم يخرج من النار لكن خفف عنه، حتى صار ـ والعياذ بالله ـ في ضحضاح من نار وعليه نعلان منها يغلي منهما دماغه، وهذه الشفاعة خاصة بالرسول، ﷺ، لا أحد يشفع في كافر أبدًا إلا النبي، ﷺ، ومع ذلك لم تقبل الشفاعة كاملة وإنما تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة له، ﷺ، ولجميع المؤمنين:

وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وهذه قد

= أبي يعلى وابن المنذر وغيرهم، وضعفه ابن كثير في تفسيره ٢/١٤٦، وفي صحيح مسلم من حديث أنس «أنا أول شفيع في الجنة» رقم (١٩٦).

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٢) من حديث العباس بن عبدالمطلب، رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة/ باب قصة أبي طالب ٣/٦٢، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ١/١٩٤.

(٣) سورة المدثر، الآية: ٤٨.

(٤) سورة طه، الآية: ١٠٩.

. . . .

يستـدلّ عليها بقول الرسول ﷺ: «**ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلاّ شفعهم الله فيه**»[1] فإنَّ هذه شفاعة قبل أن يدخل النار فيشفعهم الله في ذلك.

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث، وأجمعت عليها الصحابة، واتّفق عليها أهل الملل ما عدا طائفتين وهما: المعتزلة والخوارج، فإنَّهم ينكرون الشفاعة في أهل المعاصي مطلقًا، لأنَّهم يرون أنَّ فاعل الكبيرة مخلَّد في النار، ومن استحق الخلود فلا تنفع فيه الشفاعة، فهم ينكرون أن النبي، ﷺ، أو غيره يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار، أو إذا دخلوها أن يخرجوا منها، لكن قولهم هذا باطل بالنص والإجماع.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال، ﷺ، في أبي سلمة: «**اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، وأفسح له في قبره ونوِّر له فيه واخلفه في عقبه**»[2].
والدعاء شفاعة كما قال ﷺ: «**ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يُشركون بالله شيئًا إلا شفَّعهم الله فيه**».

إشكال وجوابه:

فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلاّ بإذنه سبحانه، فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: أنَّ الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأمره بالدعاء إذنٌ وزيادة.

---

(١) من حديث ابن عباس رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب من صلى عليه أربعون ٢/٦٥٥.
(٢) من حديث أم سلمة، رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب في إغماض الميت ٢/٦٣٤.

وقوله: ﴿من ذا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بإذْنِهِ﴾[1].

وأمَّا الشفاعة الموهومة التي يظنّها عبَّاد الأصنام من معبوديهم، فهي شفاعة باطلة؛ لأنَّ الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلّا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم.

إذًا قوله: ﴿لله الشفاعة جميعًا﴾ تفيد أنَّ الشفاعة متعددة كما سبق[2].

قوله: ﴿من ذا الذي﴾.

من: اسم استفهام بمعنى النفي، أي لا يشفع أحد عند الله إلّا بإذنه.

ذا: هل تجعل «ذا» اسمًا موصولاً كما قال ابن مالك في الألفيّة، أو لا تصح أن تكون اسمًا موصولاً هنا لوجود الاسم الموصول (الذي)؟ الثاني: هو الأقرب وإن كان بعض المعربين قال: يجوز أن تكون (الذي) توكيدًا لها.

والصحيح أن «ذا» هنا إما مركبة مع (من) أو زائدة للتوكيد، وأيًّا كان الإعراب فالمعنى: أنَّه لا أحد يشفع عند الله إلّا بإذن الله.

وسبق أنَّ النفي إذا جاء في سياق الاستفهام فإنَّه يكون مضمنًا معنى التحدي، أي إذا كان أحد يشفع بغير إذن الله فأت به.

قوله: ﴿عنده﴾ ظرف زمان، وهو سبحانه في العلو.

فلا يشفع أحد عنده ولو كان مقرَّبًا كالملائكة المقرَّبين إلّا بإذنه الكوني، والإذن لا يكون إلّا بعد الرضا.

وأفادت الآية: أنَّه يشترط للشفاعة إذن الله فيها لكمال سلطانه جل وعلا، فإنه كلَّما كمل سلطان الملك فإنَّه لا أحد يتكلَّم عنده ولو كان بخير إلّا بعد إذنه، ولذلك يعتبر اللغط في مجلس الكبير إهانة له ودليلاً على أنَّه ليس كبيرًا

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(2) سبق ص (٣٣٢).

وقوله: ﴿وكم من مَلَكٍ في السمٰوات لا تُغْني شفاعتهم شيئًا إلَّا من بعد أن يأْذَنَ الله لمن يشاء ويرضى﴾[1].

في نفوس من عنده، كان الصحابة مع الرسول، ﷺ، كأنَّما على رؤوسهم الطير من الوقار وعدم الكلام إلّا إذا فتح الكلام فإنَّهم يتكلَّمون.

قوله: ﴿وكم من مَلَك﴾ كم: خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السماء، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئًا إلّا بعد إذن الله ورضاه.

قوله: ﴿إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾.

فللشفاعة شرطان هما:

١ ـ الإذن من الله لقوله: ﴿أن يأذن الله﴾.

٢ ـ رضاه عن المشفوع له لقوله: ﴿ويرضى﴾ وكما قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى﴾[2] فلابد من إذنه تعالى ورضاه عن المشفوع له؛ إلّا في التخفيف عن أبي طالب وقد سبق ذلك[3].

وهذه الآية في سياق بطلان ألوهية اللات والعزى، قال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي، ﷺ، فيه: ﴿لقد رأى من ءايٰت ربه الكبرى﴾[4] أي العلامات الدالة عليه عز وجل، فكيف به سبحانه؟ فهو أكبر وأعظم.

ثم قال: ﴿أفرأيتم اللّات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى﴾[5]، وهذا استفهام للتحقير فبعد أن ذكر لهم هذه العظمة قال: أخبروني عن هذه اللات والعزى ما عظمتها؟ وهذا غاية في التحقير، ثم قال: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٣) ص (٣٣٢).

(٤)(٥) سورة النجم، الآيات: ١٨ ـ ٢٦.

وقـوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا الذين زعَمْتُمْ من دُون الله لا يَمْلِكُون مِثْقال ذَرَّةٍ في السمٰوات ولا في الأرضِ ﴾ الآيتين[1].

تلك إذًا قسمة ضيزى إن هي إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للإنسان ما تمنَّى فلله الآخرة والأولى وكم من ملك﴾ الآية[2].

فإذا كانت الملائكة وهي في السماوات في العلو لا تغني شفاعتهم إلّا بعد إذنه ورضاه، فكيف باللّات والعزى وهي في الأرض؟!

ولهذا جاء بقوله: ﴿**وكم من ملك في السموات**﴾ مع أنَّ الملائكة تكون في السماوات وفي الأرض، ولكن أراد الملائكة التي في السماوات العلى، وهي عند الله سبحانه، فحتى الملائكة المقرَّبون حملة العرش لا تغني شفاعتهم إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

قولـه: ﴿**قل ادعوا**﴾ الأمر هنا للتحدي والتعجيز، وقوله: ﴿**ادعوا**﴾ يحتمل معنيين هما:

١ - احضروهم.

٢ - ادعوهم دعاء مسألة.

فلو دعوهم دعاء مسألة لا يستجيبون لهم كما قال تعالى: ﴿**إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير**﴾[3].

يكفـرون: يتبرؤون، ومع هذه الآيات العظيمة يذهب بعض الناس

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٢.

(٢) سورة النجم، الآيات: ١٨ - ٢٦.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٤.

. . . .

يشرك بالله ويستنجد بغير الله، وكذلك لو دعوهم دعاء حضور لم يحضروا، ولو حضروا ما انتفعوا بحضورهم.

قوله: ﴿**لا يملكون مثقال ذرة**﴾ واحدة الذر وهي صغار النمل، ويضرب بها المثل في القلَّة.

قوله: ﴿**مثقال ذرَّة**﴾ وكذلك ما دون الذرَّة لا يملكونه، والمقصود بذكر الذرَّة المبالغة، وإذا قصد المبالغة بالشيء قلَّة أو كثرة فلا مفهوم له، فالمراد الحكم العام، فمثلاً قوله تعالى: ﴿**إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**﴾[1] أي: مهما بالغت في الاستغفار.

ولا يرد على هذا أن الله أثبت ملكًا للإنسان، لأنَّ ملك الإنسان قاصر وغير شامل ومتجدد وزائل، وليس كملك الله.

قوله: ﴿**ما لهم فيهما من شرك**﴾ أي ما لهؤلاء الذين تدعون من دون الله.

فيهما: أي في السماوات والأرض.

من شرك : أي لا يملكونه انفرادًا ولا مشاركة.

والضمير في «فيهما» يعود إلى السماوات والأرض.

وقوله: ﴿**من شرك**﴾ مبتدأ مؤخَّر دخلت عليه «من» الزائدة لفظًا لكنها للتوكيد معنى.

قاعدة: كل زيادة لفظية في القرآن فهي زيادة في المعنى.

أي لا يملكون أي مشاركة بوجه من الوجوه، فانتفى الانفراد وانتفت المشاركة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٠.

. . . .

وأتت «من» للمبالغة في النفي، وأنَّه ليس هناك شرك لا قليل ولا كثير.

قوله: ﴿**وما له منهم من ظهير**﴾ الضمير في «ما له» يعود إلى الله تعالى وفي «منهم» يعود إلى الأصنام.

و«من» حرف جر زائد، و«ظهير» مبتدأ مؤخر بمعنى: مُعين كما قال تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾[1] أي معينًا، وقال تعالى: ﴿**والملائكة بعد ذلك ظهير**﴾[2] أي معين.

أي ليس لله معين يعينه في أفعاله فينتفي عن هذه الأصنام كل ما يتعلَّق به العابدون، فهم لا يملكون شيئًا على سبيل الانفراد ولا المشاركة ولا الإعانة، لأنَّ من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له منَّة عليك فربما تحابيه في إعطائه ما يُريد.

فإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة، لم يبق إلاّ الشفاعة، وقد أبطلها الله بقوله: ﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده إلاّ لمن أذن له**﴾[3] فلا تنفع عند الله الشفاعة لهؤلاء، لأنَّ هذه الأصنام لا يأذن الله لها، فانقطعت كل الوسائل والأسباب للمشركين، وهذا من أكبر الآيات الدالة على بطلان عبادة الأصنام، لأنَّها لا تنفع عابديها لا استقلالاً ولا مشاركة ولا مساعدة ولا شفاعة، فتكون عبادتها باطلة، قال تعالى: ﴿**ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**﴾[4] حتى ولو كان المدعو عاقلاً لقوله: «من» ولم يقل: «ما» ثم قال

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٥.

قال أبو العباس: نفى الله عمَّا سواهُ كل مايتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره مُلْكٌ أو قِسْطٌ منهُ، أو يكون عونًا لله،

تعالى: ﴿**وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾[1] وكل هذه الآيات تدل على أنه يجب على الإنسان قطع جميع تعلقاته إلا بالله عبادة وخوفًا ورجاءً واستعانة ومحبة وتعظيمًا حتى يكون عبدًا لله حقيقة؛ يكون هواه وإرادته وحبه وبغضه وولاؤه ومعاداته لله وفي الله؛ لأنَّه مخلوق للعبادة فقط، قال تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾[2] أي لا نأمركم ولا نهاكم، إذ لو خلقناكم فقط للأكل والشرب والنكاح لكان ذلك عين العبث، ولكن هناك شيء وراء ذلك وهو عبادة الله سبحانه في هذه الدنيا.

وقوله: ﴿**إلينا لا ترجعون**﴾ فنجازيكم، وإذا كان هذا هو حسبانكم فهو حسبان باطل.

قوله: «**قال أبو العباس**» هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية رحمه الله يُكنى بذلك، ولم يتزوَّج لأنَّه كان مشغولاً بالعلم والجهاد وليس زهدًا في السنة مات سنة (٧٢٨)هـ وله (٦٧) سنة و(١٠) أشهر.

قوله: «**لغيره ملك**» أي لغير الله في قوله: ﴿**لا يملكون مثقال ذرة**﴾.

قوله: «**أو قسط منه**» في قوله: «**وما له فيهما من شرك**».

قوله: «**أو يكون عونًا لله**» في قوله تعالى: ﴿**وما له منهم من ظهير**﴾. بدون استثناء.

قوله: «**ولم يبق إلاّ الشفاعة**» فبيَّن أنها لا تنفع إلاّ من أذن له الرب، كما

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٦.　　(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

ولم يَبْق إلا الشَّفاعَةُ، فَبيَّنَ أَنَّها لا تَنْفَعُ إلا لمن أَذن له الرَّبُّ، كما قال: ﴿ ولا يَشْفَعُونَ إلا لمن ارْتَضَى ﴾[1].

فهذه الشفاعةُ التي يَظُنُّها المشركون هي مُنْتَفِيةٌ يوم القيامة، كما

قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى﴾ وقال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه﴾[2] ونعلم من آيات أخرى أنَّه لا يأذن إلا لمن ارتضى، ومعلوم أنَّه لا يرضى هذه الأصنام لأنها باطلة، وحينئذٍ فتكون شفاعتها منتفية.

واعلم أنَّ شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام، أما الآن فهو في طاعة المخلوق في المعصية، فإنَّ هؤلاء يقدِّسون زعماءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقال لهم: إنَّهم لا يملكون، هم بشر مثلكم خرجوا من مخرج البول والحيض، وليس لهم شرك في السماوات، ولا يملكون الشفاعة لكم عند الله، إذًا فكيف تتعلَّقون بهم؟ حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين؟

والواجب: علينا نحو ولاة الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة الله وليست استقلالاً، أمَّا عبادتهم كعبادة الله فهذه جاهليَّة وكفر.

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، فالله سبحانه وتعالى نفى أن تنفعهم أصنامهم بل قال: ﴿إنَّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾[3] حتى الأصنام لا تنفع نفسها ولا يشفع لها فكيف تكون شافعة؟ بل هي في النار وعابدوها.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

نفاها القرآن، وأخْبر النبي ﷺ: «**أنه يأتي فيسجد لربه ويحَمَدُهُ - لا يبدأ بالشفاعة أوَّلاً - ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يُسْمَعْ، وسلْ تُعْط، واشْفَع تُشَفّعْ**»(١).

وقال أبو هريرة له ﷺ: **من أسْعدُ الناس بشفاعتك؟**

قوله: «**وأخبر النبي، ﷺ، أنَّه يأتي فيسجد لربه**» أي: وكما أخبر، أو نجعل الواو استئنافية.

فإذا كان الرسول، ﷺ، وهو أعظم الناس جاهًا عند الله لا يشفع إلّا بعد أن يحمد الله ويُثني عليه، فيحمد الله بمحامد عظيمة يفتحها الله عليه لم يكن يعلمها من قبل، ويطول سجوده فكيف بهذه الأصنام؛ هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟

قوله: «**ارفع رأسك**» أي من السجود.

قوله: «**وقل يسمع**» السامع هو الله، و«يسمع» جواب الأمر مجزوم.

قوله: «**وسَلْ تُعْطَ**» أي سل ما بدالك تعطى إيَّاه، وتعطَ: مجزوم بحذف حرف العلة جوابًا لسل.

قوله: «**واشْفَع تُشفَّع**» وحينئذٍ يشفع النبي، ﷺ، في الخلائق أن يقضي بينهم.

قوله: «**وقال أبو هريرة له ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك**»؟ هذا السؤال من أبي هريرة للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «**لقد كنت أظن أن لا يسألني أحد غيرك عنه لما أرى من حرصك على العلم**». وفي هذا دليل على أن من وسائل تحصيل العلم السؤال.

---

(١) سبق ص (٣٣٣).

قال: «من قال لا إله إلا الله خالصًا مِن قلبه»[1].

قوله: «**من قال لا إلـه إلا الله خالصًا من قلبه**» وعليه فالمشركون ليس لهم حظٌّ من الشفاعة لأنَّهم لا يقولون: لا إلـه إلا الله، قال تعالى: ﴿**إنَّهم كانوا إذا قيـل لهم لا إلـه إلا الله يستكـبرون. ويقـولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾[2] وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿**أجعل الآلهة إلـهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب**﴾[3].

والحقيقــة: أن صنيعهم هو العجــاب، قال تعــالى: ﴿**بـل عجبت ويسخرون**﴾[4]. وقال تعالى: ﴿**وإن تعجب فعجب قولهم أءِذَا كنَّا ترابًا أئنَّا لفي خلق جديد**﴾[5].

وقوله: «**خالصًا من قلبه**» خرج بذلك من قالها نفاقًا، فإنَّه لا حظّ له في الشفاعة فإنَّ المنافق يقول: لا إلـه إلا الله ويقول: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله، لكن الله عز وجل قابل شهادتهم هذه بشهادته على كذبهم قال تعالى: ﴿**والله يعلم إنَّك لرسوله والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون**﴾[6] أي في شهادتهم، في قولهم: إنَّك لرسول الله فهم كاذبون في شهادتهم وفي قولهم: لا إلـه إلا الله لأنَّهم لو شهدوا ذلك ما نافقوا، ولا أبطنوا الكفر.

قوله: «**خالصًا**» أي سالمًا من كل شوب، فلا يشوبها رياء ولا سمعة، بل هي شهادة يقين.

---

(١) من حديث أبي هريرة رواه البخاري، كتاب العلم/ باب الحرص على الحديث ١/٥٢.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٣٦.

(٣) سورة ص، الآية: ٥.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١٢.

(٥) سورة الرعد، الآية: ٥.

(٦) سورة المنافقون، الآية: ١.

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكونُ لمن أَشْرَكَ بالله.
وحقيقتُه أنَّ الله سبحانه هو الذي يَتَفَضَّلُ على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسِطَةِ دعاء من أَذِن له أن يَشْفع لِيُكْرِمَهُ،

قوله: «**من قلبه**» لأنَّ المدار على القلب وهو ليس معنى من المعاني، بل هو مضغة في صدور الناس قال ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه**»(١).

وبهذا يبطل قول من قال: إنَّ العقل في الدماغ، ولا يُنكر أنَّ للدماغ تأثيرًا في الفهم والعقل، لكن العقل في القلب ولهذا قال أحمد: «العقل في القلب وله اتصال في الدماغ».

ومن قال كلمة الإخلاص خالصًا من قلبه، فلابد أن يطلب هذا المعبود باتباع الأوامر واجتناب النواهي.

قولـه: «**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص**» لأنَّ من أشرك بالله قال الله فيه: ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾.

قوله: «**وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع**».

وحقيقته: أي أنَّ الفائدة منها أنَّ الله عز وجل أراد أن يغفر للمشفوع له، ولكن بواسطة هذه الشفاعة.

والحكمة من هذه الواسطة: بيَّنها بقوله: «**ليكرمه وينال المقام المحمود**» ولو شاء الله لغفر لهم بلا شفاعة، ولكنه أراد بيان فضل هذا الشافع وإكرامه أمام الناس، ومن المعلوم أنَّ من قبل الله شفاعته فهو عنده بمنزلة عالية فيكون

---

(١) من حديث النعمان بن بشير، رواه البخاري، كتاب الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٣٤، ومسلم، كتاب المساقاة/ باب أخذ الحلال، وترك الشبهات ٣/ ١٢١٩.

وينالَ المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ماكان فيها شِرْكٌ، ولهذا أَثْبَت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بيَّن النبي ﷺ أنَّها لا تكونُ إلا لأهل الإخلاص والتوحيد» انتهى كلامه.

في هذا إكرام للشافع من وجهين:

الأول: ظهور فضله على المشفوع له.

الثاني: ظهور جاهه عند الله تعالى.

قوله: «**المقام المحمود**» يعني بذلك الرسول ﷺ أي أنَّ الله وعد رسوله أن ينال المقام المحمود، ومن المقام المحمود: أن الله يقبل شفاعته بعد أن يتراجع الأنبياء أولو العزم عنها.

ومن يشفع من المؤمنين يوم القيامة فهذا مقام يحمد عليه فهو فضل من الله، ويحمد على قدر شفاعته.

قوله: «**فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك**» هذا كلام لشيخ الإسلام.

ما: اسم موصول أي التي كان فيها شرك.

قوله: «**وقد أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع**» ومن ذلك قوله تعالى: **﴿من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه﴾**[1] وقوله: **﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلاّ لمن أذن له﴾**[2] وقوله: **﴿وكم من ملك في السمٰوات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾**[3] وقد بين الرسول، ﷺ، هذه المواضع،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النجم، الآية: ٢٦.

. . . .

بل القرآن بين أنَّها لا تكون إلّا لأهل الإخلاص والتوحيد.

قولــه: «**وقـد بيَّن النبي، ﷺ، أنَّها لا تكـون إلّا لأهـل الإخـلاص والتـوحيـد**» أمَّا أهل الشرك فإنَّ الشفاعة لا تكون لهم، لأنَّ شفعاءهم هم الأصنام، وهي باطلة.

وجه إدخال باب الشفاعة في كتاب التوحيد: أنَّ الشفاعة الشركيَّة تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

فيه مسائل : الأولى: تفسيرُ الآياتِ. **الثانية**: صفةُ الشفاعةِ المنفيَّةِ. **الثالثة**: صفةُ الشفاعةِ المثبتة. **الرابعة**: ذكرُ الشفاعةِ الكبرى وهي المقامُ المحمودُ. **الخامسة**: صفةُ ما يفعلهُ ﷺ أنَّه لا يبدأُ بالشفاعةِ بل يسجدُ فإذا أُذنَ له شفعَ. **السادسة**: من أسعدُ الناس بها؟

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات: وهي خمس، وسبق تفسيرها في أول الباب.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية: وهي ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك فإنَّها منفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة: وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذنه ورضاه عن المشفوع له.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود: وهي ما أشار إليه الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1].

الخامسة: صفة ما يفعله، ﷺ، وأنَّه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد فإذا أذن له شفع: كما قال شيخ الإسلام رحمه الله وهو ظاهر وهذا يدل على عظمة الرب، وكمال أدب النبي ﷺ.

السادسة: مَنْ أسعد الناس بها؟: هم أهل التوحيد والإخلاص من قال: لا إلـه إلا الله هذا هو التوحيد، خالصًا من قلبه.

ولا إلـه إلا الله: معناه: لا معبود بحق إلاّ الله، وليس المعنى: لا معبود إلاّ الله لأنَّه لو كان كذلك لكان الواقع يكذِّب هذا، إذ إنَّ هناك معبودات من دون الله تعبد وتسمَّى آلهة.

---

(١) ص (٣٤١).

السابعة: أنَّها لا تكونُ لمن أشركَ بالله. **الثامنة**: بيانُ حقيقتها.

وعلمنا: «أنَّ لا إلـه إلا الله» تتضمن نفيًا وإثباتًا، هذا هو التوحيد لأنَّ الإثبات المجرَّد لا يمنع المشاركة، والنفي المجرَّد تعطيل محض، فلو قلت: لا إلـه معنـاه عطَّلت كل إلـه، ولـو قلت: الله إلـه ما وحَّدت، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وإلـهكم إلـه واحد**﴾[1] لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله: لقوله تعالى: ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾[2] وغير ذلك مما نفى الله من الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: «**خالصًا من قلبه**».

الثـامنـة: بيان حقيقتهـا: وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

ما الحكمة في أنَّ الله أذِنَ له أن يشفع لعمه أبي طالب مع أنَّه كافر؟

الجواب: لأنَّه دافع عن الدين وعن الرسول، ﷺ، ومع ذلك لم ينج من النَّار.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٤٨.

باب

قول الله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ الآية

مناسبة هذا الباب لما قبله:

هذا الباب نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحدًا بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحدًا حتى يقوم بها أمر الله به.

قولـه: ﴿**إنَّك لا تهدي من أحببت**﴾[1] الخطاب للنبي، ﷺ، المُتَّخذ خليلاً، والمحاوَل هدايته عمّه أبو طالب، أو من هو أعم.

فأنت يا محمد المخاطب بكاف الخطاب، وله المنزلة الرفيعة عند الله، لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ومعلوم أنَّه إذا أحب هدايته فسوف يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكّن من هذا الأمر، لأنَّ الأمر كله بيد الله قال تعالى: ﴿**ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذِّبهم**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**ولله غيب السمٰوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله**﴾[3] فأتى بـ «أل» الدالة على الاستغراق لأنَّ «أل» في قوله: «الأمر» للاستغراق، فهي نائبة مناب كل، أي وإليه يرجع كل الأمر ثم جاءت مؤكّدة بكل، وذلك توكيدان.

والهداية التي نفاها الله عن رسوله، ﷺ، هداية التوفيق، والتي أثبتها هداية الدلالة والإرشاد، ولهذا أتت مطلقة لبيان الذي بيده هو هداية الدلالة فقط، لا أن يجعله مهتديًا قال تعالى: ﴿**وإنَّك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾[4].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.
(٣) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

وفي الصحيح عن ابن المسيَّب عن أبيه، قال: لَمَّا حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة،

فلم يخصص سبحانه فلانًا وفلانًا ليبيِّن أن المراد: تدل، فأنت الآن تفتح الطريق أمام الناس فقط وتبيِّن لهم وترشدهم، وأمَّا إدخال الناس في الهداية، فهذا أمر ليس إلى الرسول، ﷺ، إنَّما هو مما تفرَّد الله به سبحانه، فنحن علينا أن نبيِّن وندعو ونبلِّغ، وأمَّا هداية التوفيق أي: أن الإنسان يهتدي فهذا إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الجمع بين الآيتين.

قوله: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت**﴾ فيه إشارة إلى أنَّ النبي، ﷺ، يحب أبا طالب.

والجواب: إمَّا أن يُقال:

إنَّه على تقدير أنَّ المفعول محذوف، والتقدير: من أحببت هدايته لا من أحببته هو.

أو يُقال: إنَّه أحب عمّه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافرًا.

أو يُقال: إنَّ ذلك قبل النَّهي عن محبَّة المشركين.

والأول أقرب، أي من أحببت هدايته لا عينه، وهذا عام لأبي طالب وغيره.

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، ولا ينافي هذا المحبَّة الشرعية، وقد أُحبّ أن يهتدي هذا الإنسان ليس لأنه فلان، وإن كنت أبغضه شخصيًّا لكفره، ولكن لأنّي أحب أن النَّاس يسلكون دين الله.

قوله: «**في الصحيح**» أي: في الصحيحين.

قوله: «**أبا**» بالألف مفعول به منصوب بالألف؛ لأنَّه من الأسماء الخمسة. والوفاة: يعني الموت.

جاءهُ رسول الله ﷺ وعنده عبدالله بن أبي أُمية وأبو جهلٍ ، فقال له : «**ياعمِّ، قل لا إله إلا الله، كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله**»، فقالا له : أترغَبُ عن مِلَّة عبدالمطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ،

قوله : «**فقال يا عم، قل لا إلـه إلا الله**» أتى ﷺ بهذا الوصف الدال على العطف لأنَّ العم صنو الأب أي كالغصن معه.

والصنو: الغصن الذي أصله واحد فكأنه معه كالغصن.

قوله : «**يا عم**» فيها وجهان :

يا عمِ : على تقدير أنها مضافة إلى الياء.

ويا عمُ : على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله : «**قل لا إلـه إلا الله**» يجوز أنَّه قاله على سبيل الأمر والإلزام لأنَّه يجب أن يأمر كل أحد أن يقول لا إلـه إلاّ الله.

ويجوز أنه قاله على سبيل الإرشاد والتوجيه.

ويجوز أنَّه قاله على سبيل الترجِّي والتلطُّف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها ولهذا بادر بالإنكار.

قوله : «**كلمة**» منصوبة لأنَّها بدل لا إلـه إلاّ الله، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنَّصب أن تكون بالرَّفع أي : هي كلمة، ولكن النَّصب أوضح.

قوله : «**أحاجُّ**» بضم الجيم وفتحها فعلى ضم الجيم فهي صفة لكلمة، وإذا كانت بالفتح مجزومة جوابًا للأمر: «قل» أي : إن تقل أحاج.

قال بعض المعـربـين: إنَّها جواب لشرط مُقـدَّر أي : إن تقل أحاج.

وبعضهم يرى أنها جواب للأمر مباشرة، وهذا أسهل لأنَّ الأصل عدم التقدير.

والمعنى : أذكرها حجة لك عند الله، وليس أخاصم وأجادل لك بها عند الله، وإن كان بعض أهل العلم قال : إنَّ معناها أجادل الله بها، ولكن الذي

فأعادا فكان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لا إلـه إلا الله، فقال النبي ﷺ: **«لأستَغْفِرَنَّ لك، ما لم أُنْه عنك»**،

يظهر لي: أنَّ المعنى: أحاج لك بها عند الله، أي أذكرها حجة لك، كما جاء في بعض الروايات: **«أشهد لك بها عند الله»**[1].

قوله: **«فقالا له: أترغب عن ملَّة عبدالمطَّلب؟»**.

القائل هما: عبدالله بن أبي أميَّة، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه، لأنَّهم عرفوا أنَّه إذا قالها - كلمة الإخلاص - وحَّد، وملة عبدالمطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته، وهي ملة عبدالمطلب حتى لا يخرج عن ملَّة آبائهم.

وقد مات أبو جهل على ملَّة عبدالمطلب، أمَّا عبدالله بن أبي أميَّة، والمسيب فأسلما، فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضي الله عنهما.

قوله: **«ملَّة عبدالمطلب»** أي دين عبدالمطلب.

قوله: **«فأعاد عليه النبي ﷺ»** أي قوله قل لا إلـه إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله.

قوله: **«فأعادا عليه»** أي أترغب عن ملَّة عبدالمطلب؟

قوله: **«فقال النبي، ﷺ، لأستغفرنَّ لك»** إلخ.

جملة: **«لأستغفرنَّ لك»** مؤكَّدة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة.

والاستغفار: طلب المغفرة، وكأنَّ النبي، ﷺ، في نفسه شيء من القلق حيث قال: **«ما لم أُنْهَ عنك»** فوقع الأمر كما توقَّع.

قوله: **«ما لم أُنْهَ عنك»** فعل مضارع مبني للمجهول، والناهي عنه هو الله.

---

(١) رواها مسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ١/ ٥٤.

فأنـزل الله عزَّ وجـل: ﴿مـاكـان للنَّبِيِّ والـذين آمنوا أن يستغفِرُوا للمشركين﴾.

قوله: «ما كان» ما: نافية، وكان: فعل ماض ناقص.

قوله: ﴿أن يستغفروا﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿للنبي﴾ خبرٌ مقدَّم، أي: ما كان استغفاره.

واعلم: أنَّ ما كان، أو ما ينبغي، أو لا ينبغي ونحوها، إذا جاءت في القرآن فالمراد أنَّ ذلك ممتنع غاية الامتناع كقوله تعالى: ﴿ما كان لله أن يتَّخذ من ولد﴾[1] وقوله: ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتَّخذ ولدًا﴾[2] وقوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تُدرك القمر﴾[3]. وقوله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام»[4].

وقوله: ﴿أن يستغفروا﴾ أي يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾ أي حتَّى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتمر النبي، ﷺ، ومرَّ بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له، فزاره للاعتبار وبكى وبكى من حوله من الصحابة[5]

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٤٠.

(٤) من حديث أبي موسى، رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» ١/ ١٦٠.

(٥) من حديث أبي هريرة رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي، ﷺ، ربه عز وجل زيارة أمه ٢/ ٦٧١.

وأنزل الله في أبي طالب: **﴿إنَّك لا تَهْدِي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاءُ﴾**[1][2].

فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين، لأنَّ هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً للمغفرة، لأنَّك إذا دعوت الله أن يفعل ما لا يليق فهو اعتداء في الدعاء.

قوله: «**وأنزل الله في أبي طالب**» أي في شأنه.

قوله: **﴿إنَّك لا تهدي من أحببت﴾** الخطاب للرسول ﷺ.

قوله: **﴿يهدي من يشاء﴾** كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى مقرون بالحكمة، أي: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنَّه يهتدي، ومن اقتضت حكمته أن يضلّه أضله.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره، فالذين يلجأون به، ﷺ ويستنجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك لأنَّه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنَّه قد قام معه قيامًا عظيمًا، ناصره وآزره في دعوته، فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!

الإشكالات الواردة في الحديث:

١ ـ الإثبات والنفي في الهداية، وقد سبق بيان ذلك[3].

٢ ـ قوله لما حضرت أبا طالب الوفاة يشكل مع قوله تعالى: **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن﴾**[4] وظاهر الحديث قبول توبته.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ ٣/ ٢٧٣، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ١/ ٥٤.

(٣) ص (٣٥١).

(٤) سورة النساء، الآية: ١٨.

. . . .

والجواب على ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يُقال لما حضرت أبا طالب الوفاة أي ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا فالوصف لا ينافي الآية.

الثاني: أنَّ هذا خاص بأبي طالب مع النبي، ﷺ، ويستدل لذلك بوجهين:

أ ـ أنَّـه قال: «كلمة أحاج لك بها عند الله» ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.

ب ـ أنَّه سبحانه أذن للنبي، ﷺ، بالشفاعة لعمه، وهذا لا يصح ولا يستقيم إلاّ له، والشفاعة له ليخرجه من النار، أو ليخفف عنه العذاب.

ويدفعون قول من قالوا: حضرته الوفاة كانت عليه علامات الموت: بأنَّ حضرته الوفاة مطابقة تمامًا لقوله تعالى: ﴿**حتى إذا حضر أحدهم الموت**﴾ وعلى هذا يكون الأوضح في الجواب الاختصاص، وهذا خاص بالنبي، ﷺ، في أبي طالب نفسه.

٣ ـ أنَّ قوله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾(١) هذه الآية من سورة التوبة وهي متأخرة مدنيَّة، وقصة أبي طالب مكيَّة وهـذا يدلّ على تأخّر النَّهي عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن، ﷺ للاستغفار لأمّه(٢) وهو ذاهب للعمرة، وعلى فرض أنها مكيَّة هل يستأذن لأمه؟

الجـواب: لا يمكن، فدل على تأخر الآية وأن المعنى: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، وليس المعنى أنَّها نزلت في ذلك الوقت.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٢) سبق ص (٣٥٥).

. . . .

وقيل: إنَّ سبب نزول الآية هو استئذانه ربه في الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

٤ ـ أنَّ أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إلـه إلا الله، لكن بدون قول قل، لأنَّه ربما مع الضجر يقول: لا؛ لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال: قل.

والجواب: أنَّ هذا كافر فإذا قيل له: قل وأبى فهو على حاله لم يضرَّه التلقـين بهذا، فإمَّـا أن يبقى على كفره ولا ضرر عليه، وإمَّا أن يهديه الله، بخلاف المسلم فهو على خطر لأنَّه ربما يضرّه.

فيه مسائل : الأولى : تفسير قوله : ﴿**إنكَ لا تهدي من أحببتَ**﴾ الآية .
الثانية : تفسير قوله : ﴿**ما كان للنبي**﴾ . الآية .
الثالثة : وهي المسألة الكبيرة تفسيرُ قوله «**قل لا إلـه إلا الله**» بخلافِ ما عليهِ من يدَّعي العلم .

فيه مسائل:

الأولى : تفسير قوله تعالى : ﴿**إنَّك لا تهدي من أحببت**﴾ أي من أحببت هدايته .

وسبق تفسيرها ، وبيَّنَّا أنَّ الرسول ، ﷺ ، إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحدًا وهو حي ، فكيف يستطيع أن يهدي أحدًا وهو ميِّت؟ وأنَّه كما قال الله تعالى في حقِّه : ﴿**قل إنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا**﴾[1] .

الثانية : تفسير قوله : ﴿**ما كان للنبي**﴾ الآية .

وقد سبق تفسيرها ، وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولي قربى .

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات : المرحوم ، فإنَّـه حرام لأنَّ هذا مضـادة لله سبحـانه وتعالى ، وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن على موتهم بالإحداد أو غيره ، لأنَّ المؤمنين يفرحون بموتهم ، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلوهم حتى يكون الدين كلّه لله .

الثالثة : وهي المسألة الكبيرة :

أي الكبيرة من هذا الباب ، وقوله : أي قول النبي ، ﷺ ، لعمه قل : لا إلـه إلا الله ، وعمه عرف المعنى أنه التبرؤ من كل إلـه سوى الله ، ولهذا أبى أن يقولها لأنَّه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها .

---

(١) سورة الجن، الآية : ٢١ .

الرابعة: أنَّ أبا جهلٍ ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا دخل قالَ للرجلِ «قل لا إلـه إلا الله» فقبَّحَ الله أبا جهل! مَنْ أعلم منهُ بأصل الإسلام.

وقوله: «**بخلاف ما عليه من يدعي العلم**» كأنَّه يشير إلى تفسير المتكلمين لمعنى لا إلـه إلا الله حيث يقولون: إنَّ الإلـه هو القادر على الاختراع، وأنَّه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلَّا الله وهذا تفسير باطل.

نعم هو حق لا قادر على الاختراع إلَّا الله، لكن ليس هذا معنى لا إلـه إلَّا الله، ولكن المعنى: لا معبود بحق إلا الله، لأننا لو قلنا: إن معنى لا إلـه إلا الله لا قادر على الاختراع إلا الله، صار المشركون الذين قاتلهم الرسول، ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم، مسلمين، فالظاهر من كلامه، رحمه الله، أنَّهم أهل الكلام الذين يفسِّرون لا إلـه إلا الله بتوحيد الربوبيَّة، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول لا إلـه إلا الله.

الرابعة: أنَّ أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ:

أبو جهل ومن معه يعرفون مُراد النبي، ﷺ، بقول: لا إلـه إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: أترغب عن ملة عبدالمطَّلب؟ وهو أيضًا أبى أن يقولها لأنَّه يعرف مراد النبي، ﷺ، بهذه الكلمة قال تعالى: ﴿**إنَّهم كانوا إذا قيل لهم لا إلـه إلا الله يستكبرون. ويقولون أئِنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾[1].

فالحاصل: أنَّ الذين يدَّعون أنَّ معنى لا إلـه إلا الله أي لا قادر على الاختراع إلَّا هو، أو يقولونها وهم يعبدون غيره كالأولياء هم أجهل من أبي جهل.

واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبي جهل لأنَّهم أسلموا، وبذلك

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٣٦.

الخامسة: جِدّه، ﷺ، ومبالغته في إسلام عمه. **السادسة**: الردُّ على من زعم إسلام عبدالمطلب وأسلافه.

صاروا أعلم ممن بعدهم؛ خاصة من بعدهم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف.

الخامسة: جده ومبالغته في إسلام عمه:

حرصه، ﷺ، وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث لسببين هما:

١ - القرابة.

٢ - لما أسدى للرسول والإسلام من المعروف، فهو على هذا مشكور وإن كان على كفره مأزور وفي النار، ومن مناصرة أبي طالب أنَّه هجر قومه من أجل معارضة النبي، ﷺ، ومناصرته وكان يعلن على الملأ صدقه ويقول قصائد في ذلك ويمدحه، ويصبر على الأذى من أجله، وهذا جدير بأن يحرص على هدايته، لكن الأمر بيد مقلِّب القلوب كما في الحديث: «**إنَّ قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**» ثم قال، ﷺ، في نفس الحديث: «**اللهم يا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»[1].

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبدالمطلب:

بدليل قولها: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فدل على أنَّ ملة عبدالمطلب الكفر والشرك.

وفي الحديث رد على من قال: بإسلام أبي طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة قبَّحهم الله.

---

(١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، رواه مسلم، كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى للقلوب كيف يشاء ٤/٢٠٤٥.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.
الثامنة: مضرةُ أصحاب السوءِ.

السابعة: كونه، ﷺ، استغفر له فلم يُغفر له:

الرسول، ﷺ، أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يُجيب دعاءه لعمه أبي طالب، لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى: ﴿**قل إنَّ الأمر كله لله**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**وإليه يرجع الأمر كلّه**﴾[2] ليس لأحد تصرّف في هذا الكون إلّا ربّ الكون.

وكذا أمُّه، ﷺ، لم يؤذن له في الاستغفار لها، فدلّ على أنَّ أهل الكفر ليس أهلاً للمغفرة بأي حال، ولا يُجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنَّما يُدعى لهم بالهداية وهم أحياء.

الثامنة: مضرَّة أصحاب السوء على الإنسان:

أي ـ والله أعلم ـ لولا هذان الرجلان لربما وفّق أبو طالب إلى قبول ما عرضه النبي، ﷺ، لكن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ ذكَّراه نعرة الجاهليَّة، ومضرَّة رفقاء السوء ليس خاصًا بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبَّه النبي، ﷺ، جليس السوء بنافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة[3]، وقال ﷺ: «**فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه**»[4] وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روي عن النبي، ﷺ، بسند لا بأس به:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٣) من حديث أبي موسى، رواه البخاري، كتاب الذبائح/ باب المسك ٤٦٣/٣، ومسلم كتاب البر/ باب استحباب مجالسة الصالحين ٢٠٢٦/٤.

(٤) سبق ص (٥٩).

«المرء على دينِ خليله فلينظر أحدكم من يُخالل»[1] فالمهمّ أنَّه يجب على الإنسان العاقل أن يُفكِّر في أصحابه هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم؛ لأنهم أشد عداءً من الجرب، أو هل هم أصحاب خير يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ويفتحون له أبواب الخير فعليه بهم.

التاسعة: مضرَّة تعظيم الأسلاف والأكابر:

لأنَّ أبا طالب اختار أن يكون على ملَّة عبدالمطلب حين ذكَّروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقه فتعظيمهم إن كانوا أهلاً لذلك فلا يضرّ، بل هو خير فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شكَّ أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه.

وإن كان تعظيم الأكابرلما هم عليه من العلم والسِّن فليس فيه مضرَّة.

وإن عظَّمناهم لما هم عليه من الباطل فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلاً من يُعظِّم أبا جهل لأنَّه سيد أهل مكة، وكذلك عبدالمطَّلب وغيره، فهو ضرر عليه ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أي قدر، لأنَّهم أعداء الله عز وجل، وكذلك لا يُعظِّم الرؤساء من الكفَّار في زمانه، فإنَّ فيه مضرَّة؛ لأنَّه قد يُورث ما يُضادّ الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلَّة من الكتاب والسنة.

---

(١) من حديث أبي هريرة، أخرجه أحمد ٢/٣٠٣، ٣٣٤، رواه أبو داود، كتاب الأدب/ باب من يؤمر أن يجالس ٥/١٦٨، والترمذي، الزهد/ باب الرجل على دين خليله رقم ٢٣٧٩، وقال: «حسن غريب».

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك.
الحادية عشرة: الشاهدُ لكون الأعمال بالخواتيم لأنه لو قالها لنفعته.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك:

شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف، هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله: «أترغب عن ملَّة عبدالمطلب؟» وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنَّا على آثارهم مقتدون**﴾[1].

فالمبطلون يقولون في شبهتهم إنَّ أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم ويقولون كيف نسفِّه أحلامهم؟ ونضلل ما هم عليه؟

وهذا يُوجد في المتعصِّبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم حيث لا يقبلون قرآنا ولا سُنَّة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إنَّ بعضهم يجعلهم معصومين كالرَّافضة والتيجانيَّة والقاديانيَّة وغيرهم. فهم يرون أنَّ إمامهم لا يخطىء، والكتاب والسنة يمكن أن يخطيئا.

والواجب على المرء أن يكون تابعًا لما جاء به الرسول، ﷺ، ومن خالفه من الكُبراء والأئمة فإنَّهم لا يُحتجّ بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنَّة إن كانوا أهلاً للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص، فيعُتذر لهم بما ذكره أهل العلم ومن أحسن ما أُلِّف كتاب شيخ الإسلام: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة، فلا يعتذر له.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم:

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالينَ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها مع مبالغته ﷺ وتكريره فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها.

وهذا مبنيّ على القول بأنَّ معنى حضرته الوفاة أي ظهرت عليه علاماتها ولم تحضره الوفاة.

الثانية عشرة: التأمُّل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين.. إلخ وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.



باب

ماجاء أن سبب كفر بني ادم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

قوله: «**سبب كفر بني آدم**».

السبب في اللغة: ما يتوصَّل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿**فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع**﴾[1] أي بشيء يوصله إلى السماء.

ومنه أيضًا سمّي الحبل سببًا؛ لأنَّه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر.

وأما في الاصطلاح عند أهل الأصول: هو الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم.

أي إذا وجد السبب وجد المسبِّب، وإذا عُدِمَ السبب عُدم المسبِّب إلاّ أن يكون هناك سبب آخر.

قوله: «**بني آدم**» يشمل الرجال والنساء، لأنَّه إذا قيل: بنو فلان وهم قبيلة شمل ذكورهم وإناثهم، أمَّا إذا قيل: بنو فلان أي رجل معينٍ فالمراد بهم: الذكور.

قوله: «**وتركهم**» يعني وسبب تركهم.

قوله: «**دينهم**»: مفعول ترك، لأنَّ ترك مصدر مضاف إلى فاعله، و«دينهم» يكون مفعولاً به.

قوله: «**هو الغلو**» هذا الضمير يُسمى ضمير الفصل وهو من أدوات التوكيد. والغلو: خبر لأن ضمير الفصل على القول الراجح ليس له محل من الإعراب.

(١) سورة الحج، الآية: ١٥.

وقول الله عز وجل: ﴿ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾[1].

والغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحًا أو قدحًا.

والقدح: يُسمى ثناء، ومنه الجنازة التي مرَّت فأثنوا عليها شرًّا[2].

والغلو هنا: مجاوزة الحدّ في الثناء مدحًا.

قوله: «**الصالحين**» الصالح: هو الذي قام بحق الله وحق العباد. وفي هذه الترجمة إضافة الشيء إلى سببه بدون أن يُنسب إلى الله بقوله: «**أنَّ سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**» وهذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحًا، وذلك إذا كان السبب قد أثبت من قبل الشرع، أو الحس، أو الواقع.

وقد قال الرسول، ﷺ: «**لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[3] يعني عمّه أبا طالب.

قوله: «**وقول الله عز وجل**» يعني وباب قول الله عز وجل.

قوله: ﴿**يا أهل الكتاب**﴾ نداء، وهم اليهود والنصارى، والكتاب: هو التوراة والإنجيل.

قولـه: ﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ أي لا تتجاوزوا الحدّ مدحًا أو قدحًا. والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عمومًا، فإنَّهم في عيسى بن مريم عليه السلام غلوا مدحًا وقدحًا حيث قال النصارى: إنَّه ابن الله وجعلوه ثالث ثلاثة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) من حديث أنس، رواه البخاري، كتاب الجنائز/ باب ثناء الناس على الميت ١/ ٤٢٠ ومسلم، كتاب الجنائز/ باب فيمن يثنى عليه خير أو شر ٢/ ٦٥٤.

(٣) من حديث العباس بن عبدالمطلب، رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار/ باب منقبة أبي طالب ٣/ ٦٢، ومسلم كتاب الإيمان/ باب شفاعة النبي، ﷺ، لأبي طالب ١/ ١٩٤.

. . . .

واليهود غلوا فيه قدحًا وقالوا: إنَّ أمّه زانية، وإنَّه ولد زنا، قاتلهم الله فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط أو تفريط.

قوله: ﴿ولا تقولوا على الله إلاّ الحق﴾ وهو ما قاله سبحانه وتعالى عن نفسه بأنه إلـه واحد أحد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

قولـه: ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ هذه صيغة حصر، وطريقه «إنما» فيكون المعنى: ما المسيح عيسى بن مريم إلاّ رسول الله، وأضافه إلى أمّه ليقطع قول النصارى الذين يضيفونه إلى الله.

وفي قولـه: ﴿رسـول الله﴾ إبـطال لقـول اليهود: إنَّه كذَّاب، ولقول النصارى: إنَّه إلـه.

وفي قوله: ﴿وكلمته﴾ إبطال لقول اليهود: إنَّه ابن زنا.

وكلمته التي ألقاها إلى مريم: أنْ قال له كُنْ فكان.

قولـه: ﴿وروح منـه﴾ أي أنـه عز وجل جعل عيسى، عليه الصلاة والسـلام، كغـيره من بني آدم من جسـد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفًا وتكريمًا كما في قوله تعالى في آدم: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾[1] فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ الخطاب لأهل الكتاب ومن رسله محمد، ﷺ الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ أي إن الله ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ خيراً: خبر ليكن المحذوفة أي انتهوا يكن خيراً لكم.

---

(١) سورة ص، الآية: ٧٢.

. . . .

قوله: ﴿**إنَّما الله إلـه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السمـٰوات وما في الأرض**﴾ أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأنَّه مالك لما في السمـٰوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿**وكان الله غنيًّا حميدًا**﴾ غنيًّا: لا يحتاج إلى ولد يعقبه في خلقه وحميدًا: أي محمودًا، لكمال صفاته وعدم مماثلة الخلق له، أو مماثلته لهم.

الشاهد من هذه الآية قوله: ﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ فنهى عن الغلوّ لأنَّه يتضمَّن مفاسد كثيرة منها:

١ ـ أنَّه تنزيل للمغلو فيه فوق منزلته إن كان مدحًا، وتحته إن كان قدحًا.

٢ ـ أنَّه يؤدي إلى عبادة هذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣ ـ أنَّـه يصـدّ عن تعـظيم الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ النَّفس إمَّا أن تنشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه تعلَّقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.

٤ ـ أنَّ المغلو فيه إن كان موجودًا فإنَّه يزهو بنفسه، ويتعاظم ويعجب بها وهذه مفسـدة تفسـد المغلو إن كانت مدحًا، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحًا.

قوله: ﴿**في دينكم**﴾ الدين تقدم أنَّه يُطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل.

والمعنى: لا تجعلوا عبادتكم غلوًّا في المخلوقين وغيرهم.

وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم يدخل الغلو في العبادات مثل: أن يرهق الإنسان نفسه

وفي الصحيح عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قول الله تعالى: ﴿وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم، ولا تذرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوق ونَسْرًا﴾[1].

بالعبادة ويتعبها فإنَّ النبي، ﷺ، نهى عن ذلك[2]، ومثل: أن يزيد عن المشروع كأن يرمي بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات أو غير هذا، فالنهي عن الغلو في الدين يعمّ الغلو من كل وجه.

قوله: «**وفي الصحيح**» أي في صحيح البخاري، وهذا الأثر اختصره المصنِّف.

قوله: ﴿**وقالوا**﴾ أي قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿**لا تذرن**﴾ أي لا تدعن وتتركن، وهذا نهي مؤكد بالنون.

قوله: ﴿**آلهتكم**﴾ هل المراد لا تذروا عبادتها، أو لا تذروا عبادتها وتمكنوا أحدًا من إهانتها؟

الجواب: المعنيان:

أي: انتصروا لآلهتكم ولا تمكِّنوا أحدًا من إهانتها ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضًا، بل احرصوا عليها، وهذا من التَّواصي بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق.

قوله: ﴿**ولا تذرن**﴾ لا: زائدة للتوكيد مثلها في قوله تعالى: ﴿**ولا الضالين**﴾[3] وليست نافية استقلالاً؛ لأنَّها معطوفة على النفي وكذلك ما بعدها.

---

(1) سورة نوح، الآية: ٢٣.

(2) كما في حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب التهجد/ باب ما يكره من التشديد في العبادة ١/٣٥٧، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين/ باب أمر من نعس في صلاته... ١/٥٤٢.

(3) سورة الفاتحة، الآية: ٧.

قوله: ﴿ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا﴾ هذه الخمسة كان لها مزيَّة على غيرها لأنَّ قوله: ﴿آلهتكم﴾ عام يشمل كل ما يعبدون، وكأنَّها كبار آلهتهم.

والآلهة: جمع إلـه وهو كل ما عُبِدَ سواء بحق أو بباطل، لكن إذا كان بحق فهو الله، وإن كان بباطل فهو غير الله.

والمعنى: تواصوا بهذه الخمسة، وهذا تخصيص بعد تعميم، وكأنَّ هذه الخمسة كبار آلهتهم والعياذ بالله.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما، في هذه الآية: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح».

وفي هذا التفسير إشكال حيث قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، وظاهر القرآن: أنَّها قبل نوح قال تعالى: ﴿قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خسارًا. ومكروا مكرًا كُبَّارًا. وقالوا لا تذرن آلهتكم﴾[1]. فظاهر الآية الكريمة: أنَّ قوم نوح كانوا يعبدونها، ثم نهاهم نوح عن عبادتها وأمرهم بعبادة الله وحده، ولكنهم أبوا وقالوا: ﴿لا تذرن آلهتكم﴾.

ويحتمل، وهو بعيد، أن هذا في أول رسالة نوح وأنَّه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا به، ثم بعد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوها، لكن هذا بعيد حتى من سياق الأثر عن ابن عباس.

فالمهم تفسير الآية أن يُقال: هذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالاً صالحين.

قوله: «أوحى الشيطان» أي وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

---

(١) سورة نوح، الآيات: ٢١ ـ ٢٣.

إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعْبَدْ، حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلمُ، عُبِدَتْ»[(١)].

قولـه: «**أن انصبـوا إلى مجالسهم**» الأنصاب: جمع نصب وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره.

قوله: «**وسموهم بأسمائهم**» أي ضعوا أنصابًا في مجالسهم وقولوا: هذا ود، وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر، لأجل إذا رأيتموهم تتـذكـروا عبـادتهم فتنشـطوا عليهـا، هكذا زيَّن لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم: **﴿هل أدلُّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾**[(٢)]؟

وإلاّ إذا كنَّا لا نتذكر عبادة الله إلاّ برؤية أشباه هؤلاء فليست هذه عبادة.

قوله: «**ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت من دون الله**».

ذكر ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مائة سنة أي: ألف سنة، حتى إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرّق، فبعث الله النبيين كما قال تعالى: **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾**[(٣)] الآية.

هذا هو تفسير ابن عباس، رضي الله عنهما، للآية، وهل تفسيره حجَّة؟

الجواب: يرجع في التفسير أولاً إلى القرآن، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث﴾ ٣/٣١٦.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

قال ابن القيِّمِ : «قال غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ: لما ماتُوا عكفوا على قبورهم،
ثم صَوَّرُوا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمدُ فعبدوهم».

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تُطْرُوني كما أطرتِ**

مثل قوله تعالى: **﴿وما أدراك ما هيه﴾** تفسيرها: **﴿نار حامية﴾**(1). فإن لم نجد في القرآن فإلى سنة الرسول، ﷺ، فإن لم نجد فإلى تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجَّة بلا شك، لأنَّهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي في حكم المرفوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك أنَّه حجَّة على من بعدهم، فإن اختلف الصحابة في التفسير أخذنا بما يرجحه سياق الآية، والآية تدل على ما ذكره ابن عباس، إلَّا أنَّ ظاهر السياق أنَّ هؤلاء القوم الصالحين كانوا قبل نوح ﷺ.

قوله: **«الأمد»** الزمن.

وهذا كتفسير ابن عباس، إلَّا أنَّ ابن عباس يقول: «إنهم جعلوا الأنصاب في مجالسهم»، وهنا يقول: «جعلوها على قبورهم» ولا يبعد أنَّهم جعلوا هذا وهذا، أو أنَّهم قبروا في مجالسهم فتكون هي محل القبور.

والشاهد: قوله: **«ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم»** فسبب العبادة إذًا الغلو في هؤلاء الصالحين حتى عبدوهم.

قوله: **«لا تطروني»** الإطراء: المبالغة في المدح.

وهذا النهي يحتمل أنَّه منصب على هذا التشبيه وهو قوله: **«كما أطرت**

---

(1) سورة القارعة، الآيتان: ١٠، ١١.

النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عَبْدُ اللهَ ورسوله».

أخرجاه[1].

النصارى ابن مريم» حيث جعلوه إلـهًا، أو ابنًا لله، وبهذا يوحي قول البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت فيه واحتكم

أي دع ما قاله النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ابن الله، أو ثالث ثلاثة، والباقي املأ فمك في مدحه ولو بما لا يرضيه.

ويحتمل أنَّ النهي عام فيشمل ما يشابه غلو النصارى في عيسى بن مريم وما دونه، ويكون قوله: «**كما أطرت**» أي كما بالغت للتعليل، لأنَّ اطراء النصارى عيسى بن مريم سببه الغلو في هذا الرسول الكريم، ﷺ، حيث جعلوه ابنًا لله وثالث ثلاثة، والدليل على أنَّ المراد هذا قوله: «**إنَّما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله**».

قوله: «**إنَّما أنا عبد**» أي ليس لي حق من الربوبيَّة، ولا مما يختص به الله عز وجل شيء أبدًا.

قوله: «**فقولوا عبدالله ورسوله**» هذان الوصفان أصدق وصف في الرسول، ﷺ، فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله قال تعالى: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين**﴾[3] فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عبادًا لله عز وجل أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به، ولهذا يقول الشاعر في محبوبته:

---

(١) سبق ص (٦٥).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.   (٣) سورة الصافات، الآية: ١٧١.

. . . .

لا تدعـني إلاّ بيا عبـدهـا فإنـه أشرف أسـمائـي

أي أنت إذا أردت أن تكلمني قل: يا عبد فلانة، لأنَّه أشرف أسمائي وأبلغ في الذل.

فهو عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب، ولهذا نقول في صلاتنا عندما نسلِّم عليه ونشهد له بالرسالة: «وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله»[1] فهذا أفضل وصف اختاره النبي، عليه الصلاة والسلام، لنفسه.

واعلم أنَّ الحقوق ثلاثة أقسام وهي:

الأول: حق لله لا يشرك فيه غيره لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثاني: حق خاص للرسل، وهو إعانتهم وتوقيرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثالث: حق مشترك وهو: الإيمان بالله ورسله، وهذه الحقوق موجودة في الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿**لتؤمنوا بالله ورسوله**﴾ فهذا حق مشترك ﴿**وتعـزروه وتـوقـروه**﴾ هذا خاص بالرسول، ﷺ، ﴿**وتسبحـوه بكـرة وأصيلاً**﴾[2] هذا خاص بالله سبحانه وتعالى.

والـذين يغلون في الـرسـول، ﷺ، يجعلون حق الله له فيقـولـون: «وتسبحوه» أي الرسول، فيسبحون الرسول كما يسبحون الله، ولا شك أنَّه شرك، لأن التسبيح من حقوق الله الخاصة به بخلاف الإيمان فهو من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله.

---

(١) من حديث ابن مسعود رواه البخاري، كتاب الاستئذان/ باب السلام اسم من أسماء الله تعالى ٤/١٣٦، ومسلم، كتاب الصلاة/ باب التشهد في الصلاة ١/٣٠١.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٩.

وقال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكُمْ والغلوَّ، فإنما أَهْلَكَ من كان قبلكم الغُلُوُّ**»[1].

ونهى عن الاطراء في قوله عليه الصلاة والسلام: «**كما أطرت النصارى عيسى بن مريم**»[2] لأنَّ الإطراء والغلو يؤدي إلى عبادته كما هو الواقع الآن، فيوجد عند قبره في المدينة من يسأله فيقول: يا رسول الله المدد المدد، يا رسول الله: أغثنا، يا رسول الله: بلادنا يابسة وهكذا، ورأيت بعيني رجلاً يدعو الله تحت ميزاب الكعبة موليًا ظهره البيت مستقبلاً المدينة؛ لأنَّ استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله.

ويقول بعض المغالين: الكعبة أفضل من الحجرة، فأمَّا والنبي، ﷺ، فيها فلا والله ولا الكعبة ولا العرش وحملته ولا الجنة.

فهو يريد أن يفضِّل الحجرة على الكعبة، وعلى العرش، وحملته، وعلى الجنة وهذه مبالغة لا يرضاها النبي، ﷺ، لنا ولا لنفسه.

وصحيح أن جسده، ﷺ، أفضل ولكن كونه يقول: إنَّ الحجرة أفضل من الكعبة والعرش والجنة لأنَّ الرسول ﷺ فيها، هذا خطأ عظيم، نسأل الله السلامة من ذلك.

قوله: «**إيَّاكم**» للتحذير.

---

(١) من حديث ابن عباس رواه أحمد في المسند ١/٢١٥، ٣٤٧، والنسائي في الصغرى، كتاب مناسك الحج/ باب التقاط الحصى ٥/٢٦٨، وابن ماجه كتاب المناسك/ باب قدر الحصى ٢/١٠٠٨، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٩٨)، وابن حبان برقم (١٠١١)، والطبراني في الكبير برقم (١٢٧٤٧)، والحاكم ١/٤٦٦ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/١٢٧، وقال النووي في المجموع ٨/١٣٧: «إسناده صحيح على شرط مسلم» وكذا قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص (١٠٦).

(٢) سبق ص (٦٥).

. . . .

قوله: «والغلو» معطوف على إياكم، وقيل: معطوف على تقدير عامل أي إياكم احذروا وجانبوا الغلو، إذ لا يستقيم المعنى أن يقال: إيَّاكم احذروا واحذروا الغلو إذ إنَّ الغلو لا يحذر منه، وإنما يحذَّر منه.

والصواب الثاني: فيكون المعنى إياكم احذروا وجانبوا الغلو.

والغلو كما سبق: هو مجاوزة الحدّ مدحًا أو ذمًّا، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك أيضًا فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل؛ لأنَّ هذا الحديث ورد في رمي الجمرات، حيث روى ابن عباس قال: قال رسول الله، ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «**القط لي حصىً فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف فجعل ينفضهن في كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا وإيَّاكم والغلو في الدين فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**» هذا لفظ ابن ماجه.

والغلو: فاعل أهلك.

قوله: «**من كان قبلكم**» مفعول مقدَّم.

قولـه: «**وإنما**» أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: «**أهلك**» يحتمل معنيين:

الأول: أن المـراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعًا مباشرة من الغلو؛ لأن مجرَّد الغلو هلاك.

الثاني: أنَّه هلاك الأجسام، وعليه يكون الغلو سببًا للهلاك، أي إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

وهل الحصر في قوله: «**فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو**» حقيقي أو مجازي؟

الجـواب: إن قيل: إنَّه حقيقي حصل إشكال وهو أنَّه هناك أحاديث

أضاف النبي، ﷺ، إليها غير الغلو.

مثل قوله، ﷺ: **«إنما أهلك من كان قبلكم أنَّهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ»**(1) فهنا حصران متقابلان فإذا قلنا: إنَّه حقيقي بمعنى أنَّه لا هلاك إلاّ بهذا حقيقة، صار بين الحديثين تناقض.

وإن قيل: إن الحصر إضافي أي باعتبار الواقع والحقيقة أي: باعتبار عمل معينَّ فإنَّه لا يحصل تناقض بحيث يحمل كل منهما على جهة لا تعارض الحديث الآخر لئلاّ يكون في حديثه، ﷺ، تناقض، وحينئذ يكون الحصر إضافيًّا، فيقال: أهلك من كان قبلكم الغلو هذا الحصر باعتبار التعبّد في الحديث الأول، وفي الآخر يُقال: أهلك من كان قبلكم باعتبار الحكم فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

وفي هذا الحديث تحذير من الرسول، ﷺ، أمته من الغلو، ويبرهن على أن الغلو سبب للهلاك لأنَّه مخالف للشرع ولإهلاكه للأمم السابقة، فيستفاد منه تحريم الغلو من وجهين:

الوجه الأول: تحذيره، ﷺ، والتحذير نهي وزيادة.

الوجه الثاني: أنَّه سبب لإهلاك الأمم كما أهلك من قبلنا.

أقسام الناس في العبادة:

والنَّاس في العبادة طرفان ووسط فمنهم المُفْرِط، ومنهم المُفَرِّط، ومنهم المتوسط.

فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكون الإنسان معتدلاً لا يميل إلى هذا، ولا إلى هذا، هذا هو الواجب، فلا يجوز التشدد في الدين والمبالغة، ولا

(1) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٦/٥١٣، ومسلم في الحدود ٣/١٣١٥.

. . . .

التهاون وعدم المبالاة بل كن وسطًا بين هذا وهذا.

والغلو له أقسام كثيرة: منها: الغلو في العقيدة، ومنها: الغلو في العبادة، ومنها: الغلو في المعاملة، ومنها الغلو في العادات.

والأمثلة عليها كما يلي: أمَّا الغلو في العقيدة فمثل ما تشدَّق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإنَّ أهل الكلام تشدَّقوا وتعمَّقوا حتى وصلوا إلى الهلاك قطعًا، حتى أدَّى بهم هذا التعمُّق إلى واحد من أمرين:

إما التمثيل، أو التعطيل، كغلو أهل البدع في الصفات.

إمَّا أنَّهم مثلوا الله بخلقه فقالوا هذا معنى الصفات، أو عطّلوه وقالوا: يجب تنـزيهه عن كل مشابهة للمخلوق، وزعموا أنَّ إثبات الصِّفات تشبيه، فعطلوه عن صفاته.

لكن الأمة الوسط اقتصدت في ذلك فلم تتعمق في الإثبات ولا في النفي والتنزيه، فأخذوا بظواهر اللفظ، وقالوا ليس لنا أن نزيد على ذلك فلم يهلكوا بل كانـوا على الصراط المستقيم، ولـما دخل هؤلاء الفرس والروم وغيرهم في الدين، صاروا يتعمَّقون في هذه الأمور ويجادلون مجادلات ومناظرات لا تنتهي أبدًا حتَّى ضاعوا، نسأل الله السلامة.

وكل الإرادات التي أوردها المتأخِّرون من هذه الأمَّة على النصوص، لم يوردها الصحابة، فلم توردها الأمَّة الوسط.

أما الغلو في العبادات:

فهو التشدد فيها بحيث يرى أن الإخلال بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام، كغلو الخوارج والمعتزلة، حيث قالوا إنَّ من فعل كبيرة من الكبائر فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله، وأباحوا الخروج على الأئمة وسفك الدماء، وكذا المعتزلة حيث قالوا من فعل كبيرة فهو بمنزلة بين المنزلتين، الإيمان والكفر،

فهذا تشدّد أدَّى إلى الهلاك. وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة فقالوا: إن القتل والزّنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من الكبائر لا تخرج من الإيمان، ولا تنقص من الإيمان شيئًا، وأنه يكفي في الإيمان الإقرار وأنَّ إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله ﷺ، لأنَّه لا يختلف الناس في الإيمان.

حتى يقولون: إنَّ إبليس مؤمن لأنَّه مقر، وإذا قيل: إنَّ الله كفَّره؟ قالوا: إذن إقراره ليس بصادق، بل هو كاذب، وإلاّ لو استكبر عن أمر الله فهو مؤمن.

وهؤلاء في الحقيقة يصلحون لكثير من النَّاس في هذا الزمان، ولا شك أن هذا تطرّف بالتساهل، والأول تطرف بالتشدد، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصية ناقص الإيمان بقدر معصيته.

وأما الغلو في المعاملات:

فهو التشدّد في الأمور بتحريم كل شيء حتى ولو كان وسيلة، وأنَّه لا يجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفيَّة حيث قالوا من اشتغل بالدّنيا فهو غير مريد للآخرة، وقالوا لا يجوز أن تشتري ما زاد على حاجتك الضرورية، وما أشبه ذلك.

وقابل هذا التشدّد تساهل من قال: بحِلِّ كل شيء ينمّي المال ويقوّي الاقتصاد حتى الرِّبا والغش وغير ذلك.

فهؤلاء والعياذ بالله متطرِّفون بالتساهل، فتجده يكذب في ثمنها وفي وصفها، وفي كل شيء لأجل أن يكسب فلسًا أو فلسين، وهذا لا شك أنَّه تطرُّف.

والتوسط أن يُقال: تحل المعاملات وفق ما جاءت به النصوص **﴿وأحلّ الله البيع وحرَّم الرِّبا﴾**[1] فليس كل شيء حرامًا، فالنبي ﷺ باع واشترى،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

ولمسلم عن ابن مسعودٍ، أن رسول الله ﷺ قال: «**هلك المُتنطِّعون**». قالها ثلاثًا[1].

والصحابة رضي الله عنهم يبيعون ويشترون، والنبي، ﷺ، يقرّهم.

وأما الغلو في العادات:

فإذا كانت هذه العادة يُخشى أن الإنسان إذا تحوَّل عنها انتقل من التحول في العادة إلى التحول في العبادة، فهذا لا حرج أن الإنسان يتمسَّك بها، ولا يتحول إلى عادة جديدة، أمَّا إذا كان الغلو في العادة يمنعك من التحوّل إلى عادة جديدة مفيدة أفيد من الأولى، فهذا من الغلو المنهي عنه، فلو أن أحدًا تمسَّك بعادته في أمر حدث أحسن من عادته التي هو عليها، نقول هذا في الحقيقة غال ومفرط في هذه العادة.

وأمَّا إن كانت العادات متساوية المصالح لكنه يُخشى أن ينتقل الناس من هذه العادة إلى التوسّع في العبادة فلا بأس بها، وعدم التحوّل إلى العادة الجديدة.

قوله: «**المتنطعون**».

المُتَنَطِّع: هو المتعمق المتقعِّر المتشدِّق سواء كان في الكلام أو في الأفعال، فهو هالك حتى ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة، فبعض الناس يكون بهذه الحالة حتى إنَّه ربما يقترن بتعمُّقه وتنطُّعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترن بالكبر، فتجده إذا تكلَّم يتكلَّم بأنفه، فتسلّم عليه تسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال.

والتنطّع بالأفعال كذلك أيضًا قد يؤدي إلى الإعجاب أو إلى الكِبر، ولهذا قال: «**هَلَكَ المتنطِّعون**».

---

(١) في كتاب العلم/ باب هلك المتنطعون ٤/ ٢٠٥٥.

فيه مسائل : الأولى : أنَّ من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجبَ.

والتنطّع أيضًا في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها فهو أيضًا من أسباب الهلاك.

فهذه الأحاديث الثلاثة كلّها تدلّ على تحريم الغلو، وأنَّه سبب للهلاك، وأنَّ الواجب أنّ يسير العبد إلى الله بين طرفي نقيض بالدين الوسط، فكما أنَّ هذه الأمَّة هي الوسط، ودينها هو الوسط، فينبغي أن يكون سيرها في دينها على الطريق الوسط.

فيه مسائل:

الأولى: أنَّ من فهم هذا الباب ـ أي: بما مرَّ من تفسير الآية الكريمة: ﴿**وقالوا لا تذرن آلهتكم**﴾ ـ وبابين بعده تبينّ له غربة الإسلام:

وهذا حق فإنَّ الإسلام المبني على التوحيد الخالص غريب، فكثير من البلدان الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم، فلا تجد بلدًا مسلمًا إلّا وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون أيضًا ليس قبر رجل صالح، قد يكون وهمًا، مثل قبر الحسين الآن، تأتي إلى العراق الآن فيقولون هو عندنا، وتأتي الشام يقولون عندنا، وتأتي مصر يقولون عندنا، وبعضهم يقول هو في المغرب، فصار الحسين إمّا أنه أربعة رجال، أو مُقطّع أوصالاً، وهذا كله ليس بصحيح، فالمهم أنَّه مثل ما قال شيخ الإسلام محمد: أنَّه تبين لك غربة الإسلام في المسلمين، وليس الإسلام هو العمل المتضمّن للشرك.

وكذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فيها قبور وقباب تُعبد من دون الله ويُحج إليها وتُقصد، ولكن بتوفيق الله سبحانه وتعالى أنه أعان هذا الرجل حتى قضى عليها وهدمها، وصارت البلاد ولله

الثانية: معرفة أول شركٍ حدث في الأرض كان بشبهة الصالحين.
الثالثة: معرفة أول شيءٍ غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم. **الرابعة**: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

الحمد على التوحيد الخالص.

الثانية: معرفة أوّل شرك حدث في الأرض:

وجه ذلك: أنَّ هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقوامًا صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوهم من دون الله، ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.

الثالثة: معرفة أول شيء غُيّر به دين الأنبياء، وما سبّب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم:

أول شيء غُيّر به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين.

وقوله: «**مع معرفة أن الله أرسلهم**» قال الله تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشِّرين ومنذِرين**﴾[1] أي كانوا أمة واحدة على التوحيد فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فهذا أوَّل ما حدث من الشرك في بني آدم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردُّها:

قولـه: «**قبول البدع**» أي أنَّ النفوس تقبلها لا لأنَّها مشروعة، بل إن الشرائع تردّها، وكذلك الفطر تردّها لأنَّ الفطر السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾[2] فالفطر السليمة لا تقبل تشريعًا إلا ممن يملك ذلك.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل.

فالأول: محبة الصالحين.

والثاني: فعل أناسٍ من أهل العلم والدين شيئًا أرادوا به خيرًا فظنَّ من بعدهم أنَّهم أرادوا به غيره.

الخامسة: أنَّ سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل:

أراد المؤلف، رحمه الله، أن يبيِّن أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبَّة لهم، ورغبة فيهم.

الثـاني: أنَّ أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيرًا وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا شرًّا غير الخير الذي أراده أولئك، ويؤخذ منه: أنَّ مَن أراد تقوية دينه ببدعة فإن ضرر ذلك أكثر من نفعها.

مثال ذلك: أولئك الذين يغلون في الرسول، ﷺ، ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيرًا، لكن أرادوا خيرًا بهذه البدعة فصار ضررها أكثر من نفعها؛ لأنها تعطي الإنسان نشاطًا غير مشروع في وقت معيَّن، ثم يعقبه فتور غير مشروع في بقية العام.

ولهـذا تجد هؤلاء الـذين يغـالـون في هذه البـدع في الأمور المشروعة الواضحة فاترون ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا ممَّا يدلّ على تأثير البدع في القلوب وأنها مهما زيَّنها أصحابها فلا تزيد الإنسان إلا ضلالاً، لأنَّ النبي، ﷺ، يقول: «**كل بدعة ضلالة**»(١).

فإن قيل: إن للاحتفال بمولده أصلاً من السنة وهو أن النبي، ﷺ، سئل عن صوم يوم الإثنين فقال: «**ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه، أو أنزل**

---

(١) من حديث جابر، رواه مسلم، كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/٥٩٢.

. . . .

عليَّ فيه»[1]. وكان، ﷺ، يصومه مع الخميس ويقول: «**إنَّهما يومان تُعرض فيهما الأعمال على الله فأحبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم**»[2].

فالجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصَّوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنَّما هو صوم وإمساك أمَّا هؤلاء الذين يجعلون له الموالد فاحتفالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أنَّ هذا اليوم إذا صامه الإنسان فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشيء، وليس المعنى أنَّنا نحتفل بهذا اليوم.

الثاني: أنَّه على فرض أن يكون هذا أصلاً فإنَّه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأنَّ العبادات توقيفية، ولو كان الاحتفال المعهود عند الناس اليوم مشروعًا لبيَّنه النبي، ﷺ، إمَّا بقوله، أو فعله، أو إقراره.

الثالث: أنَّ هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي، ﷺ، لا يقيِّدونه بيوم الاثنين، بل في اليوم الذي زعموا مولده فيه وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول مع أنَّ ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقَّق بعض الفلكيين المتأخِّرين في ذلك فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر.

الرابع: أنَّ الاحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة؛ لأنَّه لم

---

(١) من حديث أبي قتادة، رواه مسلم، كتاب الصيام/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ٢/ ٨١٩.

(٢) من حديث أبي هريرة، رواه الترمذي، كتاب الصوم/ باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس ٣/ ٩٤، وقال: «حديث حسن غريب» ورواه مسلم ٤/ ١٩٨٧ دون ذكر الصيام ولفظه: «تعرض الأعمال في كل خميس واثنين فيغفر الله عز وجل لكل امرىء لا يُشرك بالله شيئًا...» الحديث، وأخرج أيضًا أبو داود برقم (٢٤٣٦) والنسائي برقم (٢٣٦٠)، وابن ماجه برقم (١٧٣٨) من حديث أسامة بن زيد نحوه وحسنه المنذري مختصر المنذري.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح. **السابعة**: جِبِلَّة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد.

يكن معروفًا على عهد النبي، ﷺ، وأصحابه، مع قيام المقتضي له، وعدم المانع منه.

مسألة حكم الاحتفال بعيد الميلاد للأطفال:

فائـدة: كل شيء يتّخذ عيدًا يتكرَّر كل أسبوع، أو كل عام فهو من البدع، والدليل على ذلك: أنَّ الشارع جعل للمولود العقيقة ولم يجعل شيئًا بعد ذلك، واتِّخاذهم هذه الأعياد تتكرر كل أسبوع أو كل عام معناه أنَّهم شبهوه بالأعياد الإسلامية، وهذا حرام ولا يجوز، وليس في الإسلام شيء من الأعياد إلاّ الأعياد الشرعية الثلاثة.

وليس هذا من باب العادات لأنَّه يتكرَّر، ولهذا لما قدم النبي، ﷺ، فوجد للأنصار عيدين يحتفلون بهما قال: «**إنَّ الله أبدلكما بخير منهما عيد الأضحى وعيد الفطر**»[1] مع أنَّ هذا من الأمور العادية عندهم.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح:

وقد سبق ذلك وبيان أنهم يتواصون بالباطل، وهذا خلاف طريق المؤمنين الذين يتواصون بالحق والصبر والمرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الذين يتواصون بما هم عليه سواء كانوا رؤساء سياسيين، أو رؤساء دينيين ينتسبون إلى الدين، فتجد الواحد منهم لا يموت إلا وقد وضع له ركيزة من بعده ينمِّي هذا الأمر الذي هو عليه.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد:

---

(١) من حديث أنس، أخرجه أحمد في المسند ٣/١٠٣، رواه أبو داود، كتاب الصلاة/ باب صلاة العيدين، والنسائي في العيدين ٣/١٧٩، والحاكم ١/٢٩٤، والبيهقي ٣/٢٧٧، وإسناده صحيح كما في تخريج أحاديث العيدين ص (٥٢).

هذه العبارة تقيد من حيث كونه آدميًّا بقطع النَّظَر على من يمنُّ الله عليه من تزكية النفس، فإنَّ الله يقول: ﴿**قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دسَّاها**﴾[1].

قوله: «**جبلة**» على وزن فعلة وهو ما يجبل المرء عليه أي يخلق عليه ويُطبع ويبدع، بمعنى الطبيعة التي عليها الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكَّى نفسه أو دسَّاها.

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين فقال تعالى: ﴿**إنَّ الإنسان لظلوم كفَّار**﴾[2]. وقال تعالى: ﴿**وحملها الإنسان إنَّه كان ظلومًا جهولاً**﴾[3].

أمَّا من حيث ما يمنُّ الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح فإنَّه يرتقي عن هذا قال تعالى: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين. إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون**﴾[4]. ولهذا الإنسان الذي يمنُّ الله عليه بالهدى فإنَّ الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكليَّة، كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم.

وكذلك أهل العلم كأبي الحسن الأشعري كان معتزليًّا، ثم كلابيًّا، ثم سنيًّا، وابن القيم كان صوفيًّا ثم منَّ الله عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيمية فهداه الله على يده حتى كان ربانيًّا.

الثامنة: فيه شاهد لما نُقل عن السلف أنَّ البدع سبب الكفر:

قال أهل العلم: إنَّ الكفر له أسباب متعدِّدة ولا مانع أن يكون للشيء

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٩، ١٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٤) سورة التين، الآيات: ٤ ـ ٦.

. . . .

الواحد أسباب متعدِّدة، ومن ذلك الكفر ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إنَّ البدعة لا تزال في القلب يظلم منها شيئًا فشيئًا حتَّى يصل إلى الكفر، واستدلُّوا بقوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النَّار**»[1].

وقالوا أيضًا: «**إنَّ المعاصي بريد الكفر، وبريد الشيء ما يوصل إلى الغاية**».

والمعاصي كما أخبر، ﷺ، تتراكم على القلب فتنكت فيه نكتة سوداء، فإن تاب صقل قلبه وابيض[2]، وإلاّ فلا تزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتى يصبح مظلمًا.

وكـذلك حذَّر من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقوم نزلوا أرضًا فأرادوا أن يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتى بعود، فأتى هذا بعود وهذا بعود فجمعوها فأضرموا نارًا كبيرة وهكذا المعاصي[3]، فالمعاصي لها تأثير قوي على القلب، وأشـدّها تأثيرًا الشهوة فهي أشدّ من الشبهة؛ لأنَّ الشبهة يسير زوالها على من يسَّر الله عليه إذ إن مصدرها الجهل وهو يزول بالتَّعلُّم.

أما الشهوة وهي إرادة الإنسان الباطل، فهي البلاء الذي يقتل به العالم والجاهل، ولذا كانت معصية اليهود أكبر من معصية النصارى، لأنَّ معصية اليهود سببها الشهوة وإرادة السوء والباطل، والنصارى سببها الشبهة، ولهذا

---

(١) أخرجه النسائي ٣/١٨٨.

(٢) من حديث أبي هريرة، أخرجه أحمد ٢/٢٩٧، رواه الترمذي، كتاب التفسير/ باب ويل للمطففين ٩/٦٩ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الزهد/ باب ذكر الذنوب ٢/١٤١٨.

(٣) من حديث سهل بن سعد، رواه أحمد في المسند ٥/٣٣١، وفي حاشية محب الدين على البخاري ٤/١٨٩: «بسند حسن».

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

البدع غالبها شبهة ولكن كثيراً منها سببه الشهوة ولهذا يبين الحق لأهل الشهوة من أهل البدع فيصرُّون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسته بين الناس دون صلاح الخلق، ويظنّ في نفسه ويملي عليه الشيطان أنَّه لو رجع عن بدعته لنقصت منزلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلِّب وليس عنده علم، لكن الأمر ليس كذلك فأبو الحسن الأشعري مَضْرِبَ المثل في هذا الباب، فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إمامًا، ولما رجع إلى مذهب أهل السنَّة صار إمامًا، فكل من رجع إلى الحق ازدادت منزلته عند الله سبحانه، ثم عند خلقه.

والخلاصة: أنَّ البدعة سبب للكفر، ولا يردّ على هذا قول بعض أهل العلم إنَّ المعاصي بريد الكفر، لأنَّه لا مانع من تعدّد الأسباب.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل:

لأن الشيطان هو الذي سوَّل لهؤلاء المشركين أن يصوِّروا هذه التماثيل والتصاوير؛ لأنَّه يعرف أن هذه البدعة تؤول إلى الشرك.

وقوله: «**ولو حسن قصد الفاعل**» أي أنَّ البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالمًا أنَّها بدعة ولو حسن قصده، لأنَّه أقدم على المعصية كمن يجيز الكذب والغش ويدَّعي أنَّه مصلحة، أمَّا لو كان جهلاً فإنَّه لا يأثم لأنَّ جميع المعاصي لا يأثم بها إلاّ مع العلم، وقد يُثاب على حسن قصده، وقد نبَّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم، فيثاب على نيَّته دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولا مقبول عند الله ولا مرضي لكن لحسن نيَّته مع الجهل يكون له أجر، ولهذا قال، ﷺ، للرجل الذي صلى وأعاد

. . . .

الوضوء بعدما وجد الماء وصلًّ ثانية: «**لك الأجر مرتين**»[1] لحسن قصده ولأنَّ عمله عمل صالح في الأصل.

فإن قال: إني أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك:

أجيب: بأن هذه الإرادة طعن في رسالة الرسول، ﷺ، لأنَّه اتهام له بالتَّقصير أو القصور، أي مقصرٌ عن الإخبار أو قاصر في العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم؛ ولأن هذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون أمَّا إذا كان حسن القصد، ولم يعلم أنَّ هذا بدعة، فإنَّه يُثاب على نيَّته ولا يُثاب على عمله، لأنَّ عمله شرّ حابط «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»[2].

لكن لو جاء إنسان وقال: سأعمل هذا العمل قلنا: ليس لك الأجر لأنَّ ذلك خلاف السنة، فإنَّ الرسول، ﷺ، قال للذي لم يعد: «**أصبت السنَّة**»[3].

وأما العامة الذين لا يعلمون وقد لبّس عليهم هذه البدعة وغيرها نقول: ما داموا قاصدين للحق ولا علموا به فإثمهم على من أفتاهم، ومن أضلَّهم.

ولهذا الآن في مجاهل أفريقيا وغيرها من لا يعرفون عن الإسلام شيئًا فلو ماتوا لا نقول إنَّهم مسلمون ونصلي عليهم ونترحَّم عليهم مع أنَّهم لم تقم عليهم الحجَّة، لكننا نعاملهم في الدنيا بالظاهر، أمَّا في الآخرة فأمرهم إلى الله.

---

(١) من حديث أبي سعيد الخدري، رواه أبو داود برقم (٣٣٨) والنسائي برقم (٤٣٣)، والدارمي كتاب الطهار/ باب التيمم ١/ ٥٥، والدارقطني ١/ ١٨٨، والحاكم ١/ ١٧٩، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وانظر تلخيص الحبير ١/ ١٥٥.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في البيوع ١/ ١٠٠، ومسلم في الأقضية ٣/ ١٣٤٣.

(٣) الحديث السابق رقم (١).

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه. **الحادية عشرة**: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالحٍ. **الثانية عشرة**: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها. **الثالثة عشرة**: معرفة عظم شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

العاشرة: معرفة القاعدة الكليَّة، وهي النَّهي عن الغلو:

هذا ما حذَّر منه النبي، ﷺ، لأنَّ الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون في العبادات يكون في غيرها. قال تعالى: ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾[1] وقال: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا**﴾[2]، وقد سبق بيان ذلك

الحادية عشرة: مضرَّة العكوف على القبر من أجل عمل صالح:

المضرَّة الحاصلة: هي ما يوصل إلى عبادتهم.

ومثل ذلك: ما لو قُرىء القرآن عند قبر رجل صالح، أو تُصدِّق عند هذا القبر، يعتقدُ أنَّ لذلك مزيَّة على غيره، فإن هذا من البدع وهذه البدعة قد تؤدِّي بصاحبها إلى عبادة هذا القبر فيحرم عليه.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل:

التماثيل: هي الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر.

والغالب أنَّها تُطلق على ما فعل معبودًا من دون الله.

الثالثة عشرة: معرفة شأن هذه القصة.

أي: قصة هؤلاء الذين غلوا في الصالحين وغير الصالحين لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرَّج بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله، فتجب معرفة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

الرابعة عشرة: وهي ـ أعجب العجب ـ قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

هذه القصة، وأنَّ أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة، فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة، والنَّاس لو تدبَّرت أحوالهم، وسبرت قلوبهم وجدت أنَّهم في غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود في البلاد الإسلامية.

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب قراءتهم إيَّاها في التفسير والحديث:

قوله: «**وأعجب**» أي أكثر عجبًا، وأشدّ، والعجب نوعان:

الأول: بمعنى الاستحسان، وهو ما إذا تعلّق بمحمود كقول عائشة في الحديث: «**كان النبي، ﷺ، يعجبه التيامن في تنعُّله وترجُّله وطهوره، وفي شأنه كلّه**»[1].

الثاني: بمعنى الإنكار وذلك فيما إذا تعلّق بمذموم قال تعالى: ﴿**وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنَّا ترابًا أئنَّا لفي خلق جديد**﴾[2].

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلف هنا عمَّا كان في زمنه حيث غفلوا عن هذه القصة مع قراءتهم لها في كتب التفسير والحديث، واعتقدوا أن فعل قوم نوح من العبادات، وهذا من أضرّ ما يكون على المرء أن يعتقد السيىء حسنًا، قال

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء/ باب التيمن ١/ ٧٥، ومسلم كتاب الطهارة/ باب التيمن في الطهور وغيره ١/ ٢٢٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٥.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة. السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك. السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم». فصلوات الله وسلامه عليه بلغ البلاغ المبين.

تعالى: ﴿**أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا فإنَّ الله يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يَحسبون أنَّهم يُحسنون صنعًا**﴾[2].

قوله: «**فاعتقدوا أنَّ ما نهى الله ورسوله عنه هو الكفر المبيح للدّم والمال**».

أي من اعتقد أنَّ الشرك والكفر من أفضل العبادات وأنَّه مقرِّب إلى الله فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلِّف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه.

الخامسة عشرة: التَّصريح بأنَّهم لم يريدوا إلَّا الشفاعة.

أي: ما أرادوا إلَّا الشفاعة ومع ذلك وقعوا في الشرك.

السادسة عشرة: ظنُّهم أنَّ العلماء الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك: أي أرادوا أن تشفع لهم بل ظنُّوا أنَّها تنشطهم على العبادة وهذا ظنٌّ فاسد كما سبق[3].

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: «**لا تطروني...**» الحديث.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٣.

(٣) انظر ص (٣٨٥).

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين. **التاسعة عشرة**: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده. **العشرون**: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

معنى الإطراء: الغلو في المدح، والمبالغة فيه.

وهذا الذي نهى عنه، ﷺ، وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشدّ، حتى جعلوا النبي، ﷺ، المرجع في كل شيء، وهذا أعظم من قول النصارى المسيح ابن الله وثالث ثلاثة.

ومعنى: «بلّغ» أي أوصل وبيِّن.

الثامنة عشرة: نصيحته إيَّانا بهلاك المتنطِّعين:

وذلك بقوله ﷺ: «**هلك المتنطِّعون**» فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التَّحذير.

التاسعة عشرة: التصريح بأنَّها لم تُعبد حتى نسي العلم:

أي لم تُعبد هذه التماثيل إلاّ بعد أن نُسي العلم واضمحلَّ، ففيه دليل على معرفة قدر وجوده، وأن وجوده أمر ضروري للأمَّة لأنَّه إذا فُقِدَ العلم حلَّ الجهل محلّه، وإذا حلَّ الجهل فلا تسأل عن حال الناس فسوف لا يعرفون كيف يعبدون الله، ولا كيف يتقرَّبون إليه.

العشرون: أنَّ سبب فقد العلم موت العلماء:

فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء لم يبقَ إلاّ جُهَّال الخلق يفتون بغير علم.

ومن أسباب فقده أيضًا: الغفلة، والإعراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به.

ثم إنَّ العلم قد يكون موجودًا وهو معدوم، وذلك فيما إذا كَثُرَ القُرَّاء

. . . .

الـذين يقـرأون العلم ولا يعملون به وقلَّ الفقهاء الذين يعملون به، فبهذا يُصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه، بل إنَّ في وجوده ضررًا على الأمة، لأنَّ العامَّة إذا رأوا من ينتسب إليه ساكتًا غير عامل بما عَلِمَ، ظنُّوا أنَّ ما عليه الناس حق.

فضرر العلم الذي لا ينفع أشدّ من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل فإنَّ الناس قد يطلبون العلم، ويتلمَّسونه.

الخلاصة للباب:

بيان أنَّ الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر.

وأنَّ خطر الغلو عظيم ونتـائجـه وخيمـة، فالـواجب تنزيل الصالحين منازلهم، فلا يستوي الصالح والفاسد، بل ينزَّل كل منزلته، ولكن لا نتجاوز به المنزلة فنغلو فيه، فدين الله وسط لا يعطي الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو العدل.

س ١ : ما الفرق بين التنطع عن الغلو والاجتهاد؟

الجواب: الغلو: مجاوزة الحد.

والتنطُّع: معناه التشدُّق بالشيء والتعمُّق فيه وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد: فإنَّه بذل الجهد لإدراك الحق، وليس فيه غلو إلاّ إذا كان المقصود بالاجتهاد كثرة الطاعة فقد تؤدّي إلى الغلو، فلو أنَّ الإنسان مثلاً أراد أن يقـوم الليل ولا ينام، وأن يصوم النهار ولا يُفطر، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلّها، فلا يتزوَّج ولا يأكل اللحم، ولا الفاكهة وما أشبه ذلك، فإنَّ هذا من الغلو، وإن كان الحـامل على ذلك الاجتهاد والبر، ولكن هذا خلاف هدي النبي ﷺ.

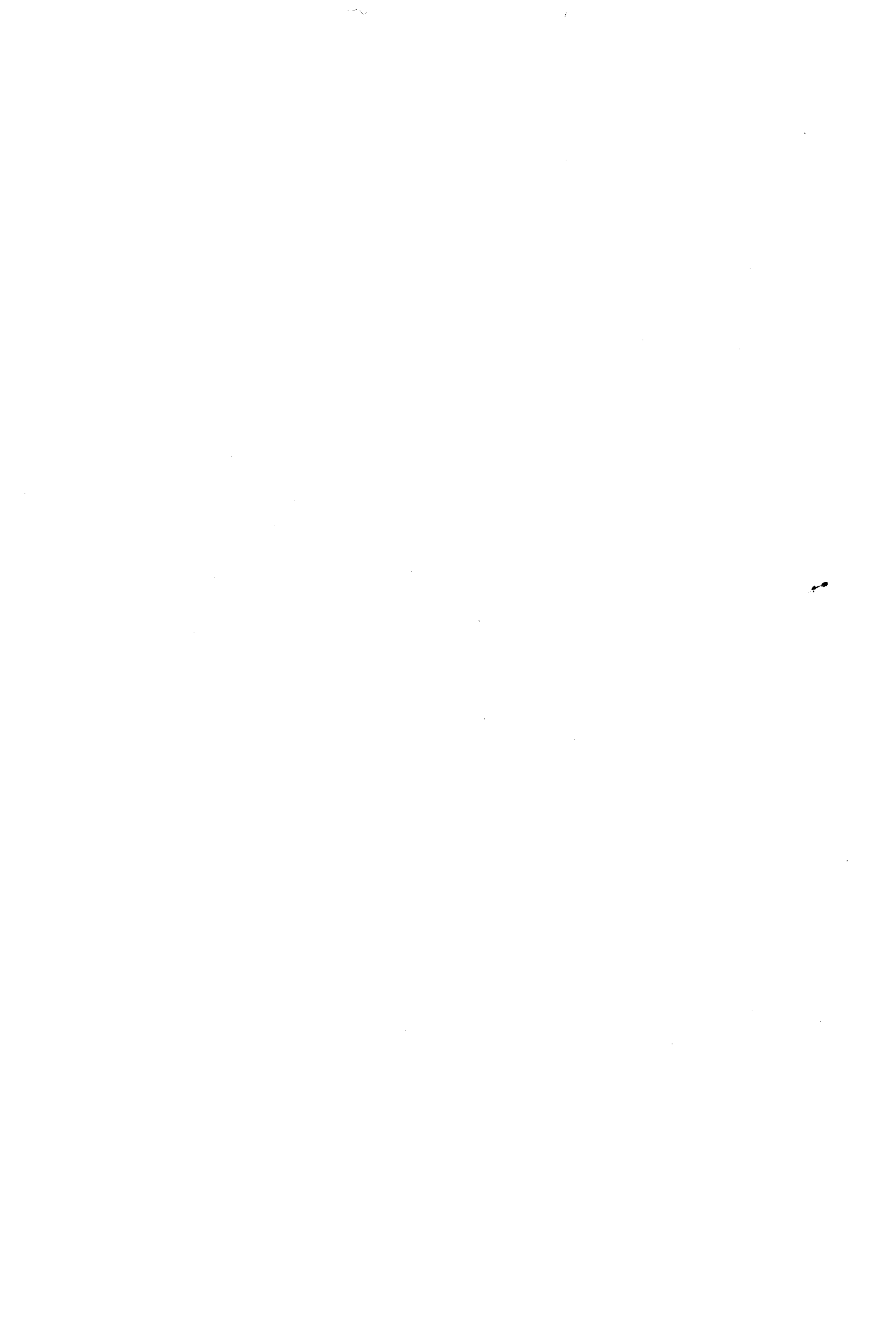
. . . .

س ٢ : ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟

الجواب: هذا من البدع وسواء قلنا يصل أو لا يصل، فكونك تتَّخذ القراءة عند القبر خاصَّة هذا من البدع.

وإنَّما اختلف السلف فيما إذا قرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن.

والصحيح أيضًا: أنَّه ليس بسنَّة، والسنَّة أن تستغفر له وتسأل له التثبيت.



باب

ماجاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده

في الصحيح عن عائشة أن أمّ سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ

قوله: «**التَّغليظ**» التَّشديد.

قوله: «**من عبد الله عند قبر رجل صالح**».

أي: هذا أمر محرَّم مغلَّظ فيه.

قوله: «**فكيف إذا عبده**»؟ أي: يكون أشدّ وأعظم، وذلك لأنَّ المقابر والقبور للصالحين أو من دونهم من المسلمين أهلها بحاجة إلى الدعاء، فهم يُزارون لينتفعوا لا لينتفع بهم، إلّا في اتّباع السنة في زيارة المقابر، والثواب الحاصل بذلك لكن هذا ليس انتفاعًا بأشخاصهم، بل انتفاع بعمل الإنسان نفسه بما أتى به من السنَّة.

فالزيارة التي يُقصد منها الانتفاع بالأموات زيارة بدعيَّة.

والزيارة التي يُقصد بها نفع الأموات والاعتبار بحالهم زيارة شرعيَّة[1].

---

(١) قال السعدي في القول السديد ص (٧٠): «وذلك أن مايفعل عندها نوعان مشروع وممنوع.

أما المشروع: فهو ماشرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل يزورها المسلم متبعاً للسنة فيدعو لأهلها ولأقاربه عموماً ومعارفه خصوصاً فيكون محسناً إليهم بالدعاء لهم... ومحسناً لنفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان:

أحدهما: محرم ووسيلة للشرك كالتمسح بها، والتوسل إلى الله بأهلها، والصلاة عندها،

كنيسةً بأرض الحبشة، وما فيها من الصُّوَرِ، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الـرجـل الصالح، أو العبدُ الصالح، بَنَوْا على قبره مسجدًا، وصَوَّرُوا فيه تلك الصُّوَرَ، أولئك شِرَارُ الخلقِ عند الله»[1].

قوله: «**في الصَّحيح**» أي: الصحيحين.

قوله: «**أم سلمة**» كانت ممَّن هاجر مع زوجها إلى أرض الحبشة، ولما توفي زوجها أبو سلمة تزوَّجها النبي، ﷺ، وأخبرته بما رأت وهو في مرض موته ـ كما في الصحيح ـ من الصور.

والظاهر: أنَّ هذه الصور صور مجسَّمة، وتماثيل منصوبة.

قوله: «**أولئك**» المشار إليهم نصارى الحبشة.

وقوله: «**أولئك**» يجوز في الكاف الكسر إذا كان الخطاب لأم سلمة، والفتح إذا كان الخطاب باعتبار الجنس.

وقد ذكر العلماء أنَّ في كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون مطابقًا للمخاطب.

الوجه الثاني: الفتح مطلقًا.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنَّث مطلقًا، والفتح للمذكَّر مطلقًا.

وأشهـرها: أن يكون مطابقًا للمخاطب، ثم الفتح مطلقًا، ثم الفتح للمذكر، والكسر للمؤنث.

= وكإسراجها والبناء عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنـوع الثـاني: شرك أكبـر، كدعاء أهل القبور والاستغاثـة بهم وطلب الحوائج، وهو عيـن مايفعله عباد الأصنام مع أصنامهم».

(1) رواه البخاري، كتاب الصلاة/ باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ١/١٥٥. ومسلم، كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/٣٧٥.

فهؤلاء جَمَعُوا بين الفتنتين[1]: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها، قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طفِقَ يطرح خميصَةً له على وجهه، فإذا اغْتَمَّ بها كشفَها، فقال، وهو كذلك: «**لَعْنَةُ الله على**

قوله: «**الرجل الصالح أو العبد الصالح**» أو: شك من الراوي.

قوله: «**بنوا على قبره**» أي قبر ذلك الرجل الصالح.

قوله: «**صوَّروا فيه تلك الصِّور**» أي: التي رأت، والأقرب: أنَّها صورة ذلك الرجل الصالح، وربما أنَّهم يضيفون إلى صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة، فتجتمع منها صور كثيرة.

قوله: «**أولئك شرار الخلق عند الله**» لأنَّ عملهم هذا وسيلة إلى الكفر والشرك به، وهذا أعظم الظلم وأشدّه، فما كان وسيلة إليه فإنَّ صاحبه جدير بأن يكون من شِرار الخلق عند الله سبحانه وتعالى.

قوله: «**فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل**» هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قوله: «**فتنة القبور**» لأنَّهم بنوا المساجد عليها.

قوله: «**فتنة التماثيل**» لأنَّهم صوَّروا فجمعوا بين فتنتين، وإنَّما سمِّي ذلك فتنة لأنَّها سبب لصدّ الناس عن دينهم، وكل ما كان كذلك فإنَّه من الفتنة قال تعالى: ﴿**الّم أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون**﴾[2]. وقال تعالى: ﴿**إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**﴾[3] أي صدُّوهم، أو فعلوا ما يصدونهم به عن دين الله.

---

(١) نسخة: «فتنتين».

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة البروج، الآية: ١٠.

اليهود والنصارى، اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»، يُحَذِّرُ ما صنعوا، ولولا ذلك أُبْرِزَ قَبرُه، غير أنه خشيَ أن يُتَّخذَ مسجدًا. أخرجاه[1].

قوله: **«ولهما عنها»** الضمير يعود على البخاري ومسلم، وإن لم يسبق لهما ذكرٌ لكنه لما كان ذلك مصطلحًا معروفًا صحَّ أن يعود الضمير عليهما، وهما لم يُذكرا.

وقوله: **«عنها»** أي عن عائشة.

قالت: **«لَمَّا نزل برسول الله»** أي نزل به ملك الموت لقبض روحه.

قولـه: **«طفق»** من أفعـال الشروع، وهذه ذكرها ابن مالك في أفعال المقاربة، واسمها مستتر، وجملة **«يطرح»** خبرها.

قوله: **«خميصة»** هي كِساء مُربَّع له أعلام كان يطرحه النبي، ﷺ، على وجهه.

قوله: **«فإذا اغتمَّ بها»** أي أصابه الغم بسببها، وقد احتضر ﷺ.

قوله: **«وهو كذلك»** أي وهو في هذه الحالة عند الاحتضار.

قوله: **«لعنة الله على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**: يقول هذا في سياق الموت. و«لعنة الله» أي طرده وإبعاده، وهذه الجملة يُحتمل أنَّه يُراد بها ظاهر اللفظ، أي أنَّ النبي، ﷺ، يُخبر بأنَّ الله لعنهم.

ويُحتمل أن يُراد بها الدعاء فتكون خبريَّة لفظًا إنشائيَّة معنىً، والمعنى على هذا الاحتمال أنَّ النبي، ﷺ، دعا عليهم وهو في سياق الموت بسبب هذا الفعل.

قوله: **«اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** الجملة هذه تعليل لقوله: **«لعنة**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز/ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ١/٤٠٨، ومسلم، كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/٣٧٦.

. . . .

الله على اليهود والنصارى» كأنَّ قائلاً يقول: لماذا اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد؟ والمعنى: جعلوها مساجد يصلُّون ويعبدون الله تعالى فيها مع أنَّها مبنيَّة على القبور.

قوله: «يُحذِّر ما صنعوا» أي أنَّه، ﷺ، قال ذلك في سياق الموت تحذيرًا لأمَّته ممَّا صنع هؤلاء، لأنَّه عَلِمَ أنَّه سيموت وأنَّه ربَّما يحصل هذا ولو في المستقبل البعيد.

قوله: «**ولولا ذلك أبرز قبره**» أبرز: أي أخرج من بيته، لأنَّ البروز معناه الظهور، أي لولا التحذير وخوفه أن يُتَّخذ مسجدًا لأخرج ودُفِنَ في البقيع مثلاً لكنَّه في بيته أصوَن له، وأبعد عن اتِّخاذه مسجدًا، فلهذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبره، ﷺ.

ومن أسباب ذلك: إخباره، ﷺ، أنَّه ما قبض نبي إلاّ دُفِنَ حيث قُبِض[1]. ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أنَّ السبب الواحد قد يترتَّب عليه حكمان، كغروب الشمس يترتَّب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب.

قوله: «**غير أنَّه خشي أنْ يُتَّخذ مسجدًا**» خشي فيها روايتان: خُشِيَ، وخَشِيَ[2].

فعلى رواية «خُشِيَ» يكون الذين وقعت منهم الخشية الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) من حديث أبي بكر الصديق، أخرجه أحمد في المسند ١/٢٧، رواه الترمذي، كتاب الجنائز/ باب حدثنا أبو كريب ٣/٣٩٤، وضعفه، وابن ماجه نحوه، كتاب الجنائز/ باب ما ذكر في وفاته ودفنه ﷺ، ١/٥٢١، وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٢٦٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز/ باب ما جاء في قبر النبي، ﷺ، ١/٤٢٧.

. . . .

وعلى رواية «خَشِيَ» يكون الذي وقعت منه الخشية النبي ﷺ.

والحقيقة: أنَّ الأمر كلّه حاصل، فالرسول، ﷺ، أخبر بأنَّه ما قُبِض نبي إلّا دُفِنَ حيث قُبِض، ولعن اليهود والنصارى لأنَّهم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفًا من اتخاذ قبره مسجدًا، والصحابة، رضي الله عنهم، اتفقوا على أن يُدفن، ﷺ في بيته بعد تشاورهم لأنَّهم خشوا ذلك.

ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن يُدفن في بيته وليس في ذهنه إلّا هذه الخشية، وبعضهم أشار أن يُدفن في بيته وعنده علم بأنَّه، ﷺ، قال: **«ما قُبِضَ نبي إلّا دُفِنَ حيث قُبِض»** وخوفًا من اتِّخاذه مسجدًا.

في هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء وغيرهم مساجد، وهم أفضل الصالحين، لأنَّ مرتبة النبيين هي المرتبة الأولى من المراتب الأربع التي قال الله تعالى عنها: **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا﴾**[1].

اعتراض وجوابه:

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول، ﷺ، الآن، فإنّه في وسط المسجد فما هو الجواب؟

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أنَّ المسجد لم يبن على القبر بل بُني المسجد في حياة النبي، ﷺ.

الوجه الثاني: أنَّ النبى، ﷺ، لم يدفن في المسجد حتى يُقال إنَّ هذا من

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

ولمسلم عن جندب بن عبدالله، قال: «سمعتُ النبي ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ، وهو يقول:
إنِّي أَبْرَأُ إلى الله أنْ يكون لي منكم خليلٌ، فإنَّ الله قد اتَّخَذَني خليلاً،

دفن الصالحين في المسجد وأنَّه حلال، بل دفن في بيته.

الوجه الثالث: أنَّ إدخال بيوت الرسول، ﷺ، ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم ولم يبق منهم إلاّ القليل وذلك عام ٩٤هـ تقريبًا، فليس ممَّا أجازه الصحابة أو أجمعوا عليه مع أنَّ بعضهم خالف في ذلك، وممَّن خالف أيضًا سعيد بن المسيب، فلم يرض بهذا العمل.

الوجه الرابع: أنَّ القبر ليس في المسجد حتى بعد إدخاله لأنَّه في حجرة مستقلَّة عن المسجد فليس المسجد مبنيًّا عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظًا ومحـوطًا بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة أي مثلث والركن في الزاوية الشماليَّة بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلَّى لأنَّه منحرف.

فبهذا كله يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور علينا، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه فنقول: إنَّ الإنكار قد وجد حتى في زمن التابعين وليس محل إجماع مع هذه الفروق التي ذكرناها.

قوله: «**بخمس**» أي خمس ليال، لكن العرب تطلقها على الأيام والليالي.

قوله: «**أبرأ**» البراءة هي: التخلي أي أتخلى أن يكون لي منكم خليل.

قوله: «**خليل**» هو الذي يبلغ في الحب غايته لأنَّ حبه يكون قد تخلل الجسم كله، قال الشاعر يخاطب محبوبته:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمِّيَ الخليل خليلاً

كما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً، ولو كنتُ مُتَّخِذًا من أمَّتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً،

ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجدَ، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجدَ، فإني أنهاكُم عن ذلك»[1].

والخلّة أعظم أنواع المحبة وأعلاها ولم يثبتها الله عز وجل فيما نعلم إلاّ لاثنين من خلقه وهما إبراهيم في قوله تعالى: ﴿واتَّخذ الله إبراهيم خليلاً﴾[2].

ومحمد لقوله ﷺ: «إنَّ الله اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً» ولهذا نعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إنَّ إبراهيم خليل الله، ومحمدًا حبيب الله، وهذا تنقّص في حق الرسول، ﷺ، لأنَّهم إذا جعلوه حبيب الله لم يفرِّقوا بينه وبين غيره من الناس، فإنَّ الله يحب المحسنين والصابرين، وغيرهم ممن علَّق الله بهم المحبة. فعلى رأيهم لا فرق بين الرسول، ﷺ، وغيره، لكنَّ الخلَّة ما ذكرها الله إلاّ لإبراهيم، والنبي، ﷺ، أخبر أنَّ الله اتَّخذه خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً.

فالمهمّ: أنَّ العامة مشكل أمرهم، دائمًا يضعون الرسول، ﷺ، بأنَّه حبيب الله، فنقول: أخطأتم وتنقَّصتم نبيكم، فالرسول خليل، لأنَّكم إذا وصفتموه بالمحبَّة أنزلتموه عن بلوغ غايتها.

قوله: «فإنَّ الله قد اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً» هذا تعليل لقوله: «إنّي أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل» فالنبي، ﷺ، ليس في قلبه خلَّة لأحد إلاّ لله عز وجل.

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد ٣٧٧/١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ مَن

قوله: «**ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتَّخذت أبا بكر خليلًا**» وهذا نص صريح على أنَّ أبا بكر أفضل من علي، رضي الله عنهما، وفي هذا ردّ على الرافضة الذين يزعمون أنَّ عليًّا أفضل من أبي بكر.

وقوله: «**لو**» حرف امتناع لامتناع، فيمتنع الجواب لامتناع الشرط، وعلى هذا امتنع، ﷺ، من اتِّخاذ أبي بكر خليلًا لأنَّه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلًا.

قوله: «**ألا**» للتنبيه، وهذه الجملة من الحديث الأول لكنه ابتدأها بالتَّنبيه لأهميَّة المقام.

قوله: «**ألا فلا تتخذوا**» هذا تنبيه آخر للنَّهي عن اتِّخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وغيره.

قوله: «**فإنّي أنهاكم عن ذلك**» هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيدًا لهذا الأمر، كما هو الحال في المتقدم، وهذا النَّهي تأكيد لأهميَّة المقام.

من فوائد الحديث:

١ ـ أنَّ النبي، ﷺ، تبرأ من أن يتخذ أحدًا خليلًا، لأنَّ قلبه مملوء بمحبة الله تعالى.

٢ ـ أنَّ الله تعالى اتَّخذه خليلًا كما اتَّخذ إبراهيم خليلًا، ففيه فضيلة لرسول الله ﷺ.

٣ ـ فضيلة إبراهيم، ﷺ، باتِّخاذه خليلًا.

٤ ـ فضيلة أبي بكر وأنَّه أفضل الصحابة لأنَّ الحديث يدلّ على أنَّه أحبّ الصحابة إلى الرسول ﷺ.

٥ ـ التحذير من اتخاذ القبور مساجد في قوله: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**». وقوله: «**فإنِّي أنهاكم عن ذلك**».

. . . .

---

٦ ـ أنَّ من دفن شخصًا في مسجد وجب نبشه.

٧ ـ حرص النبي، ﷺ، على أمته في إبعادهم عن الشرك وأسبابه. لأنَّ هذا من وسائل الشرك وذرائعه الشرك ولهذا حرص النبي، ﷺ، على تحذير أمته منه، وهذا من كمال بلاغته ورحمته بالأمة.

٨ ـ أنَّ من بنى مسجدًا على قبر وجب عليه هدمه.

قوله: «**فقد نهى عنه في آخر حياته. . .**».

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقوله: «**فقد نهى عنه في آخر حياته**» الضمير يعود إلى النبي، ﷺ، والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قوله: «**ثمَّ إنَّه لعن وهو في السياق من فعله**» فالنبي، ﷺ، وهو عند فراق الدنيا لعن من اتَّخذ القبور مساجد.

قوله: «**والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد**».

عندها: أي القبور، وقوله: «**من ذلك**» أي من اتخاذها مساجد، وعلى هذا فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولهذا نهى النبي، ﷺ، كما في صحيح مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي أن يُصلَّى إلى القبور فقال: «**لا تصلُّوا إلى القبور**»[1].

قوله: «**وهو معنى قولها خُشي أن يتخذ مسجدًا**» هذا من كلام عائشة، رضي الله عنها: «يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أبرز قبره غير أنّه خشي أن يُتخذ مسجدًا».

قوله: «**فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا**»:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب النهي عن الجلوس على القبر ٢/٦٦٨.

فعله. والصلاةُ عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجدٌ، وهو معنى قوله «خُشِي أن يُتَّخَذَ مسجدًا». فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبرِهِ

قد يُقال: «خَشي أن يُتَّخذ مسجدًا» معناه: خَشِيَ أَنْ يُبنى عليه مسجد لكنه استدلَّ على أنَّ المُراد ما هو أعمّ، وأنَّه شامل لبناء المساجد على القبور والصلاة عندها.

أي: كون الرسول، ﷺ، يخشى أن يتَّخذ مسجدًا هذا لا يمكن أن يُراد به بناء المسجد، لأنَّ الصحابة لا يمكن أن يبنوا حول قبره مسجدًا؛ لأنَّ مسجده مجاور لبيته فكيف يبنون مسجدًا آخر؟! هذا شيء مستحيل بحسب العادة، فيكون معنى قولها: «**خَشيَ أن يُتخذ مسجدًا**» أي مكانًا يُصلى فيه وإن لم يُبنَ المسجد.

ولا ريب أنَّ أصل تحريم بناء القبور على المساجد؛ لأنَّ المساجد مكان الصلاة والناس سيأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلى الناس في مسجد بني على قبر فكأنَّهم صلّوا عند القبر، والمحذور الذي يوجد في بناء المساجد يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة، وإن لم يبن مسجد.

فتبيَّن بهذا أنَّ اتخاذ القبور مساجد له صورتان:

الأولى: أن تبنى عليها مساجد.

الثانية: أن تُتَّخذ مكانًا للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد، فإذا كان هؤلاء القوم مثلاً يذهبون إلى هذا القبر، ويصلون عنده ويتخذونه مصلًى، فإنَّ هذا بمعنى بناء المساجد عليها وهو أيضًا من اتخاذها مساجد.

قوله: «**فكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجدًا**» وهذا يشهد له العرف، فإنَّ الناس الذين لهم مساجد في مكان أعمالهم كالوزارات والإدارات لو سألت واحدًا منهم أين المسجد؟ لأشار إلى المكان الذي اتَّخذوه

مسجدًا، وكل موضع قُصِدَت الصلاةُ فيه فقد اتُّخِذَ مسجدًا، بل كل موضع يُصَلَّى فيه يسمى مسجدًا، كما قال ﷺ: **«جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجدًا وطَهُورًا»**[1].

مسجدًا يصلون فيه، مع أنَّه لم يبن، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه صار يُسمَّى مسجدًا.

قوله: **«بل كل موضع يُصلى. . .»**.

فقـوله: **«مسجدًا»** أي مكانًا للسجود، وهذا معنى ثالث على المعنيين الأولين، وهو أن يُقال: كل شيء تصلي فيه فإنَّه مسجد ما دمت تصلي فيه، كما يُقال للسّجادة التي تُصلي عليها مسجد أو مُصلًّى وإن كان الغالب عليها اسم مُصلًّى.

(١) من حديث جابر بن عبدالله رواه البخاري، كتاب التيمم/ باب حدثنا عبدالله بن يوسف ١/١٢٦، ومسلم، كتاب المساجد ١/٣٧٠.

ولأحمد بسند جيِّدٍ عن ابن مسعود (رضي الله عنه) مرفوعًا: **«إنَّ من شِرَار النَّاسِ من تُدْرِكُهُمُ الساعةُ وهم أحياءٌ، والذين يَتَّخذونَ القبورَ مساجدَ»**. ورواه أبو حاتم في صحيحه[1].

الخلاصة:

أنَّه لا يجوز بناء المساجد على القبور؛ لأنَّها وسيلة إلى الشرك، وهو عبادة صاحب القبر.

ولا يجوز أيضًا أن تُقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد؛ لأنَّ العلَّة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها، فلو فُرِضَ أنَّ رجلًا يذهب إلى المقبرة ويصلي عند قبر ولي من الأولياء على زعمه، قلنا: إنَّك اتَّخذت هذا القبر مسجدًا، وأنَّك مستحقٌّ لما استحقَّه اليهود والنصارى من اللعنة، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية دليل على صحة تسمية كل شيء يصلَّى فيه مسجدًا بالمعنى العام[2].

قوله: **«مرفوعًا»** المرفوع: ما أُسند إلى النبي ﷺ.

قوله: **«إنَّ من شرار النَّاس»** من: للتبعيض، وشرار: جمع شرّ، مثل

---

(1) رواه الإمام أحمد في المسند ١/٤٣٥، وابن أبي شيبة في المصنف ٣/٣٤٥، وابن خزيمة برقم (٧٨٩)، وابن حبان برقم (٣٤٠)، والطبراني في الكبير برقم (١٠٤١٣)، وقال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٣٠): «إسناده جيد»، وقال الهيثمي في المجمع بعد عزوه للطبراني ٢/٢٧: «إسناده حسن».

(2) قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٣٦): «فمما يدخل في ذلك قصد القبور للدعاء عندها أولها، فإن الدعاء عند القبور وغيرها من الأماكن ينقسم إلى نوعين: أحدهما: أن يحصل الدعاء في البقعة بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها كمن يدعو الله في طريقه ويتفق أن يمرَّ بالقبور أو من يزورها فيسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنة، فهذا ونحوه لا بأس به. =

. . . .

الثاني: أن يتحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب معه في غيره، فهذا النوع منهي عنه إما نهي تحريم أو تنزيه وهو إلى التحريم أقرب.

فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب، أو كان يدعو في بقعة، وكان هناك بقعة فيها صليب وهو عنه ذاهل، أو دخل إلى كنيسة ليبيت فيها مبيتاً جائزاً ودعا الله في الليل لم يكن بهذا بأس.

ولو تحرى الدعاء عند صنم أو صليب أو كنيسة يرجو الإجابة بالدعاء في تلك البقعة لكان هذا من العظائم، بل لو قصد بيتاً أو حانوتاً في السوق أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجو الإجابة لكان هذا من المنكرات المحرمة، إذ ليس للدعاء عندها فضل، فقصد القبور للدعاء عندها من هذا الباب بل هو أشد من بعضه، لأن النبي، ﷺ، نهى عن اتخاذها مساجد، وعن اتخاذها عيداً، وعن الصلاة عندها، بخلاف كثير من هذه المواضع».

وقال ص (٣٧٨): «وتمام ذلك بذكر سائر العبادات، فالقول فيها جميعاً كالقول في الدعاء، فليس في ذكر الله هناك أو القراءة عند القبر أو الصيام عنده، أو الذبح عنده فضل على غيره من البقاع، ولا قصد ذلك عند القبور مستحبا.

وماعلمت أحداً من علماء المسلمين يقول: إن الذكر هناك أو الصيام، والقراءة أفضل منه في غير تلك البقعة.

وقال ص (٣٨١): «فأما ذكر الله هناك فلا يكره، لكن قصد البقعة للذكر هناك بدعة مكروهة، فإنه نوع من اتخاذها عيداً، وكذلك من قصدها للصيام عندها».

وقال أيضاً: «وأما الذبح هناك فنهي عنه مطلقا ذكره أصحابنا وغيرهم لما روى أنس عن النبي، ﷺ، قال: «**لا عقر في الإسلام**» رواه أحمد وأبوداود، وزاد قال عبدالرزاق: «كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة» قال أحمد في رواية المروزي: قال النبي، ﷺ: «**لا عقر في الإسلام**»: كانوا إذا مات لهم ميت نحروا جزوراً على قبره، فنهى النبي، ﷺ، عن ذلك، كره أبو عبد أكل لحمه.

قال أصحابنا: وفي معنى هذا مايفعله كثير من أهل زماننا في التصدق عند القبر بخبز ونحوه».

. . . .

صحاب جمع صَحْب، والمعنى: أصحاب الشر، وفي هذا دليل على أنَّ الناس يتفاوتون في الشر وأنَّ بعضهم أشدّ من بعض.

قوله: «**من تدركهم الساعة**» من: اسم موصول اسم إن، والساعة: أي يوم القيامة وسمِّيت بذلك لأنها داهية، وكل شيء داهية عظيمة يسمى ساعة كما يُقال هذه ساعتك في الأمور الداهية التي تصيب الإنسان.

قوله: «**وهم أحياء**» الجملة حال من الهاء في «تدركهم».

وفي قوله: «**تدركهم الساعة وهم أحياء**» إشكال، وهو أنَّه ثبت عن النبي ﷺ: «**أنَّه لا تزال طائفة من أمَّتي على الحق ظاهرين لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله**»[1]. وفي رواية: «**حتى تقوم الساعة**»[2] فكيف نوفّق بين الحديثين؟ لأنَّ ظاهر الحديث الذي ساقه المؤلف أنَّ كل من تدركهم الساعة وهم أحياء فهم من شرار الخلق.

والجمع بينهما: أن يُقال: إنَّ المُراد بقوله: «**حتى تقوم الساعة**» أي إلى قُرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل؛ لأنَّها لا تقوم إلّا على شرار الخلق، فالله يُرسل ريحًا تقبض نفس كل مؤمن ولا يبقى إلّا شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة.

قوله: «**الذين يتخذون القبور مساجد**» فهم من شرار الخلق وإن لم يشركوا، لأنَّهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام فإن كانت وسيلة

---

(١) من حديث المغيرة بن شعبة، رواه البخاري بنحوه، كتاب المناقب/ باب حدثنا محمد بن المثنى ٥٣٨/٢، ومسلم، كتاب الإمارة/ باب قوله، ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي» ١٥٢٣/٣.

(٢) صحيح مسلم في الكتاب والباب السابقين ١٥٢٤/٣، ١٥٢٥.

. . . .

لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرَّم فهي محرَّمة.

فجعل الناس في هذا الحديث ينقسمون إلى صنفين:

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتَّخذون القبور مساجد.

وفي قوله ﷺ: «**إنَّ من شرار الناس**» دليل على أنَّ الناس يتفاوتون في الشر، لأنَّ بعضهم أشدّ من بعضهم فيه كما أنَّهم يتفاوتون في الخير أيضًا لقوله تعالى: ﴿**هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون**﴾[1] وذلك من حيث الكميَّة: مثل من صلَّى ركعتين فليس كمن صلَّى أربعًا.

والكيفيَّة: مثل من صلَّى وهو قانت خاشع حاضر القلب فليس كمن صلَّى وهو غافل.

والنوعية: مثل الفرض أفضل من النَّفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة، لأنَّ الصلاة أفضل الأعمال البدنية.

وهذا الذي تدلّ عليه الأدلة هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل في الأعمال، حتى في الإيمان الذي هو في القلب يتفاضل الناس فيه، بل إنَّ الإنسان يحسّ في نفسه أنَّه في بعض الأحيان يجد في قلبه من الإيمان ما لا يجده في بعض الأحيان، فكيف بين شخص وشخص؟ فهو يتفاضل أكثر.

وخلاصة الباب:

أنَّه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلّظ على من عبدالله عند قبر رجل صالح.

وكلام المؤلف، رحمه الله في قوله: «**عبد الله**» يشمل الصلاة وغيرها،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٢.

. . . .

والأحاديث التي ساقها في الصلاة لكنه، رحمه الله، كأنَّه قاس غيرها عليها، فمن زعم أنَّ الصـدقـة عند هذا القبر أفضل من غيره فهو شبيه بمن اتخذه مسجدًا، لأنه يرى أنَّ لهذه البقعة أو لمن فيها شأنًا يفضل به على غيره، فالشيخ عمَّم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدلّ بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: أنَّ الشيخ أراد بذلك أنَّ العلَّة هي تعظيم هذا المكان لكونه قبرًا، وهذا كما يوجد في الصلاة يوجد في غيرها من العبادات، فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النَّص له لفظًا.

فيه مسائل : الأولى : ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ولو صحت نية الفاعل.

فيـه مسائل :

الأولى : ما ذكر الرسول، ﷺ، فيمن بنى مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحَّت نيَّة الفاعل :

تؤخذ من لعن النبي، ﷺ، الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله : «**ولو صحَّت نيَّة الفاعل**» لأنَّ الحكم عُلّق على مجرَّد صورته فهذا العمل لا يحتاج إلى نيَّة لأنَّه مُعلّق بمجرد الفعل.

فالنيَّة تؤثـر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثِّر في الأعمال التي لا يقدر عليها فيعطى أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما عُلّق على مجرد فعله فلا حاجة فيه إلى النية.

أي : ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرُّب إلى الله ببناء هذا المسجد اعتبارًا بما يؤول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتَّب على ذلك، وهذه النقطة نتدرَّج منها إلى نقطة أخرى، وهي التحذير من مشابهة المشركين، وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفى على بعض الناس حيث يظنّ أنَّ التشبه إنَّما يحرم إذا قصد التشبيه، والشرع إنَّما علق الحكم بالتشبه أي : بأن يفعل ما يشبه فعلهم سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء في مسألة التشبه وإن لم ينو ذلك.

فإن قيل : قاعدة «**إنَّما الأعمال بالنيات**» هل تعارض ما ذكرنا؟

الجواب : لا تعارضه، لأنَّ ما عُلّق بالعمل ثبت له حكمه، وإن لم ينو الفعل، كالأشياء المحرَّمة كالظهار والزِّنا وما أشبهها.

الثـانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك. **الثالثة**: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمسٍ قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الثانية: النهي عن التماثيل وغلّظ الأمر في ذلك:

تؤخـذ من قوله: «**وصوروا فيه تلك الصور**» ولا سيما إذا كانت هذه الصور معظّمة عادة لا شرعًا، كالرؤساء والزعماء والأب والأخ والعم.

أو شرعًا: مثل: الأولياء والصالحين والأنبياء، وما أشبه ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته، ﷺ، في ذلك، كيف بيَّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال؟! ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدَّم؟

وهذا ممَّا يدلّ على حرص النبي، ﷺ، على حماية جانب التوحيد، لأنَّ التوحيد أعظم الأمور، فالمعاصي ولو كبرت أهون من الشرك، حتى قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»(١). لأنَّ الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذبًا معصية وهي أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جدًّا ونحن نحذِّر إخواننا المسلمين مما هم عليه الآن من الانكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خُلِقُوا له، واشتغلوا بما خُلِقَ لهم، فعامة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالدنيا ليس في أفكارهم إلاّ الدنيا قائمـين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا في الحقيقة نوع من الشرك لأنَّه يوجب الغفلة عن الله عز وجل، ولهذا سمّى النبي، ﷺ، من فعل ذلك عبدًا لما تعبَّد له فقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة**»(٢). ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قُدِّر له

---

(١) ص (٢٠٧).

(٢) ص (٣٠).

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر. **الخامسة**: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك. **السابعة**: أن مراده ﷺ تحذيره إيانا عن قبره.

من الدنيا، فالدنيا وسيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غاية، كيف تجعلها غاية وأنت لا تدري مقامك فيها؛ وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان؟ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

فالحاصل: أنَّ النبي، ﷺ، بُعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصًا على سدّ كلّ الأبواب التي تؤدي إلى الشرك فالرسول، ﷺ، حذَّر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات: الأولى: في سائر حياته، والثانية: قبل موته بخمس، والثالثة: وهو في السياق.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر:

تؤخذ من قوله: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**» فإنَّ قبره داخل في ذلك بلا شك، بل أول ما يدخل فيه.

الخامسة: أنَّه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم:

تؤخذ من قوله ﷺ: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» وبئس رجل جعل إمامه اليهود والنصارى.

السادسة: لعنه إيَّاهم على ذلك:

تؤخذ من قوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**».

السابعة: أنَّ مراده تحذيره إيَّانا عن قبره:

تؤخذ من قول عائشة: «يُحذِّر ما صنعوا» أي ما صنعه اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره. **التاسعة**: في معنى اتخاذها مسجدًا. **العاشرة**: أنه قرن بين من اتخذها مسجدًا وبين من تقوم عليهم الساعة فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الثامنة: العلَّة في عدم إبراز قبره:

تؤخـذ من قول عائشة: «ولولا ذلك أبرز قبره غير أنَّه خشي أن يتخذ مسجدًا» وسبق لنا أن هناك علة أخرى وهي: إخباره بأنَّه ما من نبي يموت إلا دفن حيث يموت[1]، ولا يمتنع أن يكون للحكم علَّتان، كما لا يمتنع أن يكون للعلَّة حكمان.

التاسعة: في معنى اتِّخاذها مسجدًا:

سبق أن ذكرنا أن لها معنيين:

١ ـ بناء المساجد عليها.

٢ ـ اتخاذها مكانًا للصلاة تقصد فيصلَّى عندها، بل إنَّ من صلَّى عندها ولم يتخذها للصلاة فقد اتخذها مسجدًا بالمعنى العام.

العاشرة: أنَّه قرن بين من اتَّخذها مسجدًا وبين من تقوم عليه الساعة فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته:

ومعنى هذا أنَّ الرسول، ﷺ، ذكر التحذير من الشرك قبل أن يموت.

وقوله: «**وذكر خاتمته**» وهي: أن من تقوم عليهم شرار الخلق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء هؤلاء كفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

قوله: «**ذكره في خطبته**» أي: الرسول ﷺ.

---

(١) سبق ص (٤٠٣).

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس الردّ على الطائفتين اللتين هما أشرُّ أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة وهم الرافضة والجهمية وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور وهم أول من بنى عليها المساجد.

وقوله: «**قبل موته بخمس**» أي: بخمس ليال، والعرب يعبِّرون بالليالي عن الأيام، وبالأيام عن الليالي.

وقوله: «**أشرّ**» يقال: شر، ويقال: أشر كما يقال: خير وأخير، لكن الأكثر شر بحذف الهمزة لكثرة استعمالها.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس الردّ على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع:

وإنما تكلم المؤلف، رحمه الله، عن حال الرافضة والجهميَّة وحكمهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهييج النفس على الاطلاع عليهما، لأنَّ الإنسان إذا ذكر الحكم والوصف قبل ذكر الموصوف والمحكوم عليه، صارت نفسه تتطلع وتتشوق إلى هذا، فلو قال من أول الكلام: الرد على الرافضة والجهمية فلا يكون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلَّم عن حالها وحكمهما.

وحالهما: أنَّها أشر أهل البدع.

وحكمهما: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشيء إذا استبعده، وسموا بذلك لأنَّهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما، وقال: هما وزيرا جدي، فرفضوه وتركوه وكانوا في السابق معه، لكن لما رأوا الحق نفروا منه والعياذ بالله فسمُّوا رافضة.

وأصل مذهبهم من عبدالله بن سبأ، وهو يهودي تلبَّس بالإسلام ليفسده

. . . .

مثل ما أفسد بولص دين النصارى عندما تلبَّس بالنصرانية.

وأوّل ما أظهر ابن سبأ بدعته الغلو في علي بن أبي طالب، حتى إنَّه جاءه وقال: أنت الله حقًّا، والعياذ بالله، فأمر علي بالأخدود فحُفر، وأمر بالحطب فجُمع، وبالنار فأوقدت وأحرقهم، إلاّ أنَّه يُقال إنَّ عبدالله بن سبأ هرب وذهب إلى مصر ونشر بدعته فالله أعلم، فالمهم أنَّه رأى أمرًا لم يحتمله حيث ادعوا فيه الألوهيَّة فأحرقهم بالنار إحراقًا، ثم بدأت هذه الفرقة الخبيثة تتكاثر لأنَّ شعارها في الحقيقة النفاق، ولهذا كانت هي أخطر ما يكون على الإسلام؛ لأنَّها تتظاهر بالإسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة كتحريم الخمور وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه في الباطن، فهم يرون أئمتهم آلهة تدير الكون، وأنَّهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء، وأنهم في مرتبة لا ينالها ملك مقرَّب ولا نبي مرسل، وهؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوى الإسلام، ولذلك يقول عنهم شيخ الإسلام في كثير من كتبه قولاً إذا اطلع عليه الإنسان عرف حالهم: «إنَّهم أشد الناس ضررًا على الإسلام، وأنَّهم هجروا المساجد وعمروا المشاهد»، فهم يقولون لا نُصلي جماعة إلاّ خلف إمام معصوم ولا معصوم الآن، وهم أوّل من بنى المشاهد على القبور كما قال الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول على الإطلاق وهم أبو بكر وعمر بالنفاق، وأنَّهما ماتا على ذلك كأبيّ بن سلول وأشباهه والعياذ بالله، فهؤلاء كيف نقول إنَّهم من المسلمين؟!!

وأما الجهميَّة: فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنَّه أنكر صفات الله وقال: إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلِّم موسى تكليمًا، فأنكر المحبة والكلام ثم بدأت هذه البدعة تنتشر وتتسع، فاعتنقها طوائف غير الجهمية كالمعتزلة، ومتأخِّري الرافضة، لأنَّ الرافضة كانوا بالأول مشبِّهة، ولهذا قال أهل العلم: أوّل من عُرف بالتشبيه هشام بن الحكم الرافضي، ثم تحوَّل

. . . .

من التشبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبـان بن سمعـان، وأبان أخذها عن طالوت الذي أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي، ﷺ، فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إنَّ الجهم بن صفوان نشأ في بلاد خراسان، وفيها كثير من الصابئة وعُبَّـاد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضًا بدعته، فصارت هذه البدعة مركَّبة من اليهوديَّة والصابئة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة في الأمة الإسلامية، وهؤلاء الجهميَّة معطلة في الصفـات ينكـرون الصفـات، ومنهم من أنكر الأسماء مع الصفات، وهذه الأسماء التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه جعلوها إضافات وليست حقيقة، أو أنها أسماء لبعض مخلوقاته، فالسميع عندهم بمعنى من خلق السمع في غيره، والبصير كذلك وهكذا.

ومنهم من أنكر أن يكون الله متَّصفًا بالإثبات أو العدم فقالوا: لا يجوز أن نثبت لله صفة أو ننفي عنه صفة حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنَّه موجود ولا إنَّه معدوم، لأنَّنا إن قلنا: بأنه موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا: بأنه معدوم شبهناه بالمعدومات. فنقول: لا موجود ولا معدوم فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا يمكن، لأنَّ تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهما، بل لابد أن يوجد أحدهما، فمذهبهم في الصفات: التعطيل المحض.

ومـذهبهم في القضـاء والقدر: الجبر، فيقولون: إنَّ الإنسان مجبر على عمله يعمل بدون اختياره إن صلَّى فهو مجبر، وإن قتل فهو مجبر وهكذا، فعطّلوا بذلك حكمة الله، لأنَّه إذا كان كل عامل مجبرًا على عمله لم يكن هناك حكمة

. . . .

في الثواب والعقاب، بل بمجرَّد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطّلوا أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنسانًا أو تذمّه، لأنَّ العاصي مجبر، والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنَّكم إذا قلتم ذلك أثبتم أنَّ الله أظلم الظالمين، لأنَّه كيف يعاقب العاصي وهو مجبر على المعصية؟ ويثيب الطائع وهو مجبر على طاعته؟ فيكون أعطى من لا يستحق، ومنع من يستحق، وهذا ظلم!!

فقالوا: هذا ليس بظلم، لأنَّ الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من المالك في ملكه يفعل به ما شاء.

وأجيب: بأنَّه باطل، لأنَّ المالك إذا كان متَّصفًا بصفات الكمال لن يخلف وعده، وقد قال الله تعالى: **﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا﴾**[1] فلو أخلف هذا الوعد لكان نقصًا في حقه وظلمًا لخلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومذهبهم في أسماء الإيمان والدين: الإرجاء فيقولون: إنَّ الإيمان مجرَّد اعتراف الإنسان بالخالق على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأنَّ الأقوال والأعمال لا مدخل لها في الإيمان، وأنَّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إنَّ أفسق وأعدل عباد الله في الإيمان سواء، بل قالوا: إنَّ فرعون مؤمن كامل الإيمان، وجبريل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر لأنَّه ادّعى الربوبية لنفسه فقط فصار بذلك كافرًا.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد ... كالمشط عند تماثل الأسنان

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٢.

فمذهبهم من أخبث المذاهب إن لم نقل أخبثها، لكن أخبث منه مذهب الرافضة حتى قال شيخ الإسلام: «إنَّ جميع البدع أصلها من الرافضة»، فهم أصل البليَّة في الإسلام، ولهذا قال المؤلف: أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، ولعل الصواب من الثلاث والسبعين فرقة، أو أنَّ الصواب أخرجهم إلى الثنتين والسبعين أي أخرجهم من الثالثة التي كان عليها الرسول، ﷺ، وأصحابه، لأنَّ المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي من كانت على ما كان عليه النبي، ﷺ، وأصحابه.

وصدق رحمه الله في قوله: «إنَّهم شر طوائف أهل البدع».

وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيَّار لأنَّه أظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: «**وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أوّل من بنى عليها المساجد**» ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولا شك أنَّ البدع دركات بعضها أسفل من بعض، فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعًا لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع:

تؤخذ من قولها: «طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغْتمَّ بها كشفها» وفي هذا دليل على شدّة نزعه، وهكذا كان الرسول، ﷺ، يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان من الناس وهذا من حكمة الله عز وجل فهو، ﷺ، شدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأوذي إيذاءً عظيمًا، وكذلك أيضًا فيما يصيبه من الأمراض يضاعف عليه، والحكمة من ذلك: لأجل أن ينال أعلى درجات الصبر، لأنَّ الإنسان إذا ابتلي بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.

الثالثة عشرة: ما أُكْرِمَ به من الخلة. **الرابعة عشرة**: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

والصبر درجة عالية لا تُنال إلّا بوجود أسبابها، ومنها الابتلاء فيصبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلَّة:

ويدل عليها قوله، ﷺ: **«إنَّ الله اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً»** ولا شك أنَّ هذه الكرامة عظيمة، لأننا لا نعلم أحدًا نال هذه المرتبة إلا رسول الله، ﷺ، وإبراهيم، ﷺ، وبهذا يتبينَّ خطأ من يقول إبراهيم الخليل، ومحمد الحبيب، فإنَّ هذا تنقّص في حق الرسول، ﷺ، وليس من باب التكميل، بل من باب التنقيص، لأنَّ الخلة أعلى من المحبة، فإذا قالوا: إبراهيم الخليل ومحمد الحبيب جعلوا مرتبة إبراهيم أعلى من مرتبة النبي، ﷺ، وهذا أمر لا يتفطَّن له هؤلاء الجهلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنَّها أعلى من المحبة:

ودليل ذلك: أنَّه ﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحبَّ الناس إليه فأثبت له المحبة ونفى عنه الخلّة، فدلّ هذا على أنَّها أعلى من المحبة، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلى غيره، فقد ورد من حديث آخر أنَّه صرَّح: **«بأنَّ أبا بكر أحب الرجال إليه»**[1] ثم قال هنا: **«لو كنت متخذًا أحدًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»** دلّ على أنَّ الخلَّة أعلى من المحبة.

---

(١) من حديث عمرو بن العاص، رواه البخاري، كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر رقم (٣٦٦٢)، ومسلم، كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر ٤/١٨٥٦.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصدِّيق أفضل الصحابة. السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

الخامسة عشرة: التصريح بأنَّ الصدِّيق أفضل الصحابة:

تؤخذ من قوله ﷺ: «**ولو كنت متَّخذًا من أمتي خليلاً لاتَّخذت أبا بكر خليلاً**» فلو كان غيره أفضل منه عند النبي، ﷺ، لكان أحق بذلك.

ومن المسائل الهامة أيضًا:

أنَّ الأفضليَّة في الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسب، لأنَّنا لو راعينا الأفضلية بالنسب لكان علي بن أبي طالب وحمزة بن عبدالمطلب، رضي الله عنهما، أحقّ من أبي بكر في ذلك، ومن ثمَّ قُدّم أبو بكر رضي الله عنه على علي بن أبي طالب وغيره من آل النبي ﷺ.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته:

لم يقل التصريح وإنَّما قال: الإشارة لأنَّ النبي، ﷺ، لم يقل: إنَّ أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لمَّا قال: «**لو كنت متَّخذًا من أمتي خليلاً لاتَّخذت أبا بكر خليلاً**» عُلِمَ أنَّه، رضي الله عنه، أولى الناس برسول الله، ﷺ، فيكون أحقّ الناس بخلافته.

باب

ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانا تعبد من دون الله

هذا الباب له صلة بما قبله وهو أنَّ الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانًا تُعبد من دون الله.

أي: يؤول الأمر بالغالين إلى أن يعبدوا هذه القبور أو أصحابها.

والغلو: مجاوزة الحد مدحًا أو ذمًّا، والمراد هنا مدحًا.

والقبور لها حق علينا من وجهين:

١ ـ أن لا نفرّط فيما يجب لها من الاحترام بالإهانة والجلوس عليها، وما أشبه ذلك.

٢ ـ أن لا نغلو فيها فنتجاوز الحد.

وفي صحيح مسلم قال علي بن أبي طالب لأبي الهياج الأسدي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله، ﷺ، أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سوَّيته»[1].

والقبر المشرف: هو الذي يتبينَّ عن سائر القبور، فلا بد أن يسوّى ليساويها لئلّا يظنّ أنَّ لصاحب هذا القبر خصوصية ولو بعد زمن، إذ هو وسيلة إلى الغلو فيه.

قوله: «**الصالحين**» يشمل الأنبياء والأولياء، بل ومن دونهم.

قوله: «**أوثانًا**» جمع وثن وهو كل ما نُصب للعبادة، وقد يقال له: صنم.

والصنم: تمثال ممثل، فيكون أعم.

(١) في كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر ٢/ ٦٦٦.

روى مالكٌ في المُوَطَّأ: أن رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وَثَنًا**»

ولكن ظاهر كلام المؤلف: أنَّ كل ما يعبد من دون الله يُسمَّى وثنًا، وإن لم يكن على تمثال نصب، لأنَّ القبور قد لا يكون لها تمثال يُنصب على القبر فيعبد.

قوله: «**تعبد من دون الله**» أي من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها، أو عبدت مع الله، لأنَّ الواجب في عبادة الله إفراده فيها، فإذا قُرِنَ بها غيره صارت عبادة لله، وقد ثبت في الحديث القدسي أنَّ الله تعالى يقول: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**)[1].

قوله: «**في الموطأ**» كتاب مشهور، من أصح الكتب، لأنَّه رحمه الله تحرَّى فيه صحَّة السند، وسنده أعلى من سند البخاري لقربه من الرسول، ﷺ، وكلَّما كان السند أعلى كان إلى الصحة أقرب، وفيه مع الأحاديث آثار عن الصحابة، وفيه أيضًا كلام وبحث للإمام مالك نفسه.

وقد شرحه كثير من أهل العلم[2]، ومن أوسع شروحه وأحسنها من الرواية والدراية: التمهيد لابن عبدالبر، وهذا ـ أعنى التمهيد ـ فيه علم كثير.

قوله: «**اللهم**» أصلها يا الله فحذفت ياء النداء لأجل البداءة باسم الله، وعوّض عنها الميم الدالّة على الجمع، فكأنَّ الداعي جمع قلبه على الله، وكانت

(١) من حديث أبي هريرة رواه مسلم، كتاب الزهد / باب من أشرك في عمله غير الله ٢٢٨٩/٤.

(٢) ومنها: المنتقى لأبي الوليد الباجي، وشرح موطأ مالك للزرقاني، وأوجز المسالك إلى موطأ مالك للكندهلوي، وتنوير الحوالك للسيوطي.

يُعْبَدُ، اشتدَّ غضب الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1].

الميم في الآخر لأجل البداءة باسم الله.

قولـه: «**لا تجعـل قبري وثنـا يُعبد**» لا: للدعاء لأنَّها طلب من الله، وتجعل: تصير.

والمفعول الأول لها: «قبري» والثاني: «وثنًا».

وقوله: «**يُعبد**» صفة لوثن وهي صفة كاشفة؛ لأنَّ الوثن هو الذي يُعبد من دون الله.

وإنَّما نهى النبي، ﷺ، عن ذلك لأنَّ ممن كان قبلنا جعلوا قبور أنبيائهم مساجد وعبدوا صالحيهم، فسأل النبي، ﷺ، ربَّه أن لا يجعل قبره وثنًا يُعبد لأنَّ دعوته كلَّها بالتوحيد ومحاربة الشرك.

قوله: «**اشتدّ**» أي عَظُمَ.

قولـه: «**غضب الله**» صفـة حقيقية ثابتـة لله عز وجل لا تماثل غضب المخلوقين لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وقال أهل التأويل: غضب الله هو الانتقام ممّن عصاه.

وبعضهم يقول: إرادة الانتقام ممَّن عصاه.

وهذا تحريف للكلام عن مواضعه لأنَّ النبي، ﷺ، لم يقل انتقم الله، وإنَّما قال: اشتدّ غضب الله، وهو ﷺ يعرف كيف يُعبِّر، ويعرف الفرق بين

---

(1) رواه مالـك في الموطـأ ١/١٧٢، وابن سعد في الطبقات ٢/٢٤٠، عن عطاء بن يسار مرسلاً، وعبدالرزاق ١/١٠٦، وابن أبي شيبة ٣/٣٤٥، عن زيد بن أسلم مرسلاً، ووصله أحمد ٢/٢٤٦، والحميدي برقيم (١٠٢٥)، وأبو نعيم في الحلية ٦/٢٨٣، ٧/٣١٧، عن أبي هريرة. صححه البزار وابن عبدالبر كما في تنوير الحوالك ١/١٨٦، وشرح الزرقاني ١/٣٥١.

. . . .

غضب الله وبين الانتقام، وهو أنصح الخلق وأعلم الخلق بربِّه، فلا يمكن أن يأتي بكلام وهو يريد خلافه، لأنَّه لو أتى بذلك لكان ملبّسًا وحاشاه أن يكون كذلك، فالغضب غير الانتقام وغير إرادة الانتقام، فالغضب صفة حقيقة ثابتة لله تليق بجلاله لا تماثل غضب المخلوق لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وهناك فروق بين غضب المخلوق وغضب الخالق منها:

١ - غضب المخلوق حقيقته هو: غليان دم القلب، وجمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى يفور، أما غضب الخالق فإنه صفة لا تماثل هذا، قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

٢ - أن غضب الآدمي يؤثر آثارًا غير محمودة، فالآدمي إذا غضب قد يحصل منه ما لا يحمد فيقتل المغضوب عليه، وربما يُطلّق زوجته، أو يكسر الإناء ونحو ذلك، أمَّا غضب الله فلا يترتَّب عليه إلاّ آثارًا حميدة لأنَّه حكيم، فلا يمكن أن يترتَّب على غضبه إلا تمام الفعل المناسب الواقع في محلِّه.

فغضب الله ليس كغضب المخلوقين لا في الحقيقة ولا في الآثار، وإذا قلنا ذلك فلا نكون وصفنا الله بما يماثل صفات المخلوقين، بل وصفناه بصفة تدلّ على القوّة وتمام السلطان، لأنَّ الغضب يدلّ على قدرة الغاضب على الانتقام وتمام السلطان، فهو بالنسبة للخالق صفة كمال، وبالنسبة للمخلوق صفة نقص.

ويدلّ على بطلان تأويل الغضب بالانتقام: قوله تعالى: ﴿فلما ءاسفونا انتقمنا منهم﴾[2].

فإنَّ معنى: «ءاسفونا»: أغضبونا، فجعل الانتقام غير الغضب بل أثرًا منه، فدلّ هذا على بطلان تفسير الغضب بالانتقام، وهو أمر قد بيَّنّاه لكم في

(١) سورة الشورى، الآية: ١١. (٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

ولابن جرير بسنده، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد ﴿أَفَرَأَيْتُم اللَّاتَ والعُزَّى﴾[1].

شرح السفارينية، وهو: أنَّ كل من حرَّف نصوص الصفات عن حقيقتها وعما أراد الله بها ورسوله، فلابد أن يقع في زلَّة ومهلكة، وأن الواجب علينا أن نسلِّم لما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله تعالى.

قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»:

أي جعلوها مساجد إمَّا بالبناء عليها، أو بالصلاة عندها، فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد.

وهنا نسأل هل استجاب الله دعوة نبيه، ﷺ، بأن لا يجعل قبره وثنًا يُعبد؟ أم اقتضت حكمته غير ذلك؟

الجواب: يقول ابن القيم: استجاب له فلم يُذكر أنَّ قبره، ﷺ، جُعل وثنًا بل إنَّه حميَ بثلاثة جدران فلا أحد يصل إليه حتى يجعله وثنًا يُعبد من دون الله، ولم يسمع في التاريخ أنَّه جُعل وثنًا.

صحيح أنَّه يوجد أناس يغلون فيه، ولكن لم يصلوا إلى جعل قبره وثنًا، ولكن قد يعبدون الرسول، ﷺ، ولو في مكان بعيد فإن حصل من يتوجَّه له، ﷺ بدعائه عند قبره فيكون قد اتَّخذه وثنًا لكن القبر نفسه لم يجعل وثنًا.

قوله: «ولابن جرير» هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام المشهور في التفسير، توفي سنة (٣١٠هـ).

وتفسيره: هو أصل التفسير بالأثر، ومرجع لجميع المفسِّرين بالأثر، ولا يخلو من بعض الآثار الضعيفة، وكأنَّه يريد أن يجمع ما روي عن السلف من الآثار في تفسير القرآن، ويدع للقارىء الحكم عليها بالصحة أو الضعف

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٩.

قال: «كان يَلُتُّ لهم السَّويقَ، فمات، فعكفُوا على قبره».

بحسب تتبع رجال السند وهي طريقة جيدة من وجه، وليست جيدة من وجه آخر.

فجيدة من جهة أنَّها تجمع الآثار الواردة حتى لا تضيع، وربما تكون طرقها ضعيفة ويشهد بعضها لبعض.

وليست جيدة من جهة أنَّ القاصر بالعلم ربَّما يخلط الغث بالسمين ويأخذ بهذا وهذا لكن من عرف طريقة السند عرف، وراجع رجال السند ونظر إلى أحوالهم وكلام العلماء فيهم.

وقد أضاف إلى تفسيره بالأثر: التفسير بالنَّظر ولا سيما ما يعود إلى اللغة العربية ولهذا دائمًا يُرجِّح الرأي ويستدلّ له بالشواهد الواردة في القرآن وعن العرب.

ومن الناحية الفقهية فالطبري مجتهد، لكنَّه سلك طريقة خالف غيره فيها بالنسبة للإجماع، فلا يعتبر خلاف الرجل والرجلين، وينقل الإجماع ولو خالف في ذلك رجل أو رجلان، وهذه الطريقة تؤخذ عليه؛ لأنَّ الإجماع لابد أن يكون من جميع أهل العلم المعتبرين في الإجماع، وقد يكون الحق مع هذا الواحد المخالف.

والعجيب أنِّي رأيت بعض المتأخِّرين يحذّر من تفسيره؛ لأنَّه مملوء على زعمهم بالإسرائيليات، فيحذّرون الطلبة من ذلك، ويقولون عليكم بتفسير الكشّاف للزمخشري وما أشبه ذلك، وهؤلاء خطيرون لأنَّهم هم لجهلهم بفضل التفسير بالآثار عن السلف، واعتزازهم بأنفسهم وإعجابهم بآرائهم صاروا يقولون هذا الرأي.

. . . .

قولـه: «**عن سفيان**» إمّا سفيان الثوري، أو ابن عيينة، وهذا مبهم، والمبهم يمكن معرفته بمعرفة شيوخه وتلاميذه، وفي الشرح يقول: الظاهر: أنَّه الثوري.

قوله: «**عن مجاهد**» هو مجاهد بن جبر المكي إمام المفسرين من التابعين، ذكر عنه أنَّه قال: «عرضت المصحف على عبدالله بن عباس، رضي الله عنهما، من فاتحته إلى خاتمته فما تجاوزت آية إلا وقفت عندها أسأله عن تفسيرها».

قولـه: «**أفـرأيتم**» الهمـزة: للاستفهام، والمراد به التحقير، والخطاب لعابدي هذه الأصنام اللات والعزَّى. . إلخ.

لَمَّا ذكـر الله تعالى قصة المعراج؛ لأنَّ قصة الإسراء والمعراج ذكرت في القرآن، الإسراء في أول سورة سبحان، والمعراج في أول سورة النجم، لما ذكر الله ما حصل في هذا المعراج من الآيات العظيمة قال: ﴿**لقد رأى من ءايـٰت ربـه الكـبرى. أفرأيتم اللات والعزَّى**﴾ أي ما نسبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التي رآها النبي، ﷺ، ليلة المعراج.

قوله: «**اللات**» «كان يلتّ لهم. . .» إلخ.

على قراءة التشديد من لتَّ يلتّ فهو لاتّ.

أما على قراءة التخفيف فوجهها أنَّها خففت لتسهيل الكلام أي حذف منها التضعيف تخفيفًا.

وقد سبق أنَّهم قالوا: إنَّ اللات من الإلـٰه.

فعليه يكون هذا أصله: رجل يلتّ السويق للحُجّاج، فلما مات عظّموه وعكفـوا على قبره ثم جعلوه إلـهًـا، وجعلوا التسمية الأولى مقـترنة بالتسمية الأخيرة، فيكون أصله من لتَّ السويق، ثم جعلوه من الإلـٰه، وهذا على قراءة

وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: «كان يَلتُّ السَّويقَ للحاجِّ»[1].

التخفيف أظهر من التشديد، فالتخفيف يرجّح أنَّه من الإلـه، والتشديد يرجّح أن أصله رجل يلتّ السويق.

وغلوا في قبره وقالوا: هذا الرجل المحسن الذي يلتّ السويق للحجاج ويطعمهم إيَّاه، ثم بعد ذلك عبدوه فصار الغلو في القبور يصيّرها أوثانًا تعبد من دون الله.

وفي هذا التحذير من الغلو في القبور، ولهذا نُهي عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفًا من هذا المحظور العظيم الذي يجعلها تُعبد من دون الله، ولهذا كان الرسول، ﷺ، يأمر إذا بعث بعثًا: بأن لا يدعو قبرًا مشرفًا إلّا سووه[2] لعلمه أنَّه مع طول الزمان سيقال: لولا أنَّ له مزيَّة ما اختلف عن القبور، فالذي ينبغي أن تكون القبور متساوية لا ميزة لواحد منها عن البقية.

قوله: «**السويق**» هو عبارة عن الشعير يحمّص، ثم يُطحن، ثم يُخلط بتمر أو شبهه ثم يُؤكل.

وقوله: «**كان يلتّ لهم السويق فمات فعكفوا على قبره**» يعني ثم عبدوه وجعلوه إلـهًا مع الله.

قوله: «**وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس كان يلتّ السويق للحاج**»: والغريب: أنَّ الناس في جاهليتهم يكرمون حجاج بيت الله ويلتون لهم السويق، وكان العباس أيضًا يسقي لهم من زمزم وربما يجعل في زمزم نبيذًا يحليه زبيبا أو نحوه، وفي الوقت الحاضر صار الناس بالعكس يستغلون الحجاج

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ ٣/٣٩٩.

(٢) أخرجه مسلم في اللباس ٣/١٦٦٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**لَعَنَ رسول الله ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ، والمتَّخِذِينَ عليها المساجدَ والسُّرُجَ**». رواه أهل السنن[1].

غاية الاستغلال، والعياذ بالله، حتى يبيعوا عليهم ما يساوي ريالاً بريالين وأكثر حسب ما يتيسَّر لهم، وهذا في الحقيقة خطأ عظيم، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿**ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾[2] فكيف بمن يفعل الإلحاد؟!

قوله: «**لعن**» اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعنى لعن رسول الله، ﷺ، أي: دعا عليهم باللعنة.

قوله: «**زائرات القبور**» زائرات: جمع زائرة، والزيارة: معناه: الخروج إلى المقابر، وهي أنواعٍ:

منها ما هو سنة.

ومنها ما هو بدعة.

ومنها ما هو شرك.

وزائر: اسم فاعل يصدق بالمرَّة الواحدة، وفي حديث أبي هريرة: «**لعن**

---

(١) رواه الطيالسي برقم (٢٧٣٣)، وأحمد ١/٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧، وابن بي شيبة ٣٤٤/٣، وأبو داود، كتاب الجنائز/ باب في زيارة النساء القبور ٥٥٨/٣، والنسائي، كتاب الجنائز/ باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور ٩٥/٤، والترمذي، الصلاة/ باب كراهة أن يتخذ على القبر مسجدًا رقم (٣٢٠)، وقال: «حديث حسن» وابن ماجه مختصرًا، كتاب الجنائز/ باب النهي عن زيارة القبور رقم (١٥٧٥)، وابن حبان رقم (٧٨٨)، والطبراني في الكبير (١٢٧٢٥)، والحاكم ٣٧٤/١، والبيهقي ٢٧٨/٤، وقال ابن حجر في التلخيص ١٣٧/٢: «والجمهور على أن أبا صالح هو مولى أم هانىء وهو ضعيف».

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٥.

. . . .

رسول الله، ﷺ، **زوّارات القبور**»[1] بتشديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدلّ على الكثرة أي كثرة الزيارة.

قوله: «**والمتخذين عليها المساجد**» هذا الشاهد من الحديث، أي الذين يضعون عليها المساجد والسرج، وقد سبق أنَّ اتخاذ المساجد له صورتان:

١ ـ أن يتخذها مصلًّى يُصلَّى عندها.

٢ ـ بناء المساجد عليها.

قوله: «**والسرج**» جمع سراج. توقد عليها السرج ليلاً ونهارًا تعظيمًا وغلوًّا فيها.

وهذا الحديث يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، بل على أنَّه من كبائر الذنوب، لأنَّ اللعن لا يكون إلاّ على كبيرة، ويدلّ على تحريم اتخاذ المساجد والسرج عليها، وهو كبيرة من كبائر الذنوب لِلَعْنِ فاعله.

المناسبة للباب:

إنَّ اتخاذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها فيؤدي بعد ذلك إلى عبادتها.

مسـألـة: ما هي الصلة بين الجملة الأولى: «زائرات القبور» والجملة الثانية: «المتَّخذين عليها المساجد والسرج»؟

الصلة بينهما ظاهرة: هي أنَّ المرأة لرقة عاطفتها وقلّة تمييزها، وضعف صبرها ربما تعبد أصحاب القبور تعطّفًا على صاحب القبر، فلهذا قرنها بالمتخذين عليها المساجد والسرج.

وفي قوله: «**المتخذين عليها المساجد والسرج**» هل يدخل في اتِّخاذ السرج على المقابر ما لو وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟

---

(١) رواه الإمام أحمد ٢/٣٣٧، ٣٥٦، والترمذي، الجنائز/ باب ما جاء في كراهة زيارة القبور للنساء ٤/١٢ وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه في الكتاب والباب السابقين رقم (١٥٧٦)، وابن حبان رقم (٧٨٩)، والبيهقي ٤/٧٨.

. . . .

الجواب: أمَّا في المواطن التي لا يحتاج الناس إليها كما لو كانت المقبرة واسعة وفيها موضع قد انتهى الناس من الدفن فيه، فلا حاجة إلى إسراجه، أمَّا الموضع الذي يقبر فيه فيسرج ما حولها فقد يُقال: بجوازه لأنَّها لا تسرج إلا بالليل فليس في ذلك ما يدل على تعظيم القبر بل اتخذت للحاجة.

ولكن الذي نرى أنَّه ينبغي المنع مطلقًا للأسباب الآتية:

١ ـ أنَّه ليس هناك ضرورة.

٢ ـ أنَّ الناس إذا وجدوا ضرورة لذلك فعندهم سيارات يمكن أن يوقدوا الأنوار التي فيها ويتبينَّ لهم الأمر، ويمكنهم أن يحملوا سراجًا معهم.

٣ ـ أنَّه إذا فتح هذا الباب فإنَّ الشرّ سيتَّسع في قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، فلو فرضنا أنَّهم جعلوا المصباح بعد صلاة الفجر ودفنوا الميت فمن الذي يتولَّى قفل هذه الإضاءة؟ الجواب: قد تترك، ثم يبقى كأنَّه متَّخذ عليها السرج، فالذي نرى: أنَّه يمنع نهائيًّا.

أمَّا إذا كان في المقبرة حجرة يوضع فيها اللبن ونحوه، فلا بأس بإضاءتها لأنَّها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلة لا تُشاهد فهذا نرجو أن لا يكون به بأس.

والمهم: أنَّ وسائل الشرك يجب على الإنسان أن يبتعد عنها ابتعادًا عظيمًا، ولا يقدر للزمن الذي هو فيه الآن، بل يقدر للأزمان البعيدة فالمسألة ليست هيِّنة.

وفي الحديث ما يدلّ على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنَّها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب لهذا الحديث.

. . . .

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عند أصحابه لحديث أم عطية: نهينا عن اتِّباع الجنائز، ولم يعزم علينا[1].

القول الثالث: أنَّها تجوز زيارة النساء للقبور لحديث المرأة[2].

ورأيت قولاً رابعًا، لكن شيخ الإسلام يقول: ليس عليه أحد من الأئمة: أنَّه يستحب للنساء زيارتها، كما يُستحب للرجال، لأنَّ هذا ليس معروفًا في عهد النبي، ﷺ، أنَّ النساء يخرجن للمقابر كما يخرج الرجال.

حجَّة القول الأول:

حديث ابن عباس: «**لعن رسول الله، ﷺ، زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**»[3].

ودليل القول الثاني: حديث أم عطية: «**نُهينا عن اتِّباع الجنائز ولم يعزم علينا**».

أدلة القول الثالث:

١ ـ أنَّه ﷺ، مرَّ بامرأة وهي تبكي عند قبر فقال لها: «**اتقي الله واصبري**، فقالت له: إليك عني، فإنَّك لم تصب بمثل مصيبتي فانصرف الرسول، ﷺ، عنها فقيل لها: هذا رسول الله، ﷺ، فجاءت إليه تعتذر، فلم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز/ باب اتباع النساء للجنائز ١/ ٣٩٤، ومسلم كتاب الجنائز/ باب نهي النساء عن اتباع الجنائز ٢/ ٦٤٦.

(٢) يأتي ص (٤٣٩).

(٣) سبق ص (٤٣٥).

. . . .

يقبل عذرها وقال: «**إنَّما الصبر عند الصدمة الأولى**»[1]. فالنبي، ﷺ، شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنَّما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

٢ ـ ما ثبت في صحيح مسلم[2] من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي، ﷺ، خرج إلى أهل البقيع في الليل واستغفر لهم ودعا لهم، وأنَّ جبريل أتاه في الليل وأمره فخرج ﷺ، مختفيًا عن عائشة، وزار ودعا ورجع ثم أخبرها الخبر فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله قال قولي: **السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين.. إلخ**

قالوا: فعلَّمها النبي، ﷺ، دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

ودليل القول الرابع:

١ ـ قوله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكِّركم الآخرة**»[3].

٢ ـ أنَّ عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها فقال لها عبدالله بن أبي مليكة: أليس النبي، ﷺ، قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنَّه أمر بها بعد ذلك[4].

---

(١) من حديث أنس، رواه البخاري، كتاب الجنائز/ باب زيارة القبور ١/٣٩٥، ومسلم، كتاب الجنائز/ باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ٢/٦٣٧.

(٢) في كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند دخول القبور ٢/٦٦٩.

(٣) من حديث بريدة رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي، ﷺ، ربه عز وجل في زيارة قبر أمه ٢/٦٧٢.

(٤) رواه الحاكم ١/٣٧٦، والبيهقي ٤/٧٨، وصححه الذهبي، وقال العراقي في تخريج الإحياء ٤/٤١٨: «رواه ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد».

. . . .

وهذا دليل على أنَّه منسوخ.

هذا حاصل أدلة القائلين بالجواز وهذه الأدلة صحيحة، لكن ليست صريحة في الموضوع.

والصحيح القول الأول، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرى:

أولاً: دعوى النسخ غير صحيحة لأنَّها لا تقبل إلا بشرطين:

١ ـ تعذر الجمع بين النصين وإمكان الجمع هنا بين النصين سهل وليس بمتعذَّر لأنَّه يمكن أن يُقال: إنَّ الخطاب في قوله: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»[1] للرجال، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم هل يدخل فيه النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول وهو الصحيح فإنَّ دخولهن في هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام في العموم، وعلى هذا يجوز أن يخصص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا نقول: قد خصَّ النبي، ﷺ، النساء من هذا الحكم، فأمره بالزيارة للرجل فقط، لأنَّ النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم، وأيضًا مما يبطل النسخ قوله: «**لعن رسول الله، ﷺ، زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**»[2] ومن المعلوم أن قوله: «**والمتخذين عليها المساجد والسرج**» لا أحد يدعي أنَّه منسوخ والحديث واحد فادعاء النسخ في جانب منه دون آخر هذا غير مستقيم وعلى هذا يكون الحديث باقيًا.

٢ ـ العلم بالتأريخ، وهنا لم نعلم بالتأريخ؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: كنت لعنت من زار القبور، بل قال: كنت نهيتكم، والنَّهي دون اللعن.

---

(١) سبق ص (٤٣٩).

(٢) سبق ص (٤٣٥).

. . . .

وأيضًا: فإنَّ قوله: «**كنت نهيتكم**» خطاب للرجال، ولعن زائرات القبور خطاب للنساء، فلا يمكن حمل خطاب الرجال على خطاب النساء، إذًا فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ.

وثانياً: وأما الجواب عن حديث المرأة، وحديث عائشة فإن المرأة لم تخرج للزيارة قطعًا، لكنها أصيبت ومن عظم المصيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقى في بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكي على القبر ممَّا يدلّ على أن في قلبها شيئًا عظيمًا لم تتحمَّله حتى ذهبت إلى ابنها وجعلت تبكي عند قبره، ولهذا أمرها، ﷺ، أن تصبر لأنَّه علم أنَّها لم تخرج للزيارة، بل خرجت لما في قلبها من عدم تحمُّل هذه الصدمة الكبيرة، فالحديث ليس صريحًا بأنها خرجت للزيارة وإذا لم يكن صريحًا فلا يمكن أن يُعارض الشيء الصريح بشيء غير صريح.

وأما حديث عائشة: فإنَّها قالت للرسول ﷺ: «**ماذا أقول فقال قولي: السلام عليكم**» فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرَّت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمل فليس فيه تصريح بأنَّها تزور، فيقال فيه كما يقال في حديث المرأة المصابة، وإذا كان ليس صريحًا فلا يُعارض الصريح.

وأما فعلها مع أخيها، رضي الله عنهما، فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبدالله بن أبي مليكة بلعن زائرات القبور، وإنَّما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور؛ لأنَّه لو استدل عليها بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور لكنا ننظر بماذا سيجيبها؟

فهي استدلت عليه بالنهى عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عامًّا، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنَّه قد أمر بذلك، ونحن وإن كنَّا نقول إن عائشة، رضي الله عنها، استدلت بلفظ العموم فهي كغيرها من العلماء لا يُعارض بقولها قول الرسول، ﷺ، على أنها روي عنها أنها قالت:

. . . .

«لو شهدتك ما زرتك»[1] وهذا دليل على أنها، رضي الله عنها، خرجت لتدعو له لأنَّها لم تشهد جنازته لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء وقال: إنَّها لا تصح عن عائشة، رضي الله عنها، لكننا نبقى على الرواية الأولى الصحيحة إذ ليس فيها دليل على أنَّ الرسول، ﷺ، نسخه، وإذا فهمت هي فلا يُعارض بقولها قول الرسول ﷺ.

إشكال وجوابه:

في قوله: «**زوَّارات القبور**» ألا يمكن أن يحمل النهي على تكرار الزيارة لأن «زوارات» صيغة مبالغة؟

الجواب: هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك فإننا أضعنا دلالة المطلق «زائرات».

والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل «فزوَّارات» يعني النساء إذا كنَّ مائة كان فعلهن كثيراً، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية قال تعالى: ﴿**جنات عدن مفتَّحة لهم الأبواب**﴾[2] فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف إذ الباب لا يُفتح إلا مرة واحدة، وأيضًا قراءة ﴿**حتى إذا جاءوها وفتحت**﴾[3] فهي مثلها.

فالرَّاجح: تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنَّها من كبائر الذنوب.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة ٣٤٣/٣، والترمذي، الجنائز/ باب زيارة النساء القبور ٤/ ١١، وفيه عنعنة ابن جريج وهو مدلس، كما في الجنائز للألباني ص (١٨٢)، وذكر ابن القيم في تهذيب السنن ٤/ ٣٥٠: «أنه هو المحفوظ».

(٢) سورة ص، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

فيه مسائل الأولى: تفسير الأوثان. **الثانية**: تفسير العبادة. **الثالثة**: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. **الرابعة**: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد. **الخامسة**: ذكر شدة الغضب من الله.

فيـه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان:

وهي: كل ما عُبد من دون الله سواء كان صنمًا أو قبرًا أو غيره.

الثانية: تفسير العبادة:

وهي: التذلّل والخضوع للمعبود خوفًا ورجاء ومحبة وتعظيمًا لقوله: «**لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**».

الثالثة: أنَّه، ﷺ، لم يستعذْ إلّا ممَّا يُخاف من وقوعه:

وذلك في قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**».

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد:

وذلك في قوله: «**اشتدَّ غضب الله على قوم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

الخامسة: ذكر شدَّة الغضب من الله:

تؤخذ من قوله: «**اشتد غضب الله**».

وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقة، لكنه كغيره من صفات الأفعال التي نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها.

وفيه أنَّه يتفاوت، كما ثبت في الحديث الصحيح حديث الشفاعة: «**إنَّ ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله قبله ولا بعده**»[1].

---

(١) سبق ص (٣٣٣).

السادسة: وهي من أهمها معرفة صفة عبادة اللاَّت التي هي من أكبر الأوثـان. **السـابعـة**: معرفة أنه قبر رجل صالح. **الثامنة**: أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية. **التاسعة**: لعنه زوارات القبور. **العاشرة**: لعنه من أسرجها.

السادسة: وهي من أهمها معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان:

وذلك في قوله: «**فمات فعكفوا على قبره**».

السابعة: معرفة أنَّه قبر رجلٍ صالح:

تؤخـذ من قولـه: «**كان يلتّ لهم السويق**» أي للحجاج، لأنه معظَّم عندهم، والغالب لا يكون معظَّمًا إلا صاحب دين.

الثامنة: أنَّه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية:

وهو أنَّه كان يلتّ السويق.

التاسعة: لعنه زوَّارات القبور:

أي النبي، ﷺ، ويصح: لعنة، وذكر رحمه الله لفظ: «**زوارات القبور**» مراعاة للفظ الآخر.

العاشرة: لعنه من أسرجها:

وذلك في قوله: «**والمتخذين عليها المساجد والسرج**».

وهنا مسألة مهمة لم تذكر وهي: أنَّ الغلو في قبور الصالحين يُصيرها أوثانًا كما في قبر اللات، وهذه من أهم المسائل، ولم يذكرها المؤلف، رحمه الله، ولعلَّه اكتفى بالترجمة عن هذه المسألة بما حصل للات فإذا قيل بذلك فله وجه.

والمرأة إذا ذهبت للروضة في المسجد النبوي لتصلي فيها فالقبر قريب منها فتقف وتسلِّم، ولا مانع فيه.

. . . .

والأحسن البعد عن الزِّحام، ومخالطة الرجال، ولئلا يظنّ من يشاهدها أنَّ المرأة يجوز لها قصد الزيارة فيقع الإنسان في محذور.

والحمد لله تسليم المرء على النبي، ﷺ، يبلغه حيث كان.



باب

ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قوله: «**المصطفى**».

أصلها: المصتفى من الصفوة وهو خيار الشيء، فالنبي، ﷺ، أفضل المصطفين، لأنَّه أفضل أولي العزم من الرّسل، والرسل هم المصطفون، والمراد به: محمد ﷺ.

قوله: «**حماية**».

أي يجعل للشيء حمى أي حرامًا يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعي فيها ونحو ذلك.

قوله: «**جناب**».

بمعنى جانب، والتوحيد: تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبيَّة، والألوهيَّة، والأسماء والصفات.

قوله: «**وسده كل طريق**».

أي مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء، ولكنه سدَّ كل طريق يوصل إلى الشرك، لأنَّ الشرك أعظم من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود: «لأنَّ أحلف بالله كاذبًا أحبّ إليَّ من أحلف بغيره صادقًا»[1]. وقال

---

(١) سبق ص (٢٠٧).

وقول الله تعالى: ﴿لقد جَاءَكُمْ رسولٌ من أَنْفُسِكُمْ عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم﴾[1]. الآية.

تعالى: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[2] قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الشرك الأصغر لا يغفره الله لعموم قوله: ﴿أن يُشرك به﴾ وعلى هذا فجميع الذنوب دونه لقوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فيشمل كبائر الذنوب وصغائرها، فالشرك ليس بالأمر الهيِّن الذي يُتهاون به، وإذ الشرك يفسد القلب والقصد، وإذا فسد القصد فسد العمل، إذ العمل مبناه على القصد قال تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلّا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾[3]. ولقوله ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنيَّات»[4].

إذًا: الرسول، ﷺ، حمى جانب التوحيد حماية محكمة، وسدَّ كل طريق يُوصل إلى الشرك ولو من بعيد؛ لأنَّ من سار على الدرب وصل، والشيطان يزيِّن للإنسان أعمال السوء شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الغاية.

قوله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، وقد، وهي مؤكدة لجميع مدخولها بأنَّه رسول، وأنَّه من أنفسهم، وأنَّه عزيز عليه، ما يشقّ علينا في هذا الرسول، ﷺ، أنَّه بالمؤمنين رؤوف رحيم فالقسم منصب على كل هذه الأوصاف الأربعة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي رقم (١)، ومسلم في الإمارة ٣/١٥١٥.

. . . .

والخطاب في قوله: ﴿جاءكم﴾ قيل: للعرب لقوله: ﴿من أنفسكم﴾ فالرسول، ﷺ، من العرب، قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾[1].

ويُحتمل أن يكون عامًّا للأمة كلها، ويكون المراد بالنفس هنا الجنس أي ليس من الجن ولا الملائكة بل هو من جنسكم كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة﴾[2].

وعلى الاحتمال الأول فيه إشكال؛ لأنَّ النبي، ﷺ، بُعث إلى جميع الناس من العرب والعجم.

ولكن يُقال في الجواب: أنَّه خوطب العرب بهذا لأنَّ منَّة الله عليهم به أعظم من غيرهم حيث كان منهم، وفي هذا تشريف لهم بلا ريب.

والاحتمال الثاني أولى للعموم، ولقوله: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾[3] ولما كان المراد العرب قال: ﴿منهم﴾ لا «من أنفسهم» قال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ وعلى هذا فإذا جاءت «من أنفسهم» فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت «منهم» فالمراد: العرب، فعلى الاحتمال الثاني لا إشكال في الآية.

قوله: ﴿رسول﴾ أي من الله كما قال تعالى: ﴿رسول من الله يتلو صحفًا مطهَّرة﴾ وفعول هنا: بمعنى مُفْعَل: أي مرسل.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

. . . .

و﴿من أنفسكم﴾ أي من جنسكم على سبيل العموم وفيه قراءة شاذة ﴿من أنفسكم﴾ وهي قراءة شاذة يحرم القراءة بها.

قوله: ﴿عزيز﴾ أي صلب لأنَّ هذه المادة العين والزاي في اللغة العربية تدلّ على الصلابة ومنه: «أرض عزاز» أي صلبة قوية، والمعنى: أنَّه يصعب عليه ما يشقّ عليكم، ولهذا بعث بالحنيفيَّة السمحة، وما خيّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا وهذا من التيسير الذي أُعطي للرسول، ﷺ، إلى أمته.

قوله: ﴿ما عنتم﴾ ما: مصدرية، وليست موصولة أي عنتكم أي مشقتكم لأنَّ العنت بمعنى المشقة قال تعالى: ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾[1] أي المشقة، فعنتكم: أي ما يشق عليكم.

والفعل بعد «ما» يؤول إلى مصدر مرفوع، لكن بماذا هو مرفوع؟

يختلف باختلاف «عزيز» إذا قلنا: بأن «عزيز» صفة لرسول صار المصدر المؤول فاعلاً به، أي عزيز عليه عنتكم، وإن قلنا: عزيز خبر مقدَّم صار عنتكم مبتدأ، والجملة حينئذٍ تكون كلها صفة لرسول، أو يُقال: عزيز مبتدأ، وعنتكم فاعل سد مسد الخبر على رأي الكوفيين الذي أشار إليه ابن مالك في قوله:

وقد يجوز فائز أولو الرشد.

قوله: ﴿حريص عليكم﴾ الحرص: بذل الجهد لإدراك أمر مقصود، والمعنى: بذل غاية جهده في مصلحتكم فهو جامع بين أمرين: دفع المكروه الذي أفاده قوله: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ وحصول المحبوب الذي أفاده قوله: ﴿حريص عليكم﴾ فكان النبي، ﷺ، جامعًا بين هذين الوصفين، وهذا من

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٥.

. . . .

نعمة الله علينا وعلى الرسول، ﷺ، أن يكون على هذا الخُلُق العظيم الممثل لقوله تعالى: ﴿وإنَّك لعلى خلق عظيم﴾[1].

قولـه: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ بالمؤمنين: جار ومجرور خبر مقدَّم، ورؤوف مبتدأ مؤخر، ورحيم: مبتدأ ثانٍ، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

والرأفة: أشد الرحمة وأرقّها.

والرحمة: رقة بالقلب تتضمن الحنو على المرحوم والعطف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

وقولنا: رقَّة في القلب هذا باعتبار المخلوق، أمَّا بالنسبة لله تعالى فلا نفسِّرها بهذا التفسير، لأنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء، ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق لا تدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها، فقد ثبت عن النبي ﷺ: أنه قال: «**إنَّ لله مائة رحمة وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق منذ خلقوا إلى يوم القيامة حتى أنَّ الدَّابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[2].

فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدّرها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلاّ الله عز وجل الذي خلقها.

فهذه رحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلى الرحمة الأولى، وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟ الجواب: أبدًا لا تدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق أنَّها صفة تقتضي

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) من حديث أبي هريرة، انظر البخاري، كتاب الأدب/ باب جعل الله الرحمة في مائة جزء ٤/٩١، ومسلم، كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله رقم (٢٧٥٢)، (٢٧٥٣)، ٤/٢١٠٨.

. . . .

الإحسان إلى المرحوم، ورحمة الخالق غير مخلوقة لأنَّها من صفاته، ورحمة المخلوق مخلوقة لأنَّها من صفاته، فصفات الخالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق لأنَّنا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق وهذا أمر لا يمكن، لأنَّ صفات الخالق يتَّصف بها وحده، وصفات المخلوق يتَّصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها.

وقوله: ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ أي: أنَّ النبي، ﷺ، في غير المؤمنين ليس رؤوفًا ولا رحيمًا، بل هو شديد عليهم كما وصفه الله هو وأصحابه بذلك في قوله: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾(١).

قوله: ﴿**فإن تولوا**﴾ أي أعرضوا مع هذا البيان الواضح بوصف الرسول ﷺ.

وهذا التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لأنَّ التولي مع هذا البيان مكروه، ولهذا لم يخاطبوا به فلم يقل: فإن توليتم.

والبلاغيون يسمّونه التفاتًا، ولو قيل: إنَّه انتقال لكان أحسن.

قوله: ﴿**فقل حسبيَ الله**﴾ الخطاب للنبي، ﷺ، أي قل ذلك معتمدًا على الله متوكِّلًا عليه معتصمًا به حسبي الله، وارتباط الجواب بالشرط واضح أي فإن أعرضوا فلا يهمنَّك إعراضهم، بل قل بلسانك وقلبك: حسبي الله و«حسبي» خبر مقدَّم و«الله» مبتدأ مؤخَّر، ويجوز العكس بأن نجعل: «حسبي» مبتدأ و«الله» خبر لكن لما كانت حسب نكرة لا تتعرَّف بالإضافة كان الأولى أن نجعلها هي الخبر.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

. . . .

قوله: ﴿لا إلـه إلاّ هو﴾ أي لا معبود حق حقيق بالعبادة سوى الله عز وجل.

قوله: ﴿عليه توكَّلت﴾ عليه جار ومجرور متعلّق بتوكلت، وقُدّم للحصر.

والتوكل هو: الاعتماد على الله بجلب المنافع، ودفع المضار مع الثقة به.

وقوله: ﴿عليه توكَّلت﴾ مع قوله: ﴿لا إلـه إلا هو﴾ فيها جمع بين توحيد الربوبية والعبودية، والله تعالى دائمًا يجمع بين هذين الأمرين ﴿إياك نعبد وإيّاك نستعين﴾[1] وقوله: ﴿فاعبده وتوكَّل عليه﴾[2].

قوله: ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الضمير يعود على الله سبحانه.

ورب العرش أي خالقه، وإضافة الربوبية إلى العرش وإن كانت ربوبية الله عامة لأجل الاختصاص والفضل.

ومناسبة التوكّل لقوله: ﴿رب العرش العظيم﴾ لأنَّ من كان فوق كل شيء ولا شيء فوقه فإنَّه لا أحد يغلبه، فهو جدير بأن يُتَوكَّل عليه وحده.

وقوله: ﴿العرش﴾ فسَّره بعض الناس بالكرسي، ثمَّ فسَّروا الكرسي بالعلم، وحينئذٍ لا يكون هناك كرسي ولا عرش، وهذا التفسير باطل والصحيح: أنَّ العرش غير الكرسي، وأنَّ الكرسي غير العلم، ولا يصحّ تفسيره بالعلم، بل الكرسي من مخلوقات الله العظيمة التي وسع السمٰوات والأرض، والعرش أعظم وأعظم، ولهذا وصفه بأنَّه عظيم بقوله تعالى: ﴿وهو ربّ العرش

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.

. . . .

العظيم﴾[1] وبأنَّه مجيد بقوله: **﴿ذو العرش المجيد﴾**[2] وبأنه كريم في قوله: **﴿لا إلـه إلا هو ربُ العـرش الكـريم﴾**[3] لأنَّه أعظم المخلوقات التي بلغنا علمها، وأعلاها لأنَّ الله استوى عليه.

وفيه دليل على أن كلمــة العـظيم يوصف بها المخلوق؛ لأنَّ العـرش مخلوق، وكذلك الرحيم، والرؤوف، والحكيم.

ولا يلزم من اتفاق الاسمين اتفاق المسميين، فإذا كان الإنسان رؤوفًا لا يلزم أن يكون مثل الخالق، فلا تقل إذا كان الإنسان سميعًا بصيرًا رؤوفًا لزم أن يكون مثل الخالق، لأنَّ الله سميع بصير عليم، كما أن وجود الباري سبحانه لا يستلزم أن تكون ذاته كذوات الخلق، فإن أسماءه كذلك لا يستلزم أن تكون كأسماء الخلق، وهناك فرق عظيم بين هذا وهذا.

وقوله: **﴿فقل حسبي الله﴾** قلنا: إنَّه باللسان وبالقلب، وهكذا يجب أن يعلن المؤمن اعتماده على ربه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي يتخلَّى الناس عنه لأنَّه قال: **﴿فإن تولوا﴾**.

وهذه الكلمة؛ كلمة الحَسْب تُقال في الشدائد، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، والنبي، ﷺ، وأصحابه، حين قيل لهم: **﴿إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**[4].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة البروج، الآية: ١٥.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلُوا بيــوتكم قُبـورًا، ولا تجعلوا قبري عيـدًا، وصلُّوا عَليَّ، فإنّ صلاتكم تبلُغني حيث كُنتم».

قوله: «**لا تجعلوا**» الجملة هنا نهي، فلا ناهية، والفعل مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل.

قوله: «**بيوتكم**» جمع بيت وهو: مقرُّ الإنسان وسكنه، سواء كان من طين أو حجارة أو خيمة وما أشبه ذلك، وغالب ما يُراد به الطين والحجارة.

قولـه: «**قبـورًا**» مفعول ثان لتجعلوا، وهذه الجملة اختلف في معناها فمنهم من قال: لا تجعلوها قبورًا أي: لا تدفنوا فيها، وهذا لا شك أنّه ظاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبي، ﷺ، في بيته.

وأجيب عنه بأنّه من خصائصه، ﷺ، فالنبي، ﷺ، دفن في بيته لسببين:

١ ـ ما روي عن أبي بكر أنّه سمع النبي، ﷺ، يقول: «**ما من نبي يموت إلّا دفن حيث قُبض**»[(١)] وهذا ضعَّفه بعض العلماء.

٢ ـ ما روته عائشة رضي الله عنها: «**أنه خشي أن يُتخذ مسجدًا**»[(٢)].

وقال بعض العلماء: المراد بـ«**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**» أي لا تجعلوها مثل القبور أي المقبرة لا تصلّون فيها، وذلك لأنّه من المتقرر عندهم: أنّ المقابر لا يُصلّى فيها، وأيّدوا هذا التفسير بأنّه سبقها جملة في بعض الطرق «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبورًا**» وهذا يدلّ على أنّ المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

---

(١) سبق ص (٤٠٣).

(٢) سبق ص (٤٠٢).

. . . .

وكلا المعنيين صحيح ؛ فلا يجوز أن يُدفن الإنسان في بيته، بل يُدفن مع المسلمين لأنَّ هذه هي العادة المتَّبعة منذ عهد النبي، ﷺ، إلى اليوم، ولأنَّه إذا دُفن في بيته فإنَّه ربما يكون وسيلة إلى الشرك فربما يعظَّم هذا المكان ويُحترم، ويحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، وإذا انهدم هذا البيت يبنون عليه وهكذا، ولأنَّه يضيق على الورثة من بعـده فيسـأمون منه، وربما يستوحشون منه، وإذا باعوه لا يُساوي إلا شيئًا قليلاً، ولأنَّه قد يحدث عنده من الصَّخب واللعب واللغو والأفعال المحرَّمة ما يتنافى مع مقصود الشارع، فإنَّ الرسول، ﷺ، يقول: «**زوروا القبور فإنَّها تذكركم الآخرة**»[1].

وأمَّا أنَّ المعنى: لا تجعلوها قبورًا أي مثل القبور في عدم الصلاة فيها فهو دليل على أنَّه ينبغي إن لم نقل: يجب أن يجعل الإنسان من صلاته في بيته ولا يخليه من الصلاة.

وفيه أيضًا: أنَّه من المتقرر عندهم أنَّ المقبرة لا يُصلَّى فيها.

إذًا فيكون هذا النهي عن ترك الصلاة في البيوت لئلَّا تشبه المقابر فيكون فيه دليل واضح على أنَّ المقابر ليست محلًّا للصلاة، وهذا هو الشاهد من الجملة للباب لاتخاذ المقابر مساجد لا شك أنَّه سبب قريب جدًّا للشرك.

واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين:

الأولى: أن يبني عليها مسجدًا.

الثانية: أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلِّي عندها.

والحديث يدل على أنَّ الأفضل: أنَّ المرء يجعل من صلاته في بيته وذلك

---

(١) سبق ص (٤٣٩).

. . . .

جميع النوافل لقوله، ﷺ: «**أفضل صلاة المرء في بيته إلاّ المكتوبة**»[1]، إلاّ ما ورد الشرع أن يفعل في المسجد مثل: صلاة الكسوف، وقيام الليل في رمضان، حتى ولـو كنت في مسجد النبي، ﷺ، لأنَّ النبي، ﷺ، قال ذلك وهو في مسجده، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض، والنوافل التي تسن لها الجماعة.

قوله: «**عيدًا**» العيد اسم لما يُعتاد فعله، أوالتردد إليه فإذا اعتاد الإنسان أن يعمل عملاً كما لو كان كلما حال عليه الحول صنع طعامًا ودعا الناس، فهذا يسمَّى عيدًا لأنَّه جعله يعود ويتكرَّر[2].

وكـذلك من العيد: أن تعتاد شيئًا فتترد إليه مثل: ما يفعل بعض له الجهلة في شهر رجب وهو ما يسمى بالزيارة الرجبية، حيث يذهبون من مكة

---

(١) من حديث زيد بن ثابت، رواه البخـاري، كتاب الأذان/ باب صلاة الليل ١/ ٢٣٩، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين/ باب استحباب صلاة النافلة في بيته ١/ ٥٣٩.

(٢) قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص (١٨٩):

«يوضـح ذلك أن العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد. عائد إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر، أو نحو ذلك.

فالعيد يجمع أموراً:

منها يوم عائد كيوم الفطر، ويوم الجمعة.

ومنها اجتماع فيه.

ومنها أعمال تجمع ذلك من العبادات أو العادات.

وقد يختص بمكان بعينه، وقد يكون مطلقا، وكل هذه الأمور تسمى عيدا.

فالزمـان: كقولـه، ﷺ ليـوم الجمعـة: «**إن هـذا اليـوم جعلـه الله للمسلميـن عيـدا**»

والأعمال: كقول ابن عباس: «شهدت العيد مع رسول الله، ﷺ.

والمكان: كقوله، ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيدا**».

وقـد يكون لفـظ العيد اسما لمجمـوع اليوم والعمل فيه كقول النبي ﷺ: «**دعهما ياأبابكـر فـإن لكل قوم عيدا، وإن هذا عيدنا**».

. . . .

إلى المدينة ويزورن كما زعموا قبر النبي ، ﷺ ، وإذا أقبلوا على المدينة تسمع لهم صياحًا، وكانوا بالأول يذهبون من مكة إلى المدينة على الحمير خاصة، ولما جاءت السيارات صاروا يذهبون على السيارات، لكن بعض المتعصبين يذهبون على الحمير إلى الآن.

وأيهما المراد من كلام النبي ﷺ؟ الأول، أي العمل الذي تكرر بتكرر العام، أو التردد إلى المكان؟

الظاهر الثاني: أي لا ترددوا على قبري وتعتادوا ذلك سواء قيَّدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع فإنَّه، ﷺ، نهى عن ذلك، وإنَّما يُزار لسبب، كما يقدم الإنسان من سفر فذهب إلى قبره فزاره، أو زاره ليتذكَّر الآخرة كغيره من القبور.

وما يفعله بعض الناس في المدينة كلما صلى الفجر ذهب إلى قبر النبي ، ﷺ من أجل السلام عليه، فيعتاد هذا كل فجر، يظنُّون أنَّ هذا مثل زيارته في حياته فهذا من الجهل، وما علموا أنَّهم إذا سلَّموا عليه في أي مكان فإنَّ تسليمهم يبلغه.

قوله: «وصلُّوا عليَّ» هذا أمر، أي قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلِّموا تسليمًا**﴾[1].

وفضل الصلاة على النبي ، ﷺ، معروف، ومنه أنَّ من صلَّى عليه مرةً واحدة صلى الله عليه بها عشرًا.

والصلاة من الله على رسوله ليس معناها كما قال بعض أهل العلم: إنَّ الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الآدميين الدعاء.

فهذا ليس بصحيح، بل إنَّ صلاة الله على المرء ثناؤه عليه في الملأ الأعلى

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

. . . .

كما قال أبو العالية وتبعه على ذلك المحقِّقون من أهل العلم.

ويدلّ على بطلان القول الأول قوله تعالى: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**﴾[1] فعطف الرحمة على الصلوات، والأصل في العطف المغايرة.

فمن صلَّى على محمد أثنى الله عليه في الملأ الأعلى عشر مرات، وهذه نعمة كبيرة.

قوله: «**فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» حيث: ظرف مبني على الضم في محل نصب، ويُقال فيها: حيث، وحوث، وحاث لكنها قليلة.

كيف تبلغه الصلاة عليه؟

الجواب: نقول: إذا جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب فالواجب أن يُقال: الكيف مجهول لا نعلم بأي وسيلة تبلغه، لكن ورد عن النبي، ﷺ، «**أنَّ لله ملائكة سياحين يسيحون في الأرض يبلّغون النبي، ﷺ، سلام أمَّته عليه**»[2] فإن صحَّ فهذه هي الكيفية، وقد يقال: إن صلاتهم عليه تبلغه حيث كان، وما يجده، ﷺ، من قبول الله تعالى لهذه الصلاة، فإنَّه زيادة في حسناته أي يعلم بها زيادة حسناته فيها، فربما يُقال أيضًا هذا من الكيفية التي تبلغه، وهي مجهولة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

(٢) رواه النسائي، كتاب السهو/ باب السلام على النبي، ﷺ، ٤٣/٣، وقال ابن القيم في جلاء الأفهام ص (٢٢): «وهذا إسناد صحيح».

رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقاتٌ[1].

قوله: «رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات»:

هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية، هل هناك تناقض بين قوله: «حسن» وبين قوله: «رواته ثقات»؟

ظاهر اللفظ أن بينهما اختلافًا، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الراوي خفيف الضبط فمعناه أنَّ فيه نوعًا من الثقة فيجمع بين كلام المؤلف، رحمه الله، وبين ما ذكره عن رواية أبي داود بإسناد حسن: أنَّ المراد بالثقة ليس غاية الثقة لأنَّه لو بلغ إلى حد الثقة الغاية لكان صحيحًا؛ لأنَّ ثقة الراوي تعود على تحقق الوصفين فيه وهما: العدالة والضبط، فإذا خف الضبط خفت الثقة، كما إذا خفت العدالة أيضًا تخف الثقة فيه.

فيجمع بينهما على أنَّ المراد: مطلق الثقة، ولكنه لا شك فيها أرى أنَّه إذا أعقب قوله: «حسن» بقوله: «رواته ثقات» أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ: «حسن».

ومثل هذا: ما يُعبّر به ابن حجر في تقريب التهذيب بقوله: «صدوق يهم» وأحيانًا يقول: صدوق، وصدوق أقوى فيكون توثيق الرجل الموصوف بصدوق أشد من توثيق الرجل الذي يوصف بأنَّه يهم.

لا يقول قائل: إنَّ كلمة يهم لا تزيده ضعفًا لأنَّه ما من إنسان إلّا ويهم؟

---

(١) رواه أحمد ٢/٣٦٧، وأبو داود، كتاب المناسك/ باب زيارة القبور ٢/٥٣٤، وسكت عنه، وصححه النووي في الأذكار ص (٩٣)، وقال شيخ الإسلام في الاقتضاء ص (٣٢١): «إسناده حسن ورواته ثقات مشاهير، لكن عبدالله بن نافع الصائغ الفقيه صاحب مالك فيه لين لا يقدح في حديثه»، وحسنه ابن حجر في تخريج الأذكار كما في الفتوحات الربانية ٣/٣١٣.

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه: أنه رأي رجُلًا يجيء إلى فرجةٍ كانت عندَ قبرِ النَّبي ﷺ فَيدخُلُ فيها فيدعو، فنهاه. وقال: ألا أُحَدِّثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ

فنقول: هذا لا يصح، لأنَّ قولهم: بهم لا يعنون به الوهم الذي لا يخلو منه أحد، ولولا أن هناك غلبة في أوهامه ما وصفوه بها.

قوله: «وعن علي بن الحسين»:

هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يُسمى بزين العابدين من أفضل أهل البيت علمًا وزهدًا وفقهًا.

والحسين: معروف، ابن فاطمة، رضي الله عنها، وأبوه: علي رضي الله عنه.

قوله: «يجيء إلى فرجة».

هذا الرجل لا شك أنَّه ما لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلّا لاعتقاده أنَّ فيها فضلًا ومزيَّة، وكونه يظنّ أن الدعاء عند القبر له مزيَّة هذا فتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر فلا يجوز أن يعتقد أنَّ لها مزيَّة سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة، ولهذا نقول تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أنَّ القراءة عند القبر أفضل.

قوله: «ألا أحدثكم حديثًا»:

قال: أحدثكم والرجل واحد لأنَّ الظاهر: أنَّه كان عند أصحابه يحدثهم فجاء هذا الرجل إلى الفرجة.

و«ألا» أداة عرض أي ألا أعرض عليكم.

وفائدتها: تنبيه المخاطب إلى ما يريد أن يحدثه به.

قوله: «عن أبي عن جدي» أبوه: الحسين، وجده: علي بن أبي طالب.

قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ، فإنَّ تسليمكم يبلُغُني حيث كنتم». رواه في المختارة[1].

قوله: «عن رسول الله ﷺ» السند متصل، وفيه عنعنة لكنها لا تضر؛ لأنَّها من غير مدلس فتحمل على السماع.

قوله: «لا تتخذوا قبري عيدًا» كما في الحديث السابق أنَّه نهى أن يُتخذ قبره عيدًا يُعتاد ويتكرَّر إليه؛ لأنَّه وسيلة إلى الشرك.

قوله: «ولا بيوتكم قبورًا» كاللفظ الأول، وفيه احتمالان:

الأول: أن لا تدفنوا فيها.

الثاني: أن لا تدعوا الصلاة فيها.

قوله: «وصلوا عليَّ فإنَّ تسليمكم يبلغني حيث كنتم»:

اللفظ هكذا، وأشك في صحته لأنَّ قوله: «صلوا عليَّ» يقتضي أن يُقال: فإن صلاتكم تبلغني إلَّا أن يُقال هذا من باب الطي والنشر.

والمعنى: صلوا عليَّ وسلموا فإن تسليمكم وصلاتكم تبلغني وكأنَّه ذكر الفعلين والعلَّتين لكن حذف من الأولى ما دلَّت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلَّت عليه الأولى.

وقوله: «وصلُّوا عليَّ» كقوله فيما سبق صلوا علي.

المراد: صلوا عليَّ في أي مكان كنتم، ولا حاجة إلى أن تأتوا إلى القبر وتسلِّموا علي وتصلوا عنده.

قوله: «يبلغني» تقدم كيف يبلغه ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢/١٨٦، وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد ٤/٣، وقال الهيثمي: «وفيه جعفر بن إبراهيم الجعفري ذكره أبو حاتم ولم يذكر فيه جرحًا وبقية رجاله ثقات»، وفيه أيضًا علي بن عمر بن الحسين مستور كما في التقريب ٢/٤١، ورواه أيضًا الضياء في المختارة كما في اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٢٢).

. . . .

قوله: «رواه في المختارة» الفاعل مؤلف المختارة، والمختارة: اسم للكتاب أي الأحاديث المختارة.

والمؤلف هو: عبدالغني المقدسي من الحنابلة.

وما أقل الحديث في الحنابلة، يعني المحدثين، وهذا من أغرب ما يكون، يعني أصحاب الإمام أحمد أقل الناس تحديثًا بالنسبة للشافعية.

فالحنابلة غلب عليهم رحمهم الله الفقه مع الحديث، فصاروا محدثين وفقهاء، ولكنهم رحمهم الله بشر فإذا أخذ من هذا العلم صار ذلك زحامًا للعلم الآخر. أما الأحناف فإنَّهم أخذوا بالفقه لكن قلَّت بضاعتهم في الحديث، ولهذا يُسمَّون أصحاب الرأي يعني العقل والقياس لقلة الحديث عندهم. الشافعية أكثر الناس عناية بالحديث والتفسير، والمالكيَّة كذلك، ثم الحنابلة وسط، وأقلّهم في ذلك الأحناف مع أن لهم كتبًا في الحديث.

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية براءة. **الثانية** : إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد. **الثالثة** : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته. **الرابعة** : نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال. **الخامسة** : نهيه عن الإكثار من الزيارة. **السادسة** : حثه على النافلة في البيت.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية براءة :

وسبق ذلك في أول الباب.

الثانية : إبعاده، ﷺ، أمته عن هذا الحمى غاية البعد :

تؤخذ من قوله : **«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيدًا»**.

الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته :

وهذا مذكور في آية براءة.

الرابعة : نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص :

تؤخذ من قوله : **«ولا تجعلوا قبري عيدًا»** فقوله : **«عيدًا»** هذا هو الوجه المخصوص.

وزيارة قبر النبي، ﷺ، من أفضل الأعمال من جنسها، فزيارته فيه سلام عليه، وحقه، ﷺ، أعظم حق من غيره.

وأما من حيث التذكير بالآخرة فلا فرق بين قبره وقبر غيره.

الخامسة : نهيه عن الإكثار من الزيارة :

تؤخذ من قوله : **«لا تجعلوا قبري عيدًا»** لكنه لا يلزم منه الإكثار لأنَّه قد لا يأتي إلَّا بعد سنة، ويكون قد اتخذه عيدًا، فإنَّ فيه نوعًا من الإكثار.

السادسة : حثه على النافلة في البيت :

تؤخذ من قوله **«ولا تجعلوا بيوتكم قبورًا»** وسبق أنَّ فيها معنيين :

السابعة: أنه مقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة. **الثامنة**: تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب. **التاسعة**: كونه ﷺ في البرزخ تعرض عليه أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

المعنى الأول: أن لا يقبر في البيت، وهو ظاهر الجملة.

والثاني: الذي هو من لازم المعنى أن لا تترك الصلاة فيها.

السابعة: أنَّه متقرر عندهم أنَّه لا يُصلى في المقبرة:

تؤخذ من قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**» لأنَّ المعنى: لا تجعلوها قبورًا، أي لا تتركوا الصلاة فيها على أحد الوجهين، فكأنَّه من المتقرر عندهم أنَّ المقابر لا يُصلَّى فيها.

الثامنة: تعليل ذلك بأنَّ صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بَعُد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القُرب. أي كونه نهى، ﷺ، أن يجعل قبره عيدًا، العلَّة في ذلك: أنَّ الصلاة تبلغه حيث كان الإنسان، فلا حاجة إلى أن يأتي إلى قبره، ولهذا نحن نسلِّم ونصلِّي عليه في أي مكان فيبلغه السلام والصلاة.

ولهذا قال علي بن الحسين: «ما أنت ومن في الأندلس إلّا سواء».

التاسعة: كونه، ﷺ، في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه:

أي: فقط فكل من صلى عليه أو سلَّم عرضت عليه أعمال أمته، يؤخذ من قوله: «**فإنَّ تسليمكم يبلُغني أينما كنتم**».



باب

ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

سبب مجيء المؤلف بهذا الباب لدحض حجة من يقول: إنَّ الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة، وأنكروا أن تكون عبادة القبور والأولياء من الشرك، لأنَّ هذه الأمة معصومة منه لقوله ﷺ: **«إنَّ الشيطان أيس أن يُعبد في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»**[1].

والجواب:

أن نقول: إنَّ يأس الشيطان أخبر به النبي، ﷺ، لما رأى الشيطان الفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا، ولكن الواقع لا يلزم أن يكون موافقًا لما ظنّه الشيطان، بل إنَّ الأمر وقع بخلافه.

فالنبي، ﷺ، أخبر عمّا وقع في نفس الشيطان، وأن الناس بعد أن دخلوا في الدين لا يمكن أن يوقع الشيطان فيهم الشرك، فلا يلزم من هذا أن يكون الأمر كما ظنَّ الشيطان وكما أخبر النبي، ﷺ، عنه.

وقوله: **«يُعبد»** هذا مطلق حتى لو واحدًا من الناس، ولكن الأمر وقع بخلاف ما ظن فلو قال: أن يعبده الناس مثلاً لكان يمكن أن ينزل على العموم، أي: أنَّ الشيطان أيس أن الناس يعبدونه جميعًا لكان لما قال: «يعبد» فهو مطلق.

قوله: **«أنَّ بعض هذه الأمة»**:

أي لا كلها، لأنَّ في هذه الأمة طائفة لا تزال منصورة على الحق إلى قيام

(١) سبق ص (٢١٠).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نصيبًا من الكتابِ يُؤْمِنُون بالجِبتِ والطَّاغُوتِ﴾[1].

الساعة لكنه سيأتي في آخر الزمان ريح تقبض روح كل مسلم فلا يبقى إلّا شرار الناس.

وقوله: «تُعبد» وفي بعض النسخ: «يُعبد».

فعلى قراءة «يُعبد» لا إشكال فيها لأنَّ «بعض» مذكَّر.

وعلى قراءة «تعبد» فإنَّه داخل في قول ابن مالك:

وربما أكسب ثان أولاً تأنيثًا أنْ كان لحذف مهملا

ومثَّلوا لذلك بقولهم: قطعت بعض أصابعه، فالتأنيث هنا من أجل أصابعه لا من أجل بعض.

فإذا صحَّت النسخة «تعبد» فهذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه.

قوله: «الأوثان»:

جمع وثن وهو: كل ما عُبِدَ من دون الله.

قوله: ﴿ألم تر﴾ الاستفهام هنا للتقرير والتعجب، والرؤية بصرية بدليل أنَّها عُدّيت بإلى، وإذا عُدّيت بإلى صارت بمعنى النظر.

والخطاب إمَّا للنبي، ﷺ، أو لكل من يصحّ توجيه الخطاب إليه، أي ألم تر أيها المخاطب؟

قوله: ﴿إلى الذين أوتوا﴾ أي أعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب لأنَّهم حرموا بسبب معصيتهم.

قوله: ﴿نصيبًا من الكتاب﴾ المنزّل، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل

---

(1) سورة النساء، الآية: ٥١.

. . . .

وقد ذكروا لذلك مثلاً وهو كعب بن الأشرف حين جاء إلى مكة فاجتمع إليه المشركون وقالوا: ما تقول في هذا الرجل أي النبي ﷺ الذي سفَّه أحلامنا ورأى أنَّه خير منَّا؟ فقال لهم: أنتم خير من محمد، ولهذا جاء في آخر الآية: ﴿**ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً**﴾[1].

وقوله: ﴿**نصيبًا من الكتاب**﴾ ولم يقل: «أوتوا الكتاب» لأنَّهم أوتوا نصيبًا منه فليس عندهم العلم الكامل بما في هذا الكتاب.

قوله: ﴿**يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾ أي يصدِّقون به ويقررونه ولا ينكرونه، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان قلنا: إنَّه موصوف بالطاغوت.

والجبت: قيل: السحر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنَّه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة، أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مُطاع.

فالمعبود: كالأصنام، والمتبوع كعلماء أهل الضلال، والمطاع: كالأمراء، فطاعتهم في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرَّم الله تعد من عبادتهم.

والمراد من كان راضيًا بذلك، أو يُقال: هو طاغوت باعتبار عابديه، وتابعيه ومطيعيه؛ لأنَّه تجاوز به حده حيث نزله فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادته لهذا المعبود، واتباعه لمتبوعه، وطاعته لمطاعه طغيانًا لمجاوزته الحدَّ بذلك.

والطاغوت: مأخوذ من الطغيان فكل شيء يتعدَّى به الإنسان حدَّه يعتبر طاغوتًا.

وجه المناسبة في الآية للباب لا يأتي إلَّا بعد ذكر الحديث وهو: «**لتركبنَّ**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هل أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذلك مَثُوبةً عند الله؟ من لعنهُ الله وغضبَ عليهِ وجعلَ منهم القِرَدَة والخنازير وعبَدَ الطاغُوتِ﴾[1].

سُنن من كان قبلكم» فإذا كان الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأن من هذه الأمة من يرتكب سنن من كان قبله، يلزم من هذا أنَّ في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت، فتكون الآية مطابقة للترجمة تمامًا.

قوله: ﴿قل هل أ نبئكم﴾ الخطاب للنبي، ﷺ، ردًّا على هؤلاء اليهود الذين اتَّخذوا دين الإسلام هزوًا ولعبًا.

وقوله: ﴿أنبئكم﴾ أي أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق أي سأقرر عليكم هذا الخبر.

قوله: ﴿بشر من ذلك﴾ شر: هنا اسم تفضيل، وأصلها أشر لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، ومثلها كلمة خير مخفَّفة من أخير، والناس مخفَّفة من الأناس، وكذا كلمة الله مخفَّفة من الإلـه.

وقوله: ﴿ذلك﴾ المشار إليه ما كان عليه الرسول، ﷺ، وأصحابه، فإنَّ اليهود يزعمون أنَّهم هم الذين على الحق، وأنَّ الرسول، ﷺ، وأصحابه ليسوا على الحق، فقال الله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم﴾.

قوله: ﴿مثوبة عند الله﴾ مثوبة: تمييز لشر لأنَّ شر اسم تفضيل وما جاء بعد أفعل التفضيل يكون منصوبًا على التمييز فما بعده مما يبينه يعتبرا تمييزًا.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

. . . .

قال ابن مالك:

اسم بمعنى من مبين نكرة ينصب تمييزًا بما قد فسره

إلى أن قال:

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا مفضلاً كأنت أعلى منزلا

والمثوبة: من ثاب يثوب إذا رجع ويُطلق على الجزاء أي بشر من ذلك جزاء عند الله.

قوله: ﴿عند الله﴾ أي في علمه وجزائه عقوبة أو ثوابًا.

قوله: ﴿من لعنه الله﴾ من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله، لأنَّ الاستفهام انتهى عند قوله: ﴿مثوبة عند الله﴾ وجواب الاستفهام: ﴿من لعنه الله﴾.

ولعنه: أي طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: ﴿وغضب عليه﴾ أي أحلّ عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصحّ تحريفه إلى معنى الانتقام وقد سبق الكلام عليه مرارًا.

والقاعدة العامة عند أهل السنة: في أن آيات الصفات وأحاديثها تبقى على ظاهرها اللائق بالله عز وجل، فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتنفى عن الله، فلا نغلو في الإثبات، ولا في النفي.

قوله: ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾.

القردة: جمع قرد، وهو حيوان معروف أقرب ما يكون شبهًا بالإنسان. والخنازير: جمع خنزير وهو ذلك الحيوان الخبيث المعروف الذي وصفه الله بأنَّه رجس.

والإشارة هنا إلى اليهود، فإنَّهم لُعِنُوا كما قال تعالى: ﴿لُعن الذين كفروا

. . . .

من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم﴾[1] الآية .

وجعلوا قردة بقوله تعالى : **﴿كونوا قردة خاسئين﴾**[2] وغضب الله عليهم بقوله : **﴿غير المغضوب عليهم﴾**[3] .

قوله : **﴿وعبد الطاغوت﴾** فيها قراءتان في «عبد» وفي «الطاغوت» .

الأولى : بضم الباء «عبُد» .

الثانية : بفتح الباء «عبَد» على أنَّه فعل ماض معطوف على قوله : «لعنه الله» صلة الموصول أي ومن عبد الطاغوت ، ولم يعد «من» مع طول الفصل لأنَّ هذا ينطبق على موصوف واحد ، فلو أعيدت من لأوهم أنَّهم جماعة آخرون ، وهم جماعة واحدة فعلى هذه القراءة يكون «عبَد» فعلاً ماضيًا ، والفاعل ضمير مستتر جوازًا تقديره هو يعود على الضمير في قوله : «لعن» .

وبهذا نعرف اختلاف الفاعل في صلة الموصول وما عطف عليه ، لأنَّ الفاعل في صلة الموصول «الله» ، والفاعل في هذا المعطوف يعود على المفعول «الهاء» لا على الفاعل .

وعلى القراءة بالضم للباء «عَبُد» بفتح العين وضم الباء يكون الطاغوت مضافًا إليه فهو مجرور بالإضافة .

وقيل : إنَّها جمع لعبد ، وقيل : إنَّها مفرد .

وعلى كل حال فالمراد بها عابد الطاغوت .

فالفرق بين القراءتين بالباء فقط فعلى قراءة الفعل مفتوحة ، وعلى قراءة الاسم مضمومة .

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٧٨ .

(٢) سورة البقرة، الآية : ٦٥ .

(٣) سورة الفاتحة، الآية : ٧ .

وقوله تعالى: ﴿قال الذين غلبُوا على أَمْرِهِمْ لَنتَّخِذَنَّ عليهم مسْجدًا﴾[1].

والطاغوت على قراءة الفعل في «عبد» تكون مفتوحة «عبَدَ الطاغوتَ» وعلى قراءة الاسم تكون مكسورة بالإضافة «عَبُد الطاغوتِ».

وذكر في تركيب «عبد» مع «الطاغوت» أربع وعشرون قراءة، ولكنها قراءات شاذَّة غير القراءتين السبعيتين «عَبَد» «عَبُد».

قوله: ﴿قال الذين غَلبوا على أمرهم لنتخذنَّ عليهم مسجدًا﴾. هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة كما قال الله تعالى: ﴿أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا﴾[2] وهم فتية آمنوا بالله وكانوا في بلاد شرك فخرجوا منها إلى الله عز وجل، فيسَّر الله لهم غارًا فدخلوا فيه وناموا نومة طويلة بلغت (٣٠٩) سنة ﴿ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا﴾[3] وهم نائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمة الله أنَّ الله يقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يترسَّب الدم في أحد الجانبين، ولما خرجوا بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعامًا فلمَّا قدَّم النقود إذا هي قد تغيَّرت واختلفت، آخر الأمر أنَّ أهل المدينة اطَّلعوا على أمرهم، وقالوا: لا بد أن نبني على قبورهم مسجدًا.

وقوله: ﴿قال الذين غَلبوا على أمرهم﴾ المراد بهم: الحكَّام في ذلك الوقت قالوا: سنتخذ عليهم مسجدًا، وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٥.

. . . .

فوائد الآيات السابقة:

من فوائد الآية الأولى مايلي :

١ ـ أن من العجب أن يعطى الإنسان نصيباً من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت.

٢ ـ أن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية؛ لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر، والذي يؤمن بالكفر يؤمن بما دونه من المعاصي.

٣ ـ وجوب إنكار الجبت والطاغوت؛ لأن الله تعالى ساق الإيمان بهما مساق العجب والذم، فلا يجوز الإقرار بالجبت.

٤ ـ ماساقها المؤلف من أجله أن من هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لقوله: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»[1] فإذا وجد في بني إسرائيل من يؤمن بالجبت والطاغوت فإنه سيوجد في هذه الأمة أيضاً من يؤمن بالجبت والطاغوت.

ومن فوائد الآية الثانية ما يلي:

١ ـ تقرير الخصم والاحتجاج عليه بما لا يستطيع إنكاره بمعنى أنَّك تحتج على خصمك بأمر لا يستطيع إنكاره، فإنَّ اليهود يعرفون بأنَّ فيهم قومًا غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، فإذا كانوا يقرّون بذلك وهم يستهزئون بالمسلمين، فنقول لهم أين محل الاستهزاء؟ الذين حلَّت عليهم هذه العقوبات أم الذين سَلِمُوا منها؟

والجواب: الذين حلَّت بهم العقوبة أحق بالاستهزاء.

---

(١) سبق ص (٢٠١).

. . . .

٢ ـ اختلاف الناس بالمنزلة عند الله لقوله: ﴿**بشر من ذلك مثوبة عند الله**﴾ ولا شك أنَّ الناس يختلفون بزيادة الإيمان ونقصه وما يترتب عليه من الجزاء.

٣ ـ سوء حال اليهود الذين حلَّت بهم هذه العقوبات من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

٤ ـ إثبات أفعال الله الاختيارية، وأنَّه سبحانه يفعل ما يشاء لقوله: ﴿**لعنه الله**﴾ فإنَّ اللعن من صفات الأفعال.

٥ ـ إثبات الغضب لله لقوله: ﴿**وغضب عليه**﴾.

٦ ـ إثبات القدرة لله لقوله: ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير**﴾.

وهل المراد بالقردة والخنازير هذه الموجودة؟

والجواب: لا. لما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ، أنَّه قال: «**إنَّ كل أمة مسخت لا يبقى لها نسل**»[1] وعلى هذا فليس هذا الموجود من القردة والخنازير، هو بقية أولئك الممسوخين.

٧ ـ أنَّ العقوبات من جنس العمل؛ لأنَّ هؤلاء الذين مسخوا قردة والقرد أشبه ما يكون شبهًا بالإنسان، فعلوا فعلًا ظاهره الإباحة والحل وهو محرم، وذلك أنَّه حرَّم عليهم الصيد ويوم السبت ابتلاء من الله، فإذا جاء يوم السبت امتلأ البحر بالحيتان وظهرت على سطح الماء، وفي غيره من الأيام تختفي ولا يأتي منها شيء، فلما طال عليهم الأمد صنعوا شباكًا فصاروا ينصبونها في يوم الجمعة ويدعون الحيتان تدخل فيها يوم السبت فإذا أتى يوم الأحد أخذوها،

---

(١) من حديث ابن مسعود، رواه مسلم، كتاب القدر/ باب بيان أن الأرزاق والآجال... لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر ٤/ ٢٠٥١.

. . . .

حيلة ظاهرها الحل، ولكن حقيقتها معناه الوقوع في الإثم تمامًا، ولهذا مُسخوا إلى حيوان يشبه الإنسان وليس بإنسان وهو القرد، قال تعالى: **﴿كونوا قردة خاسئين﴾**[1] وهو يفيد أنَّ الجزاء من جنس العمل، ويدلّ عليه صراحة قوله تعالى: **﴿فكلًّا أخذنا بذنبه﴾**.

٨ ـ أنَّ هؤلاء اليهود صاروا يعبدون الطاغوت لقوله: **﴿وعبد الطاغوت﴾** ولا شك أنَّهم حتى الآن يعبدونه؛ لأنهم عبدوا الشيطان وأطاعوه وعصوا الله ورسوله.

وفي الآية نكتة نحوية في قوله «**عليه**» و«**منهم**» في قوله تعالى: **﴿من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير﴾** فالضمير في «لعنه» الهاء، و«غضب عليه» مفرد، و«منهم» جمع، مع أن المرجع واحد وهو: «من».

والجواب: أنّه روعي في الإفراد اللفظ، وفي الجمع المعنى، وذلك أنَّ «من» اسم موصول صالحة للمفرد وغيره، قال ابن مالك:

ومن وما وأل تساوي ما ذكر

لما ذكر الأسماء الموصولة من المفرد والمثنّى والجمع من مذكر ومؤنّث قال: ومن وما. . . إلخ.

وقال: **﴿من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة﴾** ولم يقل وجعلهم قردة، لأنَّ اللعن والغضب عام، والعقوبة بمسخهم إلى قردة وخنازير خاص ببعضهم، وليس شاملًا لبني إسرائيل.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

عن أبي سعيد (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«لَتتبعنَّ سُنن من كان قبلكم، حذْو القذَّةِ بالقُذَّةِ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ**

ومن فوائد الآية الثالثة ما يلي:

١ ـ ما تضمن سياق هذه الآية من القصة العجيبة في أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدَّالة على كمال قدرة الله وحكمته.

٢ ـ أنَّ من أسباب بناء المساجد على القبور الغلو في أصحاب القبور، لأنَّ الذين غلبوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد لأنَّهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام فغلوا فيهم.

٣ ـ أنَّ الغلو في القبور وإن قلّ قد يؤدّي إلى ما هو أكبر منه، ولهذا قال النبي، ﷺ، لعلي حين بعثه: **«ألا تدع قبراً مشرفًا إلّا سوَّيته»**[1].

قولـه: **«لتتبعنَّ»** اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد، فالكلام مؤكد بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون. والتقدير: والله لتتبعنَّ.

قوله: **«سنن من كان قبلكم»** فيها روايتان: «سَنن» و«سُنن» أما «سُنن» بضم السين جمع سُنَّة وهي الطريقة.

وأما «سَنن» بالفتح فهي مفرد بمعنى الطريق.

وفَعَل تأتي مفردة مثل: فنن جمعها أفنان، وسبب جمعها أسباب.

وقوله: **«من كان قبلكم»** أي من الأمم.

قوله: **«لتتبعُنَّ»** بضم العين، والخطاب فيها للجمع، ولو قال: **«لتتبعَنَّ»** بفتح العين صار للمفرد، وهذا هو الفرق.

وقـولـه: **«ولتتبعنَّ سنن من كان قبلكم»** ليس على ظاهره بل هو عام مخصـوص، لأنَّنا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هذه الأمة تتبع سنن من كان

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر ٢/٦٦٦.

لدخلتُموهُ»، قالوا: يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». أخرجاه(1).

قبلها، لكننا نقول: إنَّه عامّ مخصوص؛ لأنَّ في هذه الأمة من لا يتبع، وقد يقال: إنَّ الحديث على عمومه وأنَّه لا يلزم أن تتبع هذه الأمة الأمم السابقة في جميع سننها، بل منها من يتبعها بشيء وبعض الأمة يتبعها بشيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولى لبقاء الحديث على عمومه، ومن المعلوم أنَّ من طرق من كان قبلنا ما لا يخرج من الملَّة مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب.

ومنه ما يخرج من الملَّة: كعبادة الأوثان.

السنن: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق، ولنستعرض شيئًا من هذه السنن:

فمن هذه السنن: عبادة القبور والصالحين، فإنَّها موجودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هذه الأمة، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿**وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا**﴾(2)، ومن هذا الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة وجد في هذه الأمة، ومنها دعاء غير الله، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هذه الأمة ومنها وصف الله بالنقائص والعيوب فقد قال اليهود: ﴿**يد الله مغلولة**﴾(3).

---

(1) رواه البخاري، كتاب الاعتصام/ باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ٣/٣٦٧، ومسلم كتاب العلم/ باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٤/٢٠٥٤.

(2) سورة نوح، الآية: ٢٣.

(3) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

. . . .

وقـالـوا: ﴿إنَّ الله فقـير ونحن أغنيـاء﴾[1]. وقـالوا: إنَّ الله تعب من خلق السمٰوات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بذلك أو أشد منه، فقد وجد من قال: ليس له يد، ومنهم قال: لا يستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يتكلم، بل وجد في هذه الأمة من يقول: بأنَّه ليس داخلاً في العالم، وليس خارجًا عنه ولا متَّصلاً به، ولا منفصلاً عنه.

ولا تجوز الإشارة الحسيَّة إليه، ولا يفعل، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يحب، وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها أكل السحت فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة. ومنها أكل الربا فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة. ومنها التحايل على محارم الله، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة. ومنها إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها تحريف كلام الله عن مواضعه لفظًا ومعنى كاليهود حين قيل لهم: ﴿ادخلوا الباب سُجدًا وقولوا حطَّة﴾[2] فدخلوا على قفاهم وقالوا: حنطة ولم يقـولوا حطَّة، ووجد في هذه الأمة من فعل كذلك فحرَّف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء قال تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[3] وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إنَّ اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود النون في (حطَّة) فقالوا: (حنطة).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

(٣) سورة طه، الآية: ٥.

. . . .

نون الــيهــود ولام جهـمـي هما	في وحي رب العــرش زائــدتـان
أمــر اليهــود بأن يقــولــوا حطَّة	فأبــوا وقــالــوا حنــطة لهوان
وكـذلـك الجهمي قيل له استوى	فأبـى وزاد الحــرف للنـقـصــان

ووجـد في الأمم السابقة من اتَّخذوا أحبارهم ورُهبانهم أربابًا من دون الله، ووجد في هذه الأمة من يُعارض قول النبي، ﷺ، بقول شيخه.

فإذا تأمَّلت كلام النبي، ﷺ، وجدته مطابقًا للواقع لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم، ولكن يبقى النظر هل هذا الحديث للتحذير أو للإقرار؟

الجـواب: لا شك أنَّه للتحذير وليس للإقرار فلا يقول أحد سأحسد وسآكل الربا، وسأعتدي على الخلق لأنَّ الرسول، ﷺ، قال ذلك، فمن قال ذلك فإننا نقول له: هذا لا شك أنَّه للتحذير ولهذا قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

ثم نقول لهم أيضًا: إنَّ الرسول، ﷺ، أخبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن.

فمن ذلك أنه أخبر أن الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أنَّ الإنسان يعصي أبـاه ويدني صديقـه[1]، وهـذا ليس بجائز بنص القرآن، لكن قصد التحذير من هذا العمل.

ووجد في الأمم السابقة من يقول للمؤمنين إنَّ هؤلاء لضالون، ووجد في هذه الأمة من يقول هؤلاء لرجعيُّون.

فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب ما سبق، ولكن من وفقه الله للهداية اهتدى.

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه الترمذي في الفتن/ باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف ٦/٣٦٤، وقال: «وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

. . . .

والحاصل: أنَّك لا تكاد تجد معصية في هذه الأمة إلا وجد لها أصل في الأمم السابقة.

ولا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثًا في هذه الأمَّة.

أما مناسبة الحديث للباب:

فلأنَّه لَّما عبدت الأمم السابقة الأصنام والأوثان، فسيكون في هذه الأمة من يعبد الأصنام والأوثان.

قوله: «**حذو القذَّة بالقذَّة**».

حذو بمعنى: محاذيًا وهي منصوبة على الحال من فاعل تتبعن أي حال كونكم محاذين لهم حذو القذَّة بالقذَّة.

والقذة: هي ريشة السهم، والسهم له ريش لابد أن تكون متساوية تمامًا، وإلا صار الرمي به مختلاً.

وأنا ليس عندي معرفة تامَّة بالسهام، لأنها غير موجودة الآن.

قوله: «**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» هذه الجملة تأكيد منه، ﷺ، للمتابعة.

وجحـر الضب من أصغر الجحور، فإنَّكم تدخلونه، ولو دخلوا جحر أسـد من باب أولى أن ندخله فالنبي، ﷺ، قال ذلـك على سبيل المبالغة، كقوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلمًا طوَّقه الله به يوم القيامة من سبع أراضين**»(١) ومن اقتطع ذراعًا فمن باب أولى.

قوله: «**قالوا اليهود والنصارى**» يجوز فيها وجهان:

---

(١) سبق ص (٨٠).

. . . .

الأول: نصب اليهود والنصارى على أنَّه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعني اليهود والنصارى؟

الثاني: الرفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟ وعلى كل تقدير فالجملة إنشائية لأنَّهم يسألون النبي، ﷺ، فهي استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء.

واليهود: أتباع موسى، عليه الصلاة والسلام، وسمّوا يهودًا نسبة إلى يهوذا من أحفاد إسحاق، أو لأنَّهم هادوا إلى الله أي رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل.

والنصارى: هم أتباع عيسى، عليه الصلاة والسلام، وسمّوا بذلك نسبة إلى بلدة تسمَّى الناصرة، وقيل: من النصرة كما قال تعالى: ﴿**من أنصاري إلى الله**﴾[1].

قوله: «**قال فمن**» من هنا: اسم استفهام، والمراد به التقرير أي فمن أعني غير هؤلاء، أو فمن هم غير هؤلاء؟ فالصحابة، رضي الله عنهم، لمَّا حدَّثهم، ﷺ، بهذا الحديث كأنَّه حصل في نفوسهم بعض الغرابة فلما سألوا قرَّر النبي، ﷺ، أنَّهم اليهود والنصارى.

من فوائد الحديث:

١ ـ ما أراده المؤلف بسياقه وهو أنَّ بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ لأنَّه من سنن من قبلنا، وقد أخبر، ﷺ، أننا سنتبعهم.

٢ ـ ويستفاد أيضًا من فحوى الكلام التحذير من متابعة من قبلنا في معصية الله.

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.

. . . .

٣ ـ أنَّـه ينبغي معـرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك ولله الحمد موجود في القرآن والسنة.

٤ ـ استعظام هذا الأمر عند الصحابة لقولهم اليهود والنصارى، فإنَّ الاستفهام للاستعظام، أي استعظام الأمر أن نتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدى مع النبي ﷺ.

٥ ـ أنَّه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة فإنَّه يكون أبعد من الحق، لأنَّه أخبر عن مستقبل ولم يخبر عن الحاضر، ويؤخذ أنَّه من خصال من قبلنا أنَّه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم. قال تعالى: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾[1].

فإذا كان طول الأمـد سببًـا لقسوة القلب فيمن قبلنا، فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء في البخاري من حديث أنس، رضي الله عنه، أنه قال: سمعت النبي، ﷺ، يقول: «**لا يأتي على الناس زمان إلاّ وما بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**»[2]. ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك.

لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

وهذه المسألة ينبغي أن نتنبه لها وهي الفرق بين الجملة والأفراد فحديث أنس، رضي الله عنـه، حديث صحيح سنـدًا ومتنًا، فالمتن ليس فيه شذوذ والسند في البخاري، ولذلك يوجد في أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين، فلا تيأسوا فتقولوا إذًا لا يمكن أن يوجد في زماننا هذا مثل من سبق،

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٢) في كتاب الفتن/ باب لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه ٤/٣١٥.

. . . .

لأنَّنا نقول: إنَّ مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتَّضح الأمر فانظروا: إلى جنس الرجال وجنس النساء أيها خير؟

والجواب: جنس الرجال خير قال تعالى: ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾[1] لكن يوجد في النساء من هي خير من كثير من الرجال، فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

فإذا نظرنا مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان، فقد تكون أمة في بعض الجهات يرتفع النـاس فيها من حسن إلى أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم فإنَّهم يكونون أحسن ممن سبقهم.

أمَّـا الصحابة فلا أحد يساويهم في مسألة فضل الصحبة، ولهذا مثَّلنا بأتباع التابعين والتابعين، حتى أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم مهما بلغ من الفضل لأنَّه لم يدرك الصحبة.

مسألة: ما هي الحكمة من ابتلاء الأمة بهذا الأمر: «**لتتبعن سنن**» إلخ وأن يكون فيها من كل مساوىء من سبقها؟

الجواب: الحكمة ليتبين بذلك كمال الدين فإنَّ الدين يعارض كل هذه الأخلاق، فإذا كان يُعارضها دلّ هذا على أنَّ كل نقص في الأمم السابقة، فإنَّ هذه الشريعـة جاءت بتكميله؛ لأنَّ الأشياء لا تتبـينَّ إلاّ بضـدّها كما قيل: وبضدها تتبينَّ الأشياء.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

ولمسلم[1] عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها**.

قوله: «**زوى لي**» بمعنى جمع وضم، أي جمع له الأرض وضمها.

قوله: «**فرأيت**» أي بعيني فهي رؤية عينية.

قوله: «**مشارقها ومغاربها**» وهذا ليس على الله بعزيز، لأنَّه على كل شيء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبي، ﷺ، ما سيبلغ ملك أمَّته.

وهل المراد هنا بالزوي أنَّ الأرض جمعت، أو أنَّ الرسول، ﷺ، قُوِّي نظره حتى رأى البعيد؟

الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أنَّ الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتى رأى البعيد.

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبي، ﷺ، أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول. ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها، فالله على كل شيء قدير أن يجمع له، ﷺ، الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلى مغاربها.

اعتراض وجوابه:

فإن قيل: هذا إن حمل على الواقع فليس بموافق للواقع، لأنَّه لو حصرت الأرض بحيث تكون مدركة لبصر النبي، ﷺ، المجرد فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

والجواب: بأنَّ هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز أن تورد عليها كيف؟

---

(١) في كتاب الفتن/ باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ٤/٢٢١٥.

وإن أُمَّتي سيبلغُ مُلكُها ما زُوِي لي منها،
وأُعطيتُ الكنزين: الأحمر والأبيض،

ولِمَ؟ بل نقول: إنَّ الله على كل شيء قدير. إذ قوة الله سبحانه أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبي، ﷺ، أنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[1]، فلا يجوز أن نقول كيف يجري مجرى الدم؟ فالله أعلم بذلك.

وهذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول في باب الأسماء والصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة.

وقوله: «**فرأيت مشارقها ومغاربها**» أي أماكن الشرق والغرب منها.

قوله: «**وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**» هل المراد أمة الإجابة أو الدعوة؟

المراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول، ﷺ، سيبلغ ملكها ما زوي للرسول، ﷺ، منها، وهذا هو الواقع فإنَّ ملك هذه الأمة اتَّسع من المشرق ومن المغرب اتِّساعًا بالغًا لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط وهذا يحقق رؤيا النبي ﷺ.

قوله: «**وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض**» الذي أعطاه هو الله.

والكنزان هما: الذهب والفضة كنوز كسرى وقيصر، فالذهب عند

---

(١) من حديث صفية. رواه البخاري، كتاب الاعتكاف/ باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه ٢/٢٦٨، ومسلم، كتاب السلام/ باب يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة... رقم (٢١٧٥).

وإني سأَلتُ ربِّي لأمتى أن لا يُهلكها بسنةٍ بِعَامَّة، وأن لا يُسَلِّط عليهم عدُوًّا من سِوى أنفسهم، فيستبيح بيضتَهُمْ، وإن

قيصر، والفضة عند كسرى وكل منهما عنده ذهب وفضة لكن الأغلب على كنوز قيصر الذهب، وعلى كنوز كسرى الفضة.

وقوله: «**أعطيت**» هل هو ﷺ أعطيها في حياته أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك، لكن ما أعطيت أمته فهو كالمعطى له، لأنَّ امتداد ملك الأمة، لا لأنَّها أمة عربية كما يقوله هؤلاء الجهّال، بل لأنَّها أمة إسلامية، أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ.

قوله: «**وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة**» هكذا في الأصل وفي رواية في بعض النسخ «بسنة عامة».

السنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر قال، ﷺ: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[1] وقال تعالى: ﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين**﴾[2].

وعامة: أي عمومًا تعمهم، هذه دعوة.

قوله: «**وأنْ لا يسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم**» أي لا يُسلط عليهم عدوًا، والعدو: ضد الولي، وهو: المعادي المبغض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار ولهذا قال: «**من سوى أنفسهم**».

ومعنى: «**يستبيح**» يستحلّ، والبيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام.

---

(١) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب «يغشى الناس هذا عذاب أليم» ٣/ ٢٨٩، ومسلم، كتاب صفات المنافقين/ باب الدخان ٤/ ٢١٥٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.

والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

قوله: (**إذا قضيت قضاء فإنَّه لا يُردّ**) اعلم أن قضاء الله نوعان:

١ ـ قضاء شرعي قد يُرد، فقد يريده الله ولا يقبلونه.

٢ ـ قضاء كوني لا يرد ولابد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعها قوله تعالى: ﴿**والله يقضي بالحق**﴾[1].

ومثال القضاء الشرعي قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيَّاه**﴾[2] لأنَّه لو كان كونيًّا لكان كل الناس لا يعبدون إلّا الله.

ومثال القضاء الكوني: قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرَّتين ولتعلنَّ علوًّا كبيراً**﴾[3]. لأنَّ الله تعالى لا يقضي شرعًا بالفساد لكنه يقضي به كونًا وإن كان يكرهه سبحانه، فإنَّ الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة كما قسم خلقه إلى مؤمن وكافر لما يترتَّب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء في هذا الحديث: القضاء الكوني، فلا أحد يستطيع ردّه مهما كان من الكفر والفسوق، فقضاء الله نافذ على أكبر الناس عتوًّا واستكبارًا، فقد نفذ على فرعون وأُغرق بالماء الذي كان يفتخر به، وعلى طواغيت بني آدم فأهلكهم الله ودمَّرهم.

وقوله: (**إذا قضيت قضاء فإنَّه لا يُرد**) وفي هذا من كمال سلطان الله وربوبيَّته ما هو ظاهر لأنَّه ما من ملك سوى الله إلّا يمكن أن يرد ما قضى به.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣. (٣) سورة الإسراء، الآية: ٤.

واعلم: أنَّ قضاء الله كمشيئته مقرون بالحكمة فهو لا يقضي قضاء إلّا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئًا إلا والحكمة تقتضيه ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وما تشاءون إلّا أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا﴾[1] فيتبينَّ أنَّه لا يشاء شيئًا إلّا عن علم وحكمة وليس لمجرّد المشيئة.

خلافًا لمن أنكر حكمة الله من الجهمية وغيرهم فقالوا: إنَّه لا يفعل الأشياء إلّا لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرُّفًا من الله، لأنَّ كل عاقل من المخلوقين لا يتصرَّف إلا لحكمة، ولهذا الذي يتصرَّف بسفه يحجر عليه قال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا﴾[2].

فنحن نقول: إنَّ الله جل وعلا لا يفعل شيئًا ولا يحكم بشيء إلّا لحكمة، ولكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علمًا؟

الجواب: لا يلزم؛ لأنَّنا أقصر من أن نحيط علمًا بكل حكم الله عز وجل، صحيح أنَّ بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله: **(إذا قضيت قضاءً فإنَّه لا يُرد)** بيان أن من الأشياء التي سألها النبي، ﷺ، ما لم يُعطها، لأنَّ الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يرد ما قضاه الله عز وجل.

والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل القضاء أو أكثر القضاء له أسباب، فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتَّب دخول الجنة عليه، يتوقف على العمل الصالح.

(١) سورة الإنسان، الآية ٣٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥.

وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ بعامة، وأن لا أُسلِّط عليهم عدوًّا من سِوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضُهُم يُهلكُ بعضًا ويسبي بعضُهم بعضًا».

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله عز وجل منعه حتى نسأل، لكن من الأشياء ما لا تقتضي الحكمة وجوده، وحينئذ يجازى الداعي بما هو أكمل، أو يؤخر له ويدخر له عند الله عز وجل، أو يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول ولم يجب فإننا نجزم بأنّه ادخر له.

وقوله: «**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة**» هذه واحدة.

والثانية: قوله: «**أن لا أسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا**» وهذه الإجابة قيدت بقوله «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا**» إذا وقع ذلك منهم فقد يُسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم فكأن إجابة الله لرسوله، ﷺ، في الجملة الأولى بدون استثناء وفي الجملة الثانية باستثناء «**حتى يكون بعضهم...**».

وهذه هي الحكمة من تقديم قوله: «**إذا قضيت قضاءً فإنّه لا يُرد**» فصارت إجابة الله لرسوله، ﷺ، مقيَّدة.

ومن نعمة الله أنَّ هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبدًا، فكل من يدين بدين الرسول، ﷺ، فإنّه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة فإنّه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا، فإنّه يُسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، وهذا قد وقع، فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عونًا في الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة. ولمَّا تفرقت وصار بعضهم

ورواهُ البرقاني في صحيحه، وزاد: «**وإنما أخافُ على أُمَّتي الأئمَّة المُضلِّين**»

يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا، سلَّط الله عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، وأعظم من سُلِّط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطًا لا نظير له فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسرًا على نهر دجلة يطأونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن كثير في النهاية: مضى عليَّ حين وأنا أقدِّم رجلًا وأؤخِّر أخرى، هل أذكر هذا التاريخ أو لا أذكره؟ ثم بدا لي أن أذكره حفظًا للتاريخ، وكان يقول: إنَّ المسلمين أصيبوا بذل عظيم، حتى إن الواحد من التتر يدخل الزقاق أي السكة الضيقة الصغيرة ويقول لأهل البيوت اخرجوا ثم يقول: ضعوا حجرًا ثم يقول للواحد: اجعل رأسك على هذا الحجر ثم يقول لأخيه: اضربه بالحجر فيرضّ رأسه بين الحجرين والتتري يتفرَّج، وهذا تسليط لأنَّه كان بعضهم يقتل بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا.

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، وأنَّه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم.

قوله: «**إنَّما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**» بيَّن الرسول، ﷺ، أنَّه لا يخاف على الأمة إلَّا الأئمَّة المضلين.

والأئمَّة: جمع إمام، والإمام قد يكون إمامًا في الخير أو الشر، قال تعالى

وإذا وقع عليهم السيف لم يرفعْ إلى يوم القيامة،
ولا تقوم الساعةُ حتى يلحق حيٌّ من أُمَّتي بالمشركين،

في أئمة الخير: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾[1].

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة: ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون**﴾[2].

والذي في الحديث: «الأئمة المضلين»، وصدق النبي، ﷺ، إنَّ أعظم ما يُخاف على الأمة الأئمة المضلون كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرَّقت الأمة بسببهم.

والمراد بقوله: «**الأئمة المضلين**» الذين يقودون الناس بالشرع، والذين يأخذون الناس بالقهر والسلطان، فيشمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين، الذين يدّعون أنَّ ما هم عليه شرع الله، وهم أشدّ الناس عداوة له.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لو كان لي دعوة مستجابة لصرفتها للسلطان فإنَّ بصلاحه صلاح الأمة.

قوله: «**وإذا وقع عليهم السيف... إلخ**» هذا من آيات النبي، ﷺ، وهذا حق واقع فإنَّه لما وقع السيف في هذه الأمة لم يُرفع، فما زال بينهم القتال منذ قتل الخليفة الثالث عثمان، رضي الله عنه، وصارت الأمة يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا.

قوله: «**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين**».

الحي: بمعنى القبيلة.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٤١.

وحتى تعبُدَ فِئَامٌ من أُمَّتي الأوثـان، وأنه سيكون في أُمتي كذَّابون ثلاثون،

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني بمعنى أنَّه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم؟ أو اللحوق الحكمي؟ أو الأمران معًا؟

الظاهر: أنَّ المُراد الأمران معًا بحيث يصدقان جميعًا، أو أحدهما.

وأمـا الحي: فالظاهر أنَّ المراد به الجنس، وليس واحد الأحياء، وإن قيل: إنَّ المراد واحد الأحياء فلابد أن يكون لهذا الحي أثره وقيمته في الأمة الإسلامية بحيث يتبينَّ ويظهر، وربما يكون لهذا الحي إمام يزيغ والعياذ بالله ويفسد فيتبعه كل الحي ويتبينَّ ويظهر أمره.

قوله: «**وحتى تعبد فئام من أمَّتي الأوثان**» الفئام: أي الجماعات، وهذا وقـع ففي كل جهة من جهات المسلمين يعبدون القبور ويعظِّمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم. وفئام: أي ليسوا أحياء فقد يكون بعضهم من قبيلة. والبعض الآخر من قبيلة فيجتمعون.

قوله: «**وإنَّه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون**» حصرهم النبي، ﷺ، بعدد وكلهم يزعم أنَّه نبي أُوحي إليه وهم كذابون؛ لأن النبي، ﷺ، خاتم النبيين ولا نبي بعده، فمن زعم أنَّه نبي بعد الرسول، ﷺ، فهو كاذب كافر حلال الدم والمال، ومن صدَّقه في ذلك فهو كافر حلال الدم والمال، وليس من المسلمين، ولا من أمة محمد، ﷺ، ومن زعم أنَّه أفضل من محمد، وأنه يتلقى من الله مباشرة، ومحمد، ﷺ، يتلقى منه بواسطة الملك فهو كاذب كافر حلال الدم والمال.

وقوله: «**كذابون ثلاثون**» هل ظهروا أم لا؟

كلهم يَزْعُم أنه نبيٌّ، وأنا خاتم النبيين، لا نبيَّ بعدي، ولا تزال طائفةٌ من أُمَّتي على الحقِ منصورةً، لا يَضُرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله تبارك وتعالى»[1].

الجواب: ظهر بعضهم، وبعضهم يُنتظر لأن النبي، ﷺ، لم يحصرهم في زمن معينَّ، وما دامت الساعة لم تقم فهم يُنتظرون.

قوله: «**وكلهم يزعم**» هذا يدل على القصد فيخرج المجنون.

قوله: «**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**» المعنى: أنَّهم يبقون إلى آخر وجودهم منصورين.

هذا من نعمة الله، فلما ذكر أنَّ حيًّا من الأحياء يلتحقون بالمشركين، وأنَّ فئامًا يعبدون الأصنام وأنَّ أناسًا يدعون النبوة، فيكون هنا الإخلال بالشهادتين شهادة أن لا إلـه إلا الله بالشرك، وأن محمدًا رسول الله بادعاء النبوة وذلك أصـل التوحيد، بل أصل الإسلام شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

فلما بينَّ ذلك لم يجعل الناس ييأسون فقال: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**».

والطائفة: الجماعة.

وقوله: «**على الحق**» جار ومجرور خبر تزال.

قوله: «**منصورة**» خبر ثان، ويجوز أن يكون حالاً، والمعنى: لا تزال على الحق وهي كذلك أيضًا منصورة.

---

(١) هذه الزيادة رواها أبو داود في كتاب الفتن/ باب ذكر الفتن ٤/٤٥٢ وسكت عنها، وابن ماجه، كتاب الفتن/ باب ما يكون من الفتن رقم ٣٩٥٢، والحاكم في المستدرك ٤/٤٤٩، وصححه على شرط الشيخين. وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٨٩، وفي الدلائل ص (٤٦٩، وأحمد في المسند ٥/٢٧٨، ٢٨٤، وفي النهج السديد ص (١٢٩): «صحيح على شرط مسلم».

. . . .

قوله: «**لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم**» خذلهم: أي لا ينصرهم ويوافقهم على ما ذهبوا إليه، وفي هذا دليل على أنَّه سيوجد من يخذلهم لكنه لا يضرهم لأنَّ الأمور بيد الله، وقد قال ﷺ: «**واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك**»[1]. وكذلك لا يضرهم من خالفهم لأنهم منصورون بنصر الله، فالله عز وجل إذا نصر أحدًا فلا يستطيع أحد أن يذلّه.

قوله: «**حتى يأتي أمر الله**» أي الكوني، وذلك عند قيام الساعة، عندما يأتي أمره سبحانه وتعالى بأن تقبض نفس كل مؤمن، حتى لا يبقى إلا شرار الخلق، فعليهم تقوم الساعة.

الشاهد من هذا الحديث: قوله في رواية البرقاني: «**حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ويعبد فئام من أمتي الأوثان**».

وقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**» هذه لم يحدد مكانها فتشمل جميع بقاع الأرض في الحرمين والعراق، وغيرهما.

فالمهم: أنَّ هذه الطائفة مهما نأت بهم الديار، فهي طائفة واحدة منصورة على الحق لا يضرهم من خذلهم.

مسألة: تكلّف بعض السلف بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث، هل هذا صحيح؟

الجواب: هذا ليس بصحيح، لكن في الحقيقة ليس هناك حق إلّا باتباع

---

(١) من حديث ابن عباس، رواه الترمذي، صفة القيامة/ باب «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ٢٠٣/٧، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في المسند ٢٩٣/١، ٣٠٧، وعبد بن حميد في المنتخب رقم (٦٣٥).

. . . .

الحديث، إنَّما إذا أريد أهل الحديث المصطلح عليه، الذين يأخذون الحديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير، وما أشبه ذلك، فهذا ليس بصحيح لأنَّه حتى علماء التفسير والفقهاء الذين يتحرون البناء على الدليل هم في الحقيقـة من أهل الحديث، ولا يختص بأهل الحديث صناعة لأن العلوم الشرعية: تفسير وحديث وفقه. . . إلخ.

فالمقصود: أن كل من تحاكم إلى الكتاب والسنة فهو من أهل الحديث بالمعنى العام.

وأهل الحديث هم: كل من يتحرَّى العمل بسنة الرسول، ﷺ، فيشمل الفقهاء الذين يتحرَّون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحًا.

فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً لا يعتبر اصطلاحًا من المحدِّثين، وإلاّ فهو رافع لراية الحديث.

والإمام أحمد رحمه الله تنازعه طائفتان؛ أهل الفقه قالوا: إنَّه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنَّه محدِّث.

وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير، ولا شك أن أقرب الناس تمسُّكا بالحديث هم الذين يعتنون به.

ويُخشى من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظنّ أنَّهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحًا، فيخرج غيرهم.

فإذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث سواء انتسبوا إليه اصطلاحًا واعتنوا به أولم يعتنوا، لكنهم أخذوا به، فحينئذٍ يكون صحيحًا.

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية النساء، **الثانية** : تفسير آية المائدة، **الثالثة** : تفسير آية الكهف، **الرابعة** : وهي أهمها ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت هل هو اعتقاد قلب؟ أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

فيه مسائل، أي في هذا الباب، يعني ماجاء من أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ففي هذا الباب وماتضمنه من الآيات والأحاديث والآثار، مسائل:

الأولى : تفسير آية النساء وهي قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾ وقد سبق بيان معناها.

الثانية: تفسير آية المائدة وهي قوله تعالى: ﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**﴾ وقد سبق تفسيرها.

والشاهد منها هنا قوله «وعبد الطاغوت».

الثالثة: تفسير آية الكهف يعني قوله تعالى: ﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدًا**﴾ وقد سبق بيان معناها.

الرابعة: وهي أهمها مامعنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟

هل هو اعتقاد القلب؟ أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

أما إيمان القلب واعتقاده فهذا لا شك في دخوله في الآية.

وأما موافقة أصحابها في العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها فهذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناء على أنها صحيحة فهذا كفر، وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة فإنه لا يكفر، لكنه ـ لا شك ـ على خطر عظيم يخشى أن يؤدي الحال إلى الكفر والعياذ بالله.

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلا من المؤمنين، **السادسة**: وهي المقصود بالترجمة أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد، **السابعة**: تصريحه بوقوعها أعني عبادة الأوثان.

الثامنة: العجب العجاب خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين، يعني أن هذا القول كفر وردَّة؛ لأن من زعم أن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين فإنه كافر لتعظيمه الكفر على الإيمان ولا شك في هذا.

السادسة: وهي المقصودة بالترجمة، أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: تصريحه بوقوعها أعني عبادة الأوثان وقد سبق بيانها.

والترجمة التي أشار إليها رحمه الله هي قوله «باب ماجاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان. وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يارسول الله اليهود والنصارى قال: فمن**»» أخرجاه.

وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة في مثل ماوقع فيه من سبقها.

الثامنة: في علم مسائل الباب العجب العجاب، خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين ومع هذا يصدق بهذا

وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة أن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى بل لا تزال عليه طائفة، **العاشرة**: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا

كله مع التّضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

والمختار هو ابن أبي عبيدة الثقفي، خرج وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنه، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين، فتتبعهم وقتل كثيرًا ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولا شك أن هذه المسألة من العجب العجاب أن يدعي النبوة وهو يؤمن أن القرآن حق، وفي القرآن أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، فكيف يكون صادقًا؟ وكيف يُصدَّق؟ مع هذا التناقض!!! ولكن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

التاسعة: أن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة يعني من هذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة.

يؤخذ هذا من آخر الحديث «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**».

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم وهذه آية عظمى، أن الكثرة الكاثرة من بني آدم على خلاف ذلك ومع ذلك لا يضرونهم ﴿**وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾.

يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، **الحادية عشرة**: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: مافيه من الآيات العظيمة: منها إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، وإخباره أنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنين، وإخباره بأنه مُنع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضا، وسبي بعضهم وخوفه على أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد مايكون في العقول.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة وقد سبق.

الثانية عشرة: فيه من الآيات العظيمة أي: مافي هذا الحديث من الآيات العظيمة. والآيات جمع آية وهي العلامة، والآيات التي يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام من العلامات الدالة على صدقهم.

فمما في هذا الحديث إخباره بأن الله سبحانه وتعالى زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك فوقع ثم أخبر في خلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذي أطلع الله رسوله ﷺ عليه.

ومنها إخباره أنه ﷺ أعطي الكنزين وهما كنز كسرى وقيصر، ومنها إخباره بإجابة دعوته لأمته بالاثنين. وهما ألا يهلكها بسنة بعامة وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإخباره بالثالثة.

والثالثة وهي ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها، فإن هذا سوف يكون كما

الثـالثـة عشرة: حصر الخـوف على أمته من الأئمة المضلين،
الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

صرح به حديث عامر بن سعد عن أبيه «أن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا دعاءً طويلاً وانصرف إلينا فقال: «**سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنـة فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**» أي منعني إياها.

ومن الآيات التي تضمنها هذا الحديث أن السيف إذا وقع في هذه الأمة فإنه لا يرفع حتى تقوم الساعة وقد كان الأمر كذلك فإنه منذ سلت السيوف على المسلمين من بعضهم على بعض بقي هذا إلى يومنا هذا. إخباره بإهلاك بعضهم بعضا وسبي بعضهم بعضا وهذا أيضًا واقع.

ومنها أي من هذه الآيات خوفه على أمته من الأئمة المضلين والأئمة جمع إمام والإمام هو من يقتدى به إما لعلمه وإما لسلطته وإما لعبادته.

ومن هذه الآيات أيضًا إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وقد ظهر كثير من هؤلاء.

ومنها: أن من هذه الآيات إخباره بالطائفة المنصورة وهذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ رحمه الله: «مع أن كل واحدة منها أبعد مايكون في العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين، ووجه هذا الحصر أن الأئمة متبوعون، فإذا كانوا مضلين ضلل بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان. يعني أن عبادة الأوثان

. . . .

لا تختص بالركوع والسجود لها بل تشمل اتباع المضلين الذين يحلون ماحرم الله فيحله الناس ويحرمون ما أحله الله فيحرمه الناس.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم الجزء الأول ولله الحمد
ويليه الجزء الثاني وأوله
باب ما جاء في السحر

فهـــرس الآيـــات
الجـزء الأول

الفاتحـة

سورة البقرة

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة التوبة

الآيــــة	رقم الآية	رقم الصفحة

سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة الزمر

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الصف		
من أنصاري إلى الله	١٤	٤٨٢
سورة الجمعة		
هو الذي بعث في الأميين رسولاً	٢	٤٤٩
سورة المنافقون		
نشهد إنك لرسول الله	١	٦٢
والله يعلم إنك لرسوله	١	٣٤٤
والله يشهد إن المنافقين لكاذبون	١	٢٣٤
سورة التغابن		
وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة	٧	١٤٢
سورة الطلاق		
يا أيها النبي إذا طلقتم النساء	١	٢٧
ومن يتوكل على الله فهو حسبه	٣	١٨٠
ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً	١١	٢٧٤
الله الذي خلق سبع سموات	١٢	٨٠
وما بكم من نعمة فمن الله	٥٣	٢٧١

فهرس أحاديث الجزء الأول

الحديث	الـــراوي	الصفحة
اللهم عليك بهم اللهم، اجعلنا عليهــم ســنين كسنين يوسف	ابن مسعود	٣٠٣
اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد	أبو هريرة	٤٢٨، ٤٢٩
اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت	المغيرة بن شعبة	٢٦٨
المرء على دين خليله	أبو هريرة	٣٦٣
إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها		١٩٣
أنا أغنى الشركاء عن الشرك	أبو هريرة	٤٥، ١١٤، ٤٢٨
إذا دعاك فأجبه	أبو هريرة	١٥٤
إذا سمعتم من ينشــد الضالة في المسجد فقولــوا: لا ردها الله عليك		١٧٣
إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط ما بها من الأذى وليأكلها	أنس	١٨٥
انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا	عمران بن الحصين	١٦٦
إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله		٤٤٣
إن الرقي والتمائم والتولة شرك	ابن مسعود	١٧٧
إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب	جابر	٢١١، ٤٦٧
إن الدعاء هو العبادة		٢٦١
انفذ على رسلك، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً		١٢٦
إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن	عبدالله بن عمرو بن العاص	٣٦١
إن كل أمة مسخت لا يبقى لها نسل	ابن مسعود	٤٧٥
إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه	ابن عباس	١٢٧
إن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله	عتبان بن مالك	٧٣
إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها	ثوبان	٤٨٥
إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر	أبو هريرة	١٩٢



فهرس الجزء الأول من كتاب القول المفيد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة